دراسات
في
تاريخ الدولة البيزنطية

تأليف

دكتور حسنين محمد ربيع
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت - بالقاهرة

دار وهــدان للطباعة والنشر
٦ ميدان بركة الرطلى
تليفون : ٩٠٥٠٣٦

دار وهــدان للطباعة والنشر
٦ ميدان بركة الرطلى
تليفون : ٩٠٥٠٣٦

فهرس موضوعات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الدولة البيزنطية دولة عظيمة لعبت دورا هاما فى التاريخ كقوة سياسية وحربية لقرون طويلة ، وكمركز حضارى ثقافى • وحتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى كانت هذه الدولة مركزا هاما للحضارة فى العالم المسيحى • وحمل البيزنطيون مشعل الحضارة الانسانية فى أوروبا العصور الوسطى فى الوقت الذى غزت فيه الشعوب الجرمانية والسلافية معظم أوروبا ، وسادت الفوضى والاضطراب البلاد التى وقعت تحت وطئتهم • ونجحت الدولة البيزنطية فى أن تقدم للشعوب الجرمانية والسلافية ثقافتها وحضارتها ، وبالتالى جذبت هذه الشعوب الى مدار الحضارة وأبعدتهم عن الهمجية ، مما جعل هذه الشعوب تدين بالكثير لبيزنطة التى أنجبت رجالا عظماء ، وجنودا أكفاء ، ودبلوماسيين مهرة ، ومصلحين وعلماء وأدباء ساهموا فى تقدم الحضارة البشرية • وساعد الدولة البيزنطية فى تحقيق ذلك الدور الحضارى ما تمتعت به من تشريعات وقوانين متطورة ، ونظام ادارى متين ، وقدرة فائقة على التجديد والتطور المستمر •

ولاشك أن الدولة البيزنطية حفظت أوروبا من حركة الفتوحات الاسلامية فى القرنين السابع والثامن الميلاديين • ولو سقطت بيزنطة قبل قيام العرب بحركة فتوحاتهم لانتشر الاسلام فى جميع أنحاء أوروبا ، واعتنقت كل الشعوب السلافية وكل شعوب وسط أوروبا الاسلام ، واصطبغت البلاد الواقعة شمال البحر المتوسط بالصبغة

العربية الاسلامية كما حدث للبلاد الواقعة جنوب وشرق ذلك البحر ، وما تبع ذلك من نتائج وآثار حضارية وثقافية •

وعندما انتصر المسلمون وامتدت حركة الفتوحات الاسلامية الى الشام ومصر وأعالى العراق وشمال أفريقية فى القرن السابع الميلادى ، ثم الى كريت وصقلية وبعض مدن جنوب ايطاليا فى القرن التاسع الميلادى ، ثم الى آسيا الصغرى فى القرن الحادى عشر الميلادى — وهى أقاليم كانت تحت حكم بيزنطة لقرون طويلة — اصطبغت هذه البلاد بالصبغة الاسلامية ، وتأثرت بما أحدثه الاسلام من ثورة فكرية حضارية فى عالم العصور الوسطى بسبب ما احتواه من ثراء روحى وفكرى واجتماعى كان عاملا مباشرا فى ظهور حضارة عظيمة فكرية ومادية •

وعندما هدد السلاجقة المسلمون الدولة البيزنطية فى عقر دارها فى آسيا الصغرى ، وهزموا جيش البيزنطيين فى معركة منازكرد فى ذى القعدة ٤٦٣ هـ / أغسطس ١٠٧١ م ، وتوغل السلاجقة فى آسيا الصغرى ، وانتقلت هذه البلاد من الحضارة اليونانية والآداب المسيحية الى العقيدة والحضارة الاسلامية ، أرسل البيزنطيون الى الغرب الأوروبى اللاتينى يطلبون العون والمساعدة ضد المسلمين • ولكن خاب أملهم عندما قدمت الحملة الصليبية الأولى لا لكى تطرد السلاجقة المسلمين من أقاليم شرق آسيا الصغرى ، وانما لكى تعبر الى بلاد الشام ، ويستولى أمراء الصليبيين على مدن وقلاع كانت لسنوات قبلها فى أيدى البيزنطيين • وكانت صدمة عنيفة للدولة البيزنطية ، أثرت فى علاقاتها بالامارات الصليبية والغرب الأوروبى لسنين طويلة •

وتجدر الاشارة الى أن هذه العلاقات العدائية أو شبه العدائية بين المسلمين والبيزنطيين لم تمنع الاتصال الحضارى بينهما ،

فالمسلمون نظروا الى البيزنطيين وتراثهم الحضارى نظرة تتسم بسعة الأفق والتطلع الحضارى ، فحاولوا جاهدين أن ينقلوا الكثير من هذا التراث ، واستفادوا من النظم البيزنطية فى الحرب والسياسة والادارة والبلاط وغيرها • وكانت لرحلات المسلمين الى القسطنطينية — سواء أكانوا أسرى حرب أو تجارا أو رحالة — دورا هاما فيما استفاده المسلمون من الحضارة البيزنطية ونقلهم الكثير من مظاهرها الى بلدان الدولة الاسلامية ، ومن ثم كان للصلات الاسلامية — البيزنطية وعوامل التأثير والتأثر بين الحضارتين الاسلامية والبيزنطية دورها الفعال فى مسار التاريخ الاسلامى •

ولم تنجح العلاقات الخارجية للدولة البيزنطية فى معظم الأحيان ، فقد عانت هذه الدولة من أوقات عصيبة وضربات عنيفة من جانب المسلمين الفاتحين والنورمان والبلغار وغيرهم • وفقدت بيزنطة — بتوالى السنين — أقاليم كثيرة ، وعانت أيضا فى أخريات أيامها من الفتن والثورات والمشكلات الاجتماعية والأزمات الاقتصادية حتى أصبحت ألعوبة فى أيدى البنادقة والجنوية وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة وغيرهم • وحدث هذا فى وقت أصبحت فيه الدولة البيزنطية منهكة وأصابها الاضمحلال بعد أن صمدت كقوة يحسب حسابها قرابة ألف عام• ولكن الحوادث والأخطار الخارجية التى أحاطت بها ، والفتن والأزمات الداخلية التى نخرت عظامها ، جعلتها عاجزة عن دفع المخاطر التى أدت الى مصيرها المحتوم على أيدى العثمانيين المسلمين سنة ١٤٥٣ م •

ومع هذه النهاية وذلك المصير للدولة البيزنطية ، فان عين الباحث لا تهمل أبدا الدور الهام الذى لعبته هذه الدولة فى تاريخ العصور الوسطى ، فقد كانت بمثابة القاسم المشترك الأعظم فى تاريخ أوروبا العصور الوسطى بصفة عامة ، وتاريخ شرق أوروبا وتاريخ الحركة الصليبية بصفة خاصة ، فضلا عن تاريخ الدولة الاسلامية • ولا يحتوى

هذا الكتاب على سرد لحوادث تاريخ الدولة البيزنطية ــ كما جرت العادة ــ منذ ظهورها حتى سقوطها ــ تاريخ أسرة حاكمة بعد أسرة ، أو عهد امبراطور بعد امبراطور ــ وانما يحتوى الكتاب على دراسات فى موضوعات معينة ، تفسر وتوضح بعض جوانب تاريخ هــذه الدولة فى مراحل معينة من تاريخها • وتفتح هــذه الدراسات مجالات واسعة أمام الباحثين لدراسة موضوعات جديدة فى التاريخ البيزنطى : مثل علاقات بيزنطة بالدولة الاسلامية قبل الغزو السلجوقى وبعده ، وبالغرب اللاتينى ، وبالمدن التجارية الايطالية ، والأحوال والنظم الاداريــة والاقتصادية ، والحياة الاجتماعية والثقافية وغيرها للدولة البيزنطية ، رهى موضــوعات قد لا تتضح عند سرد التاريخ الســياسى للدولة البيزنطيــة •

ولا أقول أن هذا الكتاب قد وصــل الى حد الكمال فالكمــال لله سبحانه وتعالى وحده ، وانما هو محاولة لمعالجة موضوعات معينة فى تاريخ الدولة البيزنطية ، فلا تزال المكتبة العربية تفتقر الى المزيد من الدراسات فى تاريخ هــذه الدولة • والله من وراء القصد انه نعم المولى ونعم النصــير •

حســنين محمــد ربيع

القاهرة فى : ٣ جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ

١٦ فبرايــــر ١٩٨٣ م

الفصـــل الأول

ظهور الدولة البيزنطية

اختلف الباحثون فى تحديد سنة معينة لظهور الدولة البيزنطية فقد أشـــار الأســـتاذ أوستروجورسكى Ostrogorsky . ـ عند حديثـــه عن الامبراطورية الرومانيـــة المسيحية ـــ الى الرأى القائـــل بأن مفاهيم الرومان السياسية والثقافة اليونانية والديانة المسيحية كانت العوامل الرئيســـية التى حددت نمو الصفة البيزنطيـــة وتطورها ، وأن اقتران الثقافة الهلنستية بالديانة المسيحية داخل اطـــار الامبراطورية الرومانية هو الذى أدى الى ما نعرفه باسم الدولة البيزنطية . وأضاف الى ذلك أن هذا التطور حدث نتيجة زيادة اهتمام الامبراطورية الرومانية بالشرق بسبب أزمة القرن الثالث الميلادى . وكان أول مظاهر هـــذا الاهتمام هو الاعتراف بالمسيحية ، وتشييد عاصمة جديدة على البوسفور ، وأن هذين الحدثين انتصـــار المسيحية وانتقال المركز السياسى للامبراطورية الرومانية الى الشرق الهلنستى ، يمثلان بداية العصر البيزنطى(١) . واتخذ الأستاذ فازيليف Vasiliev فى كتابه تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، والأســـتاذة هسى Hussey فى كتابها العالم البيزنطى ســـنة ٣٢٤ م باعتبارها السنة التى بدأت فيها الدولة البيزنطية تأخذ طابعها الخاص . ومن المعروف أنه فى تلك الســـنة بالذات انفرد قسطنطين الكبير بحكم الامبراطورية الرومانية ، وفيها اختار مكان مستوطنة بيزنطة اليونانية

---

(١) Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, tr. by Joan Hussey, Oxford, 1968, pp. 27 — 28 ;

انظر العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٧ .

على البوســفور مركزا لتأسيس عاصــمة جديدة للامبراطوريــة فى الشرق(٢) •

ومن المعروف أن الامبراطورية الرومانية بلغت الذروة فى القرن الثاني الميلادى عندما أصبح البحر المتوسط بحيرة رومانية • غير أن هذه الامبراطورية واجهت فى القرن الثالث الميلادى ثلاث أزماتتمخض عنها ظهور الدولة البيزنطية أو الامبراطورية الرومانية الشرقيــة ، أو دولة الروم • وهذه الأزمات هى :

١ ــ عدم الاستقرار السياسى والاضطراب الاقتصــادى الذى تعرضت له الامبراطورية الرومانية •

٢ ــ اغارات القبائل الجرمانية والفرس •

٣ ــ قصور الوثنية وعدم قدرتها على ملء حاجات الناس النفسية وغيرهــا •

وخلال القرن الثالث وفى خضم تلك الأزمات فقدت الامبراطورية الرومانية مظهرها وطابعها اللاتينى الوثنى ، وبدأت بالتدريج تأخــذ شكلا يونانيا مسيحيا(٣) •

ولاشك أن عدم الاستقرار السياسى وما واكبه من مثالب النظم الاجتماعية للامبراطورية ومؤسساتها الثقافية ، أضعف الامبراطورية وهددها وعرضها للدمار • فقد بدأ عدم الاستقرار السياسى منذ مقتل الامبراطور كاراكلا سنة ٢١٧ عندما بدأت سلسلة من الاغتيالات ، فلم يعد هنــاك نظام معين لاختيار الأباطرة ، ولم يعد لمجلس السناتو أى

---

(٢) Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire 324 — 1453, ed. Madison, 1961 ; Hussey, The Byzantine world, London, 1967 p. 11.

(٣) Vryonis, Byzantium and Europe, London, 1967. p. 11.

دور فى ذلك ، ولعب قادة الفرق العسكرية فى ولايات الامبراطورية دورا كبيرا فى تعيين وعزل الأباطرة ، فشاعت بذلك الحروب الأهلية(٤) •

والمتتبع لتاريخ الامبراطورية الرومانية خلال الخمسين سنة السابقة لحكم الامبراطور دقلديانوس ، أى خلال الفترة ما بين سنتى ٢٣٥ — ٢٨٥ م يلاحظ أنه أدعى عرش الامبراطورية أكثر من ستة وعشرين امبراطورا اغتيل معظمهم قبل الوصول الى العرش • وكان المنهزمون من هؤلاء الأدعياء يلقبون (طغاة) والمنتصرون (أباطرة) ، وكان المنتصر دائما يستأصل معارضيه ومناوئيه ، كما كان معظم المتنازعين للوصول الى عرش الامبراطورية من خيرة القادة العسكريين وأكفئهم(٥) •

وأدى عدم الاستقرار السياسى وكثرة الحروب الداخلية واغارات قبائل الجرمان والهون الى اضرار خطيرة ومدمرة للأحوال والنظم الاقتصادية للامبراطورية الرومانية • فقد عانت الامبراطورية فى القرن الثالث من فقدان التوازن التجارى مع الشرق ، وقلة المتحصلات الضرائبية ، وزيادة نفقات الدولة ، وانتشار الأوبئة والطواعين نتيجة الفقر والضعف وسوء التغذية ، مما أدى الى قلة عدد السكان ونقص القوى البشرية خاصة فى مجال الزراعة • واضطر الأباطرة الى غش العملات النقدية بزيادة نسبة النحاس والمعادن الرخيصة الأخرى ، فانخفضت قيمة العملات واختفت العملات الذهبية ، وحلت العملات النحاسية بدلا من الفضية ، فارتفعت الأسعار ، واهتزت الثقة فى العملة الرومانية • وأدى هذا كله الى تضخم نقدى ، وبدأ أفراد المجتمع

---

(٤) على الغمراوى ، مدخل الى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط ، ص ١٦٩ .

(٥) أنظر سيد الناصرى ، تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسى والحضارى ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

يعتمدون اعتمادا كبيرا على نظـــام المقايضة نتيجة غش وتزييف العملات النقديـــة(٦) .

وفى القرن الثالث نمى أيضا نظام الضياع الكبيرة (Latifundium) فى أنحاء الامبراطورية ، وهو نظام اعتمد فى الدرجة الأولى على الأقنان المعدمين ، وكان ذلك على حساب صغار الملاك الذين تصرفوا — لكثرة الأعباء الضرائبية — فى ملكياتهم الصغيرة بالرهن والبيع لأصحـــاب الضياع الكبيرة ، وخضعوا لهم مما أدى الى اختفاء الطبقة الوســـطى البورجوازيـــة ، وأصبحت هنـــاك مساحات من الأراضى غير صالحـــة للزراعة بعد أن هجرها أصحابها الى مناطق القلاع والحصـــون طلبا للحمايـــة(٧) .

أما عن اغـــارات القبائل الجرمانية فقد توغلت هـــذه القبائل فى أوروبا داخل خطوط الدفاع للامبراطورية الرومانية على طول نهرى الراين والدانوب . وتحدث المؤرخ تاكيتوس Tacitus فى كتابه الشهير جرمانيا Germania (٨) عن هـــذه الشعوب الجرمانيـــة المتبربرة . وهى قبائل وشعوب كثيرة لا حصر لها ، ذكر تاكيتوس عددا كبيرا من

---

(٦) Vryonis, Byzantium, pp. 11—12 ; Jones, "Thoughts on the decline of the Roman Empire, **Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo Univ.**, Vol. XXIII, Part 1 (1961), pp. 9 — 18 ;

رستوفتزف ، تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ، ج ١ (المتن) ص ٦٠٤ — ٦١٧ .

(٧) Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 29 — 30.

العرينى ، الدولـــة البيزنطيـــة ، ص ١٩ — ٢٠ ، على الغمراوى ، مدخل ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

(٨) ولد تاكيتوس سنة ٥٥ م ، وتلقى تعليمه كابن لأحد الفرســـان الرومان ، وترقى فى سلك الوظائف وعين قنصلا عام ٩٧ م ثم حاكما لولاية آسيا سنة ١١٢ — ١١٣ م ، وتوفى سنة ١١٨ م وقد ترجم كتابه الى اللغة العربية ، ابراهيم على طرخان ، تاكيتوس والشعوب الجرمانية ، ط . القاهـــرة ١٩٥٩ .

أسمائها ، كان موطنها الأصلى البلاد المحيطة بالبحر البلطى ، وكانت بلادهم كئيبة بالغة القسوة ، مليئة بالغابات والأحراش والمستنقعات • وكان الجرمان يسكنون فى أكواخ مشيدة من الأغصان والطمى ويفضلون الحرب والقتال على زراعة الأرض • واذا لم ينشغلوا فى أعمـــال حربية انصرفوا الى الصيد والراحة والدعة وموائد الخمر ، تاركين مسئولية المنزل والأرض الى النساء وكبار السن ، أما المحاربون فيركنون الى الاسترخاء والبطالة(٩) •

وانتهزت القبائل الجرمانية ما حل بالامبراطورية الرومانيـــة من انهيار وضعف ، وتحركت جنوبا فى المناطق الواقعة بين نهرى الألب والراين ، وأصبح نهر الراين منذ منتصف القرن الأول قبل الميلاد نقطة حدود طبيعية تفصل بين الجرمان البرابرة وبين العالم الرومانى • وفى عهد الاسكندر سيفيروس Alexander Severus (٢٢٢ -. ٢٣٥ م) أغار الجرمان فى أعداد قليلة داخل أقـــاليم الامبراطوريـــة على طول نهرى الراين والدانوب فى بداية الأمر ، ثم زادت أعدادهم بنسبة كبيرة فى منتصف القرن الثالث الميلادى • وفى سنة ٢٥٦ عبر الفرنجة Franks نهر الراين الأدنى وعبرت قبائـــل الألمـــان Alemanni نهر الراين فى الجنوب ووصلوا حتى شمال ايطاليا قبل أن تستطيع قوات الامبراطورية الوقوف أمام هذا الغزو • وكان القوط Goths أقوى القبائل الجرمانية قد قتلوا سنة ٢٥١ الامبراطور دكيوس Decius ، وتوسعوا فى قلب البلقان ، وأغاروا على سواحل بحر مرمرة وبحر ايجه والبحر الأسود • ورغـــم أن الامبراطـــور كلوديـــوس القوطى C'audius Gothicus (٢٦٨ — ٢٧٠ م) نجح فى ايقاف اغارات القوط جنوب الدانوب ،

---

(٩) انظر : طرخان ، تاكيتوس ، ص ٤٧ — ٧٣ ، سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ص ٦١ — ٦٥ ، أسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص ١٠٥ — ١٠٩ ، أسحق عبيد ، من الارك الى جستنيان ، ص ١١ •

وذلك عن طريق مسالمـة بعض القبائل القوطية واستخدامها فى خدمـة الامبراطوريـة ، واستيطانهـا فى الأراضى المهجـورة عند أطـراف الامبراطورية ، الا أن الامبراطور أورليان Aurelian سحب سنة ٢٧٠ م آخر فرقة رومانية من ولاية داكيا Dacia وذلك بعد أن أدرك هـذا الامبراطور أنه لا فائدة من الاحتفاظ بهذه الولاية لضعف تحصيناتها وكثرة نفقات حمايتها ، واستولى القوط على ما وراء ذلك(١٠) •

وتعرضت الامبراطورية الرومانية لخطر جديد من الشرق ، فدولة البارثيين أو الدولة الاشكانية التى نشأت على أنقاض مملكة السلوقيين، انقسمت الى دويلات منفصلة ، ونشأت فى جنوب بلاد فارس أسرة من عبدة النار هزمت فى ٢٢٤ — ٢٢٦ م أرتابانوس الخامس Artabanus V (أردوان الخامس) كبير ملوك الأشكانيين وقضت على دولتهم • وفى سنة ٢٢٦ توج أردشير الأول Ardashir — من أسرة ساسان — شاهنشاه وقامت الدولة الساسانية فى بلاد الفرس • ورغب ملوك الساسانيين فى احياء الامبراطورية الشرقية التى قضى عليها الاسكندر الأكبر وقادته • وادعى الساسانيون بأحقيتهم فى الاستيلاء على مصر وآسيا الصغرى • واصطدمت جيوش الدولة الساسانية بالرومان عند أطراف أقـاليم نهرى دجلة والفرات والشام وأرمينية • وفى سنة ٢٦٠ هزم شابور الأول Shapur I الجيوش الرومانية وأسر الامبراطور فاليريان Valerian . وهكذا انتهز الجرمان والفرس فرصـة ضعف الامبراطورية الرومانية وأزمتهـا فى القرن الثالث الميـلادى وقاموا باغـارات مستمرة على أطرافهـا(١١) •

---

(١٠) Vryonis, Byzantium, p. 14.

(١١) Ibid., pp. 14— 16.

وعن قيام الدولة الساسانية ، انظر ارثر كريستنسن ، ايران فى عهد الساسانيين ، ص ٧٢ — ٨٣ •

وفى وسط تلك الأزمات الطاحنة التى واجهت الامبراطورية فى القرن الثالث وجد الرومان أن الوثنية لم تحقق لهم الا القليل من الراحة والأمان والطمأنينة • وتطلع سكان الامبراطورية الى الديانات الشرقية لما تمنحه للانسان من قوى روحية وراحة نفسية وجزاء فى الحياة الأخرى • وساد الامبراطورية صراع نفسى نتيجة للافلاس الروحى والفكرى • يضاف الى ذلك أن الديانات الشرقية نافست الوثنية ليس فقط فى النواحى الروحية والدينية ، وانما فى المستوى العالى لطقوسها أيضا • وبالتالى انتشرت فى انحاء الامبراطورية فى القرن الثالث ديانات مثل متراس الفارسية Mithra وسيبيل Cybele والمسيحية واليهودية وايزيس واوزيريس • وبالتالى يوضح انتصار المسيحية فى القرن الرابع ظاهرة انتشار مثل هذه الديانات الشرقية فى القرن الثالث ووقوف المثقفين المسيحيين فى وجه الديانات المنافسة للمسيحية(١٢) •

وفى تلك الأوقات الصعبة التى مرت بالامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث ، وفى ذروة عملية المخاض التى انتهت بظهور الدولة البيزنطية تولى عرش الامبراطورية دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ — ٣٠٥) الذى عرف كادارى قدير أكثر من جندى شجاع • وتدرج دقلديانوس فى عدة مناصب ادارية من القاعدة حتى القمة رغم أنه كان ريفى الأصل من أقليم ايلليريا المطل على البحر الأدرياتى • وشاهد دقلديانوس المشكلات والأزمات التى أخذت تنخر فى عظام الامبراطورية فى القرن الثالث ، وازداد خبرة لتوليه وظائف متعددة أهلته ليصبح من المصلحين الناجحين • وما أن تولى دقلديانوس عرش الامبراطورية سنة ٢٨٤ الا وأدرك أن هذه الامبراطورية العظيمة التى تعانى من مشكلات داخلية وغزوات الفرس والجرمان لا يمكن ادارتها بواسطة

---

(١٢) . Vryonis, Byzantium, pp. 12 — 13.

حاكم واحد وبوسائل ادارية تقليدية ، لهذا أخذ على عاتقه ، وتبعه فى ذلك قسطنطين الكبير فيما بعد ، القيام باصلاحات تميزت باقامة سلطة مركزية حازمة مع فصل تام بين السلطتين المدنية والعسكرية(١٣) .

وفى سنة ٢٨٦ بدأ دقلديانوس اصلاحه الادارى بأن جعل السلطة العليا فى الامبراطورية فى يد امبراطورين كل منهما يلقب بلقب أغسطس Augustus يحكم أحدهما الشطر الشرقى من الأمبراطورية ، ويقوم الآخر بحكم الشطر الغربى منها . وفى سنة ٢٩٣ م قرر دقلديانوس أن يساعد كلا من الامبراطورين نائب اتخذ لقب قيصر Caesar يحل محل الأغسطس بعد وفاته أو استعفائه . واستقر دقلديانوس فى الولايات الآسيوية ومصر وجعل مدينة نيقوميديا مركزا له ، وعين رفيق بسلاح قديم له اسمه ماكسيميان Maximian أغسطس على الغرب يحكم ايطاليا وافريقية وأسبانيا ومقره مدينة ميلان . أما القيصران فهما جاليريوس Galerius الذى حكم شبه جزيرة البلقان وولايات الدانوب المجاورة ، ومركزه مدينة صيرميوم Sirmium وهو قيصر لدقلديانوس ، وقسطنطيوس خلوروس Constantius Chlorus (والد قسطنطين الكبير) الذى حكم غاليا وبريطانيا ومركزه فى مدينة تريفيس Treves ومدينة يورك York وكان قيصرا لماكسيميان . ويلاحظ أن الغرض الأساسى مما قام به دقلديانوس هو منع قيام الجند بتنصيب الأباطرة وعزلهم ، واعتبر هؤلاء الحكام الأربعة أنهم يحكمون امبراطورية رومانية واحدة غير منقسمة ، وكل المراسيم والأوامر والقرارات الامبراطورية تصدر بأسماء الأربعة . وتجدر الاشارة الى أن الامبراطورية أدركت ضمنيا ـ وقتذاك ـ بوادر الاختلاف بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى ، وأن ادارة الامبراطورية لا يمكن أن تتم بواسطة حاكم واحد . وحقق هذا الاصلاح الادارى فى عصر دقلديانوس النجاح ، وأمد الامبراطورية بحكومة قوية استطاعت

---

(١٣) Vasiliev, Byzantine Empire, I, p. 60.

أن تقف فى وجـــه الغزوات الخارجيـــة ضد الامبراطوريـــة ، ولكن الى حين(١٤) •

وقام دقلديانوس ــ كما فعل قسطنطين فيما بعد ــ بالفصـــل بين السلطتين المدنية والعسكرية بأن قـــام بحرمان حكام الولايات من السلطات العسكرية ومن قيادة الجيوش داخل ولاياتهم مما أدى الى زيـــادة ســـلطة الحكومة المركزية • وأبعد أعضـــاء مجلس الســـناتو (الشيوخ) من النبلاء عن تولى وظائف كبيرة فى الجيش ، وعين فى الوظائف العسكرية رجالا من الفرسان أى من الطبقة الوسطى الذين أهلتهم كفاءاتهم لتولى هذه المناصب(١٥) •

أما عن مشكلة الدفـــاع عن الامبراطورية ضـــد اغارات الفرس والجرمان فقد قام دقلديانوس باتخاذ اجراءات عسكرية هامة اذ أنه قام باصـــلاح قلاع الحدود القديمة ، وشيد قلاعا جديدة ، وأصلح أسوار المدن ، وحشد فرقة عسكرية جديدة للدفاع عن الامبراطوريـــة وحماية سلطة الامبراطور من الطغاة المغتصبين سميت باســـم قوات رفـــاق الامبراطور أو الحـــرس الخـــاص Comitatenses • وجهز دقلديانوس جيشا آخر لحماية حدود الامبراطورية سمى باسم حرس الحدود Limitanei ليرابط على الراين والدانوب والفرات • وتم توزيع الأراضى الواقعة عند حدود الامبراطورية على حرس الحدود لزراعتها مقابل الخدمة الحربية والدفـــاع عنها ، فتكونت طبقة الجند المزارعين التى لعبت دورا هاما فى تاريخ الدولة البيزنطية • ولـــما كانت هـــذه

---

(١٤) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 62 — 63 ; Vryonis, Byzantium, pp. 16 — 18 ; Hussey Byzantine World, p. 14 ;
العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٢١ ، سيد الناصرى ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٣٣٠ — ٣٣٧ .

(١٥) بينز ، الامبراطورية البيزنطيـــة ، ص ٣ ، انظر ايضا فشر ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢ — ٤ .

الاجراءات غير كافية لمواجهة غارات الجرمان ، جهز دقلديانوس جيوشا ميدانية خفيفة متحركة Vexillationes تترابط فى قلب الولايات فى المدن الهامة ، ومنها تنتقل بسرعة الى ميادين القتال ، ولم يعد للفرقة القديمة الثقيلة المسماه Legio قيمة كبيرة • ورابطت هذه الجيوش الخفيفة فى آسيا الصغرى ووسط البلقان لحماية ولايات الامبراطورية من غارات البرابرة اذا اخترقوا الحدود • وفى عاصمة الامبراطورية أضيفت قوات جديدة الى القوات التى تصاحب الامبراطور(١٦) •

غير أن اصلاحات دقلديانوس وزيادة أعداد العسكريين والمدنيين أدت الى زيادة كبيرة فى نفقات الدولة ، فاعادة تنظيم وادارة ولايات الامبراطورية زاد من عدد كبار الموظفين ذوى الرواتب الكبيرة مما أرهق الدولة • ولم تقض هذه الاصلاحات على مشكلة غش العملات النقدية وزيادة التضخم النقدى وزيادة الأسعار ونفقات المعيشة • وتدل لائحة الأسعار التى صدرت سنة ٣٠١ م على مدى اهتمام الحكومة بهذه المشكلات الاقتصادية ، وكذلك على فشلها فى وضع حد لزيادة نفقات المعيشة • واحتوت لائحة الأسعار هذه على أسعار السلع المختلفة مثل القمح والشعير واللحوم والخضروات والفواكه المختلفة والسمك وأنواع المنسوجات وأدوات الكتابة وخلافه فضلا عن أجور الحرفيين • ولم تنفذ هذه اللائحة بكل دقة ، لأن الدولة لم تكن المنتجة للسلع حتى تستطيع التحكم فى أسعارها ومصادر انتاجها بالاضافة الى التغيير الذى حدث للقيم النقدية (١٧) • وعندما تأكد دقلديانوس من نقص متحصلات

---

(١٦) Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 42 — 43 ; Vryonis, Byzantium, pp. 19 — 20 ; Baynes, Byzantine Studies and Other Essays. London, 1955, pp. 181 — 5 ;

العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٢٥ ، سيد الناصرى الامبراطورية الرومانية ، ص ٣٤١ — ٣٤٢ .

(١٧) عن لائحة الأسعار التى اصدرها دقلديانوس سنة ٣٠١ انظر ، سيد الناصرى ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٣٤٩ — ٣٥٠ .

الضرائب النقدية الواردة لخزانة الامبراطورية ، أعاد فرض الضريبة القديمة التى كانت تجبى نوعا Annona ضريبة القمح • وأصبحت هذه الضريبة تجبى على شكل محصولات زراعية أو منتجات حيوانية ، وقصدت الدولة باعادة هذه الضريبة القديمة القضاء على غش العملات النقدية وتثبيت الأسعار ، وضمان التصاق المزارعين بالأرض لزراعتها • وحرص الامبراطور على ضرورة تقدير ضريبة الأراضى الزراعية وتحديد أنواع المحاصيل • وساعد ذلك الحكومة على تقدير ميزانية سنوية معتمدة على الانتاج الزراعى للامبراطورية • أما التجار والحرفيون فى المدن فلم يدفعوا ضريبة الأنونا ، بل كانوا يدفعون ضريبة نقدية كل خمس سنوات عرفت باسم Chrysargyron (١٨) •

ولم يستطع دقلديانوس — الذى ظل وثنيا — أن يحل مشكلة قصور الوثنية وما تبع ذلك من عدم شغل الحاجات النفسية لسكان الامبراطورية • ومنذ نهاية القرن الأول الميلادى وحتى اعتراف قسطنطين الكبير بالمسيحية كان الموت ينتظر كل من اعتنق المسيحية • ورغم هذا التهديد الا أن المسيحية انتشرت بين طبقات المجتمع • ووجد بعض الأباطرة — الذين اعتقدوا بأن انقاذ الامبراطورية لن يتحقق الا عن طريق اتباع الطقوس الوثنية الرومانية — فى المسيحية خطرا يهدد كيان الامبراطورية ، وعملوا على طمس معالم المسيحية واستئصالها والقضاء على أتباعها قبل أن تتأصل جذورها فى الأرض • وبدأت سلسلة من الاضطهادات ضد المسيحيين ، فعلى سبيل المثال أصدر الامبراطور سفيروس عام ٢٠٢ مرسوما يحرم اعتناق المسيحية ، وأمر بتطبيق هذا المرسوم بصرامة متناهية • وفى عام ٢٥٠ أصدر الامبراطور دكيوس Decius مرسوما يقضى بالزام كل مواطن بالحصول على شهادة من الجهات المسئولة تفيد أنه قام بتقديم القرابين للآلهة

---

(١٨) Vryonis, Byzantium, pp. 20 — 21.

الوثنية ، وأنه سكب الزيت على الأرض اكراما لها • وقد تعرض الذين رفضوا الامتثال لمرسوم الامبراطور للاضطهاد والعذاب بصورة وحشية(١٩) • ويرى الأستاذ فريونس Vryonis أن الامبراطور دكيوس اضطهد المسيحيين ، لا لأنه استخف وازدرى المسيحية ، بل لأن المسيحيين رفضوا تقديم القرابين للآلهة الوثنية ، فى الوقت الذى رأى هذا الامبراطور أن أمان الدولة لن يتحقق الا بالصلوات للآلهة الوثنية ، ومعنى هذا أن اضطهاد دكيوس للمسيحيين كان ذا دوافع سياسية أكثر من كونها دوافع دينية(٢٠) •

أما الامبراطور دقلديانوس فقد حرص فى معظم سنوات حكمه على اتباع سياسة تسامح دينى مع المسيحيين • وكان القيصر جالريوس Galerius — نائب دقلديانوس فى الشرق — معارضا عنيدا للمسيحية ومن ألد أعدائها ، وبذل جهده لدفع دقلديانوس على اضطهاد المسيحيين • وفيما بين سنتى ٣٠٢ — ٣٠٥ أصدر دقلديانوس وجالريوس أربعة مراسيم تحث على اضطهاد المسيحيين ، بما فى ذلك حرق الأناجيل والكتب الدينية ، ومنع المسيحيين من التجمع ، وتحريم القيام بأى صلوات أو طقوس دينية واعتبارهم خارجين عن القانون ، وقتل كل الرجال والنساء والأولاد الذين رفضوا تقديم القرابين للآلهة الوثنية(٢١) • وكان وقع الاضطهاد شديدا على الأقباط فى مصر لدرجة أنهم اتخذوا من سنة ٢٨٤ م ، وهو تاريخ تولية دقلديانوس حكم الامبراطورية ، بداية للتقويم القبطى(٢٢) •

---

(١٩) انظر جوزيف نسيم يوسف ، مجتمع الاسكندرية فى العصر المسيحى (حوالى ٤٨ — ٦٤٢) فى كتاب مجتمع الاسكندرية عبر العصور ، ص ٨٣ — ٨٥ •

(٢٠) Vryonis, Byzantium, p. 23.

(٢١) Ibid., p. 23.

(٢٢) جوزيف نسيم يوسف ، مجتمع الاسكندرية فى العصر المسيحى ، ص ٨٦ — ٨٧ •

وكان انتصـــار المسيحيـــة هو فى الحقيقـــة تاريخ ظهور الدولة البيزنطية فى عصر قسطنطين الكبير • ففى سنة ٣٠٥ مرض دقلديانوس وتقدم به السن فتنازل هو وماكسيميان عن لقبهما الامبراطورى واعتزلا العمل السياسى ، وأصبح جالريوس حاكما للقسم الشرقى للامبراطورية خلفا لدقلديانوس ، فى حين أصبح قسطنطيوس (والد قسطنطين) حاكما للقسم الغربى خلفا لماكســيميان • وكان قسطنطيوس قد عرف بمواقفه السلمية تجـــاه المسيحيين ، غير أنه توفى فجـــأة فى الســـنة التالية ٣٠٦ فى بريطانيا مركز حكمه وخلفه ابنه قسطنطين(٢٣) • وفى سنة ٣١١ مرض جالريوس مرضـــا عضالا أعتقد أن سببه هو انتقام آله المسيحيين له ، لهذا أصدر فجأة مرسوما يمنع فيه اضطهاد المسيحيين وعفا عنهم ، وأعلن حقهم فى الوجود • ويبدو أن هذا المرسوم لم ينفذ بصـــورة فعلية(٢٤) •

ففى تلك الســـنة ٣١١ ودقلديانوس لا يزال على قيد الحيـــاة (مات سنة ٣١٢) شبت حرب أهلية ، وأعلن الثائرون خلع جالريوس من منصبه وتعيين Maxentius ماكسنتيوس بن ماكسيميان • واغتنم قسطنطين موت ماكسيميان وجالريوس واتحد مع الأغسطس الجديد ليكينيوس Licinius وتمكنا سنة ٣١٢ من هزيمـــة ماكسنتيوس فى معركة فاصلة تسمى وقعة جسر ملفيان Milvian Bridge على نهر التيبر قرب روما • وغرق ماكنستيوس فى نهر التيبر أثناء محاولته الهرب من

---

(٢٣) كان قسطنطين ابنا غير شرعى للامبراطور قسطنطيوس خلوروس Constantius Chlorus من عشيقتـــه هيلينـــا (هيلانه) الذى اقـــام معها عدة سنوات فى بيثينيا Bithynia ثم هجرها سنة ٢٨٩ ليتزوج من ثيودورا Theodora ابنة زوجة الامبراطور ماكسـيميان .. وتربى قسطنطين فى القصر الامبراطورى فى نيقوميديا حيث تطلع منذ صغره على أسرار الحكم والسياسة ، انظر سيد الناصرى ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٣٥٧ .

(٢٤) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 50 — 51 ; Vryonis, Byzantium, pp. 23 — 24.

المعركة • واجتمع بعد ذلك قسطنطين وليكينيوس عند مدينة ميلان فى مارس ٣١٣ وأعلنا التسامح الدينى للمسيحيين وأصــدرا وثيقة سميت خطـأ باسم مرسوم ميلان ، ذلك لأن النص الأصلى للوثيقة لم يعثر عليه • ولم تكن هذه الوثيقة مرسوما ولكنها رسالة موجهــة الى أحد حكام الولايات فى آسيا الصغرى والشرق عامة (حاكم نيقوميديا) ، تحتوى على توجيه بحسن معاملة المسيحيين وتوضح سياسة التسامح التى اتبعتها الدولة تجاههم (٢٥) •

والحقيقة أن هذه الرسالة الصــادرة من قسطنطين وليكينيوس عبارة عن تأكيد لمــا ورد فى مرسوم جالريوس الصادر فى سنة ٣١١ • وأعطت هذه الرسالة المسيحيين وغيرهم من معتنقى الديانات الأخرى كامل الحرية فى اتبــاع العقيدة التى يختارونها ، وبالتــالى أصبحت المسيحية ديانة معترف بها كغيرها من الديانات فى الامبراطورية • وحثت هذه الرسالة حكام الولايات على عدم اضطهاد المسيحيين وأن يرد اليهم أماكن تجمعاتهم التى اعتادوا التجمع فيهــا للعبادة والتى صــودرت أو اشتراها بعض الأفراد • واحتوت الرسالة أيضا على وعد باعــادة ممتلكاتهم المصــادرة ، ودفع التعويضــات اللازمــة من الخزانــة الامبراطورية للذين اشتروها(٢٦) •

وتجدر الاشارة الى أن انتصار المسيحية تحقق فى عصر قسطنطين الكبير • ولم يكن فى ذلك اعتراف بحقها فى الوجود فقط ، بل وفى وضعها

---

(٢٥) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 50 — 52 ;
انظر اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص ٥٦ ، ولم يدم الصفاء بين قسطنطين وليكينيوس مدة طويلة ، اذ قام النزاع بينهما قتل فيه ليكينيوس سنة ٣٢٤ ، وانفرد قسطنطين بالحكم منذ ذلك التاريخ حتى وفاته سنة ٣٣٧ م •

(٢٦) انظر نص الرسالة فى :
Ashour and Rabie, Fifty documents in Medieval History, Cairo, 1971, pp. 9 — 10.

تحت حمـاية الدولة ، وهـذا فى حد ذاته ذو مغزى واضح فى تاريخ المسيحية الأولى(٢٧) • فالمسيحية ظهرت قبل قسطنطين بحوالى ثلاثة قرون ولم يكن حتى عصر قسطنطين قد اعتنقها الا أقلية صغيرة فى عالم البحر المتوسط ، لهذا كان انتصـار المسيحية بالذات على ديانات شرقية أخرى يرجع بالدرجة الأولى الى تحمس وتفضيل الدولة لها ، ومثلها مثل الديانة الزردشتيه عندما وقف حكام فارس الساسانيين الى جانبها واتخذوها دين الدولة مما أدى الى انتشارها(٢٨) •

واختلف الباحثون فى شرح الدوافع الحقيقية لاعتراف قسطنطين بالمسيحيـة ، فالمؤرخ الكنسى يوسيبيوس Eusebius أسـقف قيسارية بفلسطين وصـديق الامبراطور قسطنطين(٢٩) يعتقـد بأن دوافع الامبراطور هى دوافع دينية أملتها الارادة الآلهية • وهنـاك رواية تنسب — ربما خطـأ — الى يوسيبيوس أن قسطنطين قص عليه أنه رأى سنة ٣١٢ م قبيل خوضـه معركة جسر ملفيان ضد خصمه ماكسنتيوس صليبا نورانيـا على قرص الشـمس يحيط بالأفـق عند الغروب مكتوبا عليه بهذا ستنتصر (in hoc signo vinces) • ثم تراءى المسيح فى الليلة التالية فى حلم حاملا نفس العلامة مخبرا الامبراطور

(٢٧) Vasiliev, Byzantine Empire, I, p. 52.

(٢٨) Vryonis, Byzantium, p. 22.

وعن الزردشتية دين الدولة والصلات الوثيقة بين الدولة والدين طوال العهد الساسانى ، أنظر كريستنسـن : ايـران فى عهد الساسـانيين ، ص ١٣٠ — ١٦٨ •

(٢٩) ولد يوسيبيوس حوالى سـنة ٢٦٠ م فى فلسطين ، واضطهد وسجن فى قيسارية سنة ٣٠٩ • وفى سنة٣١٣وبعد انتصار المسيحية اختير اسقفا لمدينة قيسارية واصبح من أعلام واشهر رجال عصره ومن المقربين الى الامبراطور قسطنطين ، فقد اشترك فى مجمع نيقيه سنة ٣٢٥ وكان جالسا الى يمين الامبراطور ، كما اشترك فى مجمع انطاكية سنة ٣٣١ وغيره من المجامع الكنسية • وكان يوسيبيوس عالمـا واديبا عظيما كتب كتابـا هاما فى التاريخ الكنسى وآخر عن حياة قسطنطين فضلا عن كتاباته فى المسائل اللاهوتية والعقائدية ، ومات سنة ٣٤٠ ، أنظر :
Eusebius, The Ecclesiastical History, London, 1926, Introduction, pp. ix — xxvii.

بأن يتقدم الى المعركة بالصليب • وعند الفجر قص قسطنطين رؤياه على رفاقه • ويقال ان الصليب كان مرسوما على دروع رجاله عندما خاضـوا غمار معركة جسر ملفيان التى أتاحت له السيادة على الغرب ، وبالتالى اعتقد قسطنطين بأن آله المسيحيين أعطاه المساعدة والعون فى نزاعه ضد خصمه ليكينيوس(٣٠) •

ويقال أيضا أن تأثر قسطنطين بالمسيحية يرجع الى حد ما الى دور أمه هيلانه التى اعتنقت المسيحية ، واعتبرت فيما بعد قديسـة (القديسـة هيلانة) • وهيـلانة ولدت فى آسيا الصغرى وتزوجهـا قسطنطيوس أو عشقها ، وأنجبت له قسطنطين سنة ٢٧٤ ثم هجرها لأسباب سياسية سنة ٢٨٩ أو ٢٩٢ • ويبدو أن هيلانة لعبت دورا هاما فى اعتناق قسطنطين بالمسيحية ، وعملت على رفع شأنها فى جميع أنحاء ورية بعد سنة ٣١٣ ، فزارت بيت المقدس ، حيث وزعت العطايا والهبات بسخاء ، وساهمت فى تشييد الكثير من الكنائس • ويقـال انها أثناء زيارتها لبيت المقدس اكتشفت صليب الصلبوت • ولم يذكر أحد من المؤرخين المعـاصرين شيئا عن دور هيلانة فى مسـألة العثور على خشـبة الصليب ، كمـا يرجح بعض الباحثين أنهـا توفيت قبـل اكتشافه(٣١) •

---

(٣٠) Vasiliev, Byzantine Empire, I, p. 50 ; Vryonis, Byzantium, p. 24 ;

بل : مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ٢٠٩ — ٢١٠، عبد القادر اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٣ ، أسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٥٥ — ٥٦ ، سيد الناصرى ، الامبراطورية ، ص ٣٦٢ •

(٣١) انظر اسحق عبيد ، قصة عثور القديسة هيلانه على خشبة الصليب اسـطورة أم واقع ؟ ، المجلة التاريخيـة المصريـة ، المجلد ١٧ (١٩٧٠) ص ٥ — ٢١ •

ويرى البعض أن سياسة قسطنطين الدينية قد أملتها ضرورات سياسية ، وأنه أدرك بذكائه أن المسيحية سوف تصبح قوة عالمية(٣٢) • والدليل على ذلك أنه أدرك أن اضطهاد المسيحية لم يعق انتشارها ، بل ازداد المسيحيون تمسكا بها • يضـــاف الى ذلك أن قسطنطين أدرك أن دعوة المسيحية للمساواة والسلام والمحبة والايثار تحتم ضرورة اتباع سياسة ايجابيـــة نحوها حتى تستطيع أن تملأ حاجات النـــاس النفسية مع قصور الوثنية • يضاف الى ذلك أن قسطنطين وجـــد أن الامبراطورية ســـوف تعتمد بشكل رئيسى فى مواردهـــا المـــالية على ولاياتها فى آسيا الصغرى والشام ومصر ، حيث انتشرت المسيحية بعد مخاطر القوط والفرس وغيرهم ، مما رأى معه ضرورة كسب ولاء سكان الولايات الشرقية حفاظا على وحدة الامبراطورية •

وكيفما كان الأمر ، فاعتراف قسطنطين بالمسيحية لم يكن يعنى منحها حق وجود شرعى مماثل للوجود الوثنى فحسب ، بل كان يعنى تثبيت دعائمها وتمهيد الأرض لازدهارها • فقد منح الامبراطور رجال الدين المسيحيين نفس الحقوق والامتيازات التى كان يتمتع بها كهنـــة الديانة الوثنيـــة ، وأعفوا من الضرائب وتأدية الوظائف المدنيـــة حتى يتسنى لهم تأدية واجباتهم الدينية • وازدادت الكنائس غنى نتيجـــة ما كان يصـــل اليها من هدايا وأموال وهبات وأراض وأملاك من الدولة ومن سكان الامبراطورية • وأعفى المسيحيون من حضـــور الاحتفالات الوثنية • ويقال ان قسطنطين أمر بتشييد عدد كبير من الكنائس فى أنحاء الامبراطورية مثل كنيسة القديس بطرس فى روما وكنيسة الصعود على جبل الزيتون وكنيسة المهد فى بيت لحم • وزين قسطنطين فيما بعد عاصمته الجديدة القسطنطينية وما جاورها بعدد من الكنائس ، أشهرها

---

(٣٢) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 45 — 46 ;

كنيسة الرســل وغيرها ، كما تم فى عهد قسطنطين تشييد كنائس فى أماكن أخرى فى أنطاكية ونيقوميديا وشــمال أفريقية(٣٣) .

ومن الجدير بالذكر أن الامبراطور قسطنطين الكبير رأى ــ بعد اعترافه بالمسيحية كديانة من الديانات المعترف بها فى الامبراطورية ــ أن وحدة واحياء الامبراطورية تعتمدان على وحدة الكنيسة ، وبالتالى استخدم قوة الامبراطورية وعظمتها فى محاولة لرءب الصــدع فى النزاع الذى بدأ يظهر وقتذاك بين رجــال الدين . وتصرف قسطنطين لا كأمبراطور رومــانى Pontifex maximus بل كأمبراطور وبابــا بيزنطى فى آن واحــد Byzantine Caesaropapism . والدليل على ذلك أن الامبراطور قسطنطين عندما عقد فى ســنة ٣٢٥ فى مدينــة نيقيه Nicaea أول مجمع دينى مسكونى (عالمى) ليبحث رجــال الدين العقيدة وشئون الكنيسة ، هو الذى بدأ بالدعوة الى هــذا المجمع ، ودعا الأساقفة الى نيقيه وجعلهم فى ضيافة الدولة ، ورأس جلســات المجمع ووجه قراراته ، وفرض على الأساقفة القرارات اللاهوتيــة التى فضلها ، وترك بذلك بصمات واضحة على علاقات الكنيسة بالدولة فى الشرق . ومعنى هــذا أن الامبراطور البيزنطى أصبح سيد الكنيسة والمتحــكم فى شــئونها ، مما كان له أثر كبير فى تاريــخ الكنيســة الشرقيــة(٣٤) .

وكانت أهم القضايا التى بحثها مجمع نيقيه المسكونى آراء أحد كهنة مدينة الاسكندرية ويدعى آريوس Arius السكندرى (حــوالى ٢٥٠ ــ ٣٣٦) الذى كان يقول بأن المسيح مخلوق بشر ، وأنه أقل من الأب فى الجوهر ، وبالتالى فانه أقل منه مرتبة . وأضاف بأنه لابد أن

---

(٣٣) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 52 — 53.

(٣٤) Vryonis, Byzantium, pp. 25 — 26; Hussey, Byzantine world, p. 12.

يكون هنـــاك وقت لم يكن فيه المسيح مخلوقا ، وكان فيـــه الله الخالق وحده • فأنكر آريوس ألوهيـــة المسيح ، وأنكر صفة الشـــبه بين الأب والابن ، وأثـــار بذلك عاصـــفة من الاحتجاج والانقســـام فى العـــالم المسيحى ، مما جعـــل الامبراطور قسطنطين يهتم بأمر هـــذا الانشقاق ويوجـــه الدعـــوه الى جميع الأســـاقفة فى الامبراطورية للاجتماع فى مجمع مسكونى فى نيقية • ولبى الدعوة ٣١٨ أسقفا من أساقفة العالم المسيحى منهم أساقفة روما والاسكندرية وقرطاجنة وأنطاكية ونيقوميديا وغيرهم • ودامت جلســـات المجمع ســـبعة وتســـعين يومـــا برئاســـة الامبراطور(٣٥) • ولعب الشماس السكندرى أثناسيوس Athanasius الذى لم يكن تجـــاوز ـــ وقتذاك ـــ التاسعة والعشرين من عمره دورا هاما فى هذا المجمع • فقد شرح هـــذا الشماس السكندرى الذى صـــار فيما بعـــد أســـقفا لكرسى الاسكندرية ، لممثلى كنائس العـــالم معنى الايمان ، ثم فنـــد آراء آريوس فى براعة واقناع • ورأى أثناســـيوس أن آراء الأريوسيين مصيرها الى الزوال والفناء ، لأنه : « كما أن الأب أزلى يجب أن يكون الابن أيضـــــا أزليـــا ، لأن كل مـــا نراه فى

---

(٣٥) من أحسن الكتب التى عالجت موضوع مجمع نيقيه فى دراســـة مستفيضة :

Stanley, Lectures on the History of the Eastern Church, London, 1908, pp. 52 — 174.

انظر ايضا عن مجمع نيقيه :

Daoud, 'Alexandria and the early church councils', in **Cahiers d'Alexandrie,** Serie II (1964), pp. 51 — 54 ; Nichols, The Growth of the Christian church, Philadelphia, 1941, pp. 55 — 56 ;

اســـد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٥٥ ـــ ٥٩ ، العـــرينى ، الدولة البيزنطيـــة ، ص ٢٨ ـــ ٢٩ ، ميشـــيل جرجس ، الكنيســـــة المصرية ، ص ٧٠ ـــ ٧١ ، جوزيف نســـيم يوسف ، مجتمـــع الاســـكندرية فى العصر المسيحى ، ص ١٠٨ ـــ ١١٥ ، اسحق عبيـــد ، الامبراطورية الرومانيـــة ، ص ٨٣ •

الأب يجب أن يكون بلا جدال فى الابن ، الأب نور والابن شـــعاع ونور حقيقى ، الأب آله حق والابن آله حق »(٣٦) •

واخيرا رفض المجمع آراء آريوس وقـــرر أن الابن أى المســـيح من نفس جوهر الأب Homoousios ، وبالتالى قرر قدســـية المسيح وأنه آله حق من آله حق • وهكذا بدأت أسس العقيدة المسيحية تتكون وتأخذ شكلا محددا • وقـــرر المجمع حرمان آريوس ووضع قانونا عاما للايمـــان المسيحى أوله (نؤمن بآله واحـــد) أى أن الثـــالوث واحـــد لا ينقسم ، كما وضـــع قانونا لأصل نظـــام الكنيسة وانتخاب رعاتهـــا وتأديبهم • وقـــرر المجمع أيضا منع الزواج الثـــانى لمن كان متزوجـــا من رجال الدين المسيحى وماتت زوجته(٣٧) •

... هذا التعاون بين الكنيسة والدولة الذى ... الى كثير من المشـــاكل ، اذ أصبحت الدولة ... فصاعدا مجبرة على أن تكون طرفـــا فى كل الخلافات والمنازعات الكنسية ، وبالتـــالى لم تعـــد الخلافات المذهبيـــة من خصوصيات الكنيسة وحدهـــا ، بل كانت تتأثر بالظروف السياسية •

وبعـــد أن اعترف قسطنطين الكبير بالمسيحية كديانة من ديـــانات الامبراطـــورية كان لابـــد لاكتمـــال ظهـــور الدولـــة البيزنطيـــة أن تشـــيد مدينة مسيحية الصـــبغة لتكون عاصـــمة للدولة بدلا من رومـــا التى ظلت حصنا للوثنية الى وقت ليس بقصير ، لهـــذا نقل قسطنطين عاصمة الامبراطورية الى شواطىء البوسفور فى الشرق • ومن المعروف أن بعض أباطرة الرومـــان حاولوا منـــذ عهـــد يوليوس قيصر (قتـــل ســـنة ٤٤ ق•م) الانتقال بعاصمتهم الى الشرق • فقـــد فكر يوليوس

---

(٣٦) انظر رسائل اثناسيوس الرسولى عن الروح القدس ، تعريب القس مرقس داود ، الرسالة الثانية ، ص ٨٦ ــ ٨٨ .

(٣٧) ميشيل جرجس ، الكنيسة المصرية ، ص ٧١ .

قيصر فى جعل الاسكندرية أو طروادة فى آسيا الصغرى عاصمة له . وسبق القول بأن دقلديانوس جعل مقر حكمه مدينة نيقوميديا فى آسيا الصغرى عندما احتفظ لنفسه بالجزء الشرقى من الامبراطورية(٣٨) . ولاشـــك أن نقل مركز الثقل السياسى للامبراطوريـــة من الغرب الى الشرق من مدينة روما الى مدينة قسطنطين الجديدة كان حدثا هاما . فالشرق كان أغنى بموارده الاقتصـــادية وأكثر ســـكانا من الغرب . وكان نقل العاصمة الى الشرق تخلصـــا من مشكلات حربيـــة واجهت الامبراطورية فى الغرب خاصـــة فى الدانوب الأدنى ، حيث اشتدت هجمات الجرمان البرابرة ، كما كان لابد من الوقوف فى وجه الخطر الفـــارسى الساسانى الذى بدأ يزداد — وقتذاك — وادعى الحـــق فى استرداد جميع الأقاليم التى كانت تابعـــة للامبراطورية الفارســـية القديمة(٣٩) .

وفى سنة ٣٢٤ بعد انتصـــار قسطنطين على شريكه ليكينيوس وانفراده بحكم الامبراطورية بدأ فى بناء عاصمته الجديدة (القسطنطينية) على البوسفور بجوار خرائب مستوطنة بيزنطة اليونانية . وأقـــام هذه المستوطنة اليونانية مجموعة من الاغريق سكان مدينة ميجارا ، تلك المدينـــة البحرية التى كانت من أنشط مدن هيلاس (اليونان) . ويرجع الفضل فى اختيار موقع مستوطنة بيزنطة القديمة الى القائد البحرى بيزاس Byzas الذى سميت باسمه . وبقيت مستوطنة بيزنطة ذات مركز تجـــارى هام ، لأن أوروبا كانت تقف خلفها وآسيا أمامها ، ويحمى المـــاء جانبين من جوانبها ، ويحمى الجانب الثالث ســـور قوى لا تتحكم فيه أية مرتفعات مجاورة . وكان موقعها الممتاز سببا لتنازع المدن الأيونية من ناحية ، والفرس من ناحية أخرى للاستيلاء عليها . ومنذ سنة ٤٧٠ ق.م ارتبط مصير مستوطنة بيزنطة بمصير مدينة أثينا، وظلت وفية لها أثناء الحرب البيلوبونيزية . ثم بدأت علاقـــة بيزنطة

---

(٣٨) Vasiliev, Byzantine Empire, I, p. 58.

(٣٩) Ostrogorsky, Byzantine State, p. 44.

بروما • وفى سنة ١٩٦ م دمرتها الجيوش الرومانية بقيادة سبتميوس سيفيروس لانضمامها الى منافس له ، وحولها الى مجرد قرية تابعة لمدينة برنثوس Perinthous المجاورة لها(٤٠) • وقد اختار قسطنطين هذا الموقع الاستراتيجى الممتاز بجوار خرائب مستوطنة بيزنطة القديمة لتشييد عاصمته •

وتقص أسطورة من الأساطير أن قسطنطين الكبير سار على قدميه وخلفه حاشيته ، ورسم بحربته حدود المدينة مدعيا بأنه يتبع دليلا خفيا يسير أمامه ليريه حدود مدينته(٤١) • وفى يوم ١١ مايو سنة ٣٣٠ احتفل بتدشين العاصمة الجديدة التى أطلق عليها اسم روما الجديدة ، الا أن الرجال آثروا أن يطلقوا عليها اسم القسطنطينية نسبة الى مؤسسها قسطنطين • ولهذه المناسبة أمر قسطنطين بسك عملات برونزية صغيرة تخليدا وتذكارا لهذه المناسبة • وقد تم سك هذه العملات فى مدينة روما(٤٢) • ويرى شارل ديل Charles Diehl وغيره أن يوم ١١ مايو سنة ٣٣٠ ، وهو يوم تدشين القسطنطينية ، هو اليوم الذى تمت فيه ولادة الدولة البيزنطية(٤٣) • كما يؤكد رنسيمان Runciman أن عام ٣٣٠ هو خير تاريخ يمكن اتخاذه نقطة بداية للتاريخ البيزنطى(٤٤) •

---

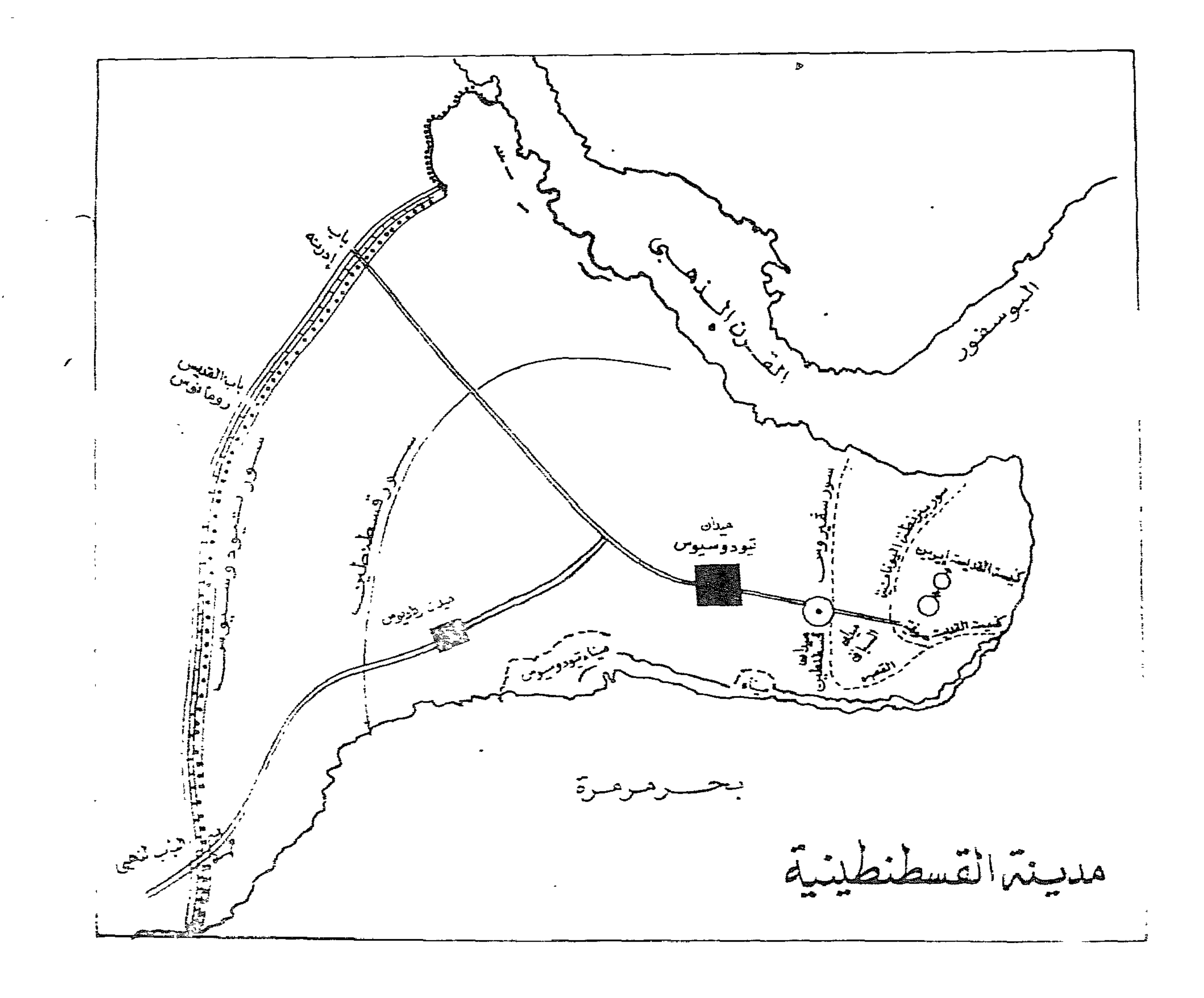
(٤٠) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 57 — 58 ;
انظر اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣ — ٧ ، ١١ ، السيد الناصرى ، الاغريق تاريخهم وحضارتهم ، ص ١٦٦ — ١٧١ ، عبد القادر اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٩ •

(٤١) اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٧ ، جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ج ١ ، ص ٤٩٨ •

(٤٢) Alfôldi, A., 'On the foundation of Constantinople : A few notes", in **The Journal of Roman Studies,** Vol. 37 (1947), p. 10.

(٤٣) Charles Diehl, Byzantium, Greatness and Decline, New Brunswick, New Jersey, 1957, p. 5 ;Moss, The Formation of the East Roman Empire, in Cam. Med. Hist. Vol. 4, Part 1, p. 2.

(٤٤) Runciman, Byzantine Civilization, London, 1966, p. 14.


مدينة القسطنطينية
بحر مرمرة
البوسفور
القرن الذهبي
باب أدرنة
باب القديس رومانوس
سور تيودوسيوس
سور قسطنطين
ميدان تيودوسيوس
سور سفيروس
ميناء تيودوسيوس
سور بيزنطة اليونانية

والحقيقة أن الامبراطور قسطنطين الكبير شيد مدينة أصبحت أعظم مدينة فى أوروبا العصور الوسطى لقرون طويلة • وكان موفقا فى اختيار موقع العاصمة الجديدة عند نقطة التقاء قارتى آسيا وأوروبا ، وتحتل مثلثا من الأرض يحتضنها البوسفور من الشرق ، ويطل عليها القرن الذهبى من الشمال ، وبحر مرمرة Propontis من الجنوب ، ولا يمكن الوصول اليها برا الا من جهة واحدة ، وهذا جعلها مدينة حصينة آمنة من أى غزو برى أو بحرى • وتحكمت العاصمة الجديدة فى الطريق الموصل بين أوروبا وآسيا ، وبين البحر الأسود والبحر الايجى والبحر المتوسط • وسرعان ما أصبحت القسطنطينية أهم مركز للتجارة الدولية(٤٥) • فقد تمتعت المدينة الجديدة بأحسن ميناء طبيعى فى عالم العصور الوسطى ؛ فالقرن الذهبى يحميها من التيارات البحرية والرياح ، وهو عميق فى مياهه لدرجة أن يأوى اليه اعداد كثيرة من السفن • وأدى موقع القسطنطينية عند ملتقى الماء والطرق التجارية البرية التى تصل الشرق بالغرب ، والجنوب بالشمال الى أن أصبحت العاصمة مركزا وسوقا عالميا لتجارة الحرير الوارد من الصين وتوابل الشرق والقمح المصرى والرقيق من الغرب والفراء من الشمال(٤٦) •

وقرر قسطنطين أن يجعل عاصمته الجديدة مهيأة لتلعب الدور الذى كان لروما القديمة • فأسس بها مجلسا للشيوخ (السناتو) ، وأمر بتشييد الأبنية الفخمة والحمامات والكنائس والقاعات والميادين والحدائق وملاعب السباق Hippodrome • وأمد سكانها بالخبز بدون

(٤٥) انظر Bréhier, L., 'Constantin et la fondation de Constantinople', **Revue historique,** cxix (1915), pp. 124 ff. ; Moss, The Formation of the East Roman Empire, pp. 5—10 ; Vasiliev, Byzantine Empire, I, p. 60 ; Hussey, Byzantine World, p. 11 ;
العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٢٦ — ٢٧ ، بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧ — ٨ •

(٤٦) Vryonis, Byzantium, p. 27.

مقابل ، وتشجع رعاياه على الاستقرار فى عاصمته • يضـاف الى ذلك أن القسطنطينية كانت تتميز منذ تأسيسها بالطابع المسيحى الواضح فى كل نواحى الحياة فيها ، وعدم الصلة بالماضى الوثنى(٤٧) •

واذا كان اعتراف قسطنطين الكبير بالمسيحية سنة ٣١٣ وتشييده لعاصمة مسيحية جديدة سـنة ٣٣٠ يحددان بداية عصر جديد تم فيه صبغ الدولة البيزنطية بصبغة مسيحية شرقية ، الا أن هـذه الدولة تعرضت لثلاث هزات أو أزمات عنيفة كادت تعصف بها وبمستقبلها ، وهذه الهزات أو الأزمات هى :

١ ــ حـركة الارتداد الى الوثنيـة أو بعث الوثنيـة فى عصر الامبراطور جوليان •

٢ ــ التهديد الجرمانى •

٣ ــ الخلافات الدينية المذهبية •

أما عن حركة الارتداد الى الوثنية فتكمن خطورتها فى أن المسيحية انتصرت ــ كما سبق القول ــ لأن الامبراطور قسطنطين ساندها ووقف

---

(٤٧) عن أهم معالم القسطنطينية وشوارعها وقصـورها وكنائسـها وصناعاتها ، انظر :

Charles Diehl, Byzantium, pp. 94 — 111 ; Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 45 — 46 ; Vyronis, Byzantium, pp. 26 — 27 ;

بينز ، الامبراطوريـة البيزنطيـة ، ص ١٣ ــ ١٥ ، أومـان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٨ ــ ٢٠ ، واورد ابن رستة (الاعـلاق النفيسية ، ص ١١٩ ــ ١٢٣) حديث هارون بن يحيى فى وصف القسطنطينية التى كان قد سبى وحمل اليها ووصفها بأنها « مدينة عظيمة » وتحدث عن أبوابها وقصورها وميدان السباق الذى سماه البذرون Hippodrome انظر أيضا وصف الرحالة ابن بطوطة لمدينـة القسطنطينية العظمى التى زارها وتحدث عن أسواقها وشوارعها وكنائسـها واديرتها (رحـلة ابن بطوطة ، ص ٣٤٤ ــ ٣٥٥) .

بجوارها ، وبالتالى كادت المسيحية أن تصاب بنكسة خطيرة عندما وقف الامبراطور جوليان المرتد الى جانب الوثنية محاولا اعادتها واسترداد مجدها وعظمتها المندثرة ، ولم يمض بعد ربع قرن من الزمان على وفاة قسطنطين •

فبعد وفاة قسطنطين الكبير سنة ٣٣٧ قسمت الدولة البيزنطية بين أبنائه الثلاثة قسطنطين الثانى وقسطنطيوس وقنسطانز ، وتلقب كل منهم بلقب أغسطس • وشب نزاع بين الأخوة الثلاثة قتل خلاله قسطنطين الثانى سنة ٣٤٠ ثم قنسطانز سنة ٣٥٠ ، واستطاع قسطنطيوس توحيد الامبراطورية فى تلك السنة ٣٥٠ واستمر حكمه حتى سنة ٣٦١ • غير أن المشكلة التى واجهت قسطنطيوس بعد مقتل أخويه كانت مشكلة وراثة العرش لأنه لم يكن لديه أولاد • ولم يبق من أسرة قسطنطين سوى جاللوس Gallus وجوليان Julian ولدى عمه • وعين الامبراطور قسطنطيوس جاللوس قيصرا ، غير أنه أثار ريبة الامبراطور فدبر اغتياله سنة ٣٥٤ ، وعين جوليان فى السنة التالية ٣٥٥ قيصرا ، وزوجه من أخته هيلينا Helena . وأرسله على رأس جيش الى غاليا للوقوف فى وجه الجرمان • ونجح جوليان فى صد غارات الجرمان عبر نهر الراين ، وحاز حب واعجاب جنوده • وعندما مات قسطنطيوس سنة ٣٦١ نودى بجوليان امبراطورا ، وكان آخر من حكم الامبراطورية من سلالة قسطنطين الكبير(٤٨) •

وما أن أصبح جوليان امبراطورا حتى أظهر الميول التى كان يخفيها • فقد كان معجبا بالفن والثقافة والمعرفة التى أوجدتها الحضارتان الوثنيتان اليونانية والرومانية • وقد أثار انتباه العلماء والكتاب خاصة أن ما كتبه هو شخصيا يضفى ضوءا على فلسفته

---

(٤٨) Vasiliev, Byzantine Empire, I. pp. 65 — 66. 70 — 71 ;
اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٦١ — ٦٢ .

وأعماله • وكان يشعر بعداء شديد للمسيحية ، لهذا أصــدر قرارا بفتح المعابد الوثنية وتقديم القرابين للآلهة الوثنية ، ونظم هيئــة كهنوت وثنية على غرار هيئة الكهنوت المسيحية • ووصل عداء جوليان للمسيحية الى درجة أنه عزل المسيحيين من الوظائف المدنية والعسكرية ، وعين عوضــا عنهم أشخاصا يدينون بالوثنيــة • ورفــع الصلبان والرموز المسيحية التى كانت ترسم أو تنقش على أعلام الجيش ودروع الجنود وأبدلها بشارات وثنيــة • ومنع جوليان أيضــا تعيين مدرســين من المسيحيين وقصر وظائف التدريس على الوثنيين حتى ينشأ الجيــل الجديد على مبادىء الوثنية لا المسيحية(٤٩) •

أما عن العوامل التى دفعت جوليان الى هــذا الاتجاه الوثنى ، فمن المعروف أن السنوات الأولى من حياته كانت بالنسبة له ســنوات قلق وخوف ، فقد ماتت أمه بعد ولادته ببضعة شــهور ، وفقد والده وسنه ست سنوات ، وكان موضــع مراقبة واضطهاد من الامبراطور قسطنطيوس الذى دبر أمر اغتيــال بعض أفــراد أسرتــه • وأجبره قسطنطيوس على الاقامة فى قبادوقيا حيث تأثر بأستاذه ماردونيوس Mardonius وهو عالم يونانى برع فى الأدب والفلسفة ، عرف جوليان بأمهات كتب الآداب القديمة ، فى الوقت الذى تلقى فيه جوليان تعليما دينيا من عالم مسيحى ، من المحتمل أن يكون يوسيبيوس Eusebius ولهذا تلقى جوليان نوعين مختلفين من التعليم لم يتلاقيــا • وأمره الامبراطور قسطنطيوس بعد ذلك بالانتقال الى نيقوميديا لمتابعــة دراساته وقراءاته • وكان يقوم بالتدريس فى نيقوميديا فى ذلك الوقت الفيلسوف ليبانيوس Libanius أعظم علمــاء البلاغــة فى عصره • وأظهر جوليان ميلا واضحا نحو الآراء والمعتقدات الوثنية متأثرا بآراء ليبانيوس الذى كان يظهر فضائل الوثنية الهللينية ومساوىء المسيحية •

(٤٩) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 68 — 73.
Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 49 — 50.

وأكمل جوليان صلته بالأفكار والتعاليم الوثنيـة حين أمره قسطنطيوس بالانتقال الى مدينة أثينا بعد مقتل أخيه جاللوس • وكانت أثينا حاضرة العالم اليونانى القديم ومعقل الفلسفة الوثنيـة • وعبر جوليـان فى رسائله عن اعجابه الشديد بأثينا موطن سقراط وحدائقها وضواحيها • والى هذه الفترة من حيـاة جوليان يعزو الباحثون تخلى جوليان النهائى عن المسيحية واعتناقه الوثنية • وتجدر الاشـارة الى أن جوليـان أخفى ميوله الوثنية خوفا من الامبراطور قسطنطيوس • وما أن أصبح جوليان امبراطورا حتى وجد الفرصـة المناسبة للقيام بحركة ارتداد عن المسيحية الى الوثنية(٥٠) •

غير أن جوليان لم يحـكم سوى مدة قصـيرة (٣٦١ — ٣٦٣) مما أنقذ الدولة البيزنطية من حركة الردة الى الوثنية • وواجه معارضة وصعوبة فى تحقيق هدفه ، ففى صيف ٣٦٢ — على سبيل المثـال — زار الامبراطور جوليان المرتد الأقاليم الشرقية ، وتوقف عند مدينـة انطاكية التى كانت معقلا هاما من معاقل المسيحية فى الشرق ، ووصف جوليان أهلها بأنهم اختاروا الكفر أى المسيحية فى رأيه • وكان استقبال الامبراطور فى انطاكية استقبالا فاترا يشوبه الكره • ورفض سـكانها المشاركة فى احتفال وثنى دعا اليه الامبراطور ، وتهكموا على لحيتـه الطويلة التى كانت شيئا غريبا لهيئة امبراطور من الأباطرة • وتأكد جوليان أثناء مقامه فى انطاكية أن المسيحية راسخة الجذور وليس من السهل اقتلاعها • وفى ربيع سنة ٣٦٣ غادر الامبراطور انطاكية لحرب الفرس حتى يقضى على غاراتهم على مملكة أرمينيـة وبـلاد ما بين النهرين • وأصيب جوليان فى معركة ضـد الفرس بطعنة رمح أودت بحياته بعد ذلك بقليل • ولم يعرف من الذى طعن الامبراطور بهـذا

(٥٠) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 68— 70 ;

جيبون ، اضمحلال الامبراطوريـة الرومانيـة وسقوطها ، ج ٢ ، ص ١٨ — ٤٥ ، عبد القـادر اليوسـف ، الامبراطوريـة البيزنطيـة ، ص ٢٨ — ٢٩ .

الرمح ، ودارت روايــات بأن المسيحيين هم الذين قتلوه • غـــير أن ما يهمنا هنا هو أنه بموت جوليان المرتد ــ آخر أباطرة أسرة قسطنطين الكبير ــ ماتت معه محاولته لبعث الوثنية من جديد ، وانتصرت المسيحية مرة أخرى وصبغت الدولة البيزنطية بصبغتها الخاصة(٥١) •

وتعرضت الدولة البيزنطية فى نهاية القرن الرابع الميلادى لأخطار لا تقل خطورتها عن خطر بعث الوثنية ، فقد انسابت القبائل الجرمانية مغيرة على أقـــاليم الدولة فى الشرق • ومن الجدير بالذكر أن القوط هددوا الدولة البيزنطية ذاتها فى الشرق قبل توغلهم فى الغرب • فمع بداية القرن الأول الميلادى استقر القوط على الشواطىء الجنوبيـــة للبحر البلطى ، وحوالى النصف الثانى من القرن الثانى هاجروا جنوبا حيث استقروا شـــمالى البحر الأسود ، وأقاموا فى المقاطعات الواقعة فى حوض الدانوب الأدنى • وهنـــاك انقسم القوط الى طائفتين : القوط الشرقيون Ostrogoths أو Ostgoths والقوط الغربيون Visigoths . وتأثر القوط ثقافيا بالمستعمرات اليونانية الواقعـــة على شواطىء البحر الأسود ، وبالتالى تأثروا بالحضـــارة الرومانية • وفى القرن الثالث انتهز القوط الفوضى والاضطراب والضعف الذى عانت منه الامبراطورية كثيرا ، فاستولوا على الشـــواطىء الجنوبيـــة للبحر الأســـود وغزوا كريميا Crimea وآســـيا الصغرى • وأثنـــاء تقدمهم على الســـاحل الغربى للبحر الأسود أبحروا فى نهر الدانوب وأخذوا طريقهم الى بحر مرمرة ، واخترقوا الدردنيل ونهبوا كيزيكوس Cyzicus ونيقوميديا وغيرهمـــا • وذهب القراصـــنة القوط الى أبعد من ذلك بأن هاجموا مدينتى افيسوس Ephesus وسالونيـــك Thessalonica . وما ان وصلوا الى شواطىء اليونان حتى هاجموا كورنثه وأثينا ، وأغاروا على جزر كريت ورودس وقبرص فى اغارات متعددة للنهب والسلب ، وعادت

(٥١) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 75 — 76.

سفنهم محملة بالغنائم الى مواطنهم عند الشواطىء الشمالية للبحر الأسود • وزاد خطر القوط لدرجـة أن إضطر الامبراطور جوزديان Gordian (٢٣٨ — ٢٤٤) الى دفع اتاوة سـنوية لهم • وعندما خرج اليهم الامبراطور دكيوس Decius لصـدهم سقط أمامهم صريعا فى سنة ٢٥١ • وبتوالى السنين دخل القوط فى خدمة الرومان فى الجيش ، فقد كانت هنـاك فرقة من القوط فى الجيش الرومانى تحت قيـادة ماكسيميان الذى اعتزل العمل السياسى سنة ٣٠٥ كما سبق ذكره • وخدم القوط فى جيش قسطنطين الكبير فى نزاعه ضد ليكينيوس وأمدوه بأربعين ألف جندى • وقد اعتنق القوط المسيحية ، ومن المحتمل أنها انتقلت اليهم عن طريق الأسرى المسيحيـين الذين أسرهـم القوط من أقاليم آسيا الصغرى فى حملاتهم البحرية المتعددة • ويرجع الفضـل الى الأسقف أولفيلا Ulfila أو ولفلاس Wulfilas (٣١١ — ٣٦١) فى اعتناقهم المسيحية فى القرن الرابـع • وهو قوطى من حيث المولد قضى سـنوات عديدة فى القسطنطينية حيث تلقى تعليمـه • واعتنق المسيحية على المذهب الأريوسى ، ونقل الانجيل الى اللغة القوطية ، وكان لهذا أثر كبير فى تاريخ القوط وعدم اندماجهم مع سكان الدولة البيزنطية التابعين لمذهب نيقيه(٥٢) •

وكان على الدولة البيزنطية أن تواجه مشكلة خطيرة أخرى فى الوقت الذى هدد فيه القوط كيان الدولة ذاتها • ففى سنة ٣٧٦ تقدم الهون الآسيويون Huns من أواسط آسيا نحو أقاليم الامبراطورية • والهون من القبائل الرعوية من مناطق الاستبس التى خرج منها سلسلة من الغزاة الرعويين ، الذين أحـدثوا الرعب فى المجتمعـات المستقرة

---

(٥٢) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 84 — 86 ;
عن القوط انظر ايضا ، سعيد عاشور ، أوروبا العصـور الوسطى ج ١ ، ص ٦٩ — ٧٠ ، أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٦ — ٣٥ .

فى العالمين المسيحى والاســـلامى • ومن هؤلاء الغزاة الذين اتجهوا من وسط آسيا الى الغرب البلغار والآفار والباتزيناك (البشناق) والغز والكومان والمغول • وخرج الهون من وسط آسيا مرغمين من خـــلال المنفذ الواقع بين جبال أورال وبحر قزوين • وظهروا أولا فى جنوب روسيا حيث شتتوا قبائل الآلان Alans وهزموا القوط الشرقيين ، وأرغموا القوط الغربيين على الاتجـــاه ناحيـــة الدولة البيزنطية بعد هزيمتهم أمام الهون عند نهر دنيستر Dniester River (٥٣) •

وفى سنة ٣٧٦ التمس القوط الغربيون من امبراطور القسطنطينية فالنس Valens السماح لهم بعبور نهر الدانوب ليسلموا من خطـــر الهون ، والمقام جنوب الدانوب • وتعهدوا بزراعة الأرض ، ووعـــدوا تقديم الجنود للجيش البيزنطى ، وأن يطيعوا كل أوامر الامبراطور • ويقال انه دخل الامبراطورية حوالى ٤٠٠ — ٥٠٠ ألف قوطى نصفهم من المحاربين • وأجابهم فالنس الى مطلبهم دون أن يدرك أخطـــار وجود شعب كامل السلاح يهدد السكان الأصليين فى الأراضى الرومانية بغية النهب والسلب • وسرعان ما تضـــايق القوط من سوء معاملة القادة والموظفين البيزنطيين لهم • ولم تجد شـــكاواهم أذنا صاغية ، فثار القوط وحصلوا على مساعدات من قبائل الآلان وغيرهم ، وتقدموا الى تراقيا قاصـــدين القسطنطينية ذاتها • وكان الامبراطور فالنس وقتذاك فى حملة حربيـــة ضد الفرس • وعندما وصلته أخبـــار القوط ، غادر انطاكية الى القسطنطينية • وفى يوم ٩ أغسطس ٣٧٨ م التقى فالنس بجموع القوط الغربيين على مقربة من مدينة أدرنة Hadrianople • وهزم الجيش الامبراطورى هزيمة ساحقة ، وقتل الامبراطور فالنس ومعه ثلثا قوات الامبراطوريـــة • ولم يســـتغل القوط انتصـــارهم فعندما

---

(٥٣) Vryonis, Byzantium, p.30.

ظهروا أمام أدرنة والقسطنطينية لم يستطيعوا اقتحام أسوار تلك المدن اليونانية الحصينة(٥٤) ٠

وكان لهزيمة فالنس أمام القوط نتائج خطيرة ، فقد انتشر القوط فى شبه جزيرة البلقان حتى أسوار القسطنطينية ٠ وكان على الدولة البيزنطية ، ولم يمض بعد نصف قرن من الزمان على تمـــام ولادتها ، أن تصارع فى سبيل الدفاع عن كيانها ٠ وأصبح واضحا استحالة تحقيق انتصار عسكرى على القوط ، وكان لابد من مسالمتهم للخروج من الموقف اليائس للدولة البيزنطية ٠ وفى سنة ٣٧٩ تولى ثيودوسيوس الأول أو العظيم Theodosius I عـــرش بيزنطـــة ٠ ورغم أنـــه امبراطور عســـكرى الا أنه سمح للقوط فى سنة ٣٨٢ بالاستقرار فى الأطـــراف الشمالية من تراقيا ، ومنحهم السيادة الكاملة والاعفاء من الضرائب مقابل الخدمة العســـكرية التى تعهدوا بتقديمهـــا الى الامبراطورية ٠ واشترط الامبراطور عليهم أن يكونوا فى خدمة الامبراطورية معاهدين Foederati ٠ ولمـــا كان ثيودوسيوس الأول معجبا بصفات القوط وشجاعتهم فقد استخدم أعدادا كثيرة منهم فى الجيش الامبراطورى ٠ وبهذه الطريقة تجنبت الدولة البيزنطية تغلغل الجرمان فى أراضيها ، بل أصبحوا فى خدمة الجيش ، وارتقى جماعة منهم الى منصب القيادة فى جيوش بيزنطة(٥٥) ٠

---

(٥٤) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 86 — 87 ; Vryonis, Byzantium, p. 30 ; Ostrogorsky, Byzantine State, p. 52 ;
العرينى ، الدولة البيزنطيـــة ، ص ٣٤ ، أومـــان ، الامبراطوريـــة البيزنطيـــة ، ص ٢٩ — ٣٤ ، اسحق عبيد ، من آلارك الى جســـتنيان ، ص ١٦ — ١٧ ٠

(٥٥) Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 52 — 53 ; Vryonis, Byzantium, pp. 30 — 31 ;
العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٤ — ٣٥ ، سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٧١ ٠

ومنذ نهاية القرن الرابع حتى عصر الامبراطور البيزنطى جستنيان Justinian فى منتصف القرن السادس وقع الغرب فى براثن الجرمان . فبعد موت ثيودوسيوس العظيم سنة ٣٩٥ قسمت الامبراطورية بين ولديه ، فكان الشرق من نصيب أركاديوس Arcadius والغرب من نصيب هونوريوس Honorius . وكان ذلك فى الوقت الذى ازداد فيه نفوذ الجرمان السياسى والحربى داخل الامبراطورية . واعتمد هونوريوس فى الغرب على قائد جرمانى وندالى قدير اسمه ستيليكو Stilicho للوقوف فى وجه القوط الغربيين . ونجح ذلك القائد فى اجهاض محاولات القوط الغربيين بقيادة ألارك Alaric فى غزو ايطاليا وذلك بالحاق الهزيمة بهم سنة ٤٠٢ فى معركة جرت عند بلدة بوللنتيا . واتهم ستيليكو بعد ذلك بتحالفه مع ألارك وقوبل بمعارضة شديدة من السناتو الرومانى ، مما أدى الى تذمر بين الجند ، واضطر هونوريوس الى التضحية بستيليكو وأمر باغتياله فى ٢٢ أغسطس ٤٠٨ متهما اياه بالاهمال فى حماية حدود الامبراطورية وتعاطفه مع الارك(٥٦) .

وانتهز ألارك فرصة التخلص من ستيليكو واتباعه فزحف مع جماعات من القوط الغربيين نحو ايطاليا ، واقتحموا مدينة روما وحاصروها ونهبوها سنة ٤١٠ م . وتأثر الرومان كثيرا من حادث سقوط روما فى أيدى القوط لأنها لم تسقط قط حتى عندما غزا هانيبال ايطاليا ، واعتبروها كارثة معنوية وعسكرية ودينية . وظن الناس أن نهاية العالم قد اقتربت . واتهمت المسيحية بأنها قضت على الطموح السياسى والقومى فى نفوس الرومان ، وأن تعاليمها كانت سبب الكارثة التى حلت بروما العظيمة . وانبرى القديس أوغسطين للدفاع عن

---

(٥٦) انظر اسحق عبيد ، من آلارك الى جستنيان ، ص ٢٣ — ٣٦ ، سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٧١ — ٧٣ .

المسيحية وفند هـذه المزاعم ورد هـذه الاتهامات فى كتابه المعروف مدينة اللـه De Civitate Dei الذى بدأ فى كتابته سـنة ٤١٣ وانتهى منه سنـنة ٤٢٦(٥٧) •

وكان فى امكان ألارك العبور الى افريقية والاستقرار هنـاك مع أتباعه القوط الا أنه مات فجأة فى نهاية عـام ٤١٠ • وقـاد خليفته واليا Wallia القوط شمالا واستقر بهم فى جنوب بلاد الغال حيث تلقى تعليمات الامبراطور بطرد قبائل جرمانية أخرى استقرت هنـاك حديثـا • فقد انتهزت قبـائل السويفى Suevi والآلان Alans والوندال Vandals فرصـة انشغال القائد ستيليكو مع ألارك فى شمال ايطاليا وأقليم ايلليريا وتقدموا الى غاليا فى طريقهم الى أسبانيا متبعين سياسة النهب والسلب • وفى غاليا تلقى قائد الوندال جزريك Gaiseric طلبا من الحـاكم البيزنطى فى شمال افريقية ، وكان خارجا عن سلطة الدولة ، لمساعدته ووعده فى مقابل ذلك بنصف الولايات البيزنطية فى شمال افريقية • وفى سـنة ٤٢٩ عبر الوندال والآلان الى السـاحل الافريقى ، وفى سنة ٤٣٩ استولى جزريك على قرطاجنة • وزادت قوته وسطوته لدرجـة أن هاجم مدينة روما ذاتها سـنة ٤٥٥ ، وأغار على البيلوبونيز سنة ٤٦٥(٥٨) •

أما ايطاليا فقد أصبحت غنيمـة سـهلة لقبائل الهون الأسيويين والقوط الشرقيين • فالهون كانوا قد أقاموا على شواطىء البحر الأسود حتى سنة ٤٢٥ عندما نفذوا بقيـادة قائدهم أتيلا Attila الى تراقيا وهددوا العاصمة القسطنطينية • ولكى تتجنب الدولة البيزنطية اغاراتهم

---

(٥٧) انظر الدراسة الهامة عن كتاب مدينة الله فى :

اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسـة فى « مدينـة الله » ، ص ١٣٤ ــ ١٥٢ ، انظر ايضـا سـيد الناصرى ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٤٠٠ .

(٥٨) Vryonis, Byzantium, p. 32.

المخربة اضطرت الى دفع اتاوات مالية كبيرة لهم . وفى سنة ٤٤٧ حول الهون أنظارهم الى الغرب بحذاء الدانوب ، ثم عبروا الراين وهاجموا بلاد الغال . وتحالف القوط الغربيون مع الجيوش الرومانية ضد الهون ، وأنزلوا بجموعهم هزيمة ساحقة قرب شالون سنة ٤٥١ . وفى العام التالى ٤٥٢ قام الهون تحت قيادة أتيلا بهجوم مفاجىء على ايطاليا وهددوا روما ذاتها . وخرج البابا ليو الأول العظيم (٤٤٠ — ٤٦١) لمفاوضة أتيلا ولمنعه من دخول روما . ولم ينقذ ايطاليا سوى موت أتيلا المفاجىء سنة ٤٥٣ وانهيار واختفاء خطر الهون بعد أن تمزقت مملكتهم(٥٩) .

أما عن دور القوط الشرقيين فى ايطاليا فمن المعروف أنهم لم يفروا عبر الدانوب كما فعل القوط الغربيون ، بل ظلوا تحت سيطرة الهون حوالى مدة سبع وسبعين سنة ، أى حتى سنة ٤٥٣ عندما انتهت امبراطورية أتيلا(٦٠) . وبعد سنة ٤٥٣ استقر القوط الشرقيون فى شمال بانونيا على حدود ايطاليا كمعاهدين Foederati للدولة البيزنطية . وفى سنة ٤٧٦ قام زعيم بعض جموع الجرمان واسمه أودوفاكر Odovacer بخلع آخر الأباطرة الرومان فى الغرب وهو رومولوس أغسطس Romulus Augustulus ودخل مدينة رافنا **Ravenna** . وأغرى الامبراطور البيزنطى زينون Zeno زعيم القوط الشرقيين واسمه ثيودريك Theodoric بغزو ايطاليا « والحفاظ على العرش هناك حتى مجيئه » حسب قوله . وبذلك تخلص زينون من غارات القوط الشرقيين المخربة فى البلقان . وفى سنة ٤٨٨ توغل القوط الشرقيون فى أعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال فى ايطاليا تحت قيادة ثيودريك . ودخل ثيودريك رافنا سنة ٤٩٣ وقتل أودوفاكر ،

---

(٥٩) سعيد عاشور ، اوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ص ٧٦ — ٧٧ . العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٤٣ .

(٦٠) سعيد عاشور ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٨٧ .

ونجح فى تأسيس مملكة قوطية • غير أن ثيودريك لم يعتبر نفسه امبراطورا أو حاكما مستقلا ، ولكن اعتبر نفسه ممثلا للامبراطور الرومانى المقيم فى القسطنطينية(٦١) •

وتجدر الاشارة الى أن عصر الامبراطور أنستاسيوس الأول (٤٩١ — ٥١٨) شاهد قيام مملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا بقيادة ثيودريك ، ومملكة الفرنجة فى غاليا بزعامة كلوفس Clovis (٤٨٦ — ٥١١) • وحاول كل من ثيودريك وكلوفس الحصول على اعتراف ضمنى بمملكتيهما من الامبراطور البيزنطى • واعترف الامبراطور انستاسيوس بثيودريك حاكما على ايطاليا ، وبالتالى أصبح ملك القوط الشرقيين حاكما شرعيا فى نظر مواطنيه • ولكن حال اعتناق القوط المسيحية على المذهب الأريوسى دون قيام علاقة ود وصداقة حميمة مع البيزنطيين • وأرسل انستاسيوس الى كلوفس براءة منحه فيها مرتبة قنصل ، أى أصبح نائبا للامبراطور فى أقليم من أقاليم الامبراطورية ولو من الناحية النظرية • وقبل كلوفس تلك البراءة بامتنان ، وبخاصة أنها كانت مرتبة شرفية للملك الفرنجى لم تتضمن أية التزامات مقابل هذه الوظيفة ، بل أعطت حكم كلوفس صبغة شرعية فى نظر رعاياه(٦٢) •

وشاهد عصر الامبراطور انستاسيوس أيضا اغارات الصقالبة (السلاف) والبلغار على البلقان • ومن الملاحظ أن هذه الاغارات لم تكن ذات نتائج خطيرة خلال تلك الفترة فى التاريخ البيزنطى ، وذلك

---

(٦١) Vryonis, Byzantium,p. 34 ; Vasiliev, Byzantine Empire, I,p p. 106 — 107 ; Hussey, Byzantine world, pp. 14 — 15 ;
انظر ايضا : جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ج ٢ ، ص ٣٤٩ — ٣٦٣ ، اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٤٩ — ٥١ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٥٤ — ٥٥ .

(٦٢) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 110 — 111 ;
العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٥٤ — ٥٥ .

لأن هذه الجماعات من البرابرة انسحبوا وتراجعوا الى مواطنهم الأصلية التى قدموا منها بعد أن نهبوا سكان القرى البيزنطية • غير أن تلك الاغارات كانت مقدمة لغارات الشعوب السلافية على البلقان فى القرن السادس الميلادى • ولكى يحمى الامبراطور انستاسيوس القسطنطينية من اغارات البرابرة الشماليين شيد فى تراقيا ، وعلى بعد ٤٠ ميلا غرب القسطنطينية ، سورا امتد من بحر مرمرة الى البحر الأسـود • ولم يحقق ذلك السور هدفـه للحيلولة دون تقدم الأعـداء البرابرة نحو العاصمة ، لأن تشييده تم بسرعة ولما سببته الزلازل من تخريب لهذا السـور(٦٣) •

ويهمنا هنا القول بأن أوصال الامبراطورية تقطعت فى الغرب تماما، ونشأت ممالك جرمانيـة جديدة على أنقاض الامبراطورية فى الغرب ، فقد انتزع الوندال ولاية افريقية ، واحتل القوط الغربيون والبرجنديون أسبانيا فضـلا عن جنوب غاليا ، وعبر الألمـان الراين الأعلى واستقروا فى الألزاس ، وعبر الفرنجة الراين الأدنى ووصلوا السوم والميز ، وسقطت انجلترا فى أيدى السكسون • ويلاحظ أنه على الرغم من أن الخطر الجرمانى ظهر أول ما ظهر عنيفا فى الشرق عندما هدد القوط بيزنطة ، وهزموا جيوش الامبراطورية عند أدرنه ، الا أنهم أرغموا على الاتجاه غربا ، وبالتالى وقع الغرب الأوروبى تحت أقدام الجرمان• ولعل السر فى نجاة الشرق من تخريب الجرمان يرجع الى الثراء المـادى للولايات الشرقية مثل أرمينية والشام ومصر ، وقوة الشرق الروحية • وقاوم المجتمع الحضرى فى الشرق توغل البرابرة بنجاح لما كان لدى الشرق من رجـال وثروة ونظم ، على حين كان الغرب فى موقف غير متكافىء من حيث القوى البشريـة والثروة • وبالتـالى نجت الدولة البيزنطية من غزو الجرمان ، وبتوالى السنين لم يعد لهذه الدولة نفوذ فعلى فى ايطاليا مما جعل البابوية فى روما تزداد قوة ونفوذا وسلطانا •

---

(٦٣) Vasiliev, Byzantine Empire, I, p. 110.

أما الخطر الثالث الذى هدد الدولة البيزنطيـــة فى مطلع حياتها فهو الخلافات الدينية المذهبية • ويلاحظ أن هذه الخلافات نجحت الى حد ما فى الحاق ضرر كبير فى الشرق البيزنطى بينما فشل الجرمان فى تحقيق ذلك ، فى الوقت الذى لم تكن هـــذه الخلافات المذهبية موجودة فى الغرب اللاتينى • ومن المعروف أن اعتراف الامبراطور قسطنطين الكبير بالمسيحية ساعد على سرعة انتشارها الى حد كبير • وخـــلال القرن الذى اعقب موت قسطنطين كان أباطرة الدولة البيزنطية ، ما عدا جوليان ، يعتنقون المسيحية • غير أن انتشار المسيحية ونمو الكنيسة أديا الى ظهور كنائس كبرى فى الشرق بجانب كنيســـة القسطنطينية وهى كنائس بيت المقدس وانطاكية والاسكندرية • وكان لكل كنيسة من هـــذه الكنائس ادعاءات خاصـــة من حيث السيادة وغيرها ، لذلك كان من الصعوبة تحقيق الوفـــاق أو المساواة أو الاتحـــاد بينها من الناحية النظرية ، لأن بعض هذه الكنائس كان أكثر أهمية من بعض • وفى القرن الخامس زاد التنافس بين هذه الكنائس ، اذ أن أساقفـــة الاســـكندرية وروما استنكروا ارتفاع شـــأن أساقفة القسطنطينية ، وحـــاول — عبثـــا — أساقفـــة انطـــاكية القضـــاء على ادعـــاءات أسقفيـــة بيت المقـــدس • يضـــاف الى ذلك النزاع والتنـــافس بين كنيستى القسطنطينية وروما ، فاذا تمتع أساقفة روما القديمة بمركز دينى كبير باعتبار أن روما كانت عاصـــمة للامبراطورية ، ادعى نفس المركز أسقف روما الجديدة أى أسقف القسطنطينية • وللوقوف فى وجه ادعاءات كنيســـة القسطنطينية شرح البابا داماســـوس Damasus فى أواخر القرن الرابع سمو كنيسة بطرس فى روما(٦٤) •

ومما زاد من الخلافات الدينية المذهبية أن المجتمع البيزنطى نشأ مجتمعا دينيا ، وكان اللاهوت هو الموضـــوع المفضل للمناقشة حتى بين عامة سكان القسطنطينية • وأشـــار جريجورى أسقف نيســـا

(٦٤) Vryonis, Byzantium,pp. 35 — 37.

Greogory of Nyssa (٣٤٠ — ٤٠٠) أنه عندما ذهب الى العاصمة القسطنطينية وجد سكانها يتحدثون فى اللاهوت بنجابة « فاذا سألت أحدا عن ثمن سلعة من السلع أجاب سائلا عن المولود وغير المولود ، واذا سألت أحدا عن ثمن الخبز أخبرك صاحب المخبز بأن الأب أعظم من الابن وأن الابن يجب أن يكون دون الأب ، واذا طلبت من الحمامى أن يعد لك الحمام أجابك بأن الابن وجد من لا شىء »(٦٥) •

وشغلت قضية الثالوث التى أثارها القس السكندرى آريوس علماء اللاهوت وكذلك الأباطرة لأكثر من نصف قرن من الزمان • وقد رأينا فيما سبق(٦٦) أن آريوس أنكر الوهية المسيح وأنكر صفة الشبه بين الأب والابن ، ورفض مجمع نيقيه ٣٢٥ آراء آريوس • ولعبت الأريوسية دورا هاما خلال حكم الامبراطور فالنس ، غير أن موت هذا الامبراطور سنة ٣٧٨ أمام القوط أعطى ضربة قاسية للمذهب الأريوسى • فعندما تولى ثيودوسيوس الأول عرش الامبراطورية سنة ٣٧٩ ضيق الخناق على الأريوسيين الهراطقة والوثنيين ، وأصدر قرارا سنة ٣٨٠ أعلن فيه أن المسيحى الحق هو الذى يؤمن بالثالوث : الأب والابن والروح القدس كما بشرت به الأناجيل وكتابات الرسل ، أما ما عداهم فهم الهراطقة (المعتوهون) ليس من حقهم أن يطلقوا على أماكن عبادتهم كلمة كنائس وهم معرضون للعقاب الشديد والاضطهاد(٦٧) • وفى السنة التالية ٣٨١ دعا ثيودوسيوس الى مجمع دينى مسكونى فى القسطنطينية ، وهو المجمع المسكونى الثانى الذى رأسه أسقف أنطاكية ولم يحضره أحد من كنيستى روما والاسكندرية • وأعاد هذا المجمع التأكيد على المذهب الأثناسيوسى ، وأوصى باعتبار

---

(٦٥) Vryonis, Byzantium, p. 38.

(٦٦) انظر ما سبق ص ٢٨ — ٣٠ •

(٦٧) Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 80 ;
أسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٩٢ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٥ — ٣٦ •

الأريوســية هرطقة ، وأكد قرارات مجمع نيقيه ٣٢٥ • وقرر هــذا المجمع أيضا رفع كنيسة بيزنطة الى المرتبة الثانية بعد كنيسة روما ، أى وضع كنيسة القسطنطينية قبل كنيسة الاسكندرية ، وبالتــالى صار أسقف كنيسة القسطنطينية « يتمتع بالشرف الذى يتلو الشرف الذى يتمتع به أسقف روما ، لأن القسطنطينية هى روما الجديدة » • وهكذا أصبح الامبراطور ثيودوسيوس وكأنه المسئول الأول عن شئون الكنيســة(٦٨) •

واتخذ الامبراطور ثيودوسيوس الأول أيضــا خطوات صارمة ضد الوثنيين ، فقد منعهم من تقديم القرابين لآلهتهم ، وأمر باغــلاق الكثير من معابدهم • وأصـــدر سنة ٣٩٢ قرارا منع بموجبه الوثنيين من تقديم القرابين واحراق البخور فى معابدهم وما الى ذلك • واعتبر كل من يقوم بهذه الأعمال قد ارتكب جرما ضـــد الامبراطور والدين وبالتالى يجب توقيع العقوبات الشديدة عليه • وألغى قرار الامبراطور وجود الوثنية كدين معترف به وأشار اليها على أنها (خرافة)(٦٩) •

ثم قـــام الامبراطور ثيودوســـيوس الثـــانى بن أركاديـــوس (٤٠٨ — ٤٥٠) بتوجيه ضربة عنيفة ضد مدرسة أثينا الوثنية مثلما فعل جده ثيودوسيوس الأول من قبل • ففى سنة ٤٢٥ أصـــدر هذا الامبراطور قرارا بتأسيس معهد علمى مسيحى فى القسطنطينية ينافس بأساتذته وطلابه معهد أثينا الوثنى الذى كان لايزال تدرس فيه الفلسفة اليونانية • والحقيقة أن القسطنطينية منذ أصبحت عاصمة للامبراطورية

---

(٦٨) Daoud, 'Alexandria and the early church councils, pp. 57 — 59 ;
جوزيف نسيم ، مجتمع الاسكندرية فى العصر المسيحى ، ص ١١٠ ، اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٨٥ .

(٦٩) Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 82 — 83.

فى عصر قسطنطين وفد اليها كثير من علمـاء البلاغـة والفلسفة من افريقية والشام وغيرهما ، حتى أصبحت قبل عصر ثيودوسيوس الثانى أكبر مركز ثقافى فى الامبراطورية • وفى سـنة ٤٢٥ أصدر الامبراطور ثيودوسيوس الثانى قرارا بتنظيم مدرسـة عالية كانت قد نشـأت فى القسطنطينية ، وتولى التدريس فيها واحد وثلاثون أستاذا قاموا بتدريس النحو والبلاغة والقـانون والفلسفة • وعلى الرغم من أن اللغة اللاتينية كانت لاتزال اللغـة الرسمية فى الامبراطورية ، الا أن قرار ثيودوسيوس أمر بانشاء كراسى للغة اليونانيـة التى أصبحت اللغة الشائعة فى الجانب الشرقى للامبراطورية • وأدى ذلك الى زيادة الاهتمـام بتدريس اللغة اليونانيـة فى جامعة القسطنطينية أكثر من الاهتمـام بتدريس اللاتينيـة • وأصبح ذلك المركـز التعليمى فى القسطنطينية منافسا خطرا لمدرسة أثينا الوثنية التى بدأت تتداعى وتضمحل بسبب انتصـار المسيحية • وسرعان ما أصبحت جامعـة ثيودوسيوس الثانى نواة للثقافة ومركزا هاما للحضارة البيزنطية(٧٠)•

---

(٧٠) Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 100 — 101 ;
أسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ١١٩ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٤٠ — ٤١ ، أصدر ثيودوسيوس الثانى بعد ذلك سنة ٤٣٨ مجموعته القانونية Codex Theodosianus التى تعتبر حدثا هاما فى تاريخ التشريع الرومانى قبل جستنيان . وبرهن ثيودوسيوس الثانى فى مجموعته القانونية على ما حققته المسيحية من تأثير فى ميـدان التشريع وتغيير فى الحياة الأجتماعيـة وغيرها للامبراطورية . واشتملت هـذه المجموعة على التشريعات القانونيـة التى صـدرت منذ عهد قسطنطين الكبير أى منذ الاعتراف بالمسيحية حتى القوانين التى أصدرها ثيودوسيوس . وبالاضافة الى اهمية هـذه المجموعة كمصدر هام لتشريعات جستنيان فيما بعد ، فقد صدرت خلال فترة الغزوات الجرمانيـة لغرب أوروبا فأثرت بطريق مباشر أو غير مبـاشر على التشريعـات الجرمانيـة ، مثل قوانين القوط وغيرهم ، وصبغتها بالصبغة المسيحية ، أنظر :
Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 101 — 102 ; Ostrogorsky, Byzantine state, p. 56.

وهدأت الأريوســـية بالتدريج فى الشرق ولكن ظهر جدل كنسى جديد أثر على مجريات الأمور فى الدولة البيزنطية أكبر من الأثر الذى خلفته المشكلة الأريوسية • ونشأ هـــذا الجدل الكنسى نتيجة الاختلاف الكبير فى تعاليم المدرستين الدينيتين فى أنطاكية والاسكندرية • فاذا كان المذهب الأريوسى قد أنكر ألوهية المسيح فقد دار الجدل الجديد فى مسألة علاقـــة الطبيعة البشرية فى المسيح بطبيعته الالهية • ورأت مدرسة أنطاكية الدينية فى أواخر القرن الرابع الميلادى أن للمسيح طبيعتين منفصلتين طبيعة الهية وطبيعة بشرية تعيشان جنبا الى جنب ، فالمسيح — فى رأى هـــذه المدرسة — هو الوعـــاء الذى اختاره الله ليضع فيه الطبيعة الآلهية ، وهو فى نفس الوقت ابن للسيدة مريم العذراء ، فالمسيح بشر فيه طبيعة الهية ، ومريم ليست أم آله ولكنها أم المسيح • وكانت مدرسة الاسكندرية بقيادة البطريرك كيرلس الأول Cyril (٤٣٠ — ٤٦٣) تعارض هـــذا الرأى وتقول بأن الله خلق انسانا ووضـــع فيه طبيعتين الهية وبشريـــة ، فاتحدت الطبيعتان معا فى شخصيته « وأصبح فى المسيح اقنوما واحدا وطبيعة واحدة بعد الاتحاد بدون اختلاف ولا امتزاج ولا استحالة »(٧١) •

وفى سنة ٤٢٨ أصبح نسطوريوس Nestorius بطريركا لكنيسة القسطنطينية • وكان نسطوريوس ســـورى الموطن وأحد اتباع مدرسة انطاكية اللاهوتية ، فاستغل مركزه الدينى الكبير للدعوة لأفكار وآراء مدرسة أنطاكية التى تقول بوجود طبيعتين فى المسيح بشرية والهية منفصلتين عن بعضهما البعض • هـــذا فى الوقت الذى أيد فيه الرهبان فى مصر أسقف الاسكندرية كيرلس الأول ، كما كان يؤيده رجال الدين فى روما • وبالتالى أصبحت قضـــية طبيعة المسيح تلعب دورا هاما

---

(٧١) ميشيل جرجس ، الكنيسة المصرية ، ص ٧١ — ٧٢ ، انظـــر أسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ١٢٣ ،
Vryonis: Byzantium, pp. 38 — 39.

فى تاريخ الدولة البيزنطية وفى علاقتها بكنيســة روما ، وفى علاقتها بالولايات الشرقية التى ازداد فيهـا مذهب الطبيعة الواحـدة قوة وانتشارا . وفى ســنة ٤٣١ انعقد فى مدينــة افيسوس Ephesus المجمع المسكونى الثالث لبحث هذا الخلاف الكبير حول طبيعة المسيح . وحكم المجمع على نسطوريوس أسقف القسطنطينية بالزندقة والالحاد لأنه أصر على انسانية المسيح ، واتهم بتقسيم شخصية المسيح الى الكلمة المقدســة والمسيح الانسان ، فأحرز كيرلس بذلك نصرا كبيرا فقد انتصر على بطريرك عاصمة الدولة البيزنطية نفســها . ووصلت كنيسة الاسكندرية بذلك الى درجة كبيرة وتطلعت الى زعامة الكنيسة الشرقيــة . وبعد موت كيرلس سنة ٤٤٤ ســار خليفته ديوسقورس Dioscorus على خطاه ، وحافظ على ما وصلت اليه كنيسة الاسكندرية من مكانه ودرجــة عاليــة . وسانده أوتيخـا (يوطيخا) Eutyches أحد رجال الكنيسة فى القسطنطينية الذى كان مقربا للامبراطور(٧٢) .

وهكذا اغفل رجال كنيسة الاسكندرية من اتباع كيرلس الطبيعة البشرية فى المسيح ، وأعلنوا أنه على الرغم من وجود طبيعتين للمسيح الا أن اللاهوت والناسوت اتحدا اتحادا تاما وكان هــذا هو المذهب المونوفيزتى Monophysitism الذى جعل للمسيح طبيعة واحــدة لها صفات وخصــائص الطبيعتين « فاللاهوت والناسوت متحدان فيه اتحادا تاما فى الجوهر وفى الأقنوم وفى الطبيعة ، ليس هنــاك انفصال

---

(٧٢) Daoud, 'Alexandria and the early church councils, pp. 60 — 61 ; Ostrogorsky, Byzantine state, pp. 58 — 59 ;
جــوزيف نســيم ، مجتمــع الاســكندرية فى العصر المســيحى ، ص ١١١ — ١١٢ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٤٤ — ٤٥ ، بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠١ .

أو افتراق بين اللاهوت والناسوت فى المسيح » • وعارضت كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية مذهب الطبيعة الواحـــدة • وعندما زاد الخلاف حث ديوسقورس الامبراطور ثيودوسيوس الثانى على عقد مجمع فى افيسوس سنة ٤٤٩ • ورأس ديوسقورس هـــذا المجمع ، وقرر صحة مذهب يوطيخا المونوفيزتى الذى أنكر فيه ناسوت المسيح (الطبيعة البشرية) انكارا تاما « وأن للمسيح طبيعة واحـــدة ، وأن ناسوت المسيح قد تلاشى تماما فى لاهوته ، اختلط به وانعدم فيه ، مثل نقطة الخل عندما تختلط بالمحيط » • وسرعان ما انتشر الاضطراب فى العالم المسيحى، فقد شن البابا ليو حربا ضـــد هـــذا المجمع حتى أسقط من عداد المجامع المسكونيـــة وعرف باسم مجمع اللصـــوص Latrocinium (٧٣) •

وفى السنة التالية لمجمع افيسوس أى فى سنة ٤٥٠ مات الامبراطور ثيودوسيوس الثانى دون أن يترك وريثاً ، فخلفه على عرش الامبراطورية مارقيان Marcian زوج أخته بولكيريا Pulcheria • وكان مارقيان قائدا عســكريا قديرا حــكم الامبراطوريـــة فيما بين سنتى ٤٥٠ ــ ٤٥٧ • وحاول هـــذا الامبراطور ــ ربما تحت تأثير زوجتـــه بولكيريا ــ أن يقضى على الخـــلاف الدينى الذى هدد وحدة الدولة البيزنطية ومكانتها • لهـــذا دعا مارقيان ســـنة ٤٥١ الى عقد مجمع مسكونى فى خلقدونية لبحث شـــئون العقيدة • وانعقد المجمع وهو المجمع المســـكونى الرابع ، وحضره عدد كبير من ممثلى الكنـــائس المسيحية ، بما فى ذلك ممثلون من قبل البابا ليو الأول العظيم • وأدان مجمع خلقدونية قرارات مجمع اللصوص فى افيسوس ، وأدان أسقف

---

(٧٣) انظر وهيب عطا الله جرجس ، تعليم كنيسة الاسكندرية فيما يختص بطبيعة السيد المسيح ، ص ١٥ ــ ١٦ ، العرينى ، الدولة البيزنطية، ص ٤٥ ــ ٤٦ ، بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٣ ، اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٨٨ .

الاسكندرية ديوسقورس ، وحكم المجمع بعزله ونفيه ، ووجه اللوم أيضا الى يوطيخا • وأنكر المجمع ورفض المذهب المونوفيزتى أى مذهب الطبيعة الواحدة ، وقرر أن خلاص البشر يأتى عن طريق منقذ هو فى نفس الوقت آله له كل صفات الألوهية ، وانسان له كل صفات الانسان « طبيعتان بدون تغيير أو انقسام » • وأجاز المجمع الصيغة التى نقحها البابا ليو وأوردها فى رسالته العقيدية المسماه Tomos التى فند فيها آراء يوطيخا وديوسقورس والتى ورد فيها : « هنــاك طبيعتان فى المسيح يجب تمييز احداهما عن الأخرى حتى بعد تجسده ، وهما الطبيعة الآلهية والطبيعة البشرية ، وقد ظل الاختلاف بينهما باقيا بالرغم من وحدة الشخصية » • وهذه الصيغة أصبحت قاعدة التعاليم الدينيــة للكنيسة الأرثوذكسية •

ويهمنا هنا القول بأن مجمع خلقدونية رفع مرة أخرى من شأن كنيسة القسطنطينية ، وجعلها فى درجة أعلى من كنيسة الاسكندرية • ومنح أعضـــاء مجمع خلقدونية أساقفة الكنائس الخمس لقب بطريرك وهى بالترتيب الخلقدونى : روما القسطنطينية الاسكندرية انطــاكية بيت المقدس • وكانت النتيجة المباشرة لقرارات مجمع خلقدونية هى ازدياد شقة الخلاف بين القسطنطينية وبين الولايات الشرقية التابعة لها • وكان لذلك نتائج سياسية خطيرة لم يتوقعها المشتركون فى المجمع، فمعظم سكان مصر والشام ، وهم من عناصر غير يونانية ، كانوا من اتبــاع مذهب الطبيعة الواحـــدة أى المذهب المونوفيزتى ، وتمســـكوا بمذهبهم حتى بعد مجمع خلقدونية ، ولم يميلوا حتى الى الوفاق لدرجة أن الكنيسة القبطية المصرية منعت اللغة اليونانية عند اجراء الطقوس الكنسية ، واستخدمت اللغة القبطية فى قداساتها ، وتسمت الكنيســة القبطية باسم الكنيسة الأرثوذكسية • وهكذا كان الخــلاف بين مذهب الطبيعتين الذى تؤمن به القسطنطينية ومذهب الطبيعة الواحدة الذى تؤمن به الولايات الشرقية للدولة البيزنطية ، النقطة التى تركزت حولها

الخلافات الكنسية والتي انطلقت منها معارضـــة الأقباط والسوريين للحكم البيزنطى ورغبتهم فى الخلاص منه أولا بالترحيب بالفرس ثم بالعرب المسلمين فيما بعد(٧٤) •

وتفاقمت المشكلة الدينية فى الدولة البيزنطية مع مرور الزمن ، اذ ازداد مذهب الطبيعة الواحدة قوة فى الأقاليم الشرقية ، الأمر الذى أدى الى اتساع شقة الخـــلاف بين القسطنطينية والولايات الشرقية التابعة لها • وقد حاول الامبراطور زينون (٤٧٤ — ٤٩١) أن يوفق بين مسيحى الولايات الشرقية اتباع مذهب الطبيعة الواحدة وبين اتباع مذهب الطبيعتين ، أى اتبـــاع مجمع خلقدونية وأن يجد حـــلا وسطا فنشر زينون فى سنة ٤٨٢ وبموافقة بطريرك القسطنطنية قراره المشهور المسمى الهينوتيكون Henoticon أى قرار الوحـــدة • واعترف هذا القرار بقرارات المجامع المسكونية الثلاث الأول (نيقية ٣٢٥ ، القسطنطينية ٣٨١ ، أفيسوس ٤٣١) • وتجنب قرار الوحدة أية اشارة تشين تعاليم الطبيعة الواحدة أو تعاليم الطبيعتين ، وعدم ذكر كلمتى الطبيعة الواحدة والطبيعتين • ورفض القرار رفضـــا لبقا ما كان قد أقره المجمع الخلقدونى عن اتحـــاد الطبيعتين فى المسيح • غير أن قرار الوحدة هذا لم يرض أيا من الطرفين ، فلم يرضى أتباع مذهب الطبيعتين بالتنازلات التى منحت للمونوفيزتيين ، ورأى أتباع المذهب المونوفيزتى

---

(٧٤) عن مجمع خلقدونية أنظر :

Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 104 — 106 ;
Vryonis, Byzantium, p. 39 ; Ostrogorsky, op. cit., pp. 59 — 60 ;
Daoud, op. cit.,pp. 61 — 63 ;

اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ١٢٧ — ١٢٨ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٤٦ — ٤٧ ، اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانيـــة ، ص ٨٨ — ٩٠ ، بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٣ — ١٠٥ ، وعن موقف كنيسة الاسكندرية المعـــارض لقرارات مجمع خلقدونية ، انظـــر : وهيب عطا الله جرجس ، تعليم كنيسة الاسكندرية فيما يختص بطبيعـــة السيد المسيح ، ص ٢٤ — ٢٧ .

عدم وضـــوح القرار واحتوائه على تنازلات غير كافية • لهذا لم يوحد قرار الوحدة الذى أصـــدره الامبراطور زينون الصفوف بل زاد من شقة الخـــلاف والانقسام والتفرقة بين أتباع الطبيعة الواحدة واتباع الطبيعتين • وتدخل بابا روما فى هـــذا النزاع الجديد ، فأعلن رفضه لقرار الوحدة ، وأصـــدر قرار الحرمان ضـــد بطريرك القسطنطينية أكاكيوس Acacius فى مجمع دينى عقد فى مدينة روما • ورد البطريرك على هـــذا بأن امتنع عن ذكر اسم البابا أثناء تأدية الطقوس الدينية ، وبدأت صفحـــة جديدة من النزاع مع البابويـــة دامت أكثر من ثلاثين عامـــا(٧٥) •

واستفحلت المشكلة وزاد الخـــلاف الدينى مع مضى السنين • فعندما توفى زينون سنة ٤٩١ وقع الاختيار على انستاسيوس الأول Anstasius I لتولى عرش الامبراطوريـــة • ووجـــد الامبراطور الجديد الخلاف على أشده بين اتباع المذهبين ، وأعلن فى بداية الأمر أنه من أنصار المذهب الأرثوذكسى (مذهب الطبيعتين) ارضاء لبطريرك القسطنطينية ، غير أنه تحول بعد قليل الى تأييد المذهب المونوفيزتى (مذهب الطبيعة الواحدة) • وفرح الأقباط فى مصر والسوريون بهذا التحول فى موقف الامبراطور ، الا أن سياسته فى ممالأة المونوفيزتيين أدت الى تذمر الناس وسخطهم والى اندلاع الاضطرابات والفتن فى القسطنطينية لدرجة اشعال الحرائق فى المبانى العامة وتحطيم تمثـــال الامبراطور ، والتظاهر ضده فى ميدان السباق ، وتعرضـــه للشتائم والقذف بالحجارة • وأدت سياسة انستاسيوس الدينية الى قيـــام القائد فيتاليان Vitalian بفتنة فى تراقيا • وقـــاد فيتاليان جيشا

---

(٧٥) Vasiliev, Byzantine empire, I. pp. 108 — 109 :
اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ١٣٣ — ١٣٤ ، العرينى ، الدولة البيزنطيـــة ، ص ٥٠ — ٥١ ، وعن قرار الحرمان انظر ما يلى الفصـــل الثـــالث .

مكونا من الهون والبلغار ، ومن المحتمل من الصقالبة أيضا ، وتقدم نحو القسطنطينية بمساعدة أسطول كبير • ولاشك أن غرضه كان سياسيا لعزل الامبراطور ، غير أنه أعلن أنه قام للدفاع عن الكنيسة الأرثوذكسية المغلوب على أمرها • ولم يستطع انستاسيوس القضاء على هذه الفتنة الا بعد صراع مرير ، غير أن فيتاليان كشف للبرابرة مواطن ضعف الامبراطورية وثراء القسطنطينية(٧٦) •

وفى سنة ٥١٨ مات الامبراطور انستاسيوس الأول دون وريث ، وسادت الدولة البيزنطية فترة اضطراب انتهت بتولية جستين الأول Justin I عرش الامبراطورية فى نفس السنة • وكان جستين يشغل وظيفة قائد الحرس الامبراطورى • ولم يكد يتولى الامبراطورية حتى حاول القضاء على الخلافات الدينية ، فأعلن تأييده ومساندته لقرارات مجمع خلقدونية ، واضطهد اتباع مذهب الطبيعة الواحدة اضطهادا شديدا ، وأعلن جستين استئناف العلاقات الودية مع كنيسة روما قاضيا بذلك على القطيعة التى كانت قائمة بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية منذ قرار الوحدة الذى أصدره زينون(٧٧) •

ورغم أن جستين الأول كان مؤيدا لمذهب الطبيعتين مذهب مجمع خلقدونية ، وأخذ على عاتقه محاربة المذهب المونوفيزتى فى داخل الامبراطورية ، الا أنه اتبع سياسة مساعدة المسيحية خارج الامبراطورية ضد أى خطر مهما كان مذهبها • والدليل على ذلك أن هذا الامبراطور ساند وساعد مملكة اكسوم الحبشية Axum فى غزوها اليمن ، رغم أن مملكة الحبشة كانت تتبع مذهب الطبيعة الواحدة • وقد غزا الأحباش بلاد اليمن اثر حملة الاضطهاد التى قادها آخر ملوك حمير ذو نواس ضد المسيحيين فى بلاده • فبعد أن تسربت المسيحية الى

---

(٧٦) Vasiliev, Byzantine empire, I. pp. 111 — 112.
(٧٧) Ibid., I. p. 130.

بلاد اليمن اشتدت المنافسة بين النصارى واليهود • ورأى ذو نواس فى انتشار المسيحية فى بلاده قوة للأحباش ، فأوقع بالنصارى سنة ٥٢٣ فى مذبحة نجران الشهيرة ، ثم جمع من نجا منهم وخيرهم بين القتل واعتناق اليهودية فاختاروا القتل ، فخد لهم أخدود النار ذات الوقود الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم فى سورة البروج : « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » • وكان لمساعدة جستين للأحباش أثر كبير على العلاقات بين مملكة الحبشة والدولة البيزنطية ، وقام بينهما تحالف قوى دام زمنا طويلا(٧٨) •

أما بالنسبة للمذهب المونوفيزتى أى مذهب الطبيعة الواحدة فقد تأصلت جذوره بتوالى السنين فى مصر والشام لدرجة أن أباطرة القرنين السادس والسابع اتبعوا سياسة الاضطهاد أحيانا ومحاولة الوفاق أحيانا أخرى فى محاولات فاشلة لجلب اتباع مذهب الطبيعة الواحدة الى حظيرة كنيسة القسطنطينية أى كنيسة الدولة البيزنطية • غير أن النتائج السياسية لهذا الخلاف الكنسى أدى الى اتساع الفرقة الثقافية داخل الدولة البيزنطية مما سهل فيما بعد للعرب الفاتحين من فتح الشام ومصر لما عرف عن المسلمين من تسامح فى أمور العقيدة •

---

(٧٨) القرآن الكريم ، سورة البروج ، آيات ٤ — ٩

انظر : Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 131 ;

أسد رستم ، الروم ، ج ١ ص ١٦٧ — ١٦٨ •

الفصل الثانى

المسلمون والبيزنطيون فى عصر أسرة هرقل

تعتبر سنة ٦٢٢ ميلادية من السنوات الحاسمة فى تاريخ البشرية ، ففى تلك السنة هاجر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ليقيم قواعد الدولة الاسلامية وأسس الوحدة الدينية والسياسية للمسلمين • فالاســلام الذى أخرج الانسانية من الظلمات الى النور ، ونسخ ما قبله من ديانات سماوية ، هو عقيدة وشريعة ، دين ودولة ، ايمان وعمل ، حضــارة وثقافة • وظهر الاسلام بين العرب فى جزيرتهم ، وكانوا يعيشون حيــاة قبلية رعوية بين شقى أكبر امبراطوريتين فى ذلك الوقت هما دولة الفرس ودولة الروم أو الدولة البيزنطية • غير أن الاسلام بعظمته استطاع فى أقل من ربع قرن من الزمان أن يوحد بين العرب ، ويجعل منهم قوة استطاعت أن تهزم دولتى الفرس والروم ، وأن ينشر الاسلام فى أنحاء العالم المعروف وقتذاك فى آسيا وأوروبا وافريقيــة •

وخرج العرب المسلمون من جزيرتهم يحملون رسالة عالمية ، ولم يظلوا البدو الرحل أهل الوبر والمدر • وأحدث الاســلام أيضا ثورة فكرية حضــارية فى عالم العصور الوسطى ، وضرب مجتمع المدينــة المنورة فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم الأمثلة فى التآخى والايمان والفضــائل والتكافل والبر والرحمة بدلا من النزاع القبلى والفوضى التى عاش عليها العرب فى جزيرتهم قرونا طويلة • وضرب المسلمون أروع الأمثلة فى الايثار والقدوة الحســنة والفضائل ، وسار

المسلمون الأوائل على أساس دستور الهى محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن الكريم .

واستطاع الاسلام بكل ما احتواه من ثراء روحى وفكرى واجتماعى أن يخلق حضـارة عظيمة فكرية ومادية ، تمثلت فى ذلك التراث العظيم من علوم الدين والتفسـير والتشريع والحديث واللغـة والأدب ونظم الحكم والعلوم التجريبية . وقام بهذه الحضـارة الاسلامية أجيـال من العلماء والمفكرين ترجموا ونقلوا من الحضارات القديمة ثم شرحوها وأضافوا اليها ثم قدموها . وأعادوا صياغة المنهج العلمى الاستقرائى وحولوه من الاتجـاه التأملى الذى وضعه فيه اليونانيون الى اتجـاه أكثر التصاقا بالواقع مما جعل أوروبا تنهل من هذه الحضارة الرائدة .

ولكى تتضح لنا حقيقة العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين منذ ظهور الدعوة الاسلامية ، لابد أن نلقى نظرة سريعة على أحوال الدولة البيزنطية خـلال العشرين سنة الأولى من حكم الامبراطور هرقل ، أى من سنة ٦١٠ ، وهى السنة التى تولى فيها عرش القسطنطينية حتى سنة ٦٢٩ حين التقى المسلمون بالبيزنطيين عند مؤتة .

ويبدو أن أسرة هرقل انحدرت من أصـل أرمينى ، وتولى هرقل الكبير أبو الامبراطور هرقـل الولاية البيزنطية فى شـمال افريقيـة سنة ٦٠٧ م . واشترك هرقل الكبير فى مؤامرة ضد الامبراطور البيزنطى فوقاس (٦٠٢ ـــ ٦١٠) الذى كان عصره من عصـور الانهيار العسكرى والاقتصادى ، وانتهت هذه المؤامرة باعتلاء ابنه هرقل عرش الدولة البيزنطية فى القسطنطينية فى ١٥ أكتوبر سنة ٦١٠ م(١) .

وكانت الدولة البيزنطية عندما تولى هرقل حكمها ، قد حل بهـا الخراب اذ ساءت أحوالها الاقتصـادية ، وعمت بها الفوضى وفسدت

(١) عمر كمال توفيق ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٦٥ ، أنظر أيضا أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠١ ـــ ١٠٢ .

الادارة الحكومية وقل عدد الجيش • وتعرضت بعض أقاليم الدولة لاغارات الفرس من الشرق ، والآفار والصقالبة من الغرب بعد أن انتشروا فى شبه جزيرة البلقان • وفى سنة ٦١١ عزم الفرس على غزو الشام ، وهزموا البيزنطيين سنة ٦١٣ عند أنطاكية أهم مدينة فى الولايات البيزنطية الشرقية • ثم استولى الفرس على دمشق ومنها اتجهوا الى فلسطين ، واستولوا فى السنة التالية ٦١٤ على بيت المقدس بعد حصاره عشرين يوما • وكان استيلاء الفرس على بيت المقدس لطمة قاسية للدولة البيزنطية اذ استولوا على ما به من دور وكنائس ونقلوا الصليب المقدس الى عاصمتهم المدائن • وتقدم جانب من الجيش الفارسى فى آسيا الصغرى حتى وصل سنة ٦١٥ فى زحفه الى مدينة كريسو بوليس Chrysopolis المواجهة للقسطنطينية • وتقدم جيش فارسى آخر نحو مصر وسقطت الاسكندرية فى سنة ٦١٨ أو ٦١٩ • وفضل المسيحيون المونوفيزتيون فى مصر — مثل سكان الشام — الحكم الفارسى على السيادة البيزنطية ، لما عانوه من اضطهاد مذهبى • وكان فقد مصر ضربة عنيفة للدولة البيزنطية،لأن مصر كانت تمد القسطنطينية بالقمح • وأحدث عدم وصول القمح الى القسطنطينية ضائقة اقتصادية فى العاصمة البيزنطية • كما انقطع عن هرقل مصادر القوة البشرية والمؤن من البلقان والشرق الأدنى(٢) •

وأصاب هرقل اليأس ، وفكر جديا فى الانتقال الى قرطاجنة حيث كانت لأسرته بها السلطة ، ولكى يتخذها قاعدة له • وحدث أن السفينة التى كانت تحمل كنوز القصر غرقت فى عاصفة بحرية وأخذ بطريرك القسطنطينية سرجيوس Sergius قسما على الامبراطور بألا يغادر العاصمة • وقدم له كنوز الكنيسة لتكون تحت تصرفه • وصبغت الحرب

---

(٢) Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 195 — 196 ; Vryonis, Byzantium, pp. 58 — 59 ;
عمر كمال توفيق ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٦٦ — ٦٧ ، ابراهيم العدوى ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٢٤ .

ضد الفرس بصبغة دينية حماسية ، وشعور وعداء دينى ، وأخذت صفة حرب صليبية قبل الحروب الصليبية ضد المسلمين • وكانت أول حرب شنتها بيزنطة بحافز من الحماس الدينى لانقاذ المسيحية من عباد النار ، واسترداد الأراضى المقدسة واعادة الصليب(٣) •

ولكى يتفرغ هرقل لمحاربة الفرس عقد معاهدة مع الآفار ، وافق بمقتضاها على أن يدفع لهم اتاوة كبيرة ، وذلك لكى يتمكن من نقل قواته من أوروبا الى آسيا • وفى ابريل سنة ٦٢٢ م غادر هرقل القسطنطينية لقتال الفرس • واستطاع أن يحرر آسيا الصغرى • غير أن خان الآفار انتهز فرصة غياب هرقل عن العاصمة ونقض الصلح وتقدم سنة ٦٢٦ من شبه جزيرة البلقان نحو القسطنطينية فى جموع ضخمة من الآفار والصقالبة • وأرسل الملك الفارسى جيشا لمساعدة الآفار والصقالبة فى محاصرة القسطنطينية برا وبحرا • وفشلت كل محاولات الفرس والآفار أمام المدافعين عن القسطنطينية ورفعوا الحصار عن العاصمة البيزنطية(٤) • وسجل البيزنطيون دفاعهم الناجح عن مدينتهم فى سلسلة من الترانيم Akathistos تنسب الى البطريرك سرجيوس لا تزال تغنى فى الكنائس الأرثوذكسية خلال أعياد الفصح(٥) •

وانتهى النزاع البيزنطى الفارسى فى سنة ٦٢٧ م عندما حقق هرقل هزيمة ساحقة ضد قوات الفرس على مقربة من أطلال نينوى

---

(٣) Vryonis, Byzantium, pp. 59— 60 ;
أسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٢٢٥ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٠ ، أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٥ •

(٤) Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 196 — 197 ;
Ostrogorsky, Byzantine state, pp. 87, 102 ;
أسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٢٢٨ — ٢٣٠ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٢ •

(٥) Vryonis, Byzantium, p. 60.

(قرب مدينة الموصل الحالية) وتقدم داخل الولايات الفارسية • وتقرر في هــذه المعركة مصير النزاع بين الفرس والبيزنطيين اذ اضطر الفرس الى طلب الصلح واسترد الروم جميع أقاليمهم التى فقدوها فى أرمينية والشام وفلسطين ومصر(٦) • وكان انتصار الروم على الفرس تأكيدا لمــا ورد فى القرآن الكريم فى سورة الروم « آلم ، غلبت الروم ، فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضــع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »(٧) •

وعندما عاد هرقل الى القسطنطينية استقبل استقبالا حافلا من جانب سكان العاصمة ورجال الدين وأعضــاء السناتو • ثم سار بعد ذلك الى بيت المقدس سنة ٦٣٠ م فنصب من جديد الصليب المقدس الذى اســترده من الفرس • وتجدر الاشــارة الى أن المؤرخ وليم الصورى William of Tyre (١١٣٠ — ١١٨٤ م) سجل فى الفصــل الأول من كتابه الشهير عودة هرقل منتصرا من فارس حاملا معه الصليب المقدس وقيامه بزيارة بيت المقدس(٨) •

وبينما كانت الحرب قائمة بين الفرس والبيزنطيين كانت هنــاك أحداث ضخمة جرت فى بلاد الحجاز لم يهتم بها الروم رغم أن العرب عرفــوا الكثير عن دولتهم ، وذلك بفضــل الطريــق التجــارى الى فلسطين والشام الذى سلكه القرشيون فى رحلة الصيف ، كما أشار

---

(٦) Vasiliev, Byzantine empire, I. pp. 197 — 198 :
العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٣ ، اومان ، الامبراطوريــة البيزنطية ، ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٧) ســورة الروم ،آيات ١ — ٥ .

(٨) William of Tyre : History of Deeds done beyond the Sea, New York, 1943, Vol. 1, p. 60.

الى ذلك القرآن الكريم فى سورة قريش(٩) • وكان لانتصار الفرس على الروم واستيلائهم على بيت المقدس سنة ٦١٤ ما أضعف هيبة الروم أمام العرب • ومن الثابت أن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم ، لأن الله سبحانه وتعالى أرسل سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم شاهدا ومبشرا ونذيرا ، ليهدى الناس كافة الى دين الحق • ومن ثم غدت مهمة الرسول الكريم بعد أن تم نشر الاسلام فى بلاد العرب أن يدعو الأمم المجاورة لاعتناق الاسلام والايمان بالرسالة • ففى شهر ذى الحجة سنة ست من الهجرة/ابريل ٦٢٨ م بعث الرسول صلى الله عليه وسلم رسلا من أصحابه الى ملوك وأمراء الدول المجاورة لجزيرة العرب ، وكتب معهم كتبا مؤداها الترغيب فى الاسلام ، فبعث الصحابى دحية بن خليفة الكلبى الى هرقل فلقيه فى بصرى بالشام ، وقيل فى بيت المقدس • ويقال ان هرقل رد على الرسالة ردا حسنا ، وقال لصاحب الرسالة : « عندما يسلم به أقرب الناس اليه نرى رأينا »• كذلك وجه الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا الى المقوقس ، وهو قيرس أو كيروس عظيم القبط وحاكم الاسكندرية ، مع الصحابى حاطب بن أبى بلتعه اللخمى • واستقبل المقوقس رسول النبى صلى الله عليه وسلم بالبشر والترحاب وناقشه فى مضمون الرسالة ، وسأله عن النبى عليه الصلاة والسلام ودعوته • ثم صرف حاطبا بكتاب منه الى النبى وهدية عبارة عن جاريتين وبعض خيرات مصر • وقبل الرسول الكريم هذه الهدية وتزوج من احدى الجاريتين وهى السيدة مارية القبطية المصرية، وأنجب منها ابنه ابراهيم ووهب شقيقتها سيرين للشاعر حسان بن ثابت(١٠) •

---

(٩) القرآن الكريم ، سورة قريش ، آيات ١ — ٢ •

(١٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ٤٥ — ٥٣ ، ابن الفراء ، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، ص ٢٤ — ٢٦ ، وكانت رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم الى هرقل : « من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فانى ادعوك بدعاية =

والحقيقـــة أن البيزنطيين نظـــروا الى ظهور الاســـلام نظـــرة خاطئة(١١) • ويبدو أنهم نظروا الى الاســـلام على أنه مذهب شبيه بمذهب آريوس ، واعتقدوا أنه مذهب من مذاهب المسيحية مثل المذهب المونوفيزتى المنتشر فى مصر والشام • ولم يدرك البيزنطيون وقتذاك أن هناك عقيدة جديدة ظهرت فى الجزيرة العربية ، وأن الاســـلام لم يأت لطبقة من الطبقات أو جنس من الأجنـــاس أو فئة من الفئـــات ، أو لجماعة أو لنوع من البشر ، وانما الاســـلام كان دعوة للانسان فى كل زمان ومكان : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا »(١٢) • وعالمية الاسلام تدعو الى وحدة بشرية لبنى الانسان ، وبالتالى لم يكن هدف الاســـلام توسعيا أو استعماريا ، وانما كان نشر الدعوة واسقاط البغاة ، والقضـــاء على نظم طالمـــا استعبدت الانسان قرونا طويلة ، وفرض نظام جديد يقوم على تشريع سماوى محكم قائم على المساواة وتحرير الروح والبدن ، ولهذا كان الجهـــاد فى الاسلام يهدف الى ازالة العوائق التى حالت دون نشر الدعوة بطريق سلمى • فالحماســـة الدينية من أجل صدق العقيدة ، دفعت المسلمين الى أن يحملوا رسالة الاسلام معهم الى شعوب البلاد التى فتحوها ، لأنه كان عليهم تبليغ

= الاسلام ، اسلم تسلم ، واسلم يؤتك الله اجرك مرتين ، فان توليت فان عليك اثم الاريسيين ، يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، الا نعبد الا اللهولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٣٧٦ — ٣٧٧ ، انظر ايضا محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية والمعهد النبوى والخـــلافة الراشدة ، ص ٨١ — ٨٦ ، عبد الجبار السامرائى ، الرسائل التى بعث بها النبى صلى الله عليه وسلم الى ملوك الدول المجاورة ، مجلة الفيصل ، العدد ٥٥ محرم ١٤٠٢ هـ نوفمبر ١٩٨١ ص ٧١ — ٧٣ ، ٧٨ — ٧٩ ، وعن كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى المقوقس وجوابه ، أنظر محمد حميد الله ، نفس المرجع ، ص ١٠٥ — ١٠٨ ، والأريسيين كلمة ليست عربيـــة ويبـــدو ان معناهـــا الرعايا العاديين •

(١١) انظر Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 207.

(١٢) القرآن الكريم ، سورة سبأ ، آية ٢٨ •

الدعوة ودوافعها وألوان نشاطها(١٣) • وهناك عوامل كثيرة ساعدت المسلمين الأوائل على تحقيق أهدافهم لنشر الاسلام فيما بين المحيط الهندى والمحيط الأطلسى فى سنوات قليلة ، بل وتجاسروا على مهاجمة امبراطوريتى الفرس والبيزنطيين ، وهما أكبر امبراطوريتين عرفهما العالم عند مستهل القرن السابع الميلادى • فقد استفاد العرب بما تم لهم من وحدة دينية وسياسية ، وما غلب عليهم من روح البذل والتضحية والجهاد فى سبيل نشر هـذا الدين الجديد الذى أخرج الانسانية من الظلمات الى النور • واستفاد المسلمون من القتال والصراع الذى أضعف كلا من دولتى الفرس والروم ، وأدى الى انهيـار سـياسى وحربى واقتصـادى لكل منهما • كما استفادوا أيضـا مما عاناه سكان مصر والشام أتباع مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزتيون) ، من اضطهاد مذهبى من قبل ولاة الدولة البيزنطية الملكانيين (أنصار مذهب الطبيعتين مذهب الدولة) ، ومما سمعوه عن تسامح المسلمين فى أمور العقيدة •

وفوجىء البيزنطيون سنة ٨ هـ/٦٢٩ م بخبر قرب وصـول جيش من المسلمين أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم بقيادة زيد بن حارثة الكلبى الى قرية مؤته على تخوم البلقاء جنوبى البحر الميت • وكان عدد المسلمين حوالى ثلاثة آلاف مجـاهد ، بينما استعد البيزنطيون بأضعاف هـذا العدد • ولمـا نزل المسلمون معان — وهى مدينـة فى طرف بادية الشام — للنظر فى أمرهم ، أرادوا الكتابة الى رسـول الله صلى الله عليه وسلم ليخبروه بعدد العدو ، فاما أن يمدهم بالرجـال أو أن يأمرهم بأمره • غير أن الصحابى الجليل عبد الله بن رواحة شجع الناس قائلا : « يا قوم ، والله ان الذين تكرهون للذى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فانما هى احـدى الحسنيين ،

---

(١٣) انظر توماس ارنولد ، الدعوة الى الاسلام ، ص ٢٥ — ٣٣ .

اما ظهور واما شهادة » • وفى معركة مؤته تأكد للبيزنطيين أن هذه القوة الجديدة التى خرجت من شبه جزيرة العرب لم تكن غارة من غارات البدو التى تبغى السلب والنهب والتى اعتاد عليها الروم قبل الاسلام ، بل رأوا العرب المسلمين لأول مرة فى تاريخهم قد ظهروا مزودين بعقيدة سماوية أدت الى تماسكهم وتفانيهم فى سبيل عقيدتهم • ووجد البيزنطيون الدليل على ذلك آنه استشهد ثلاثة من القادة المسلمين وهم يقاتلون فى حماسة وايمان واصرار وهم زيد بن حارثة رضى الله عنه وجعفر بن أبى طالب أو جعفر الطيار رضى الله عنه الذى ذكر ابن هشام وغيره أنه « أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضى الله عنه فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يضربهما حيث شاء » • وثالث القادة هو عبد الله بن رواحة رضى الله عنه • واستطاع خالد بن الوليد أن يأخذ اللواء ويدافع الروم وينحاز بالمسلمين حتى انهى المعركة فى خبرة عسكرية نادرة • وعاد بالجيش ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم له قائلا : « اللهم انه سيف من سيوفك فأنت تنصره » فسمى منذ ذلك الوقت سيف الله(١٤) •

وفى السنة التالية لغزوة مؤته (٩ هـ/٦٣٠ م) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لغزو البيزنطيين فى زمن عسرة من الناس ، وشدة من الحر ، وجدب فى البلاد ، ولذا سمى الجيش باسم جيش العسرة • وأنفق عثمان بن عفان رضى الله عنه فى تلك الغزوة نفقة عظيمة لم ينفق أحد أعظم من نفقته • وقاد الرسول صلى الله عليه وسلم حملة الى

---

(١٤) عن غزوة مؤتة انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٥ — ٣٠ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٣٦ — ٤٢ ، ابو الربيع الكلاعى ، الاكتفاء فى مغازى رسول الله ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ — ٢٨٦ ، ابراهيم احمد العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٦ — ٣٧ ، شكرى فيصل ، حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول ، ص ٢٦ — ٢٧ •

تبوك ، وكانت أشبه بمناورة حربية فى المنطقة الواقعة بين أراضى الروم وشبه الجزيرة العربية • واكتفى الرسول صلى الله عليه وسلم بالعمل على تأمين حدود الحجاز الشمالية ، وبعث سرايا الى الجهات المجاورة لتبوك ، ثم عاد الجيش الى المدينة بعد أن أقـام فى تبوك بضع عشرة ليلة • وكان الرسول صلى الله عليه وسـلم يستهدف التمهيد للدعوة الاسلامية فى الشام ، وأن يبين للمسلمين أن الروم (بنى الأصفر) قـد آذنت شمسـهم أن تنحسر عن هـذه البـلاد أمـام الجهـاد الاسـلامى(١٥) •

وانتقل الرسـول صلوات الله عليه وسـلامه الى الرفيق الأعلى سنة ١١ هـ/٦٣٢ م بعد أن أعد حملة حربية بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ابن القائد الذى استشهد فى مؤته • وأمره الرسول « أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم ، من أرض فلسطين »(١٦) • وعمـل الخليفة الأول أبو بكر الصـديق رضى الله عنه على تحقيق أهـداف الرسول صلى الله عليه وسلم ، اذ بعث أسامة على رأس جيشـه الى شمال بلاد العرب لحرب البيزنطيين • وخرج الخليفة أبو بكر ماشـيا لتوديع أسـامة والمسـلمين ويوصـيه • ويبدو أن غرض الخليفـة ــ وقتذاك ــ كان هو معرفة قوة البيزنطيين فى بلاد الشـام وكانت تعليماته لأسامة ولقادة المسلمين ألا يتجاوزوا أراضى أطراف الدولة البيزنطية شمال بلاد العرب • وأوصى الخليفة أبو بكر الصديق المسلمين بالضعفاء خيرا ، وحثهم على أن يؤمنوا الناس على أموالهم وأرواحهم

---

(١٥) انظـر : البـلاذرى ، فتوح البلدان ، القسـم الأول ، ص ٧١ ــ ٧٢ ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٥٩ ــ ١٧٣ ، تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص١٠٠ ــ ١١١ ، الواقدى ، كتاب المغازى ، ج ٣ ، ص ٩٨٩ ــ ١٠٢٢ ، أبو الربيع الكلاعى ، الاكتفاء فى مغازى رسول الله ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ ــ ٣٨٨ ، شكرى فيصل ، حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول ، ص ٢٧ ــ ٢٩ .

(١٦) انظر ابن هشام ، السيرة ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

ولا يغدروا « ولا يقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة » ولا يتعرضوا لطقوسهم الدينية(١٧) •

وبعد أن انتهى الخليفة أبو بكر الصديق من حروب الردة أعد الجيوش الاسلامية للجهاد فى سبيل الله فى بلاد الشام فى صفر سنة ١٣ هـ/ابريل ٦٣٤ م • وعقد الخليفة الألوية لأشهر قادة المسلمين وهم أبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وشر حبيل بن حسنة • وكانت وجهة القائد أبى عبيدة بن الجراح حمص، ووجهة يزيد بن أبى سفيان دمشق(١٨) ، ووجهة شر حبيل بن حسنة وادى الأردن ، ووجهة عمرو بن العاص فلسطين • ووجه الخليفة القائد خالد بن الوليد الى أرض فارس الى حين تدعو الحاجة اليه • وعندما أسرع الامبراطون البيزنطى هرقل فى تنظيم جيوشه ، استدعى الخليفة خالدا الى الشام وبالتالى اتخذت حركات الجيوش الاسلامية شكل المعارك الكبرى • واجتاز خالد بادية الشام فى خمس ليال كما يذكر الطبرى بطريقة تدل على عبقرية عسكرية فذة • ونزل خالد على بصرى وهى مدينة تجارية حصينة وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشر حبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان ، فاجتمعوا عليها حتى فتحها الله على المسلمين ، فكانت أول مدينة من مدائن الشام فتحت فى خلافة أبى بكر(١٩) •

واستطاع خالد بن الوليد أن يجمع شمل المسلمين ويوحد القيادة وأمره بقية القادة • وكتم خالد رسالة قدمت من المدينة بوفاة الخليفة أبى بكر الصديق وتأمير أبى عبيدة حتى لا ينتشر الخبر بين

---

(١٧) الواقدى ، كتاب المغازى ، ج ٣ ، ص ١١١٧ — ١١٢٧ ، تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، ابراهيم العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٨ .
(١٨) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ ، انظر أيضا البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الأول ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(١٩) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٤١٥ — ٤١٨ .

الجند عشية مواجهــة أكبر تجمع للروم عند اليرموك • وتجلت عبقرية خالد العسكرية مرة أخرى فى معركة اليرموك ، اذ أنزل بالبيزنطيين هزيمة ساحقة فى وادى نهر اليرموك (سنة ١٣ هـ/٦٣٤ م) ، وهى معركة من المعارك الحاسمة فى التاريخ ، اذ قتل فيها صناديد وفرسان البيزنطيين ، وقتل أخو الامبراطور هرقل ، وخرجت بلاد الشام من الكفر الى الاســلام(٢٠) •

ولمــا علم هرقــل بانتصــار المسلمين فى اليرموك وكان فى بيت المقدس أسرع بالرحيل الى حمص • وتتابعت الفتوحات الاســلامية فى بلاد الشام ، ففتح المسلمون دمشق عاصمة الشام ومحط رحــال القوافل فى رجب ١٤ هـ(٢١) • وفى السنة التالية ١٥ هـ/٦٣٦ م تم فتح حمص بعد حصــار طويل عانى منه المسلمون كثيرا(٢٢) •

وعــلم عمرو بن العاص فى نفس الســنة (١٥ هـ/٦٣٦ م) أن البيزنطيين قد حشدوا جيوشهم فى بيت المقدس وغزة والرملة وعلى رأسها قائد فلسطين البيزنطى المسمى أرطبون (أريطيون) وعسكر بجنده بأجنادين • وعندما رأى عمرو كثرة عدد البيزنطيين كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب بالخبر • ولمــا وصل كتاب عمرو الى الخليفة قال عمر « قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب (يقصد عمرا) ؛ فانظروا عم تنفرج »(٢٣) • واقتتل المسلمون والبيزنطيون قتالا شديدا

---

(٢٠) عن وقعــة اليرموك انظر : الواقدى، فتوح الشــام ، ج ١ ص ٩٦ ــ ١٤٣ ، البــلاذرى ، فتوح البــلدان ، القســم الأول ؛ ص ١٦٠ ــ ١٦٣ ، تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ ــ ٤٠٣ .

(٢١) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٤٣٤ ــ ٤٤١ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الأول ، ص ١٤٤ ــ ١٥٤ .

(٢٢) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٥٩٩ ــ ٦٠١ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ١٥٥ــ ١٥٩ ، الواقدى ، فتوح الشــام ؛ ج ١ ، ص ٦٣ ــ ٦٥ .

(٢٣) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٦٠٥ .

عند أجنادين (موضـــع قريب من الرملة) بعد أن عرف عمرو نقاط الضعف فى مواضـــع البيزنطيين ، وكان قتالا شديدا كقتال اليرموك كما أشار الدابرى • وكتب الله النصر للمسلمين فى هـــذه المعركة الهامة التى فتحت للمسلمين فلسطين • فقد فتح عمرو يافا ونابلس وعسقلان وغـــزة وغيرهـــا(٢٤) • وتم فتح بيت المقدس أواخر سنة١٥هـ/٦٣٥م وحضر الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه بعد أن طلب أهلها من أبى عبيدة أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام ، وتوكيدا للأمان وتوثيقا للعهد أن يكون المتولى للصلح الخليفة عمر بن الخطاب(٢٥) •

وهكذا فقد البيزنطيون بلاد الشام ، أجمل أقاليمهم فى الشرق ، وذكر الطبرى(٢٦) أن هرقل سأل رجلا من الروم كان أسيرا فى أيدى المسلمين ثم هرب ، أن يخبره عن حقيقة هؤلاء القوم « فقال : احدثك كأنك تنظر اليهم ، فرســـان بالنهار ، ورهبان بالليل ، ما يأكلون فى ذمتهم الا بثمن ، ولا يدخلون الا بســـلام ، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه • فقال (هرقل) : لئن كنت صدقتنى ليرثن ما تحت قدمى هاتين » • وعندما تمت الفتوحات الاسلامية فى الشام التفت هرقل اليها مودعا وقائلا : « عليك السلام يا سورية ، سلاما لا اجتماع بعده ، ولا يعود اليك رومى أبدا الا خائفا » •

وأتى دور مصر ، فقد أدرك المسلمون أهميتها ومركزها فى الدولة البيزنطية • فكانت تمد سكان القسطنطينية بالقمح • وكان الاستيلاء عليها معناه حرمان البيزنطيين من هـــذا المورد الهام وكسر شـــوكة مقاومتهم • كما أدرك قادة المسلمين أهمية موقع مصر وموانيها فى عالم البحر المتوسط وفى تأمين الفتوحات الاســـلامية فى بلاد الشام ،

---

(٢٤) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٦٠٥ ـــ ٦٠٧ .
(٢٥) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٠٧ ـــ ٦١٣ ، الواقدى ، فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١٤٣ ـــ ١٥٥ .
(٢٦) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ٦٠٢ ـــ ٦٠٣ .

وفى نشر الاسلام فى شمال افريقية • وتجدر الاشارة الى أن اضطراب أحوال الدولة البيزنطية وبخاصة بعد فقدهم لبلاد الشام كان من أهم أسباب ضياع ديار مصر ، وأن المسلمين جنوا ثمار سياسة الاضطهاد الدينى التى اتبعها البيزنطيون فى مصر ضد المونوفيزتيين • ولسنا فى مجال الحديث عن دوافع وأسباب فتح العرب لمصر وقصة الفتح(٢٧) ، فقد استولى عمرو بن العاص على الفرما (بلوزيوم) سنة ٢٠ هـ/٦٤٠ م بعد حصار دون أن تصل المدينة أية امدادات بيزنطية • وكانت هذه المدينة مدخل مصر من الشرق • ثم استولى المسلمون على بلبيس وحصن بابليون ثم اتجهوا الى العاصمة الاسكندرية التى سقطت فى أيديهم صلحا • وهكذا شاهد الامبراطور البيزنطى هرقل فى أخريات أيامه وقوع أهم وأغلى ولايات الدولة البيزنطية فى أيدى المسلمين •

وكان الامبراطور هرقل قد حاول انقاذ الدولة البيزنطية مما حل بها نتيجة غارات الفرس والعرب • فقام بمحاولة لتحقيق الوحدة المذهبية وأنشأ نظاما عسكريا اداريا فى آسيا الصغرى • أما عن تحقيق الوحدة المذهبية فمن المعروف أن المسلمين استفادوا — كما سبق ذكره — من الخلاف الدينى المذهبى بين مذهب الطبيعتين وهو المذهب الملكانى مذهب خلقدونية وبين مذهب الطبيعة الواحدة وهو المذهب المونوفيزتى الذى انتشر فى مصر والشام رغم أنف الدولة البيزنطية •

---

(٢٧) عن فتح العرب لمصر ، انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الأول ، ص ٢٤٩ — ٢٦٣ ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ، ص ٥٥ — ٨٤ ، الطبرى ، ج ٤ ، ص ١٠٤ — ١١٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، ج ١ ، ص ١٠٦ — ١٣٠ ، بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٤٤ — ٢٤٠ ، ابراهيم العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٤٤ — ٤٩ ، شكرى فيصل ، حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول ، ص ١١٨ — ١٢٦ •

وتجدر الاشارة الى أن انتشار المذهب المونوفيزتى أدى الى تقدم وانتشار اللغـة القبطية فى مصر والسريانيـة فى الشام حيث استخدمتا لأداء الطقوس الدينية وفى الآداب • وبالتالى يمكن القول بأنه منذ القرن السابع الميلادى ، أى بظهور الاسـلام ، أصبح النزاع بين رجـال الدين الخلقدونيـين اليونانيـين والمونوفيزتيـين المصريين والنساطرة السوريين أصبح نزاعا جنسيا وعقائديا وثقافيا •

وقام هرقل بمحاولة للوفاق بين اتبـاع المذهبين فى محـاولة يائسة للحفاظ على الوحدة الداخلية فى الولايات الشرقية • وتحمس بطريرك القسطنطينية سرجيوس Sergius الى عقيدة الارادة الواحدة فى المسيح أى أن ما للمسيح من طبيعتين الهية وبشرية تتسمان بارادة واحدة ، وهو المذهب الذى عرف باسم المونوثيليتية Monotheletism أى مذهب الارادة الواحدة • وتبنى الامبراطور هذه العقيدة ونشرها فى مرسوم صـدر سنة ٦٣٨ م باسم الايكثيسيز Ecthesis (تفسير الايمان) • ولم ينل هذا المذهب القبول من أى جانب فقد لقى معارضة من الأرثوذكس ومن المونوفيزتيين بل ومن البابا فى روما • ولم يؤد المذهب الجديد الا الى ازدياد العداء بين أتباع المذهبين وازديـاد النزعة الانفصالية فى الأقاليم الشرقية ، فى وقت فتح فيه المسلمون الشـام وفلسطين وتطلعوا لفتح مصر وانتزاعها من قبضـة الدولة البيزنطية • وهكذا لم يحقق مرسوم هرقل أية نتائج ايجابية ، وفشلت سياسة الوفاق المذهبى ، بل مهد هـذا المرسوم للعداء بين الشرق والغرب والقطيعة بين كنيستى روما والقسطنطينية(٢٨) •

---

(٢٨) Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 222 — 3 ; Vryonis, Byzantium, p. 62 ; strogorsky, Byzantine state, pp. 107—100 ;
العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١١٧ — ١١٩ ، عمر كمال توفيق ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧٤ — ٧٥ ، اسحق عبيد ، الامبراطوريـة الرومانيـة ، ص ٩٣ .

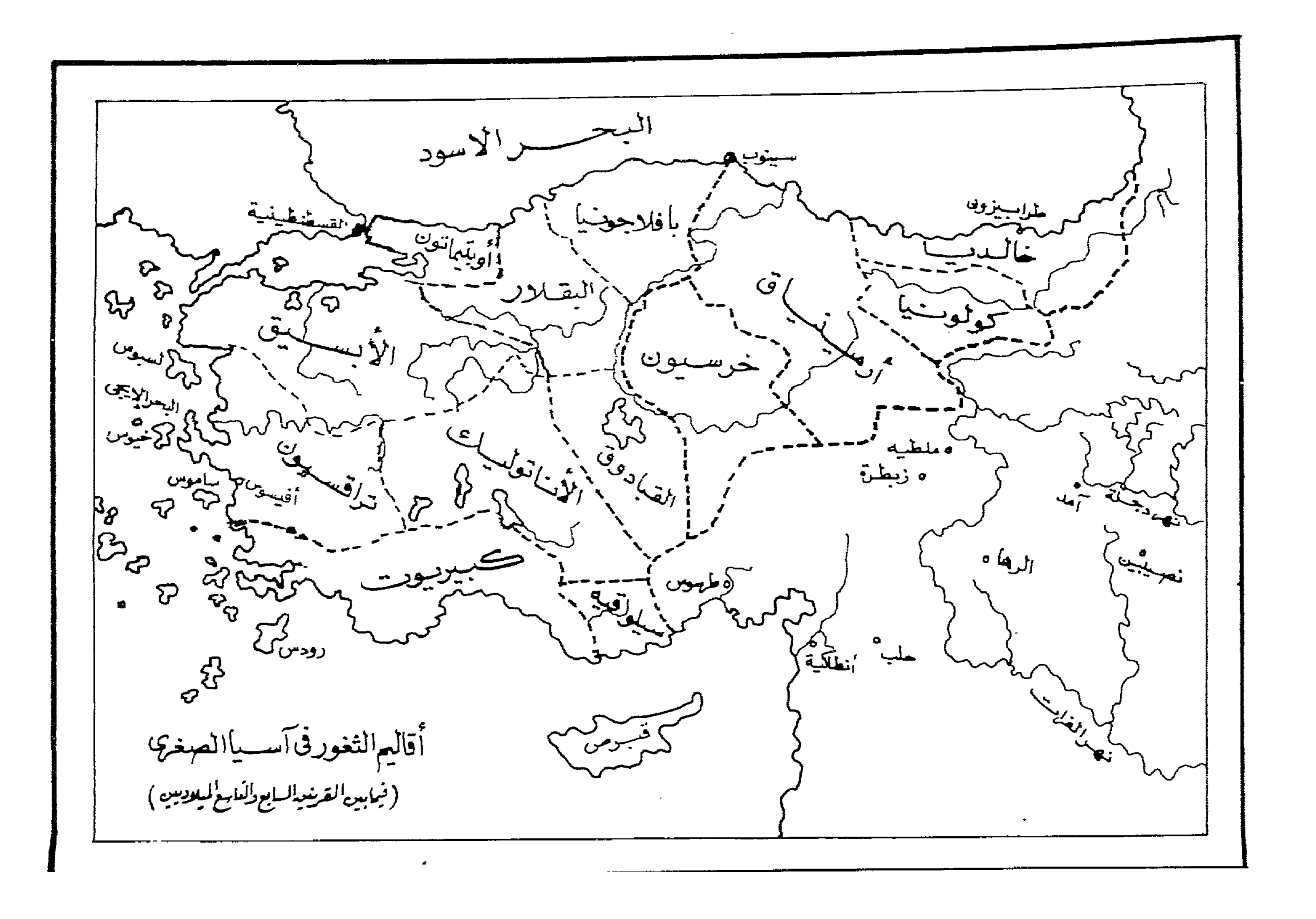
أما عن التغيير الادارى — العسكرى أو ما يسمى باسم نظــام الثغور أو الأجنــاد Themes الذى قام به هرقل ، فكان ولاشــك نتيجة اغارات الفرس ثم فتوحات العرب المسلمين • وعندما ازدادت أخطار الصقالبة والبلغار فى النصف الثانى من القرن السابع ، زاد أهمية هــذا النظــام وبدأ ينتشر فى أنحــاء الدولة البيزنطية • وكان المقصود فى الأصل بالكلمة اليونانية τὸ θέμα تعسكر فى أقليم من الأقاليم ، ثم أصبحت هذه الكلمة فيما بعد — ومن المحتمــل فى القرن الثامن الميلادى — تدل ليس فقط على الحاميــة العســكرية ، بل كذلك على الأقليم الذى تقيم فيه ، وبالتــالى بدأت الكلمة تدل على التقسيمات الادارية للدولة البيزنطيــة • وفى القرن العاشر كتب الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع بورفيرو جنيتوس الأرجوانى Constantine Porphyrogenitus (٩١٣ — ٩٥٩) كتابا خاصا عن الثغور On Themes وهو المصــدر الرئيسى لتاريخ هذا النظام • وأرجع هــذا الامبراطور فى كتابه بداية نظام الثغور الى عصر هرقل • غير أن هذا الكتاب الذى كتبه قسطنطين السابع فى القرن العاشر ، أى بعد عصر هرقل بحوالى ثلاثة قرون ، لا يستطيع أن يعطى صورة واضحة عن نظام الثغور فى القرن السابع(٢٩) •

ومن المعــروف أن السياســة الادارية لكل من دقلديانوس وقسطنطين الكبير القائمة على أســاس الفصل بين السلطتين المدنيــة والعسكرية أفادت الامبراطورية مؤقتا فى عدم قيام فتن فى أقاليمها • وعندما هددت الدولة البيزنطية بعض الاخطــار الخارجية بالدمار ،

---

(٢٩) Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 226 ; Vryonis, Byzantium, p. 71.

واطلق المسعودى على الثغور البيزنطية اسم (البنود) وربما جاءت تلك التسمية من الرايات أو البنود التى اتخذتها الفرق العسكرية شعارا لها • أنظر ابراهيم العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٥ •



أقاليم الثغور في آسيا الصغرى
(فيما بين القرنين السابع والتاسع الميلاديين)

وتطلب الأمر بعض الاجراءات العسكرية ، كان لابد من اجتناب سياسة الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية • فعندما هدد اللومبارديون ايطاليا قام الامبراطور موريس Maurice (٥٨٢ — ٦٠٢) بتوحيد السلطتين المدنية والعسكرية فى يد أرخون رافنا the exarch of Ravenna ، وعندما هدد البربر ولاية شمال افريقية قام موريس بوضع السلطات كلها فى أيدى أرخون قرطاجنة • وهكذا بدأ اضفاء الصفة العسكرية على ادارة ولايات الامبراطورية ، وأدى هذا الى تغيير ادارى واجتماعى كبير ، وكانت فى هذه الأرخونيات أصول بوادر نظام الثغور(٣٠) •

وفى عصر هرقل تطور الأمر فأثناء غزوات الفرس فى أوائل القرن السابع قرر هرقل منح السلطة العسكرية لولاة أقاليم آسيا الصغرى فى نظام شبيه بالأرخونيات ، ثم تلى هذا الفتوحات الاسلامية واضطرت الدولة البيزنطية الى اتخاذ اجراءات ادارية — عسكرية على أطرافها الشرقية ، وهو ما يسمى باسم الثغور Themes ، اذ تولى رئاسة كل ثغر Theme قائد عسكرى Strategos استراتيجوس جمع فى يديه السلطة العسكرية بالاضافة الى الادارة المدنية فى اقليمه(٣١) •

ويرجع الى عصر هرقل نشأة أربعة أقاليم عسكرية كبيرة سميت فيما بعد باسم ثغور وهى :

١ — الأرمنياق (Armeniakoi) Armeniaci فى شمال شرق آسيا الصغرى على حدود أرمينية •

٢ — الاناتوليك (Anatolikoi) Anatolici من الكلمة اليونانية Anatoli (الشرق) •

---

(٣٠) Vryonis, Byzantium, p. 71.
(٣١) Ibid. p. 71 — 72 ; Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 227.

٣ ـــ الأبسيق Opsikion فى آسيا الصغرى قرب بحر مرمرة •

٤ ـــ الثغر البحرى الذى سمى فيما بعد فى القرن الثامن تقريبا كبيريوت Cibyrracot (Cibyraiot) فى الشاطىء الجنوبى لآسيا الصغرى والجزر المجاورة •

ويلاحظ أن الثغرين الأولين احتلا كل وسط آسيا الصغرى من حدود قيليقية فى الشرق الى شواطىء البحر الأيجى فى الغرب • وكان الغرض منهما حماية تلك الأقاليم من هجمات العرب المسلمين ، والثغر الثالث لحماية العاصمة من الأعداء • أما الثغر الرابع أى الثغر البحرى فكان ثغرا دفاعيا ضد الاسطول الاسلامى • غير أنه تجدر الاشـــارة ـــ كما ذكر فازيليف ـــ الى أن نشأة الثغور لم تكن نتيجة قرار واحد بل كان لكل ثغر تاريخه الخـــاص به ، وهـــذا هو السر فى مشـــكلة بحث نشأة الثغور البيزنطية(٣٢) •

وعندما بدأ المسلمون يسيطرون على الســـاحل الشرقى للبحر المتوسط ، واستقر الصقالبة فى أقاليم هامة من شبه جزيرة البلقان وتوغلوا حتى البيلوبونيز ، ونشأت مملكة البلغار فى النصف الثانى من

---

(٣٢) Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 227 — 228 ;
وللمصادر العربية اهمية كبيرة لدراسة الثغور أو البنود البيزنطية ، فقد نقل ابن خرداذبه (توفى حوالى ٣٠٠ هـ/٩١٢ م) فى كتابه المسالك والممالك عن مسلم بن أبى مسلم الجرمى معلومات هامة عن اعمال (ثغور) الروم . وأورد قدامه بن جعفر (توفى ٣٣٧هـ/٩٤٨م) فى كتابه الخراج وصنعة الكتابة قائمة بأعمال الروم . اما المسعودى (ت ٣٤٥/٩٥٦م) فقد ذكر فى كتابه التنبيه والاشراف معلومات هامة عن الثغور البيزنطية تحت عنوان (ذكر بنود الروم) ، انظر ايضا ، العرينى ، أجناد الروم ، ط . القاهرة ١٩٥٦ ، فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ١، ص١٠٤ـــ١١٣
Brooks, Arabic lists of the Byzantine Themes, **Journal of Hellenic Studies**, Vol. XXI (1901), pp. 67 — 77.

القرن السابع عنـــد الأطراف الشمالية لبيزنطـــة ، كان على الدولة البيزنطية أن تنشأ ثغورا جديدة للوقوف فى وجه هذه الأخطار .

وبرهن نظام الثغور على أهميته وفاعليته للدفـــاع عن الدولة البيزنطية . ففى نظام الثغور منح الجند قطائع من الارض لزراعتها مقابل الخدمة العسكرية لترغيبهم فى الاستقرار . ولا شك أن هذا النظام العسكرى — الادارى كان ذا فائدة عظيمة للدولة لأنه خلق جيشا جديدا من الجند المزارعين . وكان تحت يد الجندى المزارع قطعة من الأرض الزراعية تمده بالموارد الاقتصـــادية التى يعيش عليهـــا ويشترى بها ما يلزمه من آلات الحرب للقتال ، مما جعله على أهبة الاستعداد للخروج للقتال بسلاحه وحصانه . وبالتالى أمد نظام الثغور كل أقليم بجيش ثابت كان مستعدا دائما طول الوقت لمواجهة العدو . وحرر هذا النظام الدولة البيزنطية من الجند المرتزقة الأجانب الذين كانوا عنصرا ظاهرا فى الجيش البيزنطى خلال القرون الســـابقة ، وأثقلوا كاهل الدولة . وكان ولاء الجند المرتزقة مرتبطا برواتبهم فى حين كان الجندى المزارع يســـتمد ولاءه من حماســـته ومن الموارد الاقتصادية التى يجنيها من قطيعة الأرض التى تحت يده . يضاف الى ذلك أن ارتقاء جانب من طبقـــة المزارعين الى الطبقة العســـكرية ، ومساعدة الدولة للمزارع كمالك حر للأرض أدى الى تقوية طبقـــة المزارعين ، وساعد ذلك الى درجة كبيرة فى توطيد الهيكل الاجتماعى للامبراطورية(٣٣) .وهكذا أصبح نظام الأجنـــاد أو الثغور العمـــود الفقرى للدولة البيزنطية ولم تأخذ الدولة فى الانهيـــار الا عندما انهار هذا النظام(٣٤) .

---

(٣٣) Vryonis, Byzantium p. 72.

(٣٤) انظر : Charles Diehl, Byzantium, p. 9.

المسلمون والبيزنطيون بعد عصر هرقل :

أحدثت الفتوحات الاسلامية فى الشام ومصر هزة عنيفة فى كيان الدولة البيزنطيـــة بدليل ماحدث من اضطرابات وفتن ومؤامرات بعــد وفاة هرقل فى فبراير ســـنة ٦٤١ • وأخيرا قرر السناتو توليــة حفيـــد هرقـــل المســـمى قنســـطانز (٦٤١ ـــ ٦٦٨) امبراطـــورا • وشاهدت السنوات الاولى من حكم قنسطانز الثانى Constans II امتداد حركة الفتوحات الاسلامية فى شمال أفريقية • وكان الفتح الاسلامى لبرقة وطرابلس (المغرب) نتيجة حتمية اقتضتها طبيعة حركة الفتوحات الاسلامية • فقد كانت برقة امتدادا طبيعيا لمصر ، وكان لابد من تطويق الدولة البيزنطية من المغرب وحماية وتأمين الفتوحات الاسلامية فى مصر والشام من خطر البيزنطيين(٣٥) • وبعد أن تم للعرب فتح مصر بمعاهدة الاسكندرية فى شوال ٢١هـ / سبتمبر ٦٤٢م، اتجه القائد عمرو بن العاص على رأس جيش لمـــد حركة الفتوحات الاسلامية غربا • واستولى عمرو على برقة آواخر سنة ٢٢هـ / أوائل ٦٤٣م وجعلها قاعدة لجيش المسلمين فى غرب مصر • وفى سنة ٢٣هـ/ أواخر ٦٤٣ م قـــاد عمرو بن العاص حملة أخرى خرجت من الفسطاط وفتح اقليم طرابلس ، واستولى على مدينة طرابلس بعد حرب مع البيزنطيين والبربر(٣٦) • وعندما توفى الخليفة عمر بن الخطاب فى نوفمبر ٦٤٤م استدعى الخليفة عثمان بن عفان عمرا وشجع هـــذا البيزنطيين على القيام بهجوم مضـــاد • وأرسلت الدولة البيزنطيـــة

---

(٣٥) انظر : السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ (العصر الاسلامى) ، ص ١٤١ ـــ ١٤٢ ، احمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٣٧ •

(٣٦) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٠ ـــ ١٧١ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ٢٦٤ ـــ ٢٦٦ ، ابن عذارى ، البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب ، ج١ ، ص٨ ، حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والاندلس ، ص٣١ ، شكرى فيصل ، حركة الفتح الاسلامى فى القرن الاول ص ١٥٦ ـــ ١٥٧ •

اسطولا كبيرا الى مصر بقيادة مانويل Manuel • واستطاع هذا القائد أن يأخذ الحامية الاسلامية على غرة واسترد الاسكندرية • وأعاد الخليفة عثمان القائد عمرو بن العاص بسرعة واستطاع أن يهزم قوات مانويل عند نقيوس Nikiu ودخل الاسكندرية ثانية سنة ٦٤٦م ، واضطر مانويل الى الهرب الى القسطنطينية • واستقبل الأقباط من أهل الاسكندرية بقيادة البطريرك بنيامين Benjamin المسلمين بترحاب كبير وفقدت بيزنطة الى الابد أغنى ولاياتها فى الشرق(٣٧) وبعد أن آمن المسلمون مركزهم فى الشام وأعالى الجزيرة التفتوا الى أرمينية وآسيا الصغرى • ففى سنة ٦٤٧ م غزا معاوية بن أبى سفيان والى الشام قبادوقيا واستولى على قيصرية فى آسيا الصغرى وعاد الى دمشق بغنائم وكثير من الأسرى(٣٨) •

وتابع المسلمون فتوحاتهم غربا على حساب الدولة البيزنطية • فعندما تولى الخلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، سمح سنة ٢٧ هـ/ ٦٤٧م لأخيه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر بغزو أفريقية على رأس حملة كبيرة اشترك فيهاجماعة من الصحابة وأبناء الصحابة ، والكثيرون منهم يسمون عبد الله من أشهرهم عبد الله ابن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير ، ولهذا سمى هذا الجيش جيش العبادلة • والتقى المسلمون بالجيش البيزنطى سنة ٢٨هـ/٦٤٩م فى مكان بالقرب من سبيطله جنوب غرب المكان الذى سوف تؤسس عليه القيروان فيما بعد • وكان الجيش

---

(٣٧) Ostrogorsky, Byzantine State, p. 115 ;
بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٣٤٣ — ٣٥٤ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٢٤ — ١٢٥ •

(٣٨) تاريخ الطبرى ، ج ٥ ، ص ٤٦ ؛
Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 115 — 116.

البيزنطى بقيادة أرخون افريقية جريجورى ويسميه العرب جرجير • وانتصر المسلمون فى هذه المعركة انتصارا حاسما وقتــل جرجير ، ووقف المسلمون على حالة تلك البلاد ، ولم يعد للدولة البيزنطية قوة عسكرية كبيرة فى افريقية(٣٩) •

وكانت انتصارات المسلمين فى شمال افريقية دليلا جديدا على فشل الدولة البيزنطية فى حل خلافاتها المذهبية مع رعاياها • فقد وقف سكان شمال افريقية موقف المناوىء من المذهب المونوثيليتى الذى نادى به الامبراطور هرقل • وعاش فى شمال افريقية فى ذلك الوقت عالم دينى ارثوذكسى اسمه ماكسيموس المعترف Maximus Confessor الذى كان من أشــهر المفــكرين الدينيين فى عصره • وبتحريض من ماكسيموس عقدت اجتماعات دينية فى كثير من مدن شمال افريقية فى سنة ٦٤٦م قررت أن المذهب المونوثيليتى الذى تسانده الدولة هرطقة دينية • وحاول الامبراطور قنسطانز الثانى ـــ كما حاول هرقل من قبل ـــ ايجاد حل لهذه المشكلة الدينية التى هددت الوجود البيزنطى فى شمال افريقية • وفى سنة ٦٤٨م أصدر الامبراطور قنســـطانز مرسوما جديدا عرف باسم Typus (Typicon) أى « نموذج الايمان » وبمقتضاه حرم النقاش فى مسألة الارادة الالهية ومسألة قدرة الله • ويقضى المرســوم بالاعتراف بطبيعتين للمســيح وبارادة واحــدة فى أســلوب غامض • جــاء « نموذج » قنسطانز ليزيد من تعقيد الأمور فيما يخص العقيدة • وعارض ماكسيموس هــذا المذهب ، وتدخلت كنيسة روما فى هذا النزاع المذهبى اذ دعا البابا مارتن الاول (٦٤٩ـــ

(٣٩) انظر : الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ ـــ ٢٥٦ ، ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ ـــ ١٨٧ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص٢٦٧ـــ ٢٦٨ ، ابن عذارى ، ج١ ص ٨ ـــ ١٢ ، السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ١٤٤ ـــ ١٥٢ ، حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والاندلس، ص ٣١ ـــ ٣٣ •

٦٥٥) الى عقد مجمع دينى فى روما سنة ٦٤٩ • وقرر هذا المجمع أن « نموذج الايمان » وبعض القرارات الدينية السابقة مثل مرسوم هرقل لا تصلح أن تكون أساسا للعقيدة الصحيحة • وأرسل البابا قرارات المجمع الى جميع الأساقفة ورجال الدين والى الامبراطور نفسه • وغضب الامبراطور قنسطانز الثانى لتصرفات البابا خاصة أنه دعا الى عقد هذا المجمع دون اذن من الامبراطور ، ولم يطلع الامبراطور مسبقا على القرارات •وتم القبض على البابا مارتن الأول، وأخرج من روما ليلا الى القسطنطينية • وحوكم البابا فى العاصمة البيزنطية محاكمة سياسية أكثر منها دينية ، واتهم بأنه أثار الشغب والفتن ضد الامبراطور فى الولايات الغربية • وحاول البابا اثارة القضية الدينية دون جدوى ، وحكم عليه بالموت ، وخفف الامبراطور الحكم نظرا لمرض البابا وضعف صحته وكبر سنه ، ونفاه الى خرسون Cherson بالقرم •و فى رسائله التى أرسلها مارتن من خرسون شكى من سوء أحواله المعيشية ، وسأل أصدقاءه أن يمدوه بالطعام خاصة الخبز • وأخيرا مات مارتن سنة ٦٥٦م • أما العالم الدينى ماكسيموس فقد تم القبض عليه أيضا ونقل الى القسطنطينية ، واتهم بالخيانة وتعرض لتعذيب شديد ، ثم تقرر نفيه الى لازيقا على البحر الأسود حيث مات سنة ٦٦٢ م(٤٠) •

وهكذا زاد الخلاف العقائدى من مشكلات الدولة البيزنطية فى وقت تطلع فيه المسلمون الى تحقيق السيادة والسيطرة على البحر المتوسط وانتزاعه من البيزنطيين ، ولتأمين فتوحاتهم فى الشام ومصر والمغرب • ووجد المسلمون أن هذا الأمر لن يتم لهم الا بركوب البحر•

---

(٤٠) Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 223 — 4 ; Ostrogorsky, Byzantine state, pp. 119 — 120 ;

العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٢٧ ــ ١٢٩ ، اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٩٣ ــ ٩٤ •

ويعتبر معاوية بن أبى سفيان أول سياسى عربى أدرك أن الحرب ضد البيزنطيين وتدعيم السيادة الاسلامية على الشواطىء الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط فى حاجة الى أسطول قوى • وفكر معاوية ابن أبى سفيان فى ركوب البحر منذ خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذ يقال أنه أثناء ولايته للشام ألح على الخليفة عمر أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحرا لقربها منه وغزو قبرص • وأرسل الى الخليفة يقول : « ان قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم » • ويقال أن عمر بن الخطاب طلب الى والى مصر عمرو بن العاص أن يصف له البحر وراكبه ، على اعتبار أن مصر من الأمم التى مارست ركوب البحر وعرفت فنونه • فكتب عمرو الى الخليفة قائلا : « يا أمير المؤمنين ، انى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء ، ان ركن أحزن القلوب ، وان تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق ، وان نجا برق » • فلما قرأه الخليفة عمر كتب الى معاوية « لا والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا »(٤١) •

ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم ينه عن ركوب البحر الا فى أحوال خاصة عندما رأى أن المسلمين قد يتعرضون فيها للخطر وخاصة فى البحار التى لم يسبق لهم خوضها مثل البحر المتوسط • غير أن المسلمين اتجهوا نحو البحر لاعتبارات دينية وعسكرية واقتصادية ،اذ كان لابد لهم من الدفاع عن البلاد التى فتحوها ونشروا فيها الاسلام من خطر الروم خاصة أن البحر كان لايزال فى قبضتهم ولا يمكن عزل مصر وساحل الشام عن البحر

---

(٤١) الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ ، انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الاسلامية ص ٦٣ ،

Fahmy, Muslim Sea-Power, Cairo, 1966, p. 73.

المتوسط • كما أن هناك أهمية البحر المتوسط الاقتصادية باعتبـاره طريقا هاما للتجارة العالمية • واستفاد المسلمون من الموانىء البحرية التى استولوا عليها فى مصر والشـام ، كما أنهم تعلموا من خبرات سكان هذه الموانىء فى صناعة السفن وركوب البحر والقتال فيـه • وفسر العلامة ابن خلدون ذلك فى مقدمتـه بقوله : « فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم، وتقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فشرهوا الى الجهاد فيه وانشئوا السفن فيه والشوانى ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسـلاح ، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافتـه مثـل الشـام وافريقيـة والمغـرب والأندلس »(٤٢) •

وتجدر الاشارة الى أن رواية ابن خلدون لا تدل على جهل العرب بالبحر وركوبه فهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم ترشد الى فوائد ركوب البحر ومنافعه ، وهى تدل على معرفة العرب بالبحر(٤٣) • كما ورد ما يدل على مهارة العرب بعلم الملاحة وثقافة البحر والملاحين فى شعر طرفه بن العبد وغيره(٤٤) •

---

(٤٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٠ •

(٤٣) منها على سبيل المثال قوله تعالى : « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما »(سورة الاسراء ، آية ٦٦)، وقوله تعالى « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونهـا وترى الفلك مواخر فيـه ولتبتغوا من فضـله ولعلكم تشكرون » (سورة النحل ، آية ١٤) ، وقوله تعالى : « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشـكرون » (سورة الجاثية ، آية ١٢)

(٤٤) من الخبرة الملاحية عند العرب قبل الاسـلام ، انظر : انور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، ص ٢١ ــ ٢٢ ؛
Fahmy, Muslim Sea - - Power, pp. 50 — 55.

واستطاع والى الشام معاوية بن أبى سفيان فى خلافة عثمان بن عفان الحصــول على اذن الخليفة فى ركوب البحر بعـــد أن أوصـــاه « لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه »(٤٥) واستمع معاوية لنصيحة الخليفة عثمان وغزا جزيرة قبرص سنة ٢٨ هـ/٦٤٩ م التى كانت من أهم القواعد الحربية لأسطول البيزنطيين فى شرق البحر المتوسط • وقد اتجه الاسطول الاسلامى من عكا بقيادة عبد الله بن قيس متجها نحو جزيرة قبرص ، كما سار اليها من مصر اسطول اسلامى آخر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وصالحهم القبارصة على جزية يؤدونها لهم كل سنة(٤٦) •

ويرى Bréhier أن سنة ٦٤٩ ميلادية وهى السنة التى شيد فيها معاوية بن أبى سفيان أسطولا اســلاميا فى البحر المتوسط وبدأت فيها حملات البحرية الاسلامية فى البحر المتوسط من الســنوات الهامة التى حددت مصير البحرية البيزنطية فى القرون التالية(٤٧) • ولاشك أن استيلاء المسلمين على قبرص فى تلك السنة كان فاتحة خير لسيادة المسلمين على مياه البحر المتوسط ، كما يستنتج من حملة قبرص أن المسلمين أصبح لهم أسطول كبير فى البحر(٤٨) •

---

(٤٥) تاريخ الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٦٠

(٤٦) الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ١٨١ — ١٨٦ ، محمــد جمــال الدين سرور ، دراســات فى العلاقات السياسية بين دول الشرق الاسلامى والدولة البيزنطية ، ص٤ ، ابراهيم طرخــان ، المسلمون فى اوربا ، ص ٧٩ — ٨٤ ، محمــد ياســين الحموى ، تاريخ الاســطول العربى ، ص ١٣ — ١٤ ، ســعاد ماهر ، البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٦٧ — ٦٨ ،
Fahmy : Muslim Sea - - Power, pp. 80 — 82.

(٤٧) Bréhier, 'La Marine de Byzance du VIIIe au XIe siècle. **Byzantion,** Vol. XIX (1949), pp. 1 — 2.

(٤٨) حسين مؤنس . « المسلمون فى حوض البحر الأبيض » المجــلة التاريخية المصرية ، مجلد ٤ ، العدد الاول (١٩٥١) ص ٧٦ — ٧٧

وتابع المسلمون انتصاراتهم فى البحر المتوسط ففى سنة ٦٥٤م أغار الاسطول الاسلامى على جزيرة رودس واستولى المسلمون على بعض جزر بحر الارخبيل ، وتعرضت كريت لحملاتهم المتكررة(٤٩) . ويلاحظ أن المسلمين قصـــدوا من هـــذه المحاولات فى البحر المتوســـط تأمين طريق الوصول الى القسطنطينية تمهيـــدا للاســـتيلاء عليها . والحقيقة أن المسلمين فى جهادهم لنشر الاسلام تطلعوا منذ عصر الفتوحات الأولى للاستيلاء على القسطنطينية التى كانت عاصمة الدنيا وقتذاك . وآمن المسلمون أنه كما دانت لهم المدائن عاصمـــة الدولة الفارسية الساسانية فلابد أن تسقط فى أيديهم أيضا القسطنطينية عاصمة الروم ،و حاولوا تحقيق هذا الهدف أكثر من مرة .

وأدرك البيزنطيون هدف المسلمين وهو الاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية ، فخرج الامبراطور قنسطانز الثانى سنة ٣٤ هـ/٦٥٥ م على رأس قوة بحرية لمواجهة الخطر الاســـلامى فى البحر ، وذكر الطبرى « فخرجوا فى جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الاسلام، فخرجوا فى خمسمائة مركب »(٥٠) . وعند فوينكس Phoenix قرب شواطىء ليكيا بآسيا الصغرى حدثت معركة بحـــرية كبيرة ، انتصر المسلمون فيها بقيادة والى مصر عبدالله بن سعد بن أبى السرح على الاسطول البيزنطى . وأصيب الامبراطور قنسطانز بجراح كثيرة ونجا من الموت بأعجوبة ، وكاد أن يقع أسيرا . وهذه المعركة البحرية هى التى وردت فى المصادر العربية باسم « غزوة الصـــوارى » لكثرة صوارى السفن التى اشتبكت فى القتال . وجاء انتصار المسلمين فى تلك المعركة نتيجة لخطـــة حربية جديدة ، اذ ربطوا سفنهم بعضها الى بعض بسلاسل ثقيلة ، فاستحال على أعدائهم اختراق صفوفهم .

---

(٤٩) انظر : Fahmy : Muslim Sea — Power, pp. 84 — 5.

(٥٠) الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ .

واستخدم المسلمون أيضا فى تلك المعركة البحرية خطاطيف يقذفون بها صوارى سفن الروم ثم يجرونها الى جوار سفنهم فغدت المعركة وكأنها معركة برية(٥١) •

وترتب على هذه المعركة البحرية أن تداعت سيادة البيزنطيين على البحر(٥٢) • وقارن ثيوفانو Théophane بين هذه المعركة وبين معركة اليرموك التى كان لها أيضا نتائج كبيرة على تاريخ بيزنطة(٥٣) • وأدرك الامبراطور قنسطانز الثانى أن اعـداد أية حملات برية أو بحـرية لاسترداد مصر أو الشام مجهود فاشل ضائع • ورأى هذا الامبراطور ضرورة أن تستعد الدولة البيزنطية لصد هجوم المسلمين المتوقع على القسطنطينية • ومن ناحيـة أخرى لم يجرأ الروم بعـد موقعة ذات الصوارى على منازلة المسلمين فى مواقع بحرية ، بل اكتفوا بمهاجمة سواحل البلاد الاسـلامية ، مما دفع المسلمين الى مضاعفة الهمـة فى بناء السفن وانشاء دور صناعتها(٥٤) • غير أن المسلمين لم يستفيدوا الفائدة المتوقعة من نتائج النصر الذى أحرزوه فى وقعة ذات الصوارى اذ قتل الخليفة عثمان رضى الله عنه سنة ٣٥هـ/٦٥٦م ، وبدأ النزاع

---

(٥١) الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ — ٢٩٢ ، ابن عبـد الحـكم ، ص ١٨٩ — ١٩١ ، العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٣ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٢٦ ، ارشيبالدلويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص ٩١ — ٩٢ ، انور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، ص ٩٢ — ٩٣ ،
Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 212 ; Fahmy, Muslim Sea — Power, pp. 85 — 89.

(٥٢) Bréhier, 'la marine de Byzance', pp. 2— 3.

(٥٣) Canard, M., 'les Expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'histoire et dans la légende', **Journal Asiatique**, Vol. 208 (1926), pp, 63 — 65.

(٥٤) انظر حسين مؤنس ، المسـلمون فى حـوض البحر الأبيض ، ص ٩٠ — ٩١ •

حول الخلافة بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما .

وكيفما كان الأمر ، ففى حوالى منتصف القرن السابع الميلادى لم يكن فى مقدور الدولة البيزنطية أن تقف فى وجـــه حركة الفتوحات الاسلامية فى ولاياتها الشرقية والجنوبية ، ونجـــاح الأسطول الاسلامى فى البحر المتوسط والبحر الأيجى . وتوالت الكوارث على البيزنطيين فقد قامت فى منتصف القرن السابع مملكة البلغار فى الأطراف الشمالية للدولة البيزنطية ، وتقدم الصقالبة من البلقان نحو العاصمة وشواطىء بحر ايجة . ولمـــا أصبحت القسطنطينيـــة فى خطر أمام هجمـــات المسلمين وتقـــدم الصقالبـــة رأى قنســـطانز الثـــانى أن يغـــادر القسطنطينية وأن ينقل العاصمة الى روما أو أى مكان آخر فى ايطاليا .

ويـــرى فازيليف Vasiliev أن قنسطانز أدرك عدم الأمـــان فى البقاء فى القسطنطينية ، كما أنه توقع امتداد الفتوحات الاســـلامية من شمال افريقيـــة الى ايطاليا وصقلية ، ولذا رأى أن يقوى مركز الامبراطورية فى الجزء الغربى من البحر المتوســـط للقيام بالترتيبات اللازمة لمنع المسلمين من مد غزواتهم . ومن المحتمل أنه لم يفكر فى هجر القسطنطينية الى الأبد ، ولكنه أراد تأسيس مركز ثان للامبراطورية فى الغرب كما كان الحـــال فى القرن الرابع آملا فى ايقاف تقدم المد الاســـلامى والوقوف فى وجه اللومبارديين فى ايطاليا . وغـــادر قنسطانز القسطنطينية الى روما بايطاليا عن طريق أثينا ، ثم ذهب الى نابلى وجنوب ايطاليـــا واستقر أخيرا فى مدينة سيراكوز فى جزيرة صقلية . وفى سيراكوز قضى قنسطانز الثانى السنوات الخمس الأخيرة من حكمه دون أن يستطع تحقيق آماله . فقد فشل فى صد هجمـــات اللومبارديين ، وهدد المسلمون صقلية ذاتها . وتعرض الامبراطور لخطر مؤامرة اشترك فيها جماعة من النبلاء والأرمن انتهت باغتياله . ونقلت جثته الى القسطنطينية سنة ٦٦٨ م ، وماتت معه فكرة نقل عاصـــمة

الامبراطورية الى الغرب(٥٥) • وترك قنسطانز ابنه قسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥ م) ليواجه — ما توقعه قنسطانز — هجوما اسلاميا ضد القسطنطينية ذاتها ، وليتم فى عصره تصفية الوجود البيزنطى فى شمال افريقية •

فقد انتهت الفتنة الكبرى التى أعقبت مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وأقام معاوية بن أبى سفيان الخلافة الأموية فى العاصمة دمشق • وبدأ المسلمون يتطلعون لتحقيق حلمهم القديم وهو الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الروم • وفى عام ٤٩ هـ/٦٦٩ م — أى بعد سنة واحدة من اعتلاء قسطنطين الرابع Constantine IV عرش بيزنطة — جهز الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه جيشا كبيرا لفتح القسطنطينية بقيادة ابنه يزيد • واشترك فى هذه الغزوة بعض كبار الصحابة رضوان الله عليهم منهم عبد الله بن عباس المحدث المشهور ، وأبو أيوب الأنصارى الذى نزل الرسول صلى الله عليه وسلم فى داره عند هجرته الى المدينة المنورة • وتقدم الجيش الاسلامى حتى بلغ أسوار القسطنطينية ، وأخذ فى تضييق الحصار عليها دون أن يتمكن من فتحها • وتوفى أبو أيوب الأنصارى أثناء الحصار ، ومن المحتمل أنه دفن فى مكان وفاته غير أن الرواية التقليدية تذكر أنه طلب — قبل وفاته — أن ينقل رفاته الى أقصى مكان يبلغه المسلمون عند أسوار القسطنطينية • واضطر المسلمون الى رفع الحصار عن المدينة الحصينة القسطنطينية ، وعاد يزيد مع الجيش الاسلامى الى الشام • وظل المسلمون يحسون بهتاف أبى أيوب بهم ودعائه لهم بأن يعاودوا الكرة ، حتى لا يظل جثمانه فى أرض العدو(٥٦) •

---

(٥٥) Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 221 — 222.

(٥٦) انظر : الطبرى ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ ،

Canard, 'Les expeditions des Arabes', pp. 67 — 77.

ويقال ان العثمانيين اكتشفوا قبر ابى ايوب الانصارى سنة ٨٦٣هـ/١٤٥٨ م بعد فتحهم للقسطنطينية ، ويقال ايضا انه فى تلك =

وكان المسلمون قد أدركوا أهميـــة البحر كطريق موصل للاستيلاء على مدينة القسطنطينية • وانصرف معاوية بن أبى سفيان منذ أن كان واليا على الشـــام الى اعداد الخطط للاســـتيلاء على القسطنطينية • واستولى المسلمون على قبرص ورودس وخيوس وبعض جزر الأرخبيل لتحقيق هـــذا الهدف(٥٧) • وفى سنة ٥٤ هـ/٦٧٤ م ظهر الأســـطول الاسلامى أمام أسوار القسطنطينية • وفى نفس السنة فتح جنادة بن أبى أمية جزيرة فى البحر قريبة من القسطنطينية وهى جزيرة كيزيكوس Cyzicus (وهى جزيرة أرواد فى المصـــادر العربية)(٥٨) • وعلى مدى سبع سنوات (٥٤ — ٦٠ هـ/٦٧٤ — ٦٨٠ م) اشتبكت قطـــع الأسطول الاسلامى فى عمليـــات حربية بحرية مع الأساطيل البيزنطية فى مياه القسطنطينية • وكانت البنود البحرية البيزنطية لا تزال فى دور التكوين عاجزة عن الصمود أمام سفن المسلمين الفتية(٥٩) • وكانت خطة المسلمين هى قضـــاء الشتاء فى جزيرة كيزيكوس (أرواد) ، وفى الربيع يحاصرون القسطنطينية برا وبحرا حتى يقبل الخريف فيعودون الى مقرهم الشتوى فى كيزيكوس • ورغم محاولات المسلمين المستميتة والمتكررة ، الا أنهم لم يتمكنوا من فتح القسطنطينية فى تلك السنوات • ويرجع سبب ذلك الى أن عاصمة البيزنطيين كانت تستطيع الصمود لأى هجوم برى وبحرى ، فقد كانت الامدادات تأتى اليها بحرا من المناطق المجاورة لها ، كما ظل اتصالها بالبحر الأســـود باقيا ، وظلت الطرق البرية المؤدية اليها مفتوحة ، فحصلت القسطنطينية على جميع ما احتاجت اليه من المؤن والامدادات • ونجت القسطنطينية من الغزو الاسلامى بواســـطة سلاح بيزنطى جديد هو النار الاغريقيـــة Greek Fire .

= السنة شيد السلطان محمد الثانى مسجد ايوب وتربته فى ضاحية ايوب عند نهاية القرن الذهبى ، انظر : الفونس ماريا شنيدر ، قبور الصحابة فى القسطنطينية ، ترجمة صلاح الدين المنجد ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٥٧) انظر Vryonis, Byzantium, p. 63.

(٥٨) الطبرى ، ج ٥ ، ص ٢٩٣ .

(٥٩) انظر : فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

وهذه النيران عبارة عن مخلوط كيميائى قابل للانفجار يقذف بأنابيب خاصة فإذا احتك هذا المخلوط بسفينة أو حتى على الماء اشتعل واحترق • ومن المحتمل أن هذا التركيب الكيميائى استخدم قبل ذلك منذ سنة ٥١٦ م ، ثم اكتشفه من جديد أو أدخل عليه بعض التعديلات مهندس سورى يونانى يدعى كاللينيكوس Callinicus فر من بعلبك بعد فتح المسلمين لبلاد الشام • واستخدم هذا التركيب فى صورته الجديدة أثناء حصار المسلمين للقسطنطينية • واشتعلت النيران فى السفن الاسلامية ، ووقع الاضطراب بينها ، وانطلقت السفن التى نجت فى فوضى نحو بحر ايجه ، ثم هبت عاصفة حطمت معظم السفن الاسلامية • وأخيرا تم عقد معاهدة بين المسلمين والروم تعهد فيها الخليفة معاوية بأن يدفع كل سنة اتاوة للبيزنطيين(٦٠) •

واستفادت بيزنطة من فشل استيلاء المسلمين على القسطنطينية ، فعندما وصلت هذه الأخبار الى خاقان الآفار وغيره من حكام الغرب ، أرسلوا الرسل والهدايا الى الامبراطور البيزنطى وسألوه أن يقيم علاقات سلمية ودية معهم(٦١) •

غير أن الدولة البيزنطية فى عصر قسطنطين الرابع استمرت تواجه صفعات عنيفة من جانب المسلمين الفاتحين • ففى سنة

---

(٦٠) الطبرى ، ج ٥ ، ص ٢٩٣ — ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٨ — ٣٠٩ ، ٣١٥ ، ابراهيم العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٦ — ٥٧ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٣١ — ١٣٢ .
Canard, 'les expéditions des Arabes', pp. 77 — 80.
Vasiliev, Byzantine empire, I., pp. 214 — 215 ;
Fahmy, Muslim Sea - Power, pp. 92 — 93.
وعن النار الاغريقية انظر :
Bréhier, 'La marine de Byzance', pp. 9 — 11 ;
Vasiliev, Byzantine empire, I., p. 214 ; Charles Diehl, Byzantium, pp. 51 — 52 ; Fahmy, op. cit., pp. 153 — 160.
(٦١) Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 215 ;

٤٥ هـ/٦٦٥ م — أى أواخر عصر قنسطانز الثانى — أرسل الخليفة معاوية بن أبى سفيان جيشا بقيادة معاوية بن حديج الكندى لتصفية مراكز وحصون البيزنطيين فى افريقية • واتخذ ابن حديج موضع القيراون معسكرا وجه منه السرايا التى استولت على قابس وبنزرت وسوسة وحصن جلولاء • وفى سنة ٥٠ هـ/٦٧٠ م ، أى فى عصر قسطنطين الرابع ، عزل الخليفة معاوية قائده ابن حديج وولى مكانه القائد عقبة بن نافع الفهرى ، وهى ولايته الأولى التى استمرت خمس سنوات • وكان عقبة قائدا خبيرا بشئون افريقية ، فقد دخل برقة سنة ٢٣ هـ/٦٤٤ م وهو ابن أربع عشرة سنة مع ابن خالته عمرو بن العاص ، وظل مرابطا حوالى ربع قرن يغزو مع المسلمين فى افريقية • وفكر عقبة بن نافع فى تشييد مدينة عربية اسلامية لتكون بمثابة قاعدة عسكرية ، فاختط مدينة القيروان فى مكان يقع الى الشمال قليلا من سبيطله التى وقعت عندها المعركة المشهورة • وجعل عقبة مدينة القيروان بعيدة عن ساحل البحر خوفا من اغارات أساطيل الروم وبعيدة عن جوف الصحراء خوفا من غارات البربر • وعندما عاد عقبة بن نافع الى افريقية فى ولايته الثانية التى استمرت عامين (٦٢ — ٦٤ هـ/ ٦٨١ — ٦٨٣ م) قام بحملته الكبيرة عندما غزا المغرب من أدناه الى أقصاه حتى بلغ المحيط الأطلسى • واقتحم البحر حتى بلغ نحره — كما يقول ابن عبد الحكم — ويشهد الله على أنه وصل براية الاسلام الى آخر المعمورة وقتذاك قائلا : « اللهم انى اشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازا لجزت »(٦٢) •

وانعكست نتائج النزاع بين المسلمين والبيزنطيين فى الشرق

(٦٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٢ — ١٩٩ ، الطبرى ، ج ٥ ص ٢٤٠ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٦ — ٢٨ ، عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، (العصر الاسلامى) ص ١٧٤ — ٢٢٩ ، احمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٤٠ — ٤٣ ، محمود شيت خطاب ، عقبة بن نافع الفهرى ، ص ١١٥ — ١٣١ .

والغرب على قوة ونفوذ الدولة البيزنطية فى البلقان • فقد واجه الامبراطور قسطنطين الرابع صعوبات جديدة فى البلقان بسبب قيام مملكة بلغارية على الأطراف الشمالية للدولة على طول ضفاف الدانوب الأدنى ، وهذه المملكة سوف تصبح ذات تأثير كبير فى مصير الدولة البيزنطية • والبلغار من الشعوب الرعوية التركية الأصل على صلة قرابة بقبيلة الأونجور Onogurs • وفى عهد قنسطانز الثانى اضطرت قبيلة كبيرة من البلغار بقيادة اسباروخ Asparuch ، نتيجة ضغط من الخزر ، للتحرك غربا من مناطق الاستبس المجاورة لبحر آزوف Azov شمال البحر الأسود ، واستقرت تلك القبيلة عند مصب الدانوب ثم تحركت جنوبا • وهنا أدرك قسطنطين الرابع خطر وجود البلغار على أطراف دولته • وفى سنة ٦٧٩ سار الامبراطور على رأس أسطول كبير اجتاز البحر الأسود الى شمال مصب نهر الدانوب • وسارت فرق من الخيالة البيزنطية من آسيا الصغرى حتى وصلت الى الضفة الشمالية من النهر • وحالت المستنقعات فى تلك الجهات دون قيام البيزنطيين بعمليات حربية ناجحة ، كما تجنب البلغار الالتقاء بهم • وعندما أراد الجيش البيزنطى الانسحاب سنة ٦٨٠ تعرض أثناء عبوره لنهر الدانوب لهجوم من البلغار ، وهزم البيزنطيون وتكبدوا خسائر كبيرة • واضطر الامبراطور قسطنطين الرابع الى التفاوض مع البلغار ، وعقد معهم معاهدة تعهد فيها أن يدفع للبلغار اتاوة سنوية وأن يترك لهم الأقاليم الواقعة بين الدانوب والبلقان • وظل مصب الدانوب وجزء من شاطىء البحر الأسود فى أيدى البلغار • وهكذا أصبحت المملكة البلغارية خطرا على الدولة البيزنطية ، وبخاصة بعد أن قام البلغار بتوسيع مملكتهم واصطدموا بالصقالبة • ولما كان البلغار أقل عددا من الصقالبة فسرعان ما تأثروا بالمؤثرات السلافية وتزاوجوا منهم ، وفقدوا بالتدريج أصولهم التركية وأصبحوا من الشعوب السلافية عند منتصف القرن التاسع

الميلادى برغم احتفاظهم باسم البلغار • وأصبح للبلغار دولة قوية هددت بيزنطة(٦٣) •

ووجهت انتصارات المسلمين المتتالية السياسة الدينية للدولة البيزنطية وجهة جديدة • فقد وجد قسطنطين الرابع أن المونوفيزتية لم تعد مشكلة دينية تقلق الدولة البيزنطية • فالأقاليم التى كانت تدين بالمذهب المونوفيزتى أى مصر والشام وفلسطين قد سقطت فى أيدى المسلمين سقوطا نهائيا • ولم تعد بيزنطة تفكر أو تتوقع فى استردادها بأى شكل من الأشكال • فلم تمض سوى سنوات قليلة حتى اصطبغت تلك البلاد بالصبغة العربية الاسلامية • فلم تكن الفتوحات الاسلامية — كما سبق القول — حركة استعمارية استعلائية بل كانت اندماجا حضاريا ثقافيا ، فقد هاجرت القبائل العربية الى البلاد المفتوحة ، واندمج العرب مع سكان البلاد عن طريق التزاوج وانتشر الاسلام والثقافة العربية فيها •

ويهمنا هنا القول بأنه لم يعد الأمر ضروريا بالنسبة للبيزنطيين فى ارضاء المونوفيزتيين فى تلك الأقاليم الاسلامية ، كما أن التمسك بمذهب الارادة الواحدة الذى نادى به هرقل أصبح عديم الجدوى ، لهذا فكر قسطنطين الرابع فى الدعوة الى مجمع مسكونى للنظر فى أمر العقيدة • واستشار البابا فى روما ثم دعا سنة ٦٨٠ الى مجمع دينى فى القسطنطينية وهو المجمع المسكونى السادس الذى تقرر فيه بطلان المونوثيليتية وانكار المونوفيزتية ، وتليت شهادة أقرها المجمع المسكونى « بمسيح وابن ورب ووحيد واحد هو نفسه بطبيعتين وأقنوم وشخص واحد ، وبمشيئتين وطبيعتين وفعلين طبيعيين ، بلا انقسام ولا تغيير ولا تجزؤ ولا اختلاط » • ومن الملاحظ أن بطاركة الاسكندرية

(٦٣) Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 219 — 220 ; Ostrogorsky, Byzantine state, pp. 125 — 6

وبيت المقدس وانطاكية لم يشتركوا فى هذا المجمع المسكونى السادس ، وأرسلوا ممثليهم فقط • وعـاد السلام مع كنيسة روما واستمر ذلك فترة طويلة(٦٤) •

وفى سنة ٦٨٥ خلف جستنيان الثانى أباه قسطنطين الرابع • وحكم جستنيان الثانى فترتين الأولى بين سنتى ٦٨٥ ــ ٦٩٥ م والثانيـة بين سنتى ٧٠٥ ــ ٧١١ • ومن المعروف أن عبد الملك بن مروان تولى الخلافة الأموية فى نفس السـنة التى اعتلى فيها جستنيان الثانى عرش القسطنطينية أى سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٥ م • ولعبد الملك بن مروان الفضل فى قيامه بعملين جليلين هما تعريب النقود بسكها بالسكة العربية الاسلامية وتعريب الدواوين الاسلامية • ففى سنة ٧٠ هـ عقد الخليفة عبد الملك بن مروان معاهدة جديدة مع امبراطور الروم جستنيان الثانى فقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة سبعين هجرية أن الروم « استجاشوا على من بالشام من ذلك من المسلمين ، فصالح عبد الملك ملك الروم ، على أن يؤدى اليه فى كل جمعة ألف دينار خوفا منه على المسلمين » • ويفهم من هـذا النص أن الخليفة الأموى عبد الملك هادن الدولة البيزنطية نظير دفعه اتاوة كبيرة للروم تدفع بدنانير ذهبية(٦٥) •

ووجد الخليفة عبد الملك أن الدنانير الذهبية المتداولة فى الدولة الاسلامية والتى تدفع بها الاتاوة تضرب بصـورة امبراطور الروم وعليها الشارات المسيحية مع بعض الكتابات العربية • لذلك قام الخليفة عبد الملك بالتدريج بتطوير النقود الاسـلامية حتى تم استقلالها عن التأثيرات البيزنطية تماما • وأدى هذ الى النزاع الحاد بين الامبراطور

---

(٦٤) Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 224 — 5 ;
Vryonis, Byzantium, p. 62 ;

اسـد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ــ ٢٦٠ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٣٦ ــ ١٣٧ .

(٦٥) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ، ص ١٥٠ .

البيزنطى وبين الخليفة الأموى لأنه كان خروجا على نظام النقد البيزنطى العالمى ، ولم يكن من المسموح به أن تضرب السكة الذهبية على غير طراز امبراطور الروم • وفسخ الخليفة عبد الملك المعاهدة المبرمة مع البيزنطيين سنة ٧٣ هـ/٦٩١ — ٦٩٢ بدليل ما ذكره الطبرى فى حوادث سنة ٧٣ هـ بأن محمد بن مروان غزا الصائفة وهزم الروم ، وكذلك هزمهم فى نفس السنة عثمان بن الوليد فى ناحية أرمينية(٦٦) • وبدأ الخليفة عبد الملك منذ سنة ٧٣ هـ فى تعريب النقود وتم ذلك تماما فى سنة ٧٧ هـ حين احتلت الكتابات العربية وجهى الدينار العربى • وهكذا تم لعبد الملك صبغ دولته بالصبغة العربية • وكان قيامه بتعريب الدواوين فى فارس والشام ومصر مظهرا من مظاهر استكمال الدولة العربية لمقوماتها الأساسية • ولاشك أن ضرب النقود بالسكة العربية وتعريب الدواوين حتمتهما ضرورة الاستقرار الاقتصادى والسياسى للدولة العربية الاسلامية(٦٧) •

---

(٦٦) تاريخ الطبرى ، ج ٦ ، ص ١٩٤ .

(٦٧) لتفصيل موضوع تعريب النقود بالسكة العربية الاسلامية زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ، انظر عبد الرحمن فهمى ، موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، ج ١ فجر السكة العربية ، ص ٣٨ — ٥٣ ، عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص ٣٦ — ٤٥ ، غير أن الأستاذ الدكتور عبد الرحمن فهمى (موسوعة النقود ، ص ٤٢ ، النقود العربية ، ص ٣٨) يرى أن المعاهدة بين الدولة العربية والدولة البيزنطية قد تم توقيعها سنة ٦٧ هـ ، أنظر أيضا ،

Grierson, P. 'The monetary reforms of 'Abd al-Malik"
Journal of the Economic and Social History of the Orient,
Vol. 3 (1960), pp. 241 —264.

وهناك رواية ان الخليفة عبد الملك بن مروان أحدث كتابات تشهد بالوحدانية فى القراطيس (البردى) التى كانت ترسل الى الدولة البيزنطية من مصر ، وأن الامبراطور البيزنطى هدد بأن يذكر فى الدنانير الذهبية ما يكرهه المسلمون ، فقام الخليفة الأموى باصلاحه النقدى ، انظر البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ٢٨٣ — ٢٨٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٧٦ — ١٧٧ .

ويبدو أن الأتاوة التى تعهــد الخليفة عبد الملك بن مروان بدفعها للبيزنطيين طبقا لمعاهدة سنة ٧٠هـ كانت أيضا فى مقابل أن تقوم الدولة البيزنطية بارغام الجراجمـــة أو المرده Mardaites على الانتقـــال والاستقرار فى الأقاليم الداخليـــة للدولة البيزنطيـــة • والحقيقة أن الجراجمة لعبوا دورا هاما فى قصة الحروب التى دارت بين المسلمين والبيزنطيين فى أعالى الشام • وكان الجراجمة ــ وأطلق عليهم المسلمون اسم المردة لكثرة عصـــيانهم ــ يدينـــون بالمسيحية وينســـبون الى بلدتهم جرجومة على جبل اللكام أى على سلسلة جبال طوروس المواجهة للحدود الاسلامية أعالى الشام(٦٨) • وبعد أن فتح أبو عبيدة بن الجراح انطاكية صالحه الجراجمة على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبـــال اللكام والا يدفعـــوا الجزية • غير أنهم اعتـــادوا على اثارة الاضطراب وقطع الطرق ، وأقلقوا الدولة الاسلامية لانضمامهم أحيانا الى البيزنطيين فى حروبهم مع المسلمين ثم تحولهم الى جانب المسلمين ثم عودتهم الى البيزنطيين وهـــكذا(٦٩) • ولحق فريق من الجراجمـــة بالبيزنطيين فأنزلوهم على حدود آسيا الصغرى الجنوبية ليكونوا درءا يتقون به غارات المسلمين • وهكذا كون الجراجمة أو المردة حائطا نحاسيا قام بحماية آسيا الصغرى من غـــارات المسلمين • وبموجب معـــاهدة جستنيان الثانى وعبد الملك بن مروان وافق امبراطور بيزنطة على ارغام المردة على الانتقال والاستقرار فى الاقاليم الداخلية للامبراطورية ، وعملوا كبحارة فى سواحل آسيا الصغرى والبيلوبونيز • وهكذا هدم الامبراطور جستنيان الثانى الحائط النحاسى مما قوى مركز المسلمين فى أعالى الشام ، وسهل للمسلمين اجتياح آسيا الصغرى وتوسيع رقعة

---

(٦٨) انظر فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج١ص٣٦٢ــ ٣٦٣ ، ج ٢ ، ص ٦٧ ــ ٧٠ ، عن جبل اللكام ودروبه (ممراته الجبلية) انظر عواد الأعظمى ، الأمير مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، ص ٢١١ ــ ٢١٢ .
(٦٩) انظر امر الجراجمة فى البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الاول ص ١٨٩ ــ ١٩٣

عملياتهم الحربية لتمتد شمالا الى أعالى الجزيرة وأرمينية وتصل الى قلب آسيا الصغرى(٧٠) .

ووجه جستنيان الثانى اهتمامه نحو البلقان خاصة فى المناطق التى أقام بها الصقالبة . وفى سنة ٦٨٨/٦٨٩ قاد الامبراطور نفسه جيشا وألحق بالصقالبة هزائم متتالية ودخل مدينة سالونيك . وأرغم جستنيان الثانى الصقالبة المهزومين على الانتقال الى آسيا الصغرى والاستيطان كجند مزارعين خاصة فى ثغر الأبسيق Opsikion . واتبع جستنيان الثانى سياسته الاستيطانية بأن نقل جماعات من سكان جزيرة قبرص الى اقليم كيزيكوس Cyzicus ، وهو الاقليم الذى لحق به أضرار شديدة نتيجة حصار المسلمين للقسطنطينية وكان فى حاجة الى ملاحين مهرة . وتعارضت سياسة نقل القبارصة مع مصالح الخلافة الاموية . وعندما أهمل جستنيان الثانى احتجاجات الخليفة عبد الملك بن مروان نشبت الحرب بين المسلمين والروم فى سنة ٧٣هـ/٦٩٢م . وأثناء القتال انضم الصقالبة الى جانب المسلمين ضد البيزنطيين ، وحاق بجيوش بيزنطه هزيمة ساحقة عند سباستوبوليس Sebastopolis فى أرمينية (سولوسيراى الحالية) وعادت أرمينية البيزنطية مرة أخرى الى سيادة الخلافة الأموية . وشجع المسلمون الصقالبة الآبقين على الاستيطان فى الشام ، واستخدموا الصقالبة كجند فى حروبهم المتكررة ضد البيزنطيين(٧١) . وهكذا فشلت سياسة الاستيطان التى اتبعها

(٧٠) Vasiliev, Byz, empire, I, p. 215; Ostrogorsky, Byzantine State, p. 131.
فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ١ ، ص ٣٦٢ — ٣٦٣ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٣٩ — ١٤٠ ، وسام عبد العزيز فرج ، العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية ، ص ٤٣ — ٤٥ .

(٧١) ذكر الطبرى هذا الخبر مختصرا فى حوادث سنة ٧٣هـ « وقيل : انه كان فى هذه السنة وقعة عثمان بن الوليد بالروم فى ناحية ارمينية وهو فى اربعة آلاف والروم فى ستين الفا ، فهزمهم واكثر القتل فيهم » انظر

الامبراطور جستنيان الثانى عندما أرغم الجراجمة والصقالبة وغيرهم على هجر مواطنهم التى عاشوا وتربوا فيها والنزول فى أقاليم لم يألفوها .

وواجه الامبراطور جستنيان الثانى خيبة أمل وصداما مع البابوية بخصوص تنفيذ قرارات مجمع دينى انعقد فى سنة ٦٩١ . وهذا المجمع الكنسى هو المعروف بالخامس — السادس ، عقد فى القسطنطينية وسمى باسم مجمع ترولان Trullan نسبة الى القاعة التى انعقد بها المجمع ، كما سمى أيضا باسم Quinisextum الخامس — السادس لأن ما أصدره من قرارات انما تكمل ما صدر عن المجمعين الخامس والسادس من قرارات خاصة بالعقيدة . وأصدر هذا المجمع تنظيما كنسيا يتعلق بالطقوس الدينية . وتقرر فيه ابطال بعض العادات والتقاليد التى منها ما يرجع الى أصول وثنية ومنها ما يخالف الأخلاق والآداب العامة . ومن أهم قرارات هذا المجمع السماح للقسس بالزواج . ورفض البابا سرجيوس Sergius التوقيع على قرارات المجمع . وأرسل الامبراطور جستنيان الثانى مندوبا للقبض على البابا وارساله الى القسطنطينية مثلما حدث مع البابا مارتن الأول فى عهد الامبراطور قنسطانز الثانى . ولم يتم تنفيذ ذلك لان مركز البابوية كان قد ازداد قوة ، كما أن القوات الحربية فى ايطاليا حالت دون القبض على البابا سرجيوس(٧٢) .

وتوالت النكبات على الامبراطور جستنيان الثانى عندما لم تلق سياسته الداخلية والخارجية قبولا لدى العامة والخاصة فى القسطنطينية لما اشتهر به عصره من كثرة الضرائب والأعباء المالية . وفى نهاية ٦٩٥م

. تاريخ الطبرى ، ج ٦ ، ص ١٩٤ ، انظر ايضا العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٤٠ — ١٤١ ،

Ostrogorsky, Byzantine State, p. 131.

(٧٢) Vasiliev, Byzantine empire, I, p. 225;

العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٤٦ .

نشبت فتنة ضد جستنيان الثانى ، ونادى الثائرون بقـائد ثغر هيلاس Hellas فى بلاد اليـونان امبراطورا ، وجدعوا أنف الامبراطور جستنيان الثانى ونفوه الى خرسون Cherson فى شبه جزيرة القرم ، وهى المدينة التى نفى اليها قبل ذلك البابا مارتن الأول(٧٣) .

وعندما نفى جستنيان الثانى سنة ٦٩٥ كانت الدولة البيزنطية تواجه مشكلات خطيرة وخسائر متلاحقة فى المغرب . فقد ارسل الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان جيشا كبيرا بقيادة حسان بن النعمان وزوده بأسطول بحرى . ووصل القائد المسلم حسان الى القيروان واتخذهاقاعدةلحملاته الحربية ، واستولى على كثير من الحصون والمعاقل البيزنطية . وفى سنة ٧٥هـ/٦٩٥م سقطت قرطاجنة ــ عاصمة أرخونية افريقية ــ فى أيدى المسلمين . غير أن البربر استطاعوا بقيادة امرأة تلقب بالكاهنة الحاق الهزيمة بجيش حسان ، فاضطر الى الانسحاب الى برقة ، واسـترد البيزنطيون قرطاجنة . وقامت الكاهنـة بتخريب مدن شمال افريقيـة اعتقادا منها أن ذلك لن يشجع المسلمين على فتح هذه البلاد المخربة . وملكت الكاهنة المغرب خمس سنين ــ كما يذكر ابن عذارى ــ حتى سنة ٨٠هـ/٦٩٩م عندما خرج حسان بن النعمان مرة أخرى فى حملة كبيرة الى افريقية والتقى بجيوش الكاهنة عند مدينة قابس . وهزم البربر وقتلت الكاهنة سـنة ٨٢هـ/٧٠١م واسترد حسان مدينة قرطاجنة من البيزنطيين . وانتهى الحكم البيزنطى تماما من شمال أفريقية ، وبسط المسلمون سيادتهم على غرب البحر المتوسط كما بسطوها فى شرقه ، وهاجموا صقلية وسردينيا وجزر البليار . وعبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد البحر من أفريقية الى أسبانيا ، وتمكنوا من النفاذ الى أوروبا من

---

(٧٣) انظر ، العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ١٤٧ ، وانظر ما سبق ص ٨٠ — ٨١ .

جهة الطرف الغربى للبحر المتوسط بعد أن فشلوا عند الطرف الشرقى ، وبدأ المسلمون يهددون سيادة بيزنطة من الغرب والشرق على السواء(٧٤) •

جرت هذه الحوادث فى الوقت الذى فقدت فيه الدولة البيزنطية سلطانها ونفوذها فى الغرب الاوربى • وفسر الاستاذ فريونس Vryonis ذلك بقوله بان ظهور القوة الاسلامية فى الشرق استاثر بالجهود الحربية البيزنطية ، وكان هذا هو السبب الرئيسى فى أن فقدت بيزنطة الغرب الاوروبى • ومعنى هذا أن الفتوحات الاسلامية أدت الى تمزق الوحدة القديمة لعالم البحر المتوسط عندما كان بحيرة رومانية • يضاف الى ذلك أن العرب عندما استولوا على الولايات البيزنطية تبنوا حضارة المدن فى دمشق وانطاكية وبيت المقدس والاسكندرية ، وبالتالى استمرت لفترة من الزمن النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية البيزنطية فى الولايات عقب حركة الفتوحات الاسلامية • أما من الناحية السياسية فقد حدث انقسام واضح بين الولايات الاسلامية والولايات المسيحية فى البحر المتوسط ، كما أن الفتوحات الاسلامية أدت الى أن تدير البابوية ظهرها للقسطنطينية واتجهت نحو شمال غرب أوروبا • وتطورت الامور الى أن أخذ كل من الشرق والغرب طريقا مخالفا عن الآخر • واصطبغ الشرق بالصبغة العربية الاسلامية ، بينما اتجه الغرب الاوروبى اتجاها مسيحيا مخالفا ، وكان فى هذا انتصار كبير للاسلام والمسلمين(٧٥) •

وساعد على انتصارات المسلمين ماحل بالدولة البيزنطية من حوادث خلال السنوات القليلة الباقية من عمر أسرة هرقل • فقد استطاع جستنيان الثانى بعد نفيه الى خرسون الالتجاء الى خان الخزر حيث

---

(٧٤) انظر ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٤ — ٣٩ ، مد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٤٥ — ٤٨ ، العزيز سالم ، المغرب الكبير (العصر الاسلامى)، ص ٢٤٣ — ٢٤٨ ، — ٢٥٨ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٤٨ ،

Vasiliev, Byzantine empire, I, pp. 215 216

(٧٥) انظر : Vryonis, Byzantium, pp. 65 6

رحب به وزوجه أختــه بعد اعتناقهــا المسيحية • وأرســل امبراطور القسطنطينية تيبريوس الثالث (٦٩٨ ـــ ٧٠٥) سفارة الى خان الخزر لابعــاد الامبراطور المعزول ، فهرب جستنيان الثــانى الى الشواطىء الغربية من البحر الأسود ، حيث اتصل بخان البلغار وساعده على تكوين جيش من الصقالبة والبلغار تقدم به نحو القسطنطينية سنة ٧٠٥م • وهرب الامبراطور تيبريوس الثالث ، وعاد جستنيان الثانى الى عرش الامبراطورية التى حكمها من سنة ٧٠٥ الى سنة ٧١١ قضاها فى الانتقام من أعدائه ، وارسال حملات تأديبية الى خرسون ورافنا • وانتهت تلك السنوات بمقتله فى خضم فتنة عارمة ، وسقطت بموته أسرة هرقل(٧٦) •

وبدأت فترة من الفوضى والاضطراب فى تاريخ الدولة البيزنطيـــة امتدت حوالى ست سنوات (٧١١ـــ٧١٧) حكم بيزنطه خلالهـــا ثلاثة أباطرة • وانتشرت الفوضى والفتن فى أنحاء الدولة ، وتوالت الكوارث الخارجية عليها ، فقد تقدم البلغار جنوبا حتى القسطنطينية مدفوعين برغبتهم للانتقام لمقتل حليفهم جستنيان الثانى • وتقدم المسلمون برا فى آسيا الصغرى وبحرا فى البحر الايجى وهددوا العاصمة القسطنطينية • فقد قام الخليفة الاموى سليمان بن عبد الملك سنة ٧١٧ بمحاولة لتحقيق حلم وأمل المسلمين فى الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الروم • وكانت الدولة البيزنطية فى حاجة ماســة الى شخصية قــوية تنقــذ الامبراطورية من الانهيار والعاصمة من السقوط فى أيدى المسلمين • وظهرت هذه الشخصية متمثلة فى ليو Leo قائد ثغر الأناتوليك الذى دخل القسطنطينية سنة ٧١٧ ، وتوج امبراطورا على أيدى البطريرك فى كنيسة القديسة صوفيه ، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الدولة البيزنطية(٧٧) •

---

(٧٦) Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 141 — 4 ; Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 193 4 ;

العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٥٠ ـــ ١٥٤ .

(٧٧) انظر : Vasiliev, Byz, empire, I, pp. 229 30.

الفصل الثالث

عصر مناهضة عبادة الأيقونات
(٧١٧ ــ ٨٦٧ م)

اذا كانت حركة الفتوحات الاسلامية وما حققته من انتصارات فى الشام ومصر والمغرب والبحر المتوسط ، واغارات الصقالبة والبلغار فى البلقان الى درجة مهاجمة القسطنطينية ذاتها ، تمثل مشكلة هددت كيان الدولة البيزنطية ذاتها الا أن مناهضة عبادة الأيقونات(١) كانت مشكلة كبيرة هددت روح الامبراطورية وعقيدتها وثقافتها وحضارتها • يضاف الى ذلك أن النزاع بين محطمى الايقونات والمدافعين عنها كان نزاعا وصراعا رهيبا شغل المجتمع البيزنطى مدة تزيد على قرن من الزمان ، وترك آثارا عقائدية وثقافية وحضارية فى تاريخ الدولة البيزنطية • وهذا ما جعل السنوات الممتدة من ٧١٧ الى ٨٦٧م فى تاريخ الدولة البيزنطية يمكن وصفها باسم عصر مناهضة عبادة الايقونات • حقيقة انه خلال تلك السنوات انتصرت سياسة عبادة الأيقونات حوالى ربع قرن من الزمان فقط (٧٨٧ ــ ٨١٣) الا أنه كان انتصارا مؤقتا • وخلاف تلك السنوات كانت مناهضة عبادة الأيقونات هى العامل المسيطر فى مجريات الحوادث فى الدولة البيزنطية الداخلية والخارجية خلال تلك الفترة التاريخية • وتجدر الاشارة الى أن هناك عوامل أخرى لعبت أدوارا هامة فى تاريخ بيزنطة ، وأهم هذه العوامل استمرار حركة

---

(١) كلمة ايقونات Icons مشتقة من الفعل اليونانى القديم (Eiko) بمعنى « انا اشبه » او « اماثل » والاسم (Eikon) ومعناه صورة أو صورة مقدسة • ومحطم الصور أو اللاايقونى يسمى Iconoclast ومناهضة عبادة الأيقونات او الصور الدينية تسمى Iconoclasm اما الشخص الذى يعبد الأيقونة (الأيقونى) فيسمى Iconodule
انظر : ابراهيم على طرخان ، الحركة اللاايقونية ،ص٦، وانظر ايضا :
Vasiliev, Byz, empire, I, p. 251 note 63.

الفتوحات الاسلامية وانتقالها من شرق البحر المتوسط الى غربه ، وازدياد أخطار البلغار والصقالبة واللومبارديين ، وقيام امبراطورية شارلمـان •

وتنسب حركة مناهضة عبادة الايقونات الى الامبراطور ليو الثالث Leo III الذى اعتلى عرش بيزنطة فى مارس سنة ٧١٧ ، وأسس أسرة جديدة حكمت الدولة البيزنطية حتى سنة ٨٠٢ م ، وأنهى بذلك فترة الاضطرابات التى عانت منها الدولة البيزنطية منذ سنة ٦٨٥م(٢) •

وكان ليو قبل توليه عرش الدولة البيزنطية قائدا لثغر الاناتوليك Anatolicon أكبر ثغـور آسـيا الصـغرى ، واسـتفاد من ذلك فى الوثوب الى العرش • ويلقب كثير من الباحثين هذا الامبراطور بلقب الأيسورى (الايزورى) Isourian كما يلقبون أسرته بلقب الأسرة الأيسورية (الايزورية) باعتبار أنه أتى من أقاليم أيسوريا (ايزوريا) Isouria فى جنوب شرقى آسيا الصغرى • غير أنه فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ، أى فى سنة ١٨٩٦ م بالتحديد ، ظهر رأى جديد هو أن ليو الثالث لم يكن أيسوريا من حيث المولد ولكنه سوريا Syrian من أبناء جرمانيكيا Germanicea (مرعش) • وتردد الباحثون فى قبول هذا الرأى ورفضه ، غير أنه من المحتمل كما يرى فازيليف Vasiliev — بعد مقارنتـه بعض الروايات التاريخية — أن ليو الثالث كان سورى الاصل(٣) •

وقد حدث فى سنة ٩٨هـ/٧١٧م ، وهى السنة التى اعتلى فيهـا ليو الثالث عرش الدولة البيزنطية ، أن أرسل الخليفة الاموى سليمان بن عبد الملك جيشا كبيرا يسانده أسطول للاستيلاء على القسطنطينية •

---

(٢) Anastos : Iconoclasm and imperial rule 717 — 842, in Cambridge Med. Hist., Vol. 4, Part 1, p. 62.

(٣) Vasiliev, Byz, empire, I, p. 234 ; Hussey, Byzantine World, p. 27; Vryonis, Byzantium, p. 75; اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٢٨٩ — ٢٩١

وتحمس الخليفة سليمان لمشروع هذه الحملة لدرجة الاعتقاد أنه سليمان الذى قالت عنه الروايات أنه فاتح القسطنطينية ، وطمعا فى بشرى الرسول عليه الصلاة والسلام «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش »(٤) • وأعطى الخليفة سليمان القيادة العليا لأخيه مسلمه بن عبد الملك « وأمره أن يقيم عليها (أى القسطنطينية) حتى يفتحها أو يأتيــه » كما يذكر الطبرى • وفى ١٥ أغسطس سنة ٧١٧ وقفت الجيوش البرية تحت قيادة مسلمة أمام أسوار القسطنطينية ، ووصل الأسطول الاسلامى الى مياه القسطنطينية فى أول سبتمبر ٧١٧ م • وبلغ عدد الأسطول الاســلامى فى احدى الروايات البيزنطية ١٨٠٠ سفينة من مختلف الأنواع وهو عدد مبالغ فيه • وكانت خطة المسلمين هى احكام الحصار حول القسطنطينية وقطع المواصلات البحرية بينها وبين البحر الأسود شمالا ، وبينها وبين بحر مرمرة وبحر ايجه جنوبا • ونجح الأسطول الاسلامى فى قطع المواصلات من الجنوب، وفشل فى احكام الحصار من ناحية البحر الأسود بسبب انحدار تيار مائى من البحر الأسود عبر البوسفور الى بحر مرمرة لم تستطع السفن الاسلامية التغلب عليه لاعتمادها على الرياح • واستطاع ليو الثالث بما له من مهارة حربية ممتازة أن يحول دون أحكام الحصار على المدينة• وتلقت القسطنطينية الامدادات والمؤن من اقليم البحر الأسود • وعاقت المآصر (السلاسل الضخمة) الطريق أمــام سفن المسلمين الى القرن الذهبى • وأحدثت النيران الاغريقيــة اضطرابا وذعــرا فى الســفن الاسلامية • وكان شتاء سنة ٧١٧ ــ ٧١٨ قارصا على غير العادة • ولم تضعف هذه المشقات عزيمة القائد المسلم مسلمه ، وظل محاصرا لمدينة القسطنطينية اثنى عشر شهرا مصمما على فتحها حتى جاءته الأخبار بوفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وأمره الخليفة الأموى الجديد عمر

---

(٤) انظر احاديث فتح القسطنطينية فى صحيح الامام مسلم ، ج ٨ ، ص ١٧٥ ــ ١٧٦ •

ابن عبد العزيز — عندما تولى الخلافة فى سنة ٩٩ هـ/٧١٨ م — برفع الحصار والعودة بمن معه من المسلمين الى الشام ، وأرسل اليه خيلا وطعاما كثيرا وحث الناس على معونتهم(٥) •

ويرى فازيليف أن المؤرخين أبدوا اهتماما كبيرا لفشل المسلمين فى الاستيلاء على القسطنطينية ، وأن ليو الثالث استطاع بمقاومته الناجحة أن ينقذ ليس فقط الدولة البيزنطيةوالعالم المسيحىالشرقى بل أنقذ أيضا حضارة غرب أوروبا(٦) • ولا شك أن المسلمين لم يحاولوا بعد ذلك — لسنوات طويلة — القيام بهجوم على القسطنطينية • ولو فتح المسلمون القسطنطينية فى تلك السنة ٧١٧ — ٧١٨ لانتشر الاسلام وانتشرت الحضارة الاسلامية بين الافار والصقالبة والبلغار ، وحلت المساجد مكان الكنائس فى اقاليم أوروبا الشرقية • ويلاحظ أنه بعد حصار القسطنطينية بأربع عشرة سنة أى فى سنة ١١٤هـ/٧٣٢م توقف المد الاسلامى من الأندلس الى غرب أوروبا عندما هزم رئيس البلاط فى دولة الفرنجة شارل مارتل جيشا اسلاميا بقيادة عبد الرحمن الغافقى فى معركة بلاط الشهداء ، وهى المعركة التى استمرت ثمانية أيام ودارت فى السهل الذى يقع الى الشمال الشرقى من

---

(٥) عن هذه الحملة انظر : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٢٣ ، ٥٣٠ — ٥٣١ ، ٥٥٣ ،
Canard, Les expeditions des Arabes, pp. 80 — 102;
Vasiliev, Byz. empire, I, p. 236 ; Gaudefroy— Demombynes, Le Monde Musulman et Byzantin Paris, 1931, pp. 168 — 169 ; Camb. Med. Hist., Vol. 4, Part 1, p. 63 ; Fahmy, Muslim Sea — Power, pp. 96 — 101 ;
العدوى ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ٥٩ — ٦٢ ، وسام عبد العزيز فرج ، العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية ، ص ١٢١ — ١٧٥ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٦٥ — ٦٦ ، جمال الدين سرور ، دراسات ، ص ٨ — ١٠ ، عن المآصر انظر ميخائيل عواد ، المآصر فى بلاد الروم والاسلام ، ط • بغداد ١٩٤٨ ، وعن مسلمة بن عبد الملك وجهاده حتى حصار القسطنطينية انظر عواد مجيد الأعظمى ، الأمير مسلمة ابن عبد الملك بن مروان ، ط • بغداد ١٩٨٠ م •

(٦) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 236.

مدينة برانتييه فى بلاد الغال(٧) • ويبدو أن المسلمين قصدوا من غزوهم لهذه البلاد الوصول الى القسطنطينية من الغرب بعد أن فشلوا فى اتيانها من الشرق • ومما يدل على ذلك ما ذكره الطبرى فى حوادث سنة ٢٧ ه أن الخليفة عثمان بن عفـــان رضى الله عنـــه كتب الى من انتدب من أهل الاندلس : « أما بعد ، فان القسطنطينية انما تفتح من قبل الاندلس ، وانكم ان افتتحتموها كنتم شركاء من يفتحها فى الأجر والسلام »(٨) •

وتجدر الاشارة الى أن غارات المسلمين لم تنقطع ضـــد الدولة البيزنطية ، فقد تابع المسلمون حروبهم فى آسيا الصغرى ابتـــداء من سنة ٧٢٦ م فدمروا قيصرية ووصلوا الى نيقية وشواطىء بحر مرمرة • وفى ســـنة ١٢٢هـ/٧٤٠م نجح الامبراطور البيزنطى ليو الثـــالث فى الحاق الهزيمة بالمسلمين فى معركة جرت عند اكروينون Acroïnon (قره حصار) بالقرب من عمورية • وأدت هذه الهزيمة الى انسحاب المسلمين من غربى آسيا الصغرى والارتداد شرقا فجنوبا ، وفى هذه المعركة التى تسميها المصادر العربية ربض أقرن استشهد عبد الله البطال، الذى أبدى من ضروب الشجاعة والاقدام ما أكسبه لقب بطل الاسلام • وكان هذا المحارب من أبطال حملة مسلمة بن عبد الملك • واعتبره الأتراك فيما بعد بطلا من أبطالهم • وأصبح مدار أسطورة البطل التركى القومى السيد البطال الغازى Saiyid Battal Ghazi . ولايزال قبره حتى

---

(٧) انظر احمد الســـيد دراج ، عبد الرحمن الغافقى ، بطـــل بلاط الشـــهداء ، رســـالة المســـجد ، العـــدد الرابع (١٤٠١ هـ/١٩٨١ م) ص ٨٠ ـــ ٨٥ ، ســـعيد عاشـــور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٧٩ ـــ ١٨٠ •

(٨) تاريخ الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ •

اليوم قائما فى قرية جنوب اسكى شهر (دوريليوم)بآسيا الصغرى(٩)

ولم تمنع هجمات المسلمين المتتالية الامبراطور ليو الثالث من قيامه ببعض الاصلاحات الداخلية ، فقد أدخل هـذا الامبراطور كثيرا من التحسينات الادارية ، ونظم الشئون المالية ، وحد من نفوذ كبار ملاك الأراضى • ولعل ما قام به فى مجال التشريع جعله يأخذ مكانه خاصة بين أباطرة الدولة البيزنطية • فقد أصدر سنة ٧٢٦ م باسمه واسم ابنه قسطنطين مرجعا قانونيا عرف باسم الأكلوجا Ecloga (المختار) • واشتمل هذا المرجع القانونى على مختارات من أهم قواعد القانون المدنى والجنائى ، وجرى الاهتمام بصفة خاصة بقانون الأسرة والوراثة ، بينما احتل القانون الخاص بالممتلكات المرتبة الثانية • وكان الغرض من اصدار الأكلوجا هو تزويد القاضى بمذكرة قانونية تساير الحاجات العملية ، وتغنيه عن بقية القوانين المطولة والمنسوبة الى جستنيان الأول • واعتمدت الأكلوجا على القانون الرومانى فى مجموعة جستنيان الأول التى ظلت أساس القضاء البيزنطى • ورغم ذلك لم تكن الأكلوجا مجرد مختارات من القوانين القديمة بل حاولت الاهتمام بالنواحى الانسانية • واختلفت الأكلوجا عن قانون جستنيان الأول بتأثرها بالتعاليم الكنسية والعرف والعادات الشرقية مثل اهتمامها بحقوق الزوجات والاولاد وحماية الزواج ، اذ زالت الفكرة القائلة بأن الزواج عقد مدنى يمكن فسخه بالتراضى المتبادل بين الزوجين ، وحل محلها ما قررته المجالس الكنسية من أن الزواج يعتبر من الاسرار المقدسة ، فتعذر بذلك الحصول على الطلاق • واستحدثت الأكلوجا عقوبات لم تكن معروفة فى قوانين

---

(٩) ورد فى تاريخ الطبرى ، ج ٧ ، ص ١٩١ حوادث سنة ١٢٢ هـ «وفيها قتل عبد الله البطال فى جماعة من المسلمين بأرض الروم » انظر ايضا محمد فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ — ٢٨٤، اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٢٩٣ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٦٧ •

Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 237 — 8.

جستنيان الأول ، مثل جدع الأنف وشق اللسان وقطع الأيدى وسمل العيون وحلق الرأس وحرق الشعر وغير ذلك من العقوبات الجسدية القاسية التى قررت بدلا من عقوبة الاعدام ومن الغرامات الواردة فى قانون جستنيان الأول • وفى مقدمة الأكلوجا أعلن ليو الثالث العزم على أن يضع حدا للرشوة والفساد عند تولى الوظائف القضائية ، وأن يوفر لرجال القضاء مرتباتهم من قبل الدولة • وفى السنوات التالية احتلت الأكلوجا سمعة سيئة فى التاريخ البيزنطى ، لأنها من صنع ليو وقسطنطين مناهضى عبادة الأيقونات ، رغم أنها كانت ذات أهمية كبيرة فى تاريخ التشريع البيزنطى ، وكان لها أثر كبير فى تطور القوانين فى بلاد الصقالبة خارج حدود الدولة البيزنطية(١٠) •

أما حركة مناهضة عبادة الأيقونات أى الصور والتماثيل الدينية وهى المشكلة الدينية الكبرى التى شغلت الدولة والمجتمع البيزنطى لمدة تزيد على قرن من الزمان ، فقد ظهرت فى عصر ليو الثالث • وينقسم تاريخ هذه الحركة الى فترتين : الفترة الأولى امتدت من سنة ٧٢٦ م الى سنة ٧٨٧ م وانتهت بقرارات المجمع المسكونى السابع • واستمرت الفترة الثانية من سنة ٨١٣ م الى سنة ٨٤٣ م أى بما يسمى باحياء الأرثوذكسية • وأشار فازيليف الى أن دراسة تاريخ هذه الحركة تواجهها صعوبات كثيرة لقلة المصادر التاريخية الخاصة بها • فقد تم التخلص من مؤلفات اللاأيقونيين ، وكذلك مراسيم الأباطرة وقرارات المجامع اللا أيقونية التى عقدت فى سنوات ٧٥٣ــ٧٥٤ ، ٨١٥ ، وكذلك

---

(١٠) لمزيد من التفاصيل انظر :

Ostrogorsky, Byz. state, pp. 159 — 160 ;
Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 240 — 244 ; Camb. Med. Hist., Vol. 4, Part 1, p. 65 ; Hussey, Op. cit., pp. 28 — 9 ;

اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٢٩٨ ــ ٣٠٠ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٧٠ ــ ١٧٣ ، نبيه عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٥ ــ ١٤٦ ، سانت موسى ، ميلاد العصور الوسطى ، ص ٣٠١ .

الرســائل اللاهوتية لمناهضى عبادة الأيقونات ، وتخلص من هــذا كله مؤيدو عبادة الأيقونات بعد آن احرزوا انتصارهم • ويلاحظ أنه لم يصلنا الا بعض ما كتب عن اللاأيقونيــة ، وصلت الينا فى مؤلفات الأيقونيين عباد الصــور المقدسة الذين أوردوها فى كتبهم لدحضها ولاقامة الدليل على بطلانها(١١) •

ولم تكن عبادة الأيقونات جديدة فى عصر ليو الثالث اذ ترجــع بدايتها الى القرن الرابع الميــلادى عندما تم الاعتراف بالمسيحية ، وبدأ المسيحيون يزينون الكنائس بصور المسيح والعذراء والقديسين والتماثيل الدينية • ومما يدل على كثرة تريين الكنائس بالصور والتماثيل الدينية أن المجلس الذى عقد فى الفيرا Elvira بأسبانيا فى بدايــة القرن الرابع حرم اقامة الصور فى الكنائس •

كما أشار مؤرخ الكنيسة يوسيبيوس Eusebius فى القرن الرابع الميلادى الى تقديس صــور المسيح والقديس بطرس والقديس بولس ، الى انها « عادة وثنيــة » • وفى القرن الخامس أشــار ابيفانيوس القبرصى Epiphanius of Cyprus فى خطاب له الى أنه مزق ســتارة احدى الكنائس لأنها احتوت على صــورة المسيح أو أحد القديسين وأنها تدنس الكنيسة • كما قامت حركة خطــيرة فى أنطاكيــة فى القرن السادس الميلادى ضــد عبادة الصور ، وألقى الجند الثائرون فى مدينة الرها الحجارة على صور المسيح ، كما أن هناك بعض حوادث الهجوم على الصور وتحطيم الأيقونات فى القرن السابع(١٢) •

وبالتدريج احتلت الأيقونات أو الصور والتماثيل المقدســة مكانة خاصة فى قلوب كثير من أتبــاع الكنيسة • وجاءت عبــادة الأيقونات

(١١) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 251.

(١٢) Ibid., I, pp. 254 — 255 ;
انظر ايضا ، اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٣٠٤ •

مصحوبة بكثير من البدع والخرافات عندما أصبح البيزنطيون يسجدون لها ويلتمسون بركتها • وامتلأت الكنائس والأديرة بهـذه الصـور المقدسة ، وعلقت بالدور والحوانيت ، وطرزت على الملابس ، وطلب الناس منها الشفاء وقضاء المصالح ، لاعتقادهم أنها احتوت على معجزة تحمى بيوتهم وحوانيتهم من كل أذى ، وتعطيهم ثقة وشعورا بالاطمئنان، لهذا استنكر المثقفون فى بيزنطـة هـذا كله ونادوا بتحريم عبـادة الصور والتماثيل(١٣) •

وقد أرجع خصوم ليو الثالث عداءه للأيقونات الى مؤثرات يهودية واسلامية ، وأنه تأثر بالديانـة اليهودية التى تحرم عبـادة الصـور المقدسـة • أما بالنسبة للمؤثرات الاسلامية ففى سنة ٧٢١ أو ٧٢٣ م أمر الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ/٧٢٠ — ٧٢٤ م) بازالة الأيقونات من جميـع الكنائس المسيحيـة الموجودة فى الدولة الاسلامية(١٤) • وروى ثيوفانو Theophanes المتوفى سـنة ٨١٨ م أن يهوديا من اللاذقية Lātakia أتى الى الخليفة يزيد وأخبره بأنه سوف يحكم أربعين عاما لو أنه حطم الأيقونات الموجودة فى كنائس

---

(١٣) ابراهيم على طرخـان ، الحركة اللاايقونية ، ص ٥ ، انظـر أيضا ، Vasiliev, Byz. empire, I, p. 256.

(١٤) اختلفت المصادر فى تحديد السنة التى صدر فيها مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك ، فبعضـها ارجعـه الى سـنة ٧٢١ م وبعضـها الى سنة ١٠٤ هـ/٧٢٣ م • وقد وصل الأستاذ فازيليف الى أن تاريخ صـدور هذا المرسوم هو شهر يوليو ٧٢١ م اعتمادا على التقرير الذى قراه راهب من بيت المقدس فى مجمع نيقيه الذى عقد فى سنة ٧٨٧ م ، وكذلك على ما ذكره البطريرك نقفور وسـاويرس بن المقفـع وما ورد فى احـدى الحوليـات السريانية • واورد الأسـتاذ فازيليف معلومات قيمة خاصـة بمرسـوم الخليفة يزيد كما ورد فى المصادر اليونانية واللاتينية والسريانية والعربية والأرمنية ، لتفصيل ذلك انظر :

Vasiliev, A.A., 'The Iconoclastic edict of the Caliph Yazid II, A.D. 721 in **Dumbarton Oaks Papers**, No. 9 - - 10 (1956), pp. 24 — 47.

المسيحيين فى دولته ، وقام الخليفة على الفور بازالة الأيقونات التى كانت تزين كنائس مصر(١٥) •

ومن السهل تفنيد رواية ثيوفانو لأنه من المقطوع به أن الاسلام حرم التماثيل والصور تحريما قاطعا جازما ، وذلك لحكمة بالغة هى البعد عن مظاهر الوثنية وحماية العقيدة من الشرك وعبادة الأصنام • ونعى القرآن الكريم على التماثيل وشنع على من كان يعكف عليهـا ، وندد بمن يتخذ الأصنام والأوثان آلهة • وجاءت السنة النبوية المطهرة بالنهى عن اتخاذ الصور والتنفير منها • ووردت أحاديث نبوية كثيرة تدل على التحريم حتى كادت تبلغ حد التواتر(١٦) • ولاشك أن الدافع الدينى كان من وراء قرار الخليفة يزيد فى سنة ١٠٤هـ/٧٢٣ م ـــ حسب رواية المقريزى ـــ وبالتـــالى « محيت التماثيـــل وكسرت الأصـــنام بأجمعها »(١٧) • ولا يستبعد أن تكون لتعاليم الاسلام أثرها الايجائى

(١٥) Theophanes, Theophanis Chronographia, ed. G. de Boor (Leipzig, 1883 — 85), p. 401 in Creswell, The Lawfulness of painting in Early Islam, **Ars Islamica** XI-XII (1946), p. 163.

(١٦) منها قوله تعـــالى : « قـــال أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون) « سورة الصافات آية ٩٥ ـــ ٩٦ » ، (يا أيها الذين آمنوا انما الخمـــر والميسر والأنصـــاب والازلام رجس من عمـــل الشـــيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) « سورة المـــائدة آية ٩٠ » ومن الأحاديث النبوية ما رواه البخارى ومسلم عن أم المؤمنين عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله » وما رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » • أنظر : محمد على الصـــابونى ، روائع البيـــان تفسير آيات الأحكام من القرآن ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ ـــ ٤٢٢ ، ويرى الدكتور زكى محمد حسن فى تعليقاته على كتاب التصـــوير عنـــد العـــرب لأحمـــد تيمـــور ، ص ١٢٨ ـــ ١٢٩ ، ان التصوير بأنواعه كان مكروها فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وفى فجر الاسلام ، وبالغ الفقهاء فى التعبير عن هذه الكراهية بالأحاديث المنسوبة للنبى والتى تفيد التحريم الصريح المطلق .

(١٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار (الخطط) ، ج ٢ ، ص ٤٩٣ .

فى الدولة البيزنطية نتيجة الاحتكاك الثقافى بين المسلمين والبيزنطيين ، فلم يحمل المسلمون معهم الى آسيا الصغرى فكرة الجهاد والغزو فقط ، بل نقلوا معهم أفكارهم وحضارتهم وثقافتهم خاصة الكراهية لتصوير الجسد البشرى بصور وتماثيل وما شابه ذلك • ومعنى هذا أن التحدى العربى الاسلامى لبيزنطة لم يكن تحديا عسكريا فحسب ، بل كان تحديا فكريا وحضاريا أثر فى العقيدة نفسها ، وأثار أزمة حول تزيين الكنائس بالأيقونات وقدسية هذه الأيقونات(١٨) • وقد أشارت احد ى الحوليات الى الامبراطور ليو الثالث الى أنه « ذو عقلية اسلامية » رغم أن هناك شواهد قليلة جدا تدل على أنه قد تأثر تأثرا مباشرا بالاسلام(١٩) •

وكيفما كان الأمر فقد بدأ الامبراطور ليو الثالث حملة ضد الأيقونات وعبادتها فى السنة العاشرة من حكمه سنة ٧٢٦ م • ووجد تشجيعا وتأييدا من بعض كبار موظفى الدولة المدنيين والعسكريين فضلا عن المثقفين من رجال الدين • وأصدر الامبراطور مرسوما فى سنة ٧٢٦ م (وربما فى سنة ٧٢٥ م لأن نص المرسوم غير معروف) قضى بازالة جميع التماثيل والصور الدينية التى تزين الكنائس والأديرة • وأزال بعض المؤيدين للامبراطور تمثالا للمسيح كان مقاما فوق أحد أبواب القصر الامبراطورى فى القسطنطينية ، فأثار ذلك عامة سكان العاصمة وبخاصة النساء نتيجة الجهل وانتشار البدع • وقتل القائد الامبراطورى الذى كان مكلفا بتدمير التمثال ، وانتقم الامبراطور من قاتليه من المدافعين عن تمثال المسيح وكان هؤلاء أول ضحايا عبادة

---

(١٨) انظر لتفاصيل ذلك : ابراهيم على طرخان ، الحرية اللاايقونية فى الدولة البيزنطية ص ١٠ — ١١ ، اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٣٠٤ — ٣٠٥ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٧٧ .

(١٩) Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 255 — 256.

الأيقــونات(٢٠) • ولمــا كان الرهبان من أشــد المتعصــبين لعبــادة الأيقونات ، فقد وقفوا فى وجــه الامبراطور ليو الثالث معارضــين سياسته الدينية فى تحريم الأيقونات • وأيدهم كبار النبلاء الذين أرادوا معارضة الامبراطور ، كمــا أن صناع الأيقونات من أهل افيسوس عارضوا الامبراطور أيضــا عندما وجدوا أن الخطر يهدد مورد رزقهم لاحترافهم رسم الصور وصناعة التماثيل وبيعها(٢١) •

وهكذا وجد الامبراطور ليو الثالث معارضة عنيدة وعنيفة تجاه سياســته اللاأيقونيــة • ووقف بطريرك القسطنطينيــة جرمانوس Germanus وبابا روما جريجورى الثانى ثم جريجورى الثالث موقفا شديدا من اللاأيقونية • ومن أشهر المعارضين لسياســة الامبراطور ليو الثالث اللاأيقونية حنا الدمشقى John of Damascus الذى كان من أكبر علماء الدين ومفكريهم فى عصره • ويقال أنه كان يونانى الأصــل من أهالى الشام يجيد اللغتين اليونانية والعربية ، وعاش فى دمشق عاصمة الخلافة الأموية • وكتب حنا الدمشقى ثلاث رسائل فى الدفاع عن الأيقونات وهى أهم مؤلفاته وأكثرها ابتكارا ، وظلت المنبع الذى استمد منه المفكرون من أتباع عبادة الأيقونات آراءهم • وقد شرح حنا فى هذه الرسائل الثلاث الأدلة اللاهوتية لاستخدام الأيقونات ، وفند الاتهام الذى جعل عبادة الصور احياء لعبادة الأصنام فى الوثنية ، كما أوضــح فى رسائله أن الأيقونة ليست الا رمزا أو وســيلة يقف بواسطتها عامــة النــاس على ما ينبغى أن يقدســوه ويجلوه • وبرر استخدام صور المسيح بقوله ان هــذه الصــورة ما هى الا تجســيد

(٢٠) العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٧٩ — ١٨٠، أومــان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٢ ، أنظر ايضــا سانت موسى ، ميــلاد العصور الوسطى ، ص ٣٠٤ •
Vasiliev, Byz, empire, I, p. 258 ;

(٢١) بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٥ — ١١٦ •

لفكرة المسيح لا المسيح نفسه • وهكذا ربط قضـــية الأيقونات بفكرة الخلاص فى المسيحية • وقضى حنا الدمشقى الســـنوات الأخيرة من حياته فى دير القديس سابا St. Saba على مقربة من بيت المقدس وبالتالى كان بعيدا عن متناول بطش الامبراطور ليو الثالث(٢٢) •

وأخيرا لجـأ الامبراطور ليو الثالث الى القوة لتحقيق سياســته اللاأيقونية • فقد أصدر مرســوما يقضى بتدمير كل الأيقونات • وفى يناير سنة ٧٣٠ م عقد اجتماعا حضره كبار الموظفين المدنيين والكنسيين، وطلب الامبراطور ضرورة اصــدار قرار لمناهضة عبادة الصـور • وعندما رفض البطريرك جرمانوس ذلك ، أمر الامبراطور بعزله وتعيين انستاسيوس Anstasius كبطريرك لكنيسة القسطنطينية بعد أن أبدى استعداده لتنفيذ رغبة الامبراطور • وصـــدر مرسوم يقضى بتحريم عبادة الصور ، ويشير فازيليف الى أن هذا المرسوم من المحتمل أن يكون تكرارا لمرسوم سنة ٧٢٥ م أو سنة ٧٢٦ سابق الذكر • وترتب على ذلك تدمير الأيقونات وتعرض عبادها للاضطهاد(٢٣) •

وساءت العلاقة مع البابوية لدرجة أن أصــدر البابا جريجورى الثالث ســنة ٧٣١ م قرار الحرمان ضــد جميع اللاأيقونيين بما فيهم الامبراطور ليو الثالث • وينص هــذا القرار الذى أصــدره البابا فى مجمع دينى ووقعه الحاضرون من رجـال الدين على أن « يقطع من دم وجسد كنيسة المسيح كل من يستنكر أو يعارض احترام وتوقير الصور المقدسة ، وكذلك من يزيل أو يدمر أو يدنس أو يسب الصـور المقدسة

---

(٢٢) Hussey, Byz. World, p. 30 ; Vasiliev, Byz. empire I, pp. 251 — 259, Vryonis, Byzantium, pp. 75 — 6;

العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨١ ، نبيه عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٠ ، بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٧ .

(٢٣) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 258 :

انظر العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨١ .

للمسيح ، أو أمه السيدة مريم العذراء أو الحواريين أو أحد من القديسين »(٢٤) .

وهكذا اتسعت الهوة بين القسطنطينية وروما ، وأمر الامبراطور ليو الثالث باعتقال وسجن الممثل البابوى فى القسطنطينية ، وأخذت مكانة بيزنطة تنهار فى ايطاليا . وحرم الامبراطور البابوية من حقوقها وأملاكها فى صقلية وجنوب ايطاليا ، وفصل الكراسى الأسقفية فى هذه الجهات عن سلطان البابا . وهكذا ترتب على مشكلة مناهضة الصور المقدسة أن أخذ البابا يعمل على الخروج من دائرة النفوذ والسلطان الامبراطورى أى من الشرق اليونانى وبدأت بيزنطة تخرج من الغرب اللاتينى(٢٥) .

وتوفى ليو الثالث سنة ٧٤١ واعتلى عرش بيزنطة ابنه قسطنطين

---

(٢٤) انظر النص فى :

Ashour and Rabie, Fifty documents in Medieval History, p. 27.

وقرار الحرمان Excommunication كان يصدره البابا كنوع من العقاب ، يحرر به جميع رعايا واتباع من صدر ضده هذا القرار من ايمان الطاعة والتبعية التى اقسموها له . وتطورت قرارات الحرمان فى العصور الوسطى حتى أصبحت من درجتين : قرارات حرمان صغرى تحرم الفرد من أداء الشعائر والطقوس الكنسية ، وقرارات حرمان كبرى تبعد الفرد تماما عن الايمان وتحرمه من جميع المزايا التى يتمتع بها المسيحيون . ولا يستطيع الفرد فى هذه الحالة أداء الطقوس الدينية الكنسية، ويفقد جميع الهبات التى منحتها له الكنيسة ، ولا يدفن فى مدافن المسيحيين . وفى كلتا الحالتين يكون الجحيم — فى زعمهم — مصير الفرد المحروم من الكنيسة ، ويعيش محروما من صحبة المسيحيين وأى شخص يتعاون معه يكون هو الآخر معرضا للعقاب بتوقيع قرار الحرمان ضده ، أنظر :

Thompson and Johnson, An introduction to medieval Europe, New York, 1937, p. 656 :

سعيد عاشور ، اوروبا العصور الوسطى (ط . الخامسة ، ١٩٧٢)، ج ١ ، ص ٣٥٤ ، ٣٩٦ ، ج ٢ ، ص ٣ .

(٢٥) انظر العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨٢ — ١٨٣ .

الخامس كوبرونيموس Constantine V Copronymus • وبعد سنة من تتويجه قام صهره ارتاباسدوس Artabasdus قائد ثغر الأبسيق بثورة ضد قسطنطين • وكان أرتاباسدوس قد ساعد ليو على الوصول الى عرش بيزنطة فزوجه ابنته وأصبح قائدا لهذا الثغر الهام • وانتهز أرتاباسدوس فرصة عبور الامبراطور قسطنطين الخامس وجيشه ثغر الأبسيق سنة ٧٤٢ لقتال المسلمين ، وهاجم الامبراطور وهزمه ثم دخل القسطنطينية امبراطورا • وحكم أرتاباسدوس الامبراطورية مدة ستة عشر شهرا أعاد فيها عبادة الأيقونات • أما قسطنطين الخامس فقد هرب الى ثغور آسيا الصغرى ، واستطاع بكفاءته الحربية والمساعدات التى تلقاها من تلك الثغور استرداد عرشه سنة ٧٤٣ وأنزل بخصومه أشد أنواع العقاب ، وقضى على تلك الفتنة التى أوضحت لقسطنطين أن عبادة الأيقونات قد تعود مرة أخرى بدون صعوبات كثيرة • وبدأ يتخذ خطوات حاسمة لتقوية الحركة اللاأيقونية فى أذهان العامة ، وقرر عقد مجمع دينى ليضع أسس السياسة اللاأيقونية ولاقرار شرعيتها(٢٦) •

وفى سنة ٧٥٤ م عقد مجمع دينى فى القسطنطينية لتحقيق هذا الهدف • وحضر هذا المجمع أكثر من ٣٠٠ أسقف فى قصر هيريا Hieria على الشاطىء الآسيوى للبوسفور المواجه للقسطنطينية • ولم يرسل البابا ممثلين عنه لحضور جلسات هذا المجمع ، بل أنزل اللعنة على كل من يحضره ، كما لم يحضره أى من البطاركة لأن كرسى كنيسة القسطنطينية كان شاغرا بعد موت البطريرك انستاسيوس فى نهاية عام ٧٥٣ م ، ورفض بطاركة الاسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس

---

(٢٦) Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 259 — 60 ;
Ostrogorsky, Byz. state, pp. 165 — 6 ;
العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨٣ — ١٨٥ .

حضور المجمع أو ارسال ممثليهم • وأعطى هذا العمل لمعارضى مجمع سنة ٧٥٤ م دليلا كافيا على عدم شرعية قراراته(٢٧) •

ولعب الامبراطور قسطنطين الخامس نفسه دورا هاما فى النشاط الأدبى الذى صاحب هـذا المجمع ، فقد كتب ما لا يقل عن ثلاثة عشر بحثا دينيا أهمها بحثان لم يبق منهما سوى بضـع شذرات • وقصـد قسطنطين الخامس فى كتاباته توجيه الرأى فى جلسات المجمع الكنسى الى اصدار قرارات معينة • وساهمت هذه البحوث فى زيادة شرح آراء اللاأيقونيين • وبرهن قسطنطين على عدم امكانية تمثيل المسيح تمثيلا حقيقيا نظرا للطبيعة الآلهية للمسيح ، بينما بنى مؤيدو الأيقونات — مثل البطريرك جرمانوس وحنـا الدمشقى — تحبيذهم لفكرة تمثيـل المسيح فى صور على أسـاس التجسيد ، فاعتبروا المسيح فى صـورة انسان تأكيدا لحقيقة تجسيده(٢٨) •

وأخيرا قرر هذا المجمع الكنسى الذى عقد فى المدة من ١٠ فبراير الى ٨ أغسطس سنة ٧٥٤ م ورأس جلساته الأسقف ثيودوسيوس أسقف أفيسوس تحريم تصـوير المسيح فى أى شكل من الأشكال ، لأن هذه الصـور والتماثيل تعبر عن طبيعة المسيح الانسانية والآلهية فى طابع بشرى مجسد ، وبذلك تطمس صفته الآلهية • وكذلك حرم المجمع صور القديسين باعتبارها ضربا من ضروب الوثنيـة • وتبع اعـلان قرارات هـذا المجمع الأمر بتدمير جميـع الأيقونات وبطرد زعماء الأيقونيين بما فيهم البطريرك جرمانوس وحنا الدمشقى من الجماعة المسيحية • وأعقب قرارات المجمع حركة تدمير للصور وحرقها ونزعها • واضطهد أتباع عبادة الصور المقدسـة الى درجة أن قتل الكثيرون منهم وعذبوا

---

(٢٧) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 260.

(٢٨) Ostrogorsky, Byz. state, pp. 171— 2 ;
العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨٩ — ١٩٠ •

وسجنوا وفقدوا ممتلكاتهم • وأمر الامبراطور قسطنطين الخـامس بتحطيم الصور المقدسة ووضع صور عادية مكانها • وحلت صور الأشجار والطيوم والحيوانات ومناظر الصيد وسباق العربات محل الصـور المقدسة فى الكنائس وغير ذلك من الأمكنة العامة • ودمروا تحفا رائعة لها قيمة كبيرة فى تاريخ الفن ، كما أحرقت مخطوطات مصورة رائعـة • وبدأ يزدهر فى بيزنطة فن دنيوى الى جانب الفن الدينى(٢٩) •

وتحولت الحركة اللاأيقونية فى عصر قسطنطين الخامس ضـد الأديرة والرهبان بطريقة لم تشهدها الدولة البيزنطية من قبل • فقد أرغم الرهبان على ارتداء الملابس العلمانية ، وأرغم بعضهم على الزواج بالتهديد والقوة • وفى يوم من الأيام أرغم بعض الرهبان على السير فى ميدان السباق hippodrome وسط هتافات واهانـات المتفرجين ، وكل منهم يمسك بيد امرأة • ويقص ثيوفانو Theophanes أن حاكم افيسوس فى آسيا الصغرى جمع الرهبان والراهبات فى اقليمه وهددهم باطاعة أوامر الامبراطور وارتداء الملابس البيضاء والزواج فى الحال ، وهدد من رفض ذلك بسمل عينيه ونفيه الى جزيرة قبرص • وعندما سمع الامبراطور قسطنطين الخامس بالخبر أرسل الى حاكم افيسوس مهنئا له على ذلك وشاكرا له صنيعه • وتم اخلاء الأديرة من الرهبان وحولت الى معسكرات ومخازن أسلحة ، كما صودرت ممتلكات الأديرة • وحاول الرهبان الهرب خارج الدولة البيزنطية بكل الطرق ، فيقال ان

---

(٢٩) Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 260 — 1 ; Ostrogorsky, Byz. state, pp. 172—3 ; Runciman, Byz. civilization, pp. 269—70 ;

العرينى ، الدولة البيزنطيـة ، ص ١٨٩ — ١٩١ ، نبيه عـاقل ، الامبراطورية البيزنطية ص ١٦٠ — ١٦٢ ، وعن قرارات مجمع سنة ٧٥٤ م المسـماه Horos وهى الوثيقـة التى نجت من أيـدى الأيقونيين بعد انتصارهم ، انظر :
Cam. Med. Hist., Vol. IV, Part 1, pp. 78 — 80.

خمسة من الرهبـــان تمكنوا من الهرب ووصلوا الى بغداد فى حمايـــة الخلافة العباســـية • ويقال ان ايطاليـــا استقبلت فى عصر ليو الثالث وقسطنطين الخامس ما يقرب من خمسين ألفا من الرهبان الهاربين ، مما كان له آثره فى ثقافة جنوب ايطاليا نتيجة هجرة هذا العدد الكبير من اليونانيين التابعين للكنيسة الأرثوذكسية ، اذ أنشأوا أديرة ومدارس أصبحت مراكز للثقافة اليونانية(٣٠) •

وتركزت المقاومـــة الأيقونيـــة حـــول الأب ستيفن رئيس دير أوكسمنتيوس Auxementius فى آســـيا الصغرى • ولقيت دعـــوة ستيفن تأييدا من عدد كبير من السكان على اختلاف طبقاتهم • وفشل الامبراطور قسطنطين الخامس فى أن يثنى الأب ستيفن عن آرائه ، وفى نوفمبر سنة ٧٦٥ م هاجمت جماعة من الرعاع الأب ستيفن ومزقت جسده اربا فى شـــوارع القسطنطينية • واشـــتد السخط على حـــكم الامبراطور قسطنطين الخامس مما اضطر الى أن يصـــدر سنة ٧٦٦ م الأوامر بقتل جماعة من كبار موظفى الدولة وقادتها العسكريين • واقترن حكم قسطنطين الخامس فى أذهان البيزنطيين لســـنوات طويلة قادمة بالارهاب والقتل والحرق والهدم(٣١) •

غير أن ذكرى هذا الامبراطور ظلت رغم ذلك باقية فى أذهـــان البيزنطيين لقرون تالية بسبب ما حققه لبيزنطة من أمجـــاد عسكرية ، ولا سيما ضد البلغار • فقد أسس البلغار لأنفسهم مراكز قوية فى حوض نهر الدانوب الأدنى ، ودافعوا عن وجودهم ضـــد محاولات بيزنطة المتتالية لتدمير ما حققه الخان أسباروخ Asparuch (٣٢) غير أن

---

(٣٠) Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 262 — 263.

(٣١) Ibid., I, p. 263 ;

العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٩٢ ، نبيه عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٦٢ — ١٦٣ •

(٣٢) انظر ما سبق ص ٩٢ — ٩٣ •

المملكة البلغارية وقعت فى نزاع وفتن بين رؤســاء البلغار لتنافســهم للوصول الى منصب الخان Khan فى وقت كان على البلغار أن يقاوموا الســلاف (الصقالبة) الذين غزوا شــبه جزيرة البلقان(٣٣) • وكان البلغار قد ساعدوا جستنيان الثــانى فى استرداد عرشــه كما عاونوا ليو الثالث لدفع المسلمين عن القسطنطينية • ونجحت المملكة البلغارية فى حفظ السلام مع الدولة البيزنطية فى عهد ليو الثالث • واستمرت فترة الهدوء وحسن الجوار مع بيزنطة حوالى ٣٠ عاما بدليل أن الكتــاب البيزنطيين لم يشيروا الى أية اعتداءات من البلغار •

أما فى عهد قسطنطين الخامس فقد بدأت العلاقــات تتوتر مع البلغار • وشيد الامبراطور البيزنطى عددا من القلاع على طول الحدود البلغارية لمســاعدة الأرمن وغيرهم الذين نقلهم من الأقاليم الشرقيــة للاستقرار فى تراقيــا • وعندما عــامل قسطنطين الخــامس المندوب البلغارى فى القسطنطينية بازدراء بدأت غارات البلغار الحربية • وقام قسطنطين الخامس فيما بين سنتى ٧٥٩ — ٧٧٥ م بثمان أو تسع حملات برية وبحرية ضد البلغار بغرض القضاء على المملكة البلغارية • ورغم أن قسطنطين لم يستطع تحقيق أمله الا أن حروبــه أضعفت بلغاريا وبددت قوتهــا الحربيــــة لدرجــة أن ســـــماه بعض المؤرخــين Bulgaroctonus أى سفاح البلغار الأول(٣٤) •

ولكن النجاح الذى حققه قسطنطين الخامس فى معاركه مع البلغار كان على حساب الجزء الغربى من الامبراطورية الرومانية القديمة •

---

(٣٣) انظر الفصل الهام الذى كتبه رنسيمان عن بيزنطه والســلاف (الصقالبة) فى :
Baynes and Moss, ed. Byzantium, pp. 338 — 368.

(٣٤) العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨٦ — ١٨٧ ،
Vasiliev, Byz. empire, I, p. 239.

فقد وصلت مملكة اللومبارديين فى عهد ملكهم استولف (٧٤٩ — ٧٥٦) أقصى اتساعها • ففى سنة ٧٥١ م ، أى فى السنة العاشرة من حكم قسطنطين الخامس ، سقطت رافنا فى أيدى اللومبارديين وبالتالى سقطت أرخونية رافنا البيزنطية ، وانتهى حكم الدولة البيزنطية فى شمال ووسط ايطاليا • وسبق أن ذكرنا ازدياد شقة الخلاف بين البابوية فى روما والامبراطورية فى القسطنطينية ، بسبب السياسة اللاأيقونية التى اتبعها كل من ليو الثالث وقسطنطين الخامس(٣٥) • وعندما سقطت رافنا البيزنطية فى أيدى اللومبارديين ، وحاول ملكهم استولف اخضاع الممتلكات البابوية بل والبابوية نفسها ، تأكد للبابا عدم جدوى الاستعانة بالدولة البيزنطية لمواجهة الخطر اللومباردى ، فى الوقت الذى بدأت فيه قوة الفرنجة فى الازدياد • لهذا رأى البابا ستيفن الثانى Stephen II ضرورة الاعتماد على الفرنجة — وليس على البيزنطيين اللاأيقونيين الهراطقة — لحماية البابوية من اللومبارديين • واجتاز البابا ستيفن الثانى جبال الألب ، وفى ٦ يناير ٧٥٤ م التقى فى بونثيون Ponthion بالملك بيبين القصير ملك الفرنجة • ولهذا اللقاء أهمية كبيرة فى تاريخ العصور الوسطى اذ انصرفت البابوية عن الدولة البيزنطية وتحالفت مع مملكة الفرنجة ، وهو التحالف الذى سوف يتوج — بعد أقل من نصف قرن — بتتويج شارلمان وقيام الامبراطورية الغربية(٣٦) •

وبعد وفاة قسطنطين الخامس سنة ٧٧٥ م لم تستمر أسرة ليو الثالث فى حكم الدولة البيزنطية سوى ٢٧ عاما فقط • فقد خلف قسطنطين الخامس فى حكم الدولة أكبر أبنائه ليو الرابع الشهير باسم

---

(٣٥) انظر ما سبق ص ١١٤ — ١١٦ •

(٣٦) Ostrogorsky, Byz. state, p. 170 ; Vryonis, Byzantium, p. 66 ;

العرينى ، الدولة البيزنطية ص ١٨٨ ، سعيد عاشور ، اوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٥٥ — ١٥٧ •

ليو الرابـــع الخزرى Leo IV the Khazar لأن أمه كانت ابنـــة ملك الخزر • ويمـــكن اعتبـــار الســـنوات التى حكمها هـــذا الامبراطور (٧٧٥ — ٧٨٠ م) فترة انتقال بين ذروة العداء ضد الأيقونيين فى عهد قسطنطين الخامس وبين اعادة عبادة الصور المقدسة زمن الامبراطورة ايرين • وتغاضى ليو الرابع عن محاربة الرهبنة والديرية ، كما أنه لم يشـــعر بعداء تجـــاه الرهبـــان الذين استردوا بعض نفوذهم • ومن المحتمل أن ما حدث من تحول زمن هذا الامبراطور انما يرجع الى رد فعل لمـــا حدث زمن قسطنطين الخـــامس من اضطهاد عنيف لعبـــادة الأيقونات ، كما يرجع أيضا — كما ذكر الأســـتاذ فازيليف — الى أن ليو الخزرى كان متأثرا الى حد ما بزوجتـــه الشـــابة ايرين Irene التى جاءت من مدينـــة أثينا المشهورة باحترام الأيقونات وتقديسها ، كما كانت الامبراطورة مغرمة بعبادة الصـــور ومن أنصـــار الأيقونات المتحمسين(٣٧) •

وعندما توفى ليو الرابع فى سنة ٧٨٠ م وهو فى ريعان شبابه أصبح العرش من نصيب ابنه قسطنطين السادس (٧٨٠ — ٧٩٧ م) الذى لم يكن عمره وقتذاك يزيد على عشر سنوات ، مما أدى الى أن تولت الوصاية عليه أمه الامبراطورة ايرين وأصبحت مقاليد الحكم فى يديها • ويلاحظ أنه فى السنوات الثلاث الأولى لحكمها ، لم تقم الامبراطورة ايرين باجراءات لاعـــادة عبادة الصور المقدسة • ويرجع هذا التأجيل فى الحقيقة الى ما حدث من اخماد فتن داخلية أثارها بعض أدعياء العرش من بعض أفراد الأسرة الحاكمـــة ، وكذلك الى توجيـــه قوات الدولة البيزنطية لمحاربة الصقالبة (السلاف) الذين عاثوا فسادا فى اليونان • وكان لابد لاعـــادة الأيقونات أن يصاحبها الكثير من الحذر ، لأن حركة

---

(٣٧) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 263 :

نبيه عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٦٤ ، وعن ايرين ، انظر عليه الجنزورى ، الامبراطورة ايرين ، ط ، القاهرة ١٩٨١ •

مناهضة الأيقونات كانت راسخة الجذور فى المجتمع البيزنطى ولا يمكن اقتلاعها بسهولة بعد مضى حوالى نصف قرن من الزمان • يضـــاف الى ذلك أن معظم رجال الجيش كانوا من مناهضى عبادة الصـــور المقدسة وكانت قرارات مجمع سنة ٧٥٤ م زمن قسطنطين الخـــامس لا تزال سائدة ولها نفوذها الكبير على النـــاس فى الدولة البيزنطيـــة • وفى سنة ٧٨٤م عينت ايرين تاراسيوس Tarasius بطريركا جديدا على كنيسة القسطنطينية بعد أن أقنعت ســـلفه بالاستقالة • وأعلن البطريرك الجديد أن هنـــاك حاجة لعقد مجمع مسكونى لاعادة عبادة الصـــور • وتم توجيـــه الدعـــوة لحضـــور المجمـــع الى البابا هادريـــان الأول Hadrian I لكى يرسل وفدا • وعقد المجمع فى ٣١ يوليو سنة ٧٨٦ م فى كنيسة الرســـل فى القسطنطينية • ولكن جماعـــة من جنود الحرس هاجموا الكنيسة شاهرين سيوفهم ، وأجبروا رجال الدين المجتمعين على التفرق والانصراف وعطلوا جلسات المجمع • وقامت ايرين ــ بمهارة ــ باستبدال الجند العصـــاة بجند جدد يدينون بالولاء لآرائها ومعتقداتها • وفى السنة التالية أى فى مايو سنة ٧٨٧ م دعت ايرين الى عقد مجمع جديد فى مدينة نيقيه فى نفس المكان والمدينة التى انعقد فيها المجمع المسكونى الأول فى عصر الامبراطور قسطنطين الكبير • وحضر المجمع حوالى ٣٥٠ أسقفا وعدد كبير من الرهبـــان وترأس جلساته البطريرك تاراسيوس • وعقدت سبع جلسات فى نيقيه لم يحضرهـــا الامبراطور قسطنطين السادس أو الامبراطوره ايرين ولكن الجلسة الثامنة والأخيرة عقدت فى القصر الامبراطورى فى القسطنطينية • وقرر المجمع ــ وهو المجمع المسكونى السابع والأخير ــ اعادة تبجيل الأيقونات كما كان عليه الحـــال من قبل • واعتمد المجمع على عدد من آيـــات الأنجيـــل والكتابات الدينية المختلفة التى تؤيد تبجيل الأيقونات • وتقرر بطلان قرارات المجمع اللاأيقونى الذى انعقد فى سنة ٧٥٤ م • وربط المجمع ــ كما فعل حنا الدمشـــقى من قبل ــ قضـــية تبجيل الأيقونات بفكرة

الخلاص التى يمثلها المسيح • وأكد أن تبجيل الأيقونات ليس المقصود منه احترام الأيقونات ذاتها بل احترام وتبجيل الذين صورت لهم ، وليست عبادة لهم ، لأن العبادة تجب لله وحده دون غيره(٣٨) •

ويلاحظ أن قرارات هذا المجمع لم تقض على العناصر المعادية للأيقونات بل على العكس أدت الى قيام هذه العناصر بالدفاع عن نفسها والى وقوفها موقف المناوىء فى الأزمة التى قامت بين الامبراطورة ايرين وابنها الامبراطور قسطنطين السادس • وعارضت سياسة ايرين القوات المرابطة فى آسيا الصغرى التى لا تميل الى عبادة الأيقونات ، وانتشرت حركة المقاومة ضد ايرين فى سائر ثغور آسيا الصغرى • ورغم انفراد قسطنطين السادس بالحكم سنة ٧٩٠ م الا أنه رضخ لأنصار ايرين وسمح لأمه بالبقاء فى القصر ، وأن تكون قسيمة له فى الحكم ، وذلك لما عرف عنه من ضعف وجبن • وكره الناس قسطنطين السادس لعدم شهامته وجبنه عند هزيمته فى حرب البلغار سنة ٧٩٢ م ، وقيامه بسمل عينى عمه نقفور ، وقطع ألسنة أعمامه الأربعة الآخرين ، كما أنه أمر بسمل عينى قائد ثغر الأرمنياق مما أدى الى تمرد جنود ذلك الثغر • وأغضب الامبراطور قسطنطين السادس الكنيسة لقيامه بطلاق زوجته وزواجه من احدى وصيفات القصر فاتهمه الرهبان بالزنا ومخالفته لقوانين الكنيسة • وانتهزت ايرين فرصة النقمة على ابنها قسطنطين السادس فأمرت فى ١٥ أغسطس ٧٩٧ م بسمل عينيه فى نفس الحجرة التى ولد فيها قبل سبع وعشرين سنة مضت • وما ان أصبح

---

(٣٨) عن مجمع سنة ٧٨٧ م وقراراته انظر :
Vasiliev, Byz. empire, I. pp. 263 — 4 ; Ostrogorsky ,
Byz. state, pp. 178 — 9 ;
العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٩٦ — ١٩٧ ، اسحق عبيد ، الامبراطورية الرومانية ، ص ٩٤ — ٩٦ ، عليه الجنزورى ، الامبراطورة ايرين ، ص ٢٣ — ٢٧ .

قسطنطين غير مؤهل لمنصب الامبراطورية حتى انفردت ايرين بحكم الدولة البيزنطيـــة ، وبدأت مرحـــلة من مراحـــل الاضطراب والفتن والمؤامرات داخل البلاد • وخيم التآمر فى البلاط البيزنطى وبخاصـــة بين المستشـــارين الكبيرين لايرين ، وهمـــا الطواشى بســتوراكيوس Stauriacus والطواشى أيتيوس Actius (٣٩) •

وكان من الطبيعى فى مثل تلك الظروف التى عانت منهـــا الدولة البيزنطية أن تتلقى بيزنطـــة صفعات قاســـية من أعدائها التقليديين وبخاصة من المسلمين والبلغار ، وأن تفقد هيبتها فى الغرب •

ففى سنة ١٣٢ هـ/٧٤٩ م آلت الخلافة الاسلامية الى العباسيين• وفى ســـنة ١٤٥ هـ/٧٦٢ م أسس الخليفة العبـــاسى الثانى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد(٤٠) ، وتحول اليها من مدينة ابن هبيرة فى السنة التالية(٤١) • وبالتالى نقل العباسيون مقر الخلافة من دمشق الى بغداد على نهر دجلة بعيدا عن حدود بيزنطة • غير أن المسلمين انتهزوا فرصة ما جرى فى الدولة البيزنطية من ضعف وفتن فى عصر ايرين ، وقامـــوا بحملات ناجحة فى آسيا الصغرى ووجهوا الضربات القاصمة لبيزنطة ، واعتادوا الاغارة على أراضى الدولة البيزنطية فى أوقات معينة • وكانت بعض الأغارات تحدث فى فصلى الربيع والصيف وتسمى الصوائف عندما تكون الخيول قد قويت من رعيها فى كلأ الربيع ومراعيه ، واغارات أخرى

---

(٣٩) Ostrogorsky, Byz. state, pp. 180 — 2 ; العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٩٨ — ١٩٩ ، عليه الجنزورى ، الامبراطورة ايرين ، ص ٤١ — ٤٩ .

(٤٠) ابن الفقيه الهمدانى ، بغداد مدينة السلام ، ص ٢٨ .

(٤١) تاريخ الطبرى ، ج ٧ ، ص ٦٥٠ .

فى الشتاء تسمى الشواتى التى لم يقدم المسلمون عليها الا فى حالات الضرورة القصوى ولا يتوغلون داخل أراضى البيزنطيين(٤٢) •

ويذكر الطبرى أن الخليفة المهدى أرسل سنة ١٦٥ هـ/٧٨١ م ابنه هارون الرشيد غازيا الى بلاد الروم • وتوغل هارون الرشيد بجيوشه فى آسيا الصغرى ، وحقق انتصارات رائعة ضد البيزنطيين « حتى بلغ خليج البحر الذى على القسطنطينية »(٤٣) • ويؤكد ثيوفانو رواية الطبرى اذ ذكر أن هارون الرشيد وصل الى مدينة كريسوبوليس Chrysopolis على البوسفور(٤٤) • واضطرت الامبراطورة ايرين وابنها قسطنطين السادس الى الصلح والموادعة • وعقدت هدنه مدتها ثلاث سنوات ، وكانت هدنة مهينة لبيزنطة ، اذ اضطرت الى دفع اتاوة قدرها ٩٠ أو ٧٠ ألف دينار فى كل سنة تدفعها على مرحلتين • وعاد هارون الرشيد بغنائم كثيرة(٤٥) •

وشجع سوء الأحوال الداخلية فى الدولة البيزنطية هارون الرشيد ـ عندما تولى الخلافة سنة ١٧٠ هـ/٧٨٦ م على توجيه الحملات الاسلامية المتتابعة ضد بيزنطة فى الصوائف والشواتى(٤٦) • والى هذه المرحلة من مراحل الجهاد الاسلامى ضد البيزنطيين ترجع ملحمة

---

(٤٢) عن الصوائف والشواتى انظر : ابراهيم العدوى ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٧٧ ـ ٧٨ ، عليه الجنزورى ، الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية ، ص ٢٣ ـ ٢٧ •

(٤٣) تاريخ الطبرى ، ج ٨ ، ص ١٥٢ •

(٤٤) انظر Canard, 'les expéditions des Arabes', pp. 102 — 4.

(٤٥) تاريخ الطبرى ، ج ٨ ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣ ، Vasiliev, Byz. empire, I, p. 238 ; Cam. Med. Hist., Vol. 4, Part 1, p. 83.

(٤٦) انظر الطبرى ، ج ٨ ، صفحات ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ •

ديجينس اكريتاس Digenis Akritas بطـل حرب الثغور ، وهى ملحمة شعبية تمثل شجاعة الفرســان وبطولة الجند وحيـاة المحاربين الآسيويين المدافعين عن بيزنطـة • وتصور هـذه الملحمة ـ وهى من ملاحم أعمال الأبطال ـ كثيرا من الوقائع والحوادث التى جرت على الحدود الاسلامية ـ البيزنطية التى اشترك فيها بطل هذه الملحمة • وأخيرا لقى ديجينس اكريتاس حتفه فى احدى معارك البيزنطيين مع المسلمين فى آسيا الصغرى سنة ٧٨٨ م ودفن فى قبر بالقرب من مدينة سميساط(٤٧) •

وفى سنة ١٨١ هـ/٧٩٨ م قام الخليفة هارون الرشيد بنفسـه بغزو أرض الروم واستولى عنوة على حصن الصفصاف(٤٨) • وتم عقد هدنة جديدة ، وتعهدت بيزنطة بدفع اتاوة سنوية مثلما كان الحـال فى عهد الخليفة المهدى(٤٩) • وبدا كأن المسلمين قد قاربوا تحقيق أملهم القديم فى الاستيلاء على القسطنطينية •

وفى الجبهة البلغارية واجهت الدولة البيزنطية ازدياد قوة البلغار وبخاصة بعد أن قل العداء الشديد بين البلغار والصقالبة • وكون البلغار مملكة قوية قامت بحمـلات هجومية ضد بيزنطة • وفى صيف عام ٧٩٢ م حلت بالبيزنطيين بقيادة الامبراطور قسطنطين السادس هزيمة شنيعة عند حصن ماركيلاى Marcellac على الحدود البلغـارية خاصـة عندما هرب الامبراطور نفسه وأسر كبار قادة الجيش البيزنطى • وكان على الدولة البيزنطية أن تدفع الجزية مرة أخرى للبلغار • وكان سلاما

---

(٤٧) Charles Diehl, Byzantium, p. 50 ;
العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ، محمد فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

(٤٨) تاريخ الطبرى ، ج ٨ ، ص ٢٦٨ .

(٤٩) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 239.

قصير الأجل اذ طالب البلغار زيادة الاتاوة ، وكان على الدولة البيزنطية أن تدفع صاغرة ما طلبه البلغار بعد مكانتها المرموقة فى عصر قسطنطين الخامس(٥٠) •

أما فى الغرب فقد فقدت بيزنطة هيبتها • فقد انتصر ملك الفرنجة شارل الكبير (شارلمان) على اللومبارديين ، وأحرز من الانتصارات ما لم يحرزه البيزنطيون • ووثقت كنيسة روما تحالفها مع مملكة الفرنجة وانصرفت نهائيا عن بيزنطة • وعندما شرعت الامبراطورة ايرين فى تغيير السياسة اللاأيقونية التى انتهجها الأباطرة منذ عهد ليو الثالث ، فكرت فى أن تجرى مع الفرنجة علاقات ودية • وعرضت سنة ٧٨١ م أن يتزوج ابنها قسطنطين السادس الذى كان يبلغ من العمر — وقتذاك — حوالى ١٢ سنة من روترود Rotrud ابنة شارل• ولقى رسلها ترحيبا كبيرا ، وتقرر اتخاذ التدابير اللازمة لتعليم الأميرة الصغيرة ما اشتهر به البلاط البيزنطى من لغة وآداب وتقاليد • ويقال أن مشروع الزواج قد فشل اما لأن شارل — على حد قول الفرنجة — لم يطق فراق ابنته ، واما لأن ايرين — بحسب الرواية اليونانية — لم تكن تقصد الا الافادة من الهدنة التى تحققت بفضل اقتراحها أو لأسباب أخرى • والمهم أن شارل فسخ خطوبة روترود لابن ايرين(٥١) •

وعندما تم سمل عينى الامبراطور قسطنطين السادس وخلعه سنة ٧٩٧ م رأى البابا ليو الثالث ضرورة اعادة الحق الى مدينة روما فى انتخاب الامبراطور • واعتبر — فيما يبدو — أن سلطة ايرين غير

---

(٥٠) Ostrogorsky, Byz. state, p. 182 ; Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 239 — 40;
العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٢٠١ •

(٥١) ديفز : شارلمان ، ترجمة د. العرينى ، ص ١١٩ — ١٢٠ ، ١٢٢ ، ٢٩٩ ، انظر ايضا Vasiliev, Byz. empire., I, p. 267

قانونية ، لأنها امرأة ، ولم يسبق فى تاريخ الامبراطورية الرومانيــة أن حكمت امرأة الأمبراطوريـــة وبيدها كل الســـلطات • وأصبح عرش الامبراطورية التى تضم جميع الشعوب المسيحية ــ من وجهة نظر شارل والبابا ليو الثالث ــ شــاغرا بعد خلع قســطنطين الســادس ، وأن البيزنطيــين قد فقدوا ما كان لهم من حــق قــديم فى انتخــاب الامبراطور(٥٢) •

واتخذ البابا ليو الثــالث خطوة خطــيرة عند ما توج شارلمــان كامبراطور رومانى فى كنيسة القديس بطرس فى روما فى ٢٥ ديســمبر سنة ٨٠٠ م • واعتبرت الدولة البيزنطية تتويج شارلمــان امبراطورا خرقا لكل التقاليد والأعراف ، وضربة للنفوذ البيزنطى ، لأن بيزنطة كانت تعتبر نفسها الامبراطورية الوحيدة التى ورثت الامبراطورية الرومانية القديمة • وبالتالى رأت أن ارتقاء شارلمــان عرش الامبراطورية محاولة صبيانية لاحداث الانشقاق ، وخــرقا للتقاليد ، واغتصابا لحــق من حقوقها • ونظرت بيزنطة أيضا لمــا حدث سنة ٨٠٠ م كمحــاولة من محاولات الثورة ضد الحاكم الشرعى (الامبراطور البيزنطى) • وخافت أن ذلك الامبراطور المدعى الجديد (أى شارلمــان) يتقدم ــ كسابقيه من الطغــاة ــ نحو القسطنطينيــة لعزل ايرين واغتصــاب العرش الامبراطورى بالقوة ، وأن الأمر لا يتعدى خــروج بعض الولايات الغربية عن سلطان الحاكم الشرعى للامبراطورية(٥٣) •

أما من وجهة نظر شارلمــان والبابا ليو الثالث فقد رأيا أن العرش الامبراطورى أصبح شاغرا بخلع قسطنطين السادس ، وأن شارلمــان

---

(٥٢) اسد رستم ، الروم ، ج ١ ص ٣١٢ ــ ٣١٣ ، ديفز ، شارلمان ، ص ١٧٢ ــ ١٧٤ ، ١٨٤ ــ ١٨٥ ، Vasiliev, Byz. empire, I, p. 267.

(٥٣) ديفز ، شارلمــان ، ص ١٨٤ ــ ١٨٥ .
Vasiciv, Byz. empire, I, p. 267 :

عندما تلقى التاج من البابا كان معناه أن يشغل عرش الامبراطورية الرومانية الواحدة ، ويصبح الوارث الشرعى للأباطرة ليو الرابع وهرقل وجستنيان الأول وثيودوسيوس وقسطنطين الكبير ، أباطرة الفرع الشرقى للامبراطورية • ومما يؤكد هذا القول أن كتب التواريخ الغربية عندما تشير الى سنة ٨٠٠ م والسنوات التالية — حيث جرت العادة بتسجيل الحوادث تبعا لسنوات حكم الأباطرة البيزنطيين — تضع اسم شارلمان بعد اسم قسطنطين السادس مباشرة • ومعنى هذا أنه لم يكن قصد شارلمان والبابا ليو الثالث أن توجد امبراطوريتان فى وقت واحد ، أو امبراطورية جديدة أسسها شارلمان فى مواجهة الامبراطورية الشرقية • فشارلمان عندما توج فى سنة ٨٠٠ م أصبح هو حاكما وحيدا للامبراطورية الرومانية • وكان حادث التتويج معناه أن روما استردت من القسطنطينية الحق فى انتخاب الامبراطور ، لأن عقلية ذلك العصر لا يمكن أن تتحمل وجود امبراطوريتين فى وقت واحد(٥٤) •

والحقيقة أن شارلمان كان قلقا من موقف بيزنطة من تتويجه ، ورأى أن هذا التتويج لم يثبت حكمه فى الأجزاء الشرقية من الامبراطورية ، وأنه بعد ايرين سوف ينتخب البيزنطيون امبراطورا جديدا يعترف بلقبه الامبراطورى فى الشرق • وفى سنة ٨٠٢ م جاء الى القسطنطينية السفراء من قبل شارلمان وأعلنوا أنهم جاءوا ليعرضوا على الامبراطورة ايرين الزواج من شارلمان • وقصد شارلمان من ذلك أن يوحد بين شقى الامبراطورية الشرقى والغربى • ولم يكد الوفد يصل الى القسطنطينية ورحبت ايرين بهذا الزواج المنتظر ، حتى نشب البلاط البيزنطى ثورة أطاحت بايرين • وفشل مشروع الزواج وتم نفيها الى احدى الجزر حيث توفيت بعد ذلك بقليل • ويهمنا هنا القول بأنه رغم المحادثات التى استمرت بين شارلمان

---

(٥٤) Vasiliev, Byz. emp., I, pp. 266 — 267.

ونقفور Nicephorus خليفة ايرين — التى يبدو أنهـا كانت تدور حول الاعتراف بلقب شارلمـان ـ فانه لم يحدث الا فى سنة ٨١٢ م عندما اعترف الامبراطور البيزنطى ميخائيل الأول بشارلمـان امبراطورا فى اكس لاشابل Aix-la-Chapelle (Aachen) • ومنذ سنة ٨١٢ م بدأ لقب (امبراطور الرومـان) يستخدم رسـميا فى بيزنطة للدلالة على السلطة الشرعية للقسطنطينية • ومنذ تلك السنة فصاعدا كان هنـاك اثنان من الأباطرة الرومـان رغم أنه كان من الناحية النظريـة توجد امبراطورية رومانية واحدة(٥٥) •

ويلاحـظ أن بيزنطـة لم تعترف بلقب شارلمـان الامبراطورى سنة ٨١٢ م الا بسبب ما عانته من هزيمة دامية على أيدى البلغار • ووجد البيزنطيون ضرورة تركيز جهودهم ضد الخطر البلغارى • فبعث ميخائيل الأول فى تلك السنة السفراء الى مدينة اكس لاشابل للوصول الى تسـوية مع شارلمـان العظيم ، وخاطبوه بوصفـه « امبراطورا وملكا »(٥٦) •

وأصبح منذ سنة ٨١٢ م توجد امبراطورية فى الشرق وأخرى فى الغرب ، وأدى ظهور امبراطورية غربية الى ظهور مجتمع جديد فى غرب أوروبا • فـاذا كانت عبقرية جستنيان الأول حددت ظهور الحضـارة البيزنطية فى القرن السادس ، فقد ساعدت شخصية شارلمـان على تشكيل حضارة غرب أوروبا التى بدأت تأخذ طابعا مميزا فى عصره • وبمرور القرون ابتعد مجتمع شرق أوروبا عن مجتمع غرب أوروبا فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والروحية ، وكان

---

(٥٥) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 268.

(٥٦) هارتمـان وباراكلاف ، الدولة والامبراطوريـة فى العصـور الوسطى ص ١٨٧ — ١٨٨ .

هذا الانفصال هو أساس الاختلاف بين غرب وشرق أوروبا فى العصور الحديثـــة(٥٧) •

خلفاء الأيسوريين والأسرة العمورية (٨٠٢ ــ ٨٦٧) :

ولم يكن مجمع نيقية سنة ٧٨٧ م وعودة عبادة الأيقونات نهاية المطاف لتلك الحركة التى أرهقت الدولة البيزنطية واستنزفت قواهـــا لعشرات السنين • فلم يمض سوى احدى عشرة سنة على نهاية عصر ايرين حتى عادت السياسة اللاايقونية سيرتها المعهودة ، وبدأ العصر اللاأيقونى الثانى الذى امتد فترة ثلاثين سنة من ٨١٣ الى ٨٤٣ م • حقيقة كان النصر فى النهاية الى جانب تبجيل الأيقونات الا أن هـــذا التذبذب فى سياسة بيزنطة تجاه تبجيل الأيقونات والصـــور المقدسة ، كان له أثره ونتائجه السلبية بالنسبة للمشكلات الداخلية والخارجيـــة للدولة البيزنطية •

وتنقسم السنوات الممتدة من سنة ٨٠٢ ـــ ٨٦٧ م الى فترتين ، تمتد الأولى من ســـنة ٨٠٢ ـــ ٨٢٠ م وحكم فيها الدولة البيزنطيـــة اباطرة من أصـــول مختلفة ، أما الفترة الثانيـــة فتمتد من سنة ٨٢٠ الى ٨٦٧ م وحكمت فيها الأسرة العمورية •

وقد أدت ثورة سنة ٨٠٢ الى عزل الامبراطورة ايرين وتوليـــة نقفور الأول Nicephorus I العرش البيزنطى (٨٠٢ ـــ ٨١١ م) • واعتمادا على تاريخ الطبرى يرجع نقفور الى أصل عربى هاجر أحد أســـلافه الى احـــدى ولايـــات آســـيا الصـــغرى ، حيث ولد نقفور فيما بعد(٥٨) •

(٥٧) عن هذه القضية انظر :
Vryonis, Byzantium, pp. 67 — 68.

(٥٨) ذكر الطبرى (تاريخ الرســـل والمـــلوك ، ج ٨ ، ص ٣٠٧) أن نقفور « من أولاد جفنه من غسان » انظر ايضا :
Vasiliev, Byz, empire, I, p. 271.

ويلاحظ أن طبيعة ثورة ٨٠٢ م التى أطاحت بايرين كانت نادرة فى التاريخ البيزنطى • فمعظم الثورات السياسية فى الدولة البيزنطية نظمها وقادها قادة عسكريون ، أما فى حالة نقفور فهو لم يكن عسكريا بل موظفا ماليا كبيرا(٥٩) • وقامت سياسته الدينية على أساس التسامح الدينى المرتبط بفكرة السيطرة على الكنيسة مع اعترافه بقرارات مجمع نيقيه الأيقونى سنة ٧٨٧ م • غير أن الديرية مرت بفترة حرجة فى عصر نقفور ، وذلك عندما عزل البطريرك تاراسيوس Tarasius الذى أحبه الناس وشغل كرسى البطريركية منذ سنة ٧٨٤ م • وحل محله البطريرك نقفور Nicephorus الذى كان من العلمانيين وارتقى الى هذا المنصب برغبة الامبراطور • وعارض هذا الاجراء الراهب تيودور Theodore رئيس ديرستوديون Studion فى القسطنطينية وأتباعه من رهبان ذلك الدير مما أدى الى نفيهم(٦٠) •

وسقط الامبراطور نقفور قتيلا أمام البلغار سنة ٨١١ م وخلفه ابنه ستوراكيوس Stauracius الذى كان قد أصيب اصابة بالغة فى تلك المعركة • ومات فى نفس السنة وانتقل عرش الامبراطورية الى ميخائيل الأول Michael I زوج ابنة نقفور الأول ، وهو من أسرة يونانية تسمى أسرة رانجابى Rangabé (٦١) • وخلال الفترة القصيرة التى حكمها ميخائيل الأول (٨١١ — ٨١٣ م) زاد نفوذ الرهبان ، وفى عهده تم استدعاء تيودور ورهبان ديرستوديون من المنفى(٦٢) •

---

(٥٩) Vasiliev, Byz. emp., I, P. 271.

(٦٠) Ibid., I, p. 283.

(٦١) العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٢١٤ — ٢١٥ .

Vasiliev, Byz. emp. I, p. 271.

(٦٢) Ibid., I, p. 283.

وكان قد مضى ربع قرن من الزمان منذ أعادت ايرين عبادة الصور المقدسة ، غير أن حركة مناهضة عبادة الصور كانت لاتزال حية فى الولايات الشرقية لآسيا الصغرى ، كما أن غالبية الجيش البيزنطى كانت من أنصار اللاأيقونية • وفى سنة ٨١٣ م أصبح أحد القادة العسكريين واسمه ليو Leo امبراطورا بعد عزل ميخائيل الأول بسبب فشل حملته ضد البلغار • وعرف ليو باسم ليو الخامس الأرمنى لأنه كان أرمنى المولد ، وحاز فى عهد أسلافه نفوذا كبيرا كقائد حربى ، وأخفى آراءه المناهضة لعبادة الصور • وما أن أصبح امبراطورا بعد عزل ميخائيل الأول — وقوى مركزه فى عرش بيزنطة — حتى أعلن عن سياسته اللاأيقونية • وعندما واجه الامبراطور ليو الخامس معارضة من جانب البطريرك نقفور ، قام بعزله عن منصبه وعين مكانه ثيودوتوس Theodotus الذى كان على اتفاق كامل مع سياسة ليو الدينية • وفى سنة ٨١٥ م عقد الامبراطور ليو الخامس الأرمنى مجمعا دينيا فى كنيسة القديسة صوفيه فى القسطنطينية • وتقرر فى هذا المجمع تطبيق كافة القرارات التى أصدرها مجمع سنة ٧٥٤ م ضد الأيقونات • وبرغم أن قرارات مجمع سنة ٨١٥ م قد تم التخلص منها بعد عودة عبادة الأيقونات فيما بعد (سنة ٨٤٣ م) الا أن هذه القرارات حفظت فى احدى مؤلفات البطريرك نقفور • وأقر هذا المجمع منع تبجيل صور « الموتى » والأيقونات « التى لا حياة فيها » واشعال الشموع واحراق البخور لها • وهذه القرارات — كما سبق ذكره — تكرارا لقرارات مجمع سنة ٧٥٤ م(٦٣) •

وتعتبر سنة ٨١٥ م وهى السنة التى انعقد فيها ذلك المجمع اللاأيقونى بداية فترة تاريخية استمرت حوالى ثلاثين سنة (٨١٥ — ٨٤٣ م) اتبع أباطرتها السياسة اللاأيقونية ، وهى فترة أقصر من

---

(٦٣) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 283 - 284 ;

• عن قرارات مجمع سنة ٧٥٤ انظر ما سبق ص ١١٦ — ١١٨

الناحية الزمنيـــة عن العصر اللاأيقونى الأول الذى اســتمر أكثر من ستين عاما (٧٢٦ — ٧٨٧ م) • وفى عهد ليو الخامس الأرمنى تركزت المقاومة ضد حركة تحطيم الصور المقدسة حول الراهب تيودور رئيس دير ستوديون Studion • فقد دافع هــذا الراهب وأتباعه من رهبان الدير عن عبـــادة الصور وأصبحوا من أقوى أنصار الأيقونات •

وكان للراهب تيودور تأثير كبير على النــاس • وتحــدث وكتب تيودور علانية عن حرية العقيدة واستقلال الكنيسة ورجال الدين ، وعن تدخل الامبراطور فى شئون الكنيسة • وأدى هذا الى غضب الامبراطور ليو الخامس الذى اضطر الى نفى تيودور بعيدا عن العاصمة واضطهاد أتباعــه(٦٤) •

وفى سنة ٨٢٠ م قتل الامبراطور ليو الخامس الأمنى وآل العرش الى أحد قادة الحرس الامبراطورى واسمه ميخائيل الثانى ويســمى المتلعثم Stammerer • وأتى ميخائيل هــذا من اقليم عمورية من فريجيا فى آسيا الصغرى حيث مسقط رأسه ، وأسس أسرة تســمى باسم الأسرة العمورية أو الفريجية Phrygian حكم أباطرتها الثلاثة الدولة البيزنطية الفترة من ٨٢٠ — ٨٦٧ م • ورغم أن ميخائيل الثانى كان لاأيقونيا الا أنه أراد أن يخفف من هــذه الحركة عندما منع الجدل حول تبجيل الأيقونات • ولم يبدأ هــذا الامبراطور فترة جديدة من الاضطهاد ضد مؤيدى عبادة الصور المقدسة ، مما جعل بعض المعاصرين له يستخدمون تعبيرات معينة عند مقارنة عهده بعهد سلفه ليو الخامس مثل قولهم : « خمدت النار ولكن الدخان لايزال » « انتهى الشتاء ولكن الربيع لم يأت بعد •• »(٦٥) •

أما الامبراطور ثيوفيل Theophilus (٨٢٩ — ٨٤٢ م) خليفة ميخائيل الثانى فكان آخر الأباطرة اللاأيقونيين فى الدولة البيزنطية •

---

(٦٤) Vasiliev. Byz. empire. I. pp. 285.

(٦٥) Ibid. I. pp. 272, 286.

وبلغت سياسة محاربة عبادة الصور المقدسة فى عصره قمة الاضطهاد فى الحركة اللاأيقونية الثانية • ومن المعروف أن ثيوفيل كان مثقفا ثقافة عالية ، وكان مستشاره الخاص ، وبخاصة فى شئون السياسة اللاأيقونية حنا النحوى John the Grammarian الذى أصبح بعد ذلك بطريركا لكنيسة القسطنطينية • وكان حنا النحوى أكثر علماء عصره ثقافة وعلما ، واتهم — كغيره من المثقفين فى العصور الوسطى — بممارسة الشعوذة والسحر • وشاهد عصر ثيوفيل حركة اضطهاد ضد الرهبان من قتل وضرب بالسياط(٦٦) •

غير أن الحركة اللاأيقونية الثانية انتهت فى الحقيقة بموت الامبراطور ثيوفيل ٨٤٢ م ، اذ ترك ثيوفيل ابنا قاصرا هو ميخائيل الثالث Michael III (٨٤٢ — ٨٦٧ م) المعروف بالسكير Drunkard من زوجته ثيودورا Theodora • وتنتمى ثيودورا الى اقليم بافلاجونيا فى آسيا الصغرى ، وكانت من أتباع ومحبى تبجيل الصور المقدسة ، وكانت اتجاهاتها الدينية معروفة لدى زوجها ثيوفيل • وما أن أصبحت وصية على ابنها ميخائيل الثالث حتى أخذت على عاتقها اعادة عبادة الصور المقدسة(٦٧) • ولم تجد ثيودورا سنة ٨٤٢ م معارضة قوية لاتجاهاتها الدينية مثلما وجدت الامبراطورة

---

(٦٦) Vasiliev, Byz. empire I, pp. 286—7.

(٦٧) كانت ثيودورا هى الحاكمة الفعلية للدولة البيزنطية مدة اربع عشرة سنة عندما كان ابنها ميخائيل الثالث قاصرا . وعهدت بادارة جميع امور الدولة الى عشيقها ثيوكتستوس Theoctistus . وحاز القيصر بارداس Bardas خال الامبراطور وشقيق ثيودورا درجة كبيرة من النفوذ فى تصريف شئون الامبراطورية . وقد ترك احد السفراء العرب صورة شيقة توضح ان بارداس كان هو مدبر الدولة ، اذ ذكر الطبرى عند روايته خبر الفداء بين الروم والمسلمين سنة ٢٤٦ هـ/٨٦٠ م نقلا عن نصر بن الأزهر الشيعى رسول الخليفة المتوكل الى ملك الروم فى أمر الفداء : « ولم أسمعه (اى ميخائيل) يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم الى ان خرجت منها ، انما =

ايرين ، اذ لم يأخذ من ثيودورا سوى سنة واحدة للاعداد لعقد مجمع دينى لاعادة عبادة الصور المقدسة ، فى حين أخذ ذلك الاجراء سبع سنوات من الامبراطورة ايرين . وطردت ثيودورا حنا النحوى من كرسى بطريركية القسطنطينية ليترك مكانه للبطريرك ميثوديوس Methodius الذى قاسى الكثير من الاضطهاد فى عصر ميخائيل الثانى . وفى سنة ٨٤٣ م عقدت ثيودورا مجمعا دينيا فى نيقيه ، وهى المدينة التى شاهدت المجمع المسكونى الأول فى عهد قسطنطين الكبير . وأسفرت قرارات مجمع سنة ٨٤٣ م عن عودة الأيقونات الى الكنائس والأديرة . وعندما انتهى المجمع من أعماله أقيم قداس فى كنيسة القديسة صوفيه يوم الأحد ١١ مارس ٨٤٣ م . وأصبح ذلك اليوم عيدا فى الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية منذ ذلك الحين(٦٨) .

وقد أدى النزاع حول عبادة الأيقونات والصور المقدسة الى قلق كبير وتزعزع الأوضاع فى الدولة ابيزنطية لمدة تزيد على مائة وعشرين عاما من سنة ٧٢٦ حتى ٨٤٣ م . وأدت هذه الأوضاع — كما يقول شارل ديل — الى أن تتجه الدولة البيزنطية اتجاها كليا ونهائيا تجاه الشرق وتعطى ظهرها للغرب الأوروبى(٦٩) . وأدت الخلافات حول عبادة وتبجيل الصور المقدسة الى اضعاف مركز البيزنطيين فيما تبقى لهم من ممتلكات فى جنوب ايطاليا ، وكذلك الى تكدير العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية . وظهرت كنيسة روما بمظهر الكنيسة المحافظة على نقاوة العقيدة المسيحية والمذهب الصحيح ، مما زاد فى تمسك بابوات روما بنظرتهم فى التفوق الروحى على سائر الكنائس

= يقول الترجمان وهو يسمع ، فيقول براسه نعم اولا ، وليس يتكلم وخاله بطرناس المدبر أمره » انظر ، تاريخ الطبرى ، ج ٩ ، ص ٢٢٠ .

(٦٨) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 287.

(٦٩) Charles Diehl, Byzantium, p. 11.

بما فى ذلك كنيسة القسطنطينية • يضاف الى ذلك أن الحركة اللاأيقونية من ناحية أخرى أسفرت عن فشل الدولة البيزنطية فى محاولتها للسيطرة التامة على الكنيسة • وأدى تدمير التماثيل والصور الى اتلاف كثير من الكنوز الفنية الدينية مما ألحق الضرر بتطور تاريخ الفن البيزنطى(٧٠) •

وكان للتذبذب فى سياسة الدولة البيزنطية تجاه عبادة الأيقونات والصور الدينية أثره ونتائجه بالنسبة للسياسة الخارجية للدولة خاصة تجاه المسلمين والبلغار • وفى القرن التاسع يلاحظ أن البيزنطيين خاضوا غمار الحرب ضد المسلمين فى جبهتين شرقية ضد العباسيين فى آسيا الصغرى وأعالى الشام والعراق ، وأخرى غربية ضد الأغالبة فى البحر المتوسط أدت الى استيلاء المسلمين على كريت وصقلية وأجزاء مهمة فى جنوب ايطاليا • ويلاحظ أنه خلال ذلك القرن كانت العلاقات العدائية ضد المسلمين مستمرة بدون انقطاع • وواكب ذلك الغارات السنوية التى كان يصاحبها فداء الأسرى(٧١) من حين الى آخر • وأقام المسلمون الثغور والعواصم(٧٢) على جانب تحصيناتهم الحربية كوسائل دفاع ضد هجمات الجيش البيزنطى على طول الأطراف من الشام الى تخوم أرمينية • ووجدت تحصينات مشابهة أيضا على الجانب

---

(٧٠) انظر عبد القادر اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٥ — ١١٦ .

(٧١) عن فداء الأسرى ، انظر محمد فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ٢ ، ص ٤١٥ — ٤٢٤ .

(٧٢) الثغر هو كل موقع قريب من ارض العدو يخاف منه هجوم الأعداء وكانت الثغور هى خط الحصون الخارجى • اما العواصم فهى حصون موانع تلى خط الثغور وتعصمها وتمدها فى أوقات النفير ، ويعتصم بها المسلمون وتمنعهم من العدو اذا انصرفوا عن غزوهم وخرجوا من الثغر ، انظر عليه الجنزورى ، الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية ، ص ٧ — ١٠ .

البيزنطى فى آسيا الصغرى • وأحدثت هذه الاغارات المستمرة أضرارا كثيرة بثروات الأقاليم الواقعــة على الحدود ، مما أدى الى قلة عدد السكان لكثرة القتلى وعدم القدرة على دفع الضرائب(٧٣) •

ففى الجبهة الشرقية ، حاول الامبراطور نقفور الأول الذى خلف ايرين سنة ٨٠٢ م الغاء الهدنة التى عقدتها ايرين مع الخليفة المهدى واسترجاع الاتاوات التى دفعتها للخلافة الاسلامية • فكتب نقفور الى هارون الرشيد يقول : « من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب ، أما بعد : فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيذق ، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمــل أمثالها اليها ، لكن ذاك ضعف النســاء وحمقهن ، فاذا قرأت كتــابى ، فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصــادرة لك ، والا فالسيف بيننــا وبينك » • وغضب هارون الرشــيد وأجابــه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتــابك يا ابن الكافرة ، والجــواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام »(٧٤) •

وأغار هارون الرشيد بنفسه على أقاليم الدولة البيزنطية ، ولبس

---

(٧٣) Vasiliev, Byz. Empite, I, pp. 273 - 4.

(٧٤) الطبرى ، ج ٨ ، ص ٣٠٧ — ٣٠٨ ، انظر ايضا ابن الفراء رسل الملوك ، ص ٧٨ — ٨٠ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٤٥٧ ، اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص، ٣١٤ — ٣١٥ ، العدوى : الامبراطورية ص ٧٩ ، جمال الدين سرور ، دراسات ، ص ١٦ — ١٧ ، والبيذق (بالذال) كلمة فارسية معربة جمعها بياذق وبياذقة ، اى الرجالة فى الحرب من غير الفرسان ، ومعنى النص انها اصبحت تعدو بين يديه (انظر الجواليقى ، المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم ، ص ١٣٠ — ١٣١) ، وهناك قراءة اخرى للكلمة البيدق (بالدال) وهو لفظ معرب دخيل معناه من أدوات الشطرنج الصغار ، والرخ من ادوات الشطرنج الكبار ، أنظر ابن الفراء ، رسل الملوك ، ص ٧٨ حاشية ٣ ، ص ٧٩ حاشية ١ .

قلنسوة كتب عليها (غاز حاج) واستولى على عدة معاقل منها هرقلة التى فتحها فى شوال سنة ١٩٠ هـ/٨٠٦ م والطوانة الواقعة شمال شرقية اللؤلؤة • واضطر الامبراطور نقفور الى طلب الصلح ودفع خمسين الف دينار منها عن رأسه اربعة دنانير • وعقد معاهدة مع الخليفة هارون الرشيد فرضت فيها الجزية على الامبراطور نفسه وعلى أفراد أسرته وتعهد باستمراره فى دفع الاتاوة(٧٥) •

وبعد أن استتب الأمر فى الخلافة العباسية للخليفة المأمون ، بعد مقتل الأمين سنة ٨١٣ م ، لجأ الخليفة الى محاربة البيزنطيين بخطتين ، الأولى اشعال الفتنة فى داخل الدولة البيزنطية ، والثانية بمهاجمتها عسكريا • ففى سنة ٨٢١ م وفى عهد الامبراطور ميخائيل الثانى ، من الخليفة المأمون يد المساعدة والعون الى الثائر توماس Thomas فى آسيا الصغرى • وتوماس كان صقلبيا من حيث الأصل والمولد ، قاد حربا أهلية استمرت أكثر من سنتين ، وكان لها انطباعات سياسية ودينية واجتماعية • فقد استطاع توماس أن يضم الى جانبه معظم قوات آسيا الصغرى • والتفت حوله عناصر متعددة من سكان آسيا الصغرى وأطراف القوقاز المتخصصين من الأقنان والعبيد خاصة من عناصر الصقالبة (السلاف) الذين وجدوا فى توماس محررا لهم • وهناك أشارات كثيرة الى اشتراك الصقالبة فى فتنة توماس الذى يقال

---

(٧٥) الطبرى ، ج ٨ ، ص ٣٢٠ — ٣٢٢ وللشاعر ابى العتاهية شعر حين خرب هارون الرشيد مدينة هرقلة جاء فيه :

ألا نادت هرقلة بالخراب	من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا	ويبرق بالمذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها	تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم	وابشر بالغنيمة والاياب

انظر ديوان أبى العتاهية ، ص ٦٥ ، تاريخ الطبرى ، ج ٨ ، ص ٣١٠ •

ـــ كما سبق القول ـــ انه انحدر من أصـــول صقلبية(٧٦) • وبالاضافة الى الصقالبة اشتمل جيش توماس على جماعات من الفرس والأرمن وأعداد من قبائل قوقازية كثيرة • واستفاد توماس من الأحوال الدينية التى سادت بيزنطة زمن ميخائيل الثانى ، وجعل نفسه نصيرا للأيقونات، واجتذب اليه أنصارا عديدين من مؤيدى عبادة الصور المقدسة ، واستمال اليه أيضا جامعى الضرائب فى آسيا الصغرى • وأدت فتنته الى حرب أهلية ، وانحازت قطع من الأسطول البيزنطى الى جانبه ، وتحالف معه الخليفة العباسى المـــأمون للقضاء على ميخائيل الثانى ، بعد أن وعد توماس المسلمين ببعض أقاليم الحدود الاسلامية ـــ البيزنطية(٧٧) •

ويؤكد الأستاذ فازيليف فى كتابه (العرب والروم) وجود تحالف حقيقى كامل بين توماس والعرب بدليل وجود الفرق العربية فى جيش توماس • ولم يكن دخول المسلمين فى هـــذا التحالف رغبة فى السلب والغنيمة ، وانما عقد توماس حلفا مع المـــأمون قضت شروطه على أن يمد المـــأمون توماس بجيش قوى ، وكان الخليفة المسلم ينوى مهاجمة القسطنطينية ذاتهـــا ، وأصبح هـــذا الحلف شرعيـــا بتتويج توماس امبراطورا على يد بطريرك انطاكيـــة بمســـاعدة ورضـــاء الخليفـــة المـــأمون(٧٨) •

وارتكب توماس خطأ استراتيجيا خطيرا عندما قصد القسطنطينية متناســـيا أنه ترك خلفه فى آسيا الصغرى أنصـــارا أقوياء مخلصـــين للامبراطور ميخائيل الثانى وبخاصة جند ثغرى الأرمنياق والأبسيق •

---

(٧٦) Charanis, "The slavic element in Byzantine Asia Minor in the thirteenth century" in **Byzantion**, Vol. XVIII (1948), pp. 79-80.

(٧٧) Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 274 — 275 ;

انظر ايضا اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٣٢٠ — ٣٢٢ .

(٧٨) فازيليف : العرب والروم ، ص ٢٨ — ٥١ .

وبلغ توماس على رأس جيشه مدينة القسطنطينية وحاصرها برا وبحرا فى ديسمبر سنة ٨٢١ م • وكان يتوقع أن تفتح العاصمة له أبوابها بمجرد اقترابه منها ، بحسب ظنه ، لشدة كراهية سكانها للامبراطور ميخائيل • ولم يتحقق ما توقعه توماس اذ اصطدم بمقاومة عنيفة اضطر أثرها للتقهقر نتيجة ما حدث من هزيمة أسطوله أمام أسطول الامبراطور ميخائيل الثانى والمساعدات التى قدمها خان البلغار الى ميخائيل الثانى • وهرب توماس ولكنه وقع أسيرا فى قبضة امبراطور القسطنطينية فى أكتوبر سنة ٨٢٣ م الذى أمر بقتله(٧٩) •

وهكذا انتهت فتنة توماس (٨٢١ — ٨٢٣ م) التى تعتبر من أهم حوادث تاريخ القرن التاسع الميلادى ، وفشل توماس فى تحقيق أمله ، وانهزم الخليفة المأمون فى مشروعاته الحربية ضد بيزنطة • ولعل أهم نتائج هذه الفتنة بالنسبة للدولة البيزنطية ، هو ما نتج عنها من ضعف القوة البحرية للدولة البيزنطية ، اذ تشتت شمل أساطيل بيزنطة فى حوض البحر المتوسط ، فى الوقت الذى تجمعت فيه أساطيل الدولة الاسلامية من جديد ، لكى تحقق سيادة بحرية على هذا البحر تمخضت عن فقد بيزنطة لجزيرتى كريت وصقلية(٨٠) • يضاف الى ذلك أن فشل فتنة توماس كان معناه فشل محاولة عودة عبادة الأيقونات والصور الدينية • وأحدثت هذه الفتنة تغييرات اجتماعية كبيرة فى آسيا الصغرى • فقد أدت فتنة توماس الى اختفاء طبقة صغار ملاك الأراضى الزراعية فى آسيا الصغرى الذين عجزوا عن أداء الأعباء الضرائبية الكثير للدولة ، واضطروا الى تحويل ممتلكاتهم الى جيرانهم الأثرياء ، مما أدى الى عودة طبقة أصحاب الضياع الكبيرة فى القرن العاشر الميلادى وبخاصة فى آسيا الصغرى • ولاشك أن ظهور الاقطاعيات

---

(٧٩) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 275.

(٨٠) انظر ارشيبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ١٦٨ — ١٦٩ .

الكبيرة فى القرن العاشر كان سببا من أسباب ضعف قوة الامبراطورية

وبخاصـــة فى آســـيا الصغرى مما كان له نتائجـــه الخطـــيرة فى تاريخ الامبراطورية فى القرن الحادى عشر(٨١) .

وكيفما كان الأمر ، فبعد انتهاء فتنة توماس ، حاول الامبراطور ميخائيل الثانى اصـــلاح ما سببته هذه الفتنة من خسائر مادية وغيرها لسكان الدولة البيزنطية ، فأوفد سنة ٨٢٥ م وفدا الى الخليفة العباسى يطلب منه هدنة فرفض المـــأمون وأغار على أراضى البيزنطيين . ففى سنة ٨٣٠ م — على سبيل المثال — تمكن الخليفة المـــأمون من احراز انتصارات فى آسيا الصغرى على جيوش الامبراطور ثيوفيل بن ميخائيل الثانى فى ثلاث حملات ، اســـتولى خلالها الخليفة على ممرات جبـــال طوروس . وأرسلت بيزنطة سنة ٨٣٣ م وفدا الى بغداد لأجل الصلح ، ولم ينجح الوفـــد فى مهمتـــه نظرا لوفـــاة الخليفة المـــأمون فى تلك الســـنة(٨٢) .

وحاول الامبراطور ثيوفيل انتهاز فرصـــة وفاة الخليفة المـــأمون للقيام بحركة توسع على حساب الأقاليم الاسلامية فى آسيا الصغرى . ففى ســـنة ٢٢٣ هـ/٨٣٧ م حقق ثيوفيـــل بعض الانتصـــارات على المسلمين . فقد استولى فى تلك السنة على قلعة حصن زبطرة Zapetra وفى رواية الطبرى أنه أوقع بأهلها وأسرهم وخرب بلدهم ، ثم مضى الى ملطية وأغار عليها وعلى ماجاورها من الحصون(٨٣) . واضطر الخليفة المعتصم فى السنة التالية ٢٢٤ هـ/٨٣٨ م الى القيـــام بحملة حربيـــة تأديبية ، فخرج على رأس جيش كبير وتوغل فى آسيا الصغرى واستولى بعد حصار طويل على مدينة عمورية Amorion . وكانت تلك المدينة

(٨١) Vasiliev, Byz. emp., I, pp. 275 — 6.

(٨٢) Ibid., P. 276.

(٨٣) الطبرى ، ج ٩ ، ص ٥٥ — ٥٧ .

مدينة حصينة وأهم مدينــة فى فريجيــا ، حيث كانت موطن الأسرة الحاكمة • وسجل الشاعر أبو تمام الطائى (المتوفى سنة ٢٢٨ هـ) ذلك النصر العظيم فى قصــيدة من روائع الشعر العربى(٨٤) • وقصــيدة أبى تمام لا تقل فى الحقيقة أهمية وقيمة عن « أنشودة رولان » التى يعتز بها الأدب الأوروبى ، ويفسح لها مجالا فى صفحات تاريخه الأدبى • واذا كان بطل « أنشودة رولان » هو شارلمــان فبطل قصيدة أبى تمام هو « المعتصم » • واذا كان جهاد شارلمــان كما تصوره الأنشودة هو جهاد شارلمــان ضد المسلمين فى الأندلس ، فان جهاد المعتصم كما تصوره قصيدة أبى تمام كان جهادا ضد الروم فى أرض بيزنطة •

وعقد الخليفــة المعتصــم العزم على التقدم نحو القسطنطينية ، وتحقيق حلم المسلمين القديم فى الاســتيلاء عليها ، ولكنه اضطر الى العودة الى بــلاد الشــام عندما وردت اليه أخبــار الفتن • وانشغل العباسيون فى أمورهم الداخلية • أما الامبراطور ثيوفيل فقد فقد بعد استيلاء المسلمين على عمورية كل أمل فى مقاومة الخطر الاســلامى ، فاتجــه نحو الغرب طالبا المســاعدة • فظهر سفراؤه فى بلاط مدينــة البندقية وفى بلاط لويس التقى ملك الفرنجة وفى بلاط الأمير الأموى فى الأندلس • وقابل حكام الغرب ســفراء بيزنطة بكل ود وترحاب ،

---

(٨٤) انظر الخبر عن فتح عمورية فى الطبرى ، ج ٩ ، ص ٥٧ — ٧١ ، وجاء فى قصيدة أبى تمام التى مدح فيها أمير المؤمنين المعتصم بالله وذكر فتح عموريــة :

السيف أصــدق انبــاء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جــلاء الشك والريب
يا يوم وقعــة عموريــة انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بنى الاسلام فى صــعد ... والمشركين ودار الشرك فى صبب

وختم أبو تمام قصيدته بقوله :

أبقت بنى الأصفر الممراض كاسمهم ... صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

انظر ديوان أبى تمام (ط . بيروت ١٨٨٩ م) ، ص ١٥ — ١٦ .

ولكنهم لم يقدموا للامبراطور ثيوفيل آية مساعدة فعلية . وفى السنوات الأخيرة من حكم ثيوفيل وخلال حكم الامبراطور ميخائيل الثالث حال تردى الأحوال الداخلية فى الخلافة العباسية دون قيام المسلمين بغارات حربية كبيرة ضد الدولة البيزنطية . كما لم يحاول البيزنطيون غزو البلاد الاسلامية نظرا لارتباك أوضاع الدولة البيزنطية بعد وفاة ثيوفيل(٨٥) .

وانتهز المسلمون فى شمال افريقية والأندلس مشاكل بيزنطة الداخلية وهددوا جميع الممتلكات البيزنطية فى البحر المتوسط . ففى أوائل القرن التاسع الميلادى وفى عهد نقفور الأول (٨٠٢ — ٨١١ م) ساعد المسلمون فى شمال افريقية الصقالبة فى البيلوبونيز فى ثورتهم ضد الدولة البيزنطية ، وساعدوهم فى حصار مدينة بتراس Patras مما يدل على حرص المسلمين على اعادة سيادتهم البحرية(٨٦) .

وفى عهد ميخائيل الثانى فقد البيزنطيون جزيرة كريت ذات الأهمية الاستراتيجية والتجارية للدولة البيزنطية . وغزوات المسلمين لجزيرة اقريطش (كريت) ترجع الى القرن الأول الهجرى/السابع الميلادى . فقد جرت المحاولة الاسلامية الأولى للاستيلاء على هذه الجزيرة فى عام ٥٤ هـ/٦٧٤ م فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، وقام بها القائد جنادة بن أبى أمية الأزدى ، غير أن هذه المحاولة فشلت . وحدثت المحاولة الاسلامية الثانية فى عصر الخليفة الأموى الوليد ابن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ٧١٥ م) . وتمكن المسلمون فى هذه المحاولة من فتح بعض أجزاء الجزيرة ثم انصرفوا عنها . وتمت المحاولة الثالثة فى خلافة هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣هـ / ٧٨٦ — ٨٠٩م) الذى أرسل أسطولا تمكن من فتح بعض أقاليم الجزيرة ، غير أن

---

(٨٥) Vasiliev, Byz. empire., I, pp. 276 — 277.

(٨٦) Ibid. , I, p. 278.

البيزنطيين استعادوا هذه الأماكن من جديد(٨٧) • ولم تخضـــع كريت للسيادة الاســـلامية الا فى القرن الثالث الهجرى/التاسع الميـــلادى عندما فتحها الربضيون سكان حى الربض (ضاحية قرطبة الجنوبيـــة ببلاد الاندلس) • فقد وثب الربضيون سنة ٢٠٢ هـ/٨١٨ م على الأمير الأموى الحكم بن هشام • وأجج من أوار تلك الثورة زعماء الفقهاء الذين حنقوا على الخليفة الحكم اغراقه فى تناول الخمر وحبه للصيد ، واتخاذه حرسا له ممن لا يعرفون اللغة العربية • وما ان تم للأمير الأموى قمع هذه الفتنة ، حتى امر بطرد سكان الربض من الأندلس • فتوجه فريق منهم الى مدينة الاسكندرية ووصلوها فى الوقت الذى اشتدت فيه فتنة الأمين والمـــأمون فناهضوا سلطان الخلافة العباسية • ولمـــا آل الأمر للمـــأمون ارســـل عبد الله بن طـــاهر واليـــا على مصر فدخلهـــا فى سنة ٢١١ هـ/٨٢٦ م ، ثم اتجـــه الى الاسكندرية التى اعتصم بهـــا الربضيون فحاصرهم فى السنة التالية (٢١٢ هـ/٨٢٧ م) لمدة أسبوعين ثم اجابهم الى الصلح بشرط خروجهم من الاسكندرية الى حيث أرادوا ، وأن لا ينزلوا بلدا تابعا للخـــلافة العباسية • فتوجه الأندلســـيون الى جزيرة كريت فى نفس السنة (٢١٢ هـ/٨٢٧ م) تحت قيادة زعيمهم أبو حفص عمر بن عيسى البلوطى الذى عرف بالأقريطشى فيما بعد ، وأشارت اليه المصادر البيزنطية باسم أبو كابسو Apocapso • ونزل المسلمون على الشاطىء الشمالى للجزيرة ولم يلقوا مقاومة تذكر • ويرجع ذلك الى بغض سكان كريت للحكم البيزنطى خصـــوصا لاستعماله القسوة والبطش فى الحركة اللاأيقونية وما أدت اليه فتنة توماس الصقلبى من خراب ولايات الدولة البيزنطيـــة وتدهور أحوال البحرية البيزنطيـــة • واستقر المسلمون أولا غرب خليج سودا Suda حيث شـــيدوا لهم

---

(٨٧) اسمت محمود غنيم ، العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية وجزيرة كريت الاسلامية (٨٢٧ — ٩٦١ م / ٢١٢ — ٣٥٠ هـ) ، رســـالة دكتوراه لم تنشر ، كلية الاداب جامعة الاسكندرية ١٩٧٣ م ص ١٢ — ٣٨ •

حصنا أحاطوه بخندق يحميهم شر هجوم بيزنطى مفاجىء • غير أن أحد رهبان جزيرة كريت دلهم على مكان آخر أكثر ملاءمة وصلاحية فى الجهة الشرقية من الجزيرة ، فأسسوا هنـــاك عاصمة أقاموا بها حصنا وأحاطوها بخندق كذلك • ومن هذا الخندق أخذت العاصمة اسمها الذى تعرف به حتى اليوم وهو Candia (Chandax) (٨٨) •

وكان اســتيلاء المســلمين على كريت من الأســباب التى دفعت الامبراطور ثيوفيل الى ارسال سفارة بيزنطية الى الأمير عبد الرحمن الأوسط فى الأندلس عام ٢٢٥ هـ/٨٤٠ م • ولخص المقرى فى (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) هــدف وأسباب هذه السفارة ، اذ طلب الامبراطور البيزنطى من الأمير الأندلسى « مواصلته ويرغبه فى ملك سلفه بالمشرق ، من أجل ما ضيق به المــأمون والمعتصم ، حتى انه ذكرهما له فى كتابه له ، وعبر عنهما بابنى مراجل وماردة » وهما أمتان للرشيد الأولى مراجل فارسية أم المــأمون والثانية ماردة تركية وهى أم المعتصم • وشكى ثيوفيل من فعــال المــأمون والمعتصم وعبثهمــا فى أراضيه ، وطلب اليه عقد أواصر المودة والصداقة بينهما ، وتنبأ له بقرب انهيــار الدولة العباســية وزوال سلطانها • وطلب ثيوفيل مســاعدة

---

(٨٨) انظر ابراهيم احمد العدوى ، اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع الميلادى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الثانى (١٩٥٠ م) ، ص ٥٣ — ٦٨ ، اسمت غنيم ، العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية وجزيرة كريت الاسلامية ، ص ١٢ — ٣٨ ، حسين مؤنس ، المســلمون فى حوض البحر المتوسط ، ص ١٣٧ — ١٣٨ ، ، ابراهــيم على طرخان ، المسلمون فى أوروبا ، ص ٨٤ — ٨٦ ، ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص ١٦٤ — ١٦٩ ، فازيليف ، العرب والروم ، ص ٥٢ — ٦١ ، صابر دياب ، سياسة الدولة الاسلامية ، ص ٥٩ — ٦٧ ،

Fahmy, Muslim Sea-Power, pp. 128 — 38 ; Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 278 — 279.

عبد الرحمن الأوسط فى استخلاص جزيرة كريت التى استولى عليها الربضيون الأندلسيون وأن يردها الى الروم • وقد استقبل الأمير عبد الرحمن الأوسط سفير ثيوفيل مرحبا ، وأرسل الى القسطنطينية رسولين يحملان هدية ورسالة مطولة وهما المنجم يحيى بن الحكم الملقب بالغزال (١٥٤ — ٢٥٠ هـ / ٧٧٠ — ٨٦٤ م) الذى كان مشهورا بالشعر والحكمة ، والثانى يحيى بن حبيب الملقب بصاحب المنيقلة ، ولعله اخترع نوعا من الساعات • ولم يتورط عبد الرحمن الأوسط فى محالفة الدولة البيزنطية أو مساعدتها على استرداد كريت ، وآثر التفاهم والود على التحالف الرسمى • وقد ترك الغزال وصفا شيقا لما رآه فى القسطنطينية فى قصيدة من قصائده الشعرية(٨٩) • وأصبحت كريت قاعدة هامة

---

(٨٩) انظر المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ ، وقد نشر ليفى بروفنسال Levi Provensal قصة هذه السفارة باللغة الفرنسية ومعها نص الخطاب باللغة العربية فى :

Echange d'ambassades entre Cordove et Byzance au IXe, Siècle, **Byzantion**, Vol. 12 (1937), pp. 1 - 24.

وانظر ايضا بروفنسال : الاسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى ، ص ٩١ — ١٨٨ ، وكذلك ابراهيم على طرخان ، المسلمون فى اوروبا ، ص ٢٧٥ — ٢٧٨ ، محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الاول — القسم الأول ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣ ، عبد المنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ص ٧٨ — ٧٩ • وتجدر الاشارة الى أن الغزال قام بسفارة اخرى من قبل عبد الرحمن الثانى الى الفيكنج (المجوس عبدة النار) ، ولتفصيل هذه السفارة الثانية انظر :

El - Hajji (Abdurrahman), Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe during the Umayyad period, Beirut, 1970, pp. 166 — 203.

هذا ويرى بعض الباحثين أن سفارة الغزال الى المجوس من ضرب الخيال وان هناك اضطرابا وخلطا بين سفارة الغزال الى البيزنطيين وسفارته الى المجوس ، انظر : بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، الترجمة العربية ص ١١٢ — ١١٤ ، عبد المنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٧٩ — ٨٠ •

للعمليات الحربية الاسلامية فى بحر ايجه وشواطئه لمدة تزيد على مائة وثـلاثين عامـا حتى اسـتردها القـائد البيزنطى نقفور فوقـاس سنة ٩٦١ م(٩٠) •

وفى المغرب أيضا أخذت دولة الأغالبة تشـكل خطرا على الدولة البيزنطية • ودولة بنى الأغلب من أهم الدويلات الاسلامية المستقلة التى قامت فى المغرب الأدنى ، أسسها ابراهيم بى الأغلب بن سالم التميمى الذى ثبته الخليفة العبـاسى هارون الرشـيد فى ولايـة افريقيـة فى سـنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م • واتخذ الأمـير ابراهيم بن الأغلب مدينـة

---

(٩٠) عن استرداد الدولة البيزنطية لجزيرة كريت فى القرن العاشر الميلادى ، انظر اسمت محمود غنيم ، العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية وجزيرة كريت الاسلامية ، ص ٢٠٢ ـــ ٢٤٨ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٧٧ ـــ ٣٨٤ ، ويلاحظ أن الدولة البيزنطية مهدت للاستيلاء على جزيرة كريت بأن حاولت التقرب الى الفاطميين فى شـمال افريقيـة ، ففى سـنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ ـــ ٩٥٨ م أى فى عهـد الامبراطور قسـطنطين السـابع بورفيرجنتيوس ، وصـل سفير بيزنطى الى بلاط الخليفـة الفاطمى المعز لدين الله فى مدينة المنصورية يسأل الهدنة من الخليفة . وحمل الرسول معه هدايا والجزية التى اتفق الامبراطور البيزنطى أن يدفعها سـنويا عن أرض قلورية (كالابريا Calabria الطرف الجنوبى لجنوب ايطـاليا) . وطلب الامبراطور على لسان رسوله ان يكف الخليفة الفاطمى « عن حربه ويسأل الموادعة (الهدنة) وبعث بعدد كثير من اسارى أهل المشرق » ، انظر تفاصيل هذه السفارة فى

Stern : "An embassy of the Byzantine Emperor to the Fatimid Caliph al - Mu 'izz," **Byzantion,** Vol. XX (1950), p. 209 — 258.

ويلاحظ ان تلك السفارة لم تمنع الخليفة الفاطمى من التحرك والعمل اثناء محاولة البيزنطيين الاستيلاء على كريت ، فهناك خطاب مؤرخ فى ربيع الثانى ٣٥٠ هـ / مايو ٩٦١ م ارسله المعز لدين الله الفاطمى الى أبى الحسن على الأخشيدى فى مصر بخصـوص طلب مساعدات للمسلمين فى كريت ، وهناك خطاب تهديد آخر ارسله المعز للامبراطور البيزنطى رومانوس الثانى بخصوص استيلائهم على كريت ، لتفاصيل ذلك انظر :

Canard, M., 'les sources arabes de l'histoire Byzantine aux confins des Xe et XIe siècles, in **Revué des études Byzantines,** Vol. 19 (1961), pp. 285 — 292.

القيروان عاصمة لدولته ، وكون قوة بحريـــة كبيرة ساعدت خلفاءه فى غزو جزيرة صقلية ، وفى تحقيق سيادة بحرية اسلامية فى غرب البحر المتوســط(٩١) .

أما عن جزيرة صقلية(٩٢) فقد أصبحت هذه الجزيرة منذ القرنين السابع والثامن الميلاديين موضـــع اغارات المسلمين . وكان أول من غزاها معاوية بن حديج الكندى الذى غزا جزيرة صقلية أيام معاوية بن أبى سفيان(٩٣) . وفى سنة ١٣٥ هـ/٧٥٢ م غزا عبد الله بن حبيب جزيرة صقلية وغنم غنائم كثيرة . واضطر البيزنطيون الى تعمير صقليـــة من جميع الجهات وشيدوا الحصـــون والمعاقل ، وصاروا يخرجون فى كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنهـــا ، وربما صادفوا تجـــارا من المسلمين فيأخذونهم(٩٤) . ووافقت الفرصة للأغالبة فى عهد زيادة الله الأول (٢١٠ — ٢٢٣ هـ/٨١٧ — ٨٣٨ م) أعظـــم أمراء بنى الأغلب لبسط نفوذهم على جزيرة صقلية . ففى نهاية حكم الامبراطور ميخائيل الثانى ثار شخص يسمى يوفيميوس Euphemius (فيمى) ضـــد الامبراطور واستولى على سرقوصـــة وأعلن نفسه ملكا على صقلية . وعندما تأكد يوفيميوس من أن قواته عاجزة عن مواجهة قوات الدولة البيزنطية طلب مساعدة الأغالبة المسلمين . وانتهز زيادة الله الأول تلك الفرصـــة لعدة عوامل . فقد قصـــد المسلمون من فتح جزيرة صقلية القضاء على غـــارات الروم على الساحل الافريقى واستئناف حـــركة الفتوحات الاسلامية فى أراضى البيزنطيين . وقصد الأغالبة أيضا بعث

(٩١) انظر محمود اسماعيل عبد الرازق ، الأغالبة (١٨٤ — ٢٩٦ هـ) سياستهم الخارجية ، ص ١٩ — ٢٩ .

(٩٢) عن جزيرة صقلية فى كتابات الجغرافيين والرحالة العرب ، انظر أمارى ، المكتبة العربية الصقلية ، ص ١ — ١٦٠ .

(٩٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الأول ، ص ٢٧٨ ، أمارى ، المكتبة العربية الصقلية ، ص ١٦١ .

(٩٤) انظر أمارى ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٠ .

حركة الجهاد فى سبيل الله بعد أن تفقه أهل افريقية فى الدين الاسلامى وأصبح منهم العلماء والفقهاء ، وكان الخروج لمدافعة البيزنطيين فى صقلية أقصى ما يتمناه العابدون والصالحون • ومما يدل على ذلك أن زيادة الله اختار القاضى الفقيه أسد بن الفرات مصنف الأسدية فى الفقه على مذهب مالك قائدا للحملة ، مما يعبر عن روح الجهاد التى سيطرت على قلوب الفاتحين المسلمين(٩٥) •

وفى ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ/يونية ٨٢٧ م احتفل زيادة الله بخروج المسلمين تحت قيادة أسد بن الفرات لغزو صقلية احتفالا عظيما • وأقلع أسطول الأغالبة فى حوالى مائة مركب • ووصل المسلمون الى صقلية عند بلدة مازر Mazara وهزموا البيزنطيين هزيمة نكراء • وفر بلاطه Plato منافس فيمى بصقلية الى قلورية حيث قتل بها ، كما قتل مناصرو الامبراطور البيزنطى • وزحف المسلمون الى مدينة بالرمه Palermo فحاصروها حصارا محكما وافتتحوها بالأمان فى رجب سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م • وكان فتحها خطوة كبيرة أدت الى استيلاء المسلمين على معظم مدن الجزيرة بما فى ذلك مسينه Messina سنة ٢١٩ هـ/ ٨٣٤ م وقصريانه سنة ٢٢٢/٨٣٦ • وأصبح الاتصال بين المسلمين الفاتحين فى صقلية وافريقية أمرا ميسورا ، كما أصبح من الامكان نقل المؤن والامدادات الى سائر أنحاء الجزيرة بعيدا عن الأسطول البيزنطى • ولم يحاول الامبراطور البيزنطى ثيوفيل استرداد بالرمه اذ يبدو أنه كان مشغولا بمواجهة حملات الخليفة المأمون على أرمينية ، مما سهل للأغالبة مواصلة نشاطهم وفتوحاتهم فى صقلية • وفى نهاية عصر الأسرة العمورية ،

---

(٩٥) انظر السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ (العصر الاسلامى) ، ص ٣٨٦ — ٣٨٧ ، احمد توفيق المدنى ، المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، ص ٥٦ •

سقطت كل مدن صقلية ما عدا سيراكوز(٩٦) • وأنشأ المسلمون فى صقلية حضارة اسـلامية رائعة لا تزال آثارها باقية حتى اليوم فى هيئة قصور وبقايا مساجد وحصـون • وأصبحت بالرمه وغيرهـا من المدن مراكز هامة للحضـارة الاسلامية ومعبرا من معابر الحضارة الاسلامية الى أوروبا(٩٧) •

ومن صقلية تقدم المسـلمون الى الممتلكات البيزنطيـة فى جنوب ايطاليا • وظهر المسلمون فى ايطاليا لأول مرة سنة ٢٢٣ هـ/٨٣٧ م عندما استعان بهم أهل نابلى ضـد دوق بنفينتو Benevento • ونجح المسلمون فى عقد معاهدة صـداقة وتجارة مع نابلى(٩٨) • ثم أغـار المسلمون على نهاية الطرف الجنوبى لجنوب ايطاليا كالبريا — كالابريا Calabria التى أطلق عليها المسلمون اسـم قلورية ، وهى التى اشتملت على الممتلكات البيزنطية فى جنوب ايطاليا حول خليج تارنتوم

---

(٩٦) عن فتح الأغالبة لجزيرة صقلية ، انظر ، الدباغ ، معالم الايمان فى معرفة اهل القيروان ، ج ٢ ، ص ٢١ — ٢٦ (ترجمة أسد بن الفرات) ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٠٢ — ١٠٦ ، احمـد توفيق المدنى ، المسـلمون فى جزيرة صقلية ، ص ٥٦ — ٧١ ، امارى — المكتبـة العربيـة الصقلية ، ص ٢٢١ — ٢٣٤ ، السـيد عبد العزيز سـالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ العصر الاسـلامى ، ص ٣٨٦ — ٣٩٢ ، طرخان ، المسـلمون فى أوروبـا ، ص ٩١ — ٩٢ ، حسـين مؤنس ، معـالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٨٧ — ٩١ ، احسـان عبـاس ، العرب فى صقلية ، ص ٣٢ — ٣٩ ، محمود اسماعيل ، الأغالبة ، ص ١٨٦ — ١٩٧ ، فازيليف ، العرب والروم ، ص ٦٢ — ٨٤ ، ارشيبالدلويس ، القوى البحرية والتجارية ، ص ١٧٠ ،

Vasiliev, Byz. empire, I,p. 279 ‘

Setton, A history of the Crusades, I, p. 43.

(٩٧) عن بعض مظاهر الفنون الاسلامية فى صقلية انظر ، عبد المنعم رسلان ، الحضارة الاسلامية فى صقلية وجنوب ايطاليا ، ط . جدة ١٩٨٠ ، وعن صقلية كمعبر من معابر الحضارة الاسلامية الى اوروبا انظر سـعيد عاشور ، المدنية الاسلامية واثرها فى الحضارة الأوروبية ، ص ٥٣ — ٥٥ .

(٩٨) احمد توفيق المدنى ، المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، ص ٧١ — ٧٢ ، Setton, op. Cit., Vol. I, P. 45.

Tarentum ، وخربوا مدينة كابوا سنة ٢٢٥ هـ/٨٣٩ م • وتلى ذلك استيلاء المسلمين على تارنتوم فى عهد الامبراطور ثيوفيل مما شكل تهديدا خطيرا ومباشرا للأقاليم البيزنطية فى جنوب ايطاليا • وخشى البنادقة على تجارتهم فأسرع أسطولهم لمساعدة الامبراطور البيزنطى ؛ ولقى أسطولهم هزيمة كبيرة فى خليج تارنتوم • واستولى المسلمون على بارى Bari ، وهو ميناء هام حصين على الساحل الشرقى لشبه الجزيرة الايطالية عند مدخل بحر الأدرياتيك • ومن بارى توسع المسلمون فى فتوحاتهم الى أقاليم ايطاليا الداخلية • وظهر المسلمون عند مصب نهر التيبر وهددوا مدينة روما ، وأغاروا عليها سنة ٢٣٩ هـ محاولين فتحها ثم غادروها • وهكذا فشلت سياسة بيزنطة فى الغرب فى عصر الأسرة العمورية ، وفقدت كريت وصقلية • حقيقة لقد استرد البيزنطيون كريت سنة ٩٦١ م الا أن البيزنطيين فقدوا صقلية الى الأبد ، واستولى المسلمون على مواقع هامة فى جنوب ايطاليا(٩٩) •

أما بالنسبة للعلاقات البيزنطية البلغارية خلال تلك الفترة من القرن التاسع الميلادى ، فقد أصبحت بلغاريا فى بداية ذلك القرن دولة قوية عندما شغل عرش البلغار الملك كروم Krum وهو محارب شجاع وادارى حكيم • وظهر عداؤه للدولة البيزنطية عندما حاول أن يضم الى جانبه الصقالبة فى مقدونيه وتساليا Thessaly • وعندما تبين للامبراطور البيزنطى نقفور خطورة تلك المحاولة نقل كثيرا من المستوطنين من أنحاء الامبراطورية الى كل من الاقليمين • وكان هدف الامبراطور منع خطر التحالف المنتظر بين البلغار والصقالبة فى مقدونيه وتساليا • وفى سنة ٨١١ م قاد نقفور الأول حملة كبيرة ضد كروم ، واستطاع البلغار الايقاع به فى كمين • وهزم نقفور الأول وجيشه وقتل فى المعركة وجرح ابنه وتشتت جيشه • ومنذ تلك المعركة التى جرت

---

(٩٩) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 279 — 280
انظر ايضا ابراهيم طرخان ، المسلمون فى أوروبا ، ص ٢١٣ — ٢١٧ •

قرب أدرنه سنة ٣٧٨ م وقتل فيها الامبراطور فالنس أمام القوط ، لم يحدث أن قتل أحد من الأباطرة البيزنطيين فى معركة ضد البرابرة سوى نقفور الأول • ويقال ان الملك البلغارى كروم صنع من جمجمة الامبراطور نقفور كأسا وأرغم نبلاء البلغار على الشرب منها • وبعد سنتين أى فى سنة ٨١٣ م هزم كروم أيضا الامبراطور ميخائيل الأول الذى تقدم على رأس جيش كبير لمحاربة البلغار ، وفر الجيش البيزنطى بعد هزيمته هاربا الى أسوار القسطنطينية • وفى نفس السنة (٨١٣ م) عندما أصبح ليو الخامس الأرمنى امبراطورا قام ملك البلغار كروم بهجوم على القسطنطينية ، وحاصر العاصمة التى تخلصت من خطره بموته المفاجىء أثناء الحصار ، وبالتالى أراح الدولة البيزنطية — الى حين — من خطر البلغار(١٠٠) •

وخلف كروم على عرش البلغار الملك أمورتاج (أمورتاك) Omurtag الذى يعتبر من أشهر رجال بلغاريا فى تاريخها ، ووصلت بلغاريا فى عهده الى قمة مجدها • وعقد أمورتاج مع الامبراطور ليو الخامس معاهدة سلام لمدة ثلاثين عاما انهت مشكلة الدفاع عن الحدود بين الدولتين فى اقليم تراقيا • وأتاحت هذه المعاهدة للامبراطور ليو الخامس الفرصة للقيام بتعمير بعض المدن التى أصابها الخراب فى تراقيا ومقدونية ، واقامة سور جديد قوى حول القسطنطينية للدفاع عنها خوفا من خطر بلغارى فى المستقبل • وفى أوائل الخمسينات من القرن التاسع انتقل عرش البلغار الى بوريس Boris الذى حكم بلغاريا من سنة ٨٥٢ م الى سنة ٨٨٩ م وارتبط اسمه باعتناق البلغار المسيحية • والحقيقة أن المسيحية دخلت بلغاريا قبل عصر بوريس عن طريق الأسرى البيزنطيين أثناء المعارك التى جرت بين البلغار والبيزنطيين • وارتبط اعتناق بوريس للمسيحية بالوضع السياسى فى

(١٠٠) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 281.

بلغاريا الذى دفع بوريس للبحث عن علاقات أكثر التصاقا ببيزنطة • وقدم رجال الدين البيزنطيون اليونانيون الى بلغاريا ، وعملوا على نشر المسيحية بين البلغار • وحوالى سنة ٨٦٤ م تم تعميد بوريس واتخذ اسم ميخائيل وانتشرت المسيحية بين البلغار ، وأدى ذلك الى زيادة نفوذ وهيبـــة الدولة البيزنطيـــة فى البلقـــان • وأدرك بوريس عـــدم استعداد بيزنطة لمنح بلغاريا كنيسة مستقلة ، وخاف أن تصبح مملكة البلغار تابعة من الناحية السياسية للدولة البيزنطية • لهذا قرر اقامة تحـــالف دينى مع رومـــا ، وأرســـل وفـــدا الى البابـــا نيقولا الأول Nicholas I يسأله أن يرســـل رجـــال الدين اللاتين الى بلغاريا • وفرح البابا لهذا الطلب ، وقدم الأساقفة والقسس اللاتين الى بلغاريا وتم طرد رجال الدين من اليونانيين • وكان انتصار البابا وكنيسة روما قصير العمر لأن بلغاريا ارتدت بعد ذلك الى الكنيسة اليونانية ، وحدث هذا فى زمن الأسرة المقدونية ، وهى مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الدولة البيزنطية(١٠١) •

(١٠١) Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 281 - 283.

الفصل الرابع

بداية النهاية للدولة البيزنطية

(١٠٥٧ ــ ١٢٠٤ م)

لقرون طويلة قاومت الدولة البيزنطية الأخطار التى واجهتها سواء من أمم وشعوب وقبائل متنوعة مثل الفرس والمسلمون والبلغار والصقالبة (السلاف) وغيرهم ، أو نتيجة حركات دينية مناوئة مثل مذهب الطبيعة أو الحركة اللاأيقونية • غير أن الدولة البيزنطية كانت تمتلك فى كيانها وتنظيماتها ومواردها قوة التغلب على هذه الأخطار أحيانا أو مهادنتها أحيانا أخرى ، وحقق لها ذلك الاستمرار ، ومنعها من السقوط والانهيار • واعتمدت الدولة البيزنطية على ما تمتعت به من امكانيات وموارد ضخمة ، وموقع استراتيجى هام جعلها ذات أهمية تجارية كبيرة ، وأباطرة وقادة أكفاء استطاعوا بأنفسهم وجيوشهم مواجهة الأخطار ، وعلماء ومثقفين وكتاب قدموا روائع الفكر والثقافة اليونانية •

واذا كانت الدولة البيزنطية سقطت باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، الا أن انهيار وسقوط بيزنطة لم يتم فى يوم وليلة ، فالحقيقة أن هناك فترة امتدت حوالى قرن ونصف من الزمان (١٠٥٧ ــ ١٢٠٤ م) كانت فترة حرجة فى تاريخ الدولة البيزنطية ، بدأ فيها موكب الغروب ليسجل بداية النهاية للدولة البيزنطية •

والغريب أن الدولة البيزنطية عاشت قبل بداية هذه الفترة الحرجة من تاريخها عصرا ذهبيا • اذ اتفق المؤرخون على أن الفترة الواقعة فيما بين سنتى ٨٦٧ و ١٠٢٥ م تعتبر أزهى فترة فى التاريخ

السياسى والحضارى لبيزنطه حتى أطلقوا عليها العصر الذهبى للدولة البيزنطية • وباختصار كان القرن العاشر الميلادى أزهى قرون الدولة البيزنطية اذ كتب أباطرة ذلك القرن مثل باسيل الأول ونقفور فوقاس وحنا تزيمسكس فصلا رائعا فى صفحات الحوليات العسكرية البيزنطية• وأعاد أباطرة وقادة ذلك القرن نفوذ وسيطرة بيزنطة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، ومدوا حدود الدولة البيزنطية شرقا الى اقليم الجزيرة فى شمال العراق وأرمينيه ، وأرسلوا حملات متتالية الى أطراف آسيا الصغرى • فالقائد الكفء حنا كوركواس John Curcuas الذى تولى شئون آسيا الصغرى فى سنة ٩٢٣ م ، دفع المسلمين لمدة العشرين سنة التالية الى ما وراء أطراف بيزنطة ، واسترد مدينة ملطية وحاصر الرها • وفى سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م استرد القائد نقفور فوقاس Nicephorus Phocas جزيرة كريت من المسلمين • وعندما أصبح فوقاس امبراطورا سنة ٩٦٣ م استولى فى حملاته الحربية على المصيصة وطرسوس ، واستولت قواته على جزيرة قبرص سنة ٩٦٥ م • وقضى البيزنطيون باستردادهم كريت وقبرص على اغارات العرب البحرية على شواطىء بحر ايجة والاناضول • وظهرت قوة البيزنطيين مرة أخرى كقوة بحرية كبيرة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط • وتوج الامبراطور نقفور الثانى فوقاس انتصاراته بالاستيلاء على أنطاكية سنة ٩٦٩ م فأعاد ذلك الكرسى البطريركى والمركز التجارى الهام الى الدولة البيزنطية بعد خضوعها للمسلمين لعدة قرون • وفرض البيزنطيون سيادتهم على امارة حلب طبقا لاتفاقية صفر ٣٥٩هـ/ ديسمبر ٩٦٩ — يناير ٩٧٠ م • ويقال أن نقفور فوقاس كان عازما على التوغل فى بلاد الشام وفتح بيت المقدس حتى اعتبر بعض الباحثين هذه المحاولات ارهاصات الحروب الصليبية • وحقق القائد حنا تزيمسكس John Tzimisces — عندما أصبح امبراطورا — انتصارات كبيرة فى

سنة ٩٧٥ م ، وخضعت له مدن دمشق وصيدا وبيروت ، هذا فضلا عن انتصارات بيزنطه فى شمال شرق آسيا الصغرى(١) •

أما بالنسبة لحروب الدولة البيزنطية ضد البلغار ، فقد رجحت اولا كفة البلغار فى عهد الخان البلغارى سيمون Symeon المتوفى سنة ٩٢٧ م • فقد أرغم سيمون الدولة البيزنطية على دفع اتاوة سنوية ، وعندما تأخرت بيزنطة عن أدائها تقدم الخان البلغارى على رأس جيشه الى أسوار القسطنطينية ذاتها • ثم اضطربت العلاقات البيزنطية — البلغارية من حين لآخر نظرا لانشغال البيزنطيين بحروبهم فى الشرق ضد المسلمين • وفى سنة ٩٧١ م أرغمت الحوادث الامبراطور حنا تزيمسكس على القيام بحملة حربية كبيرة استولت على عاصمة البلغار برسلاف Preslav • وعندما ثار البلغار وأسسوا مملكة قصيرة العمر برئاسة صمويل Samuel حاربهم الامبراطور باسيل الثانى وحقق انتصارات رائعة ضدهم فى سنة ١٠١٤ م • وفى خلال بضع سنوات كانت شبه جزيرة البلقان اما فى أيدى البيزنطيين أو يدين سكانها بالولاء لهم(٢) •

وأدت الانتصارات الحربية للدولة البيزنطية فى القرن العاشر الى رخاء اقتصادى شمل أنحاء الامبراطورية • فقد اتسعت حدود الدولة البيزنطية اتساعا لم تشاهده بيزنطة منذ أيام الامبراطور جستنيان الأول فى القرن السادس • وامتدت حدود الدولة من الشام الى الدانوب،

---

(١) عن التوسع البيزنطى فى الشرق فى القرن العاشر ، انظر ،
Vryonis, Byzantium, pp. 86 — 88 ; Hussey, Byzantine world, pp. 34 — 6 ; Walker, P., "The Crusade of John Tzimisces in the light of New Arabic evidence", **Byzantion,** Tome XLVII (1977), pp. 301 - 27 ;

عمر كمال توفيق ، مقدمات العدوان الصليبى ، الامبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية ، ص ٦ — ٢٠ ، تقديم رأفت عبد الحميد لترجمة كتاب هسى ، العالم البيزنطى ، ص ٤٧ — ٤٨ .

(٢) Vryonis, Byzantium, pp. 90 - 91 .

ومن أرمينيه الى جنوب ايطاليا ، ودانت الأمم والشعوب المحيطة بالولاء لبيزنطة(٣) • وكان من نتائج الانتصارات العسكرية التى حققتها جيوش الدولة البيزنطية وعدم تعرض أقاليمها الشرقية لاغارات المسلمين خلال ذلك القرن ، قيام سكان الأقاليم بزراعة أراضيهم فى سلام مما أدى الى زيادة الحاصلات الزراعية • وتم احياء المدن اليونانية — الرومانية • ونظرا لأن الدولة البيزنطية كانت تمتلك رصيدا من الخبرات الحرفية بالاضافة الى موارد الولايات ، فقد أضفى هذا على الصناعات البيزنطية الاتقان والجودة . وأشرفت الدولة عن طريق موظفيها المدنيين على الحرفيين وتنظيماتهم بواسطة هيئات حرفية • ونشأت النقابات الحرفية Guilds التى انتظم فى كل منها عدد معين من الأعضاء • واستطاع كثير من أعضائها تكوين ثروات طائلة ، واحتلوا درجة اجتماعية عالية • وأشرفت هذه النقابات على انتاج المنتجات البيزنطية الفخمة مثل المنسوجات والمجوهرات الرائعة(٤) • ويشرح كتاب والى المدينة وهو المعروف فى اليونانية باسم Eparchikon Biblion — الذى صنفه الامبراطور البيزنطى ليو السادس بين سنتى ٩١١ ، ٩١٢م واعتمد فى تصنيفه على ما كان معروفا قبل عهده من قوانين وعرف وتقاليد — كيف نظمت الحكومة البيزنطية العلاقات بين عامة الناس وأرباب الحرف ، وسيطرت على الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد ، فألزمت الابن بممارسة مهنة أبيه ، وجعلت أرباب الحرف والصناعات ينتظمون فى نقابات خاضعة لسلطان الدولة • وكان والى المدينة Prefect of the city من هيئة كبار الموظفين ، وهو مسئول عن الاشراف على الأسواق وتموين السكان بالقمح ، ومراقبة النقابات الكثيرة التى كانت تشمل تجار وغزالى الحرير وصناع

---

(٣) Charles Diehl, Byzantium, pp. 14 - 15.

(٤) لتفاصيل ذلك انظر : Vryonis, Byzantium, pp. 92 - 8

الأقمشة الحريرية والصباغين وتجـار الجواهر والمشتغلين بالصرف وتجار العطور والتوابل وصناع الشمع والصابون والجلود والجزارين والخبازين وغير ذلك(٥) • وساعد على ذلك أيضـا وفرة المواد الخـام فى أقاليم متعددة فى الدولة البيزنطية • واستغلت المناجم المنتشرة فى أجزاء شتى من أنحاء الدولة فى استخراج المعادن الأساسية وخاصـة الشب الذى كان ذا أهميـة كبيرة فى صـناعة النسيج والصباغة ودبغ الجلود وغير ذلك(٦) •

وأصبحت القسطنطينية فى القرن العاشر أعظم مركز تجـارى فى العالم المسيحى • وجذبت اليها التجار والمتاجر من أوروبا ومن بلاد المسلمين والهند والصين • وازدهرت التجـارة الداخليـة فى الدولة البيزنطية ، اذ أصبحت كل مدينة مركزا تجاريا للمنطقة المجاورة لها ، حيث باع المزارعون منتجاتهم الزراعية ، واشتروا منتجات الحرفيين المحليين • وجذبت الأسواق المحلية التى كانت تقام عادة عند ضريح أحد القديسين المحليين ، انتباه التجار البيزنطيين وغير البيزنطيين • وفى الأسواق الكبرى كان تجار الشرق يبيعون العطور والتوابل ويشترون السجاد والأقمشة البيزنطية • ولمـا كان هؤلاء التجار قد سلكوا طرق

---

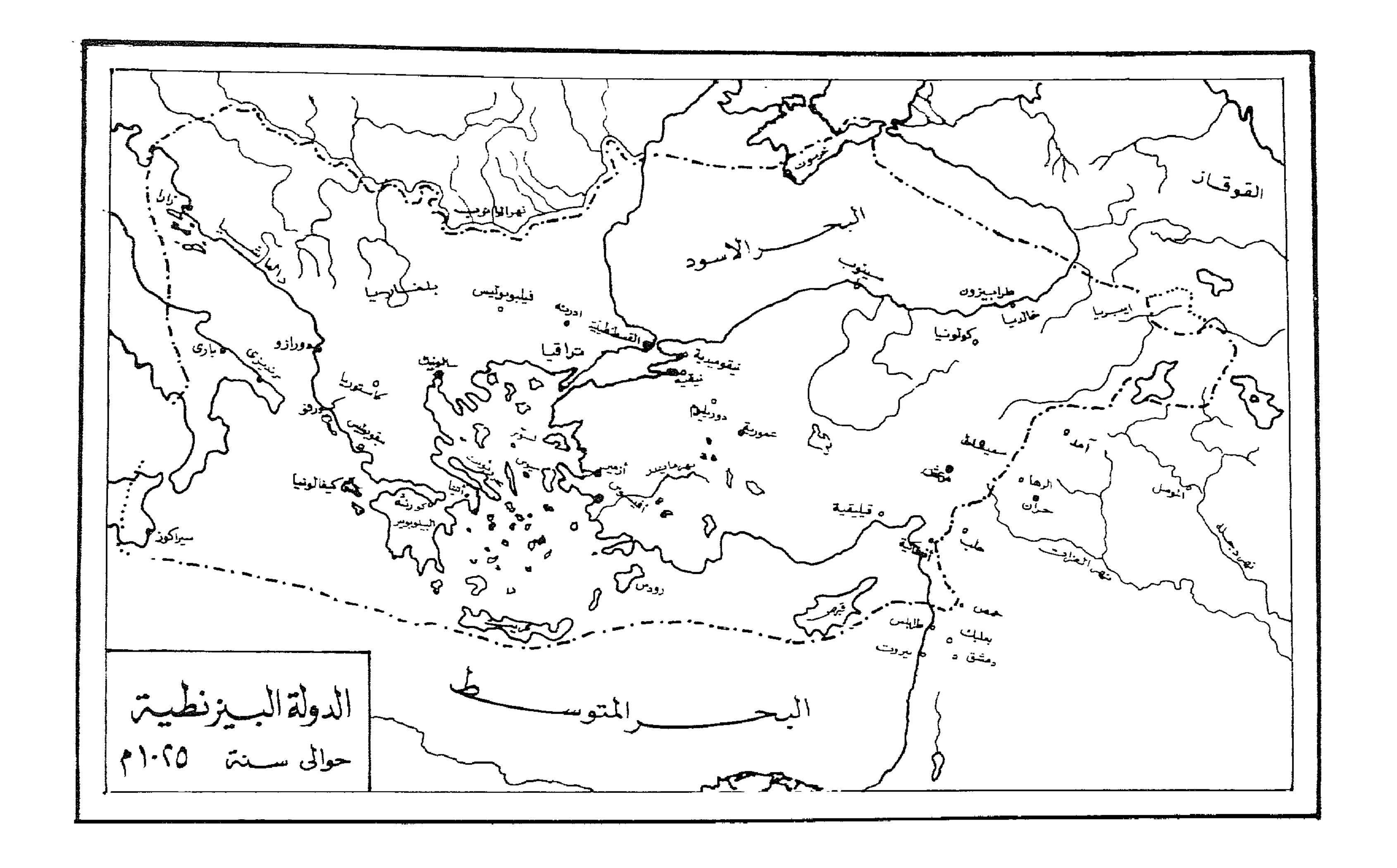
(٥) لمزيد من التفاصيل انظر الترجمـة العربية لكتـاب والى المدينـة الدكتور السيد الباز العرينى فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ١٩ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٧ ، ص ١٣٥ — ١٨٧ •

(٦) عن استخراج الشب فى آسيا الصغرى واهميته انظر :

Cahen, C., "L'alun avant phocee" in **Revue d'histoire économique et sociale,** Vol. XIi. (1963), pp. 433 ff.;Cahen, Pre-Ottoman Turkey, pp. 160 - 1, 318 - 19;

وعن تاثير ذلك على استخراج الشب فى مصر العصور الوسطى انظر ،

Rabie, H., The Financial System of Egypt. A. H. 564 - 741 / A. D. 1169 - 1341, London, 1972, P. 84.



الدولة البيزنطية
حوالى سنة ١٠٢٥م
البحر الأسود
البحر المتوسط
القوقاز
نهر الدانوب
بلغاريا
فيليبوبوليس
ادرنه
القسطنطينية
تراقيا
نيقوميدية
نيقية
دوريليم
عمورية
سينوب
طرابيزون
خالديا
ايبيريا
كولونيا
سالونيك
دورازو
بارى
كيفالونيا
سيراكوز
روردس
قبرص
قليقية
سميساط
آمد
الرهاه
حران
الموصل
حلب
حمص
طرابلس
بعلبك
بيروت
دمشق
نهر الفرات
نهر دجلة

آسيا الصغرى على طول الطريق الى القسطنطينية ، فقد استفادت المدن البيزنطية التى مروا بها من هذه التجارة الدولية والمحلية(٧) •

اما من الناحية الدينية فقد حققت كنيسة القسطنطينية فى القرن العاشر أعظم انتصار لها باعتناق الروس فى كييف Kiev المسيحية فى عهد الامبراطور باسيل الثانى • فقد تلقى الامبراطور البيزنطى مساعدات حربية هامة من الأمير الروسى فلاديمير Vladimir للقضاء على ثورة بارداس فوقاس فى آسيا الصغرى • ووعد باسيل الثانى الأمير الروسى بأن يزوجه أخته حنه Anna آملا أن يعتنق فلاديمير وشعبه الديانة المسيحية • وتردد الامبراطور البيزنطى — رغم مساعدة الروس له حتى انتصر على ثورات آسيا الصغرى — فى أن تصبح ابنته زوجة لحاكم بربرى • لذلك أغار فلاديمير على الممتلكات البيزنطية فى كريميا Crimea ، غير أن ذلك أدى من ناحية أخرى الى خضوع الروس لتأثير بيزنطى قوى • وكان اعتناق الروس للمسيحية نتيجة نشاط الدعاة البيزنطيين ، وحمل الروس بدورهم المسيحية عبر سيبيريا الى آلاسكا وغيرها(٨) •

وصاحب هذا التقدم فى الزراعة والصناعة والتجارة ونشر المسيحية تقدما فى الحياة الفكرية فى الدولة البيزنطية • فبعد أن انتصرت الأيقونات فى القرن التاسع الميلادى أعيد تأسيس جامعة القسطنطينية التى سبق وأن قامت فى القرن الخامس(٩) • وقد قام بهذه المهمة القيصر بارداس Bardas خال الامبراطور ميخائيل الثالث ومدبر

---

(٧) Vryonis, Byzantium, p. 98;

(٨) Ibid. , p. 99 ;

وانظر عن اعتناق الروس للمسيحية كما ورد فى المصادر العربية :
Frye, "Remarks on some new Islamic sources of the Rus," **Byzantion,** Vol. XVIII (1948) , p. 120.

(٩) انظر ما سبق ص ٤٩ — ٥٠ .

دولته(١٠) . وقد عين بارداس الفيلسوف ليو Leo رئيسا لهذه الجامعه . وواكب حركه احياء التراث الثقافى فى البلاط البيزنطى حركه الترجمة الكبرى للمؤلفات اليونانيه الى اللغه العربية فى بلاط الخليفة العباسى المأمون فى بغداد . وتشير احدى الروايات التاريخية الى أن ترقية ليو الى وظيفة رئيس اساقفة سالونيك ثم بعد ذلك رئيسا لجامعة القسطنطينية كان مرجعه عرضا مغريا من جانب الخليفة المسلم مقابل خدمات ذلك العالم الكبير . وأشار أحد المعاصرين الى أن الامبراطور ثيوفيل اعتبر العلم « سرا يجب أن يحافظ عليه ، مثل صناعة النار الاغريقية ، ظنا أنه من سوء السياسة تثقيف البرابرة »(١١) .

غير أنه منذ سنة ١٠٢٥ م أى بموت الامبراطور باسيل الثانى دخلت الدولة البيزنطية فترة حرجة من تاريخها كانت بداية النهاية لتاريخ هذه الدولة . والحقيقة أن القرن الحادى عشر الميلادى كان نقطة تحول كبير فى تاريخ العصور الوسطى اذ بدأت فى هذا القرن تيارات جديدة تحل محل التيارات القديمة التى بدأت تتلاشى . ففى هذا القرن أقام النورمان دولة لهم فى جنوب ايطاليا ، وقدم البابا جريجورى السابع Gregory VII, روحا جديدة الى الكنيسة الغربية ، وفى هذا القرن أيضا بدأت الحركة الصليبية . وشاهد القرن الحادى عشر تغييرات كثيرة فى الدولة البيزنطية أثرت فيها وأدت الى انهيارها وعزل العالم البيزنطى عن ممالك أوروبا الغربية ، وانتقل النشاط التجارى من البيزنطيين اليونانيين الى المدن التجارية الايطالية(١٢) .

أما فى الدولة البيزنطية فقد تدهورت بها الأوضاع السياسية

---

(١٠) انظر ما سبق ص ١٣٦ حاشية ٦٧ .

(١١) Vryonis, Byzantium, p. 110.

(١٢) Bury, J. B. ' Roman Emperors from Basil II to Isaac Komnenos' . **English Historical Review,** Volume IV (1889) p. 41.

منذ وفاة الامبراطور باسيل الثانى سنة ١٠٢٥ • ودخلت بيزنطـة فى فترة من الفوضى والاضـطراب كانت بدايـة لانهيار عـام للدولة فى تنظيماتها العسكرية ونظمها الاجتماعية والاقتصادية • فبعد وفـاة باسيل الثـانى خلفه أخوه قسطنطين الثامن (١٠٢٥ — ١٠٢٨ م) • وكان عمره سـبعون سنة وشغله الشـاغل انفاق الأموال الكثيرة التى جمعها باسيل الثانى • ولم يهتم هذا الامبراطور العجوز الا بسباق الخيل والصيد والشراهة فى الأطعمة والأشربة بالـ... الى ما عرف به من غباء ، اذ ترك تصريف أمور الدولة فى أيدى جماعة من الطواشية ، واشترى السـلام من البرابرة الذين هددوا الدولة البيزنطيـة(١٣) • ونجحت الامبراطورة زوى Zoe ابنة قسطنطين الثامن — بعد موت أبيها — فى مساعدة أزواجها الثلاث للوصول الى عرش الامبراطورية وهم على التوالى رومانوس الثالث Romanus III (١٠٢٨ — ١٠٣٤ م) وميخائيل الرابع Michael, IV (١٠٣٤ — ١٠٤١ م) وقسطنطين التاسـع مونوماخـوس Constantine IX Monomachus (١٠٤٢ — ١٠٥٥ م)(١٤) •

وفى عهد قسطنطين مونوماخوس حدثت القطيعـة بين كنيستى روما والقسطنطينية سنة ١٠٥٤ م • فمن المعروف أن حركة الاصـلاح الكلونية — وهى حركة اصـلاح دينية نسبة الى دير كلونى Cluny (تأسس سنة ١٩١٠ م) نادت بالعودة الى تعاليم السلف وتطبيق نظم القديس بندكت على الحياة الديرية — كان لها تأثيرها فى تجديد شباب البابوية • وكان هدف هذه الحركة اصلاح الكنيسة وتنظيماتها المتداعية ، والقضاء على أمراض الكنيسة مثل شراء الوظائف الدينية (السيمونية)

---

(١٣) Bury, "Roman Emperors", p. 52.

(١٤) Vasiliev, Byzantine Empire, I, p. 351.

وزواج رجال الدين والتقليد العلماني وهو ان يقوم الحكام العلمانيون من اباطرة وملوك وامراء بتقليد رجال الدين مهام مناصبهم الدينية(١٥)٠

وفى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى تولى كرسى البابوية فى روما البابا ليو التاسع الذى لم يكتف بالتدخل فى الشئون الكنسية بل وفى مجال الامور السياسية ٠ واقتنع البابا ليو بضرورة انتشار النفوذ البابوى فى شئون الأقاليم البيزنطية فى جنوب ايطاليا وتاكيد السمو الروحى للبابوية ٠ وكان من الطبيعى ان تقاوم الكنيسة اليونانية البيزنطية مثل هذا التدخل مما ساعد على حدوث الشرارة التى فجرت الاختلافات القديمة العميقة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية ٠ وفى صيف سنة ١٠٥٤ م أرسل البابا ليو التاسع وفدا الى القسطنطينية برئاسة الكاردينال المتعجرف المتكبر همبرت Cardinal Humbert لكى يشرح رأى البابوية الى البطريرك البيزنطى كيرولاريوس Cerularius الذى كان من أقوى الرجال الذين تولوا كرسى كنيسة القسطنطينية ٠ ويبدو أن مسلك الوفد البابوى كان مشوبا بالتعالى والكبرياء وعدم الاحترام ، وأبدى البطريرك البيزنطى شعورا مماثلا مما جعل الاختلافات بين الطرفين تصل الى ذروتها ٠ وامتدت الاختلافات فى وجهات النظر الى التفاصيل الجزئية مثل المذهب والطقوس وعدم زواج رجال الدين واستخدام الخبز غير المخمر والصيام وما الى ذلك ٠ وعندما رفض البطريرك تقديم أية تنازلات لكنيسة روما وضع همبرت قرار الحرمان على مذبح كنيسة القديسة صوفيه بالقسطنطينية معلنا اللعنة على البطريرك ميخائيل كيرولاريوس وأتباعه الهراطقة الذين وصفهم بأتباع الشيطان ٠ وعقد البطريرك ميخائيل اجتماعا دينيا أصدر فى نهايته قرار الحرمان ضد الوفد البابوى

---

(١٥) عن حركة الاصلاح الكلونية انظر سعيد عاشور ، اوروبا العصور الوسطى ، (الطبعة السادسة) ، ج ١ ، ص ٣٣٩ — ٣٤٣ ٠

ومن يشايعهم وكل المتصلين بهم الذين وفدوا « الى المدينة التى يحرسها الله مثل الرعد ... »(١٦) .

وهكذا حدثت القطيعة الكبرى التى كانت نتيجة لعلاقات سلبية معقدة عبر قرون عديدة ماضية تمثلت فى الفروق الثقافية والسياسية والاقتصادية بين العالمين الغربى والشرقى ، وانعكست فى الاختلاف بين الكنيستين حول الزعامة الروحية العالمية وقضايا جزئية أخرى . ومن الملاحظ أن كنائس أنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية وقفت الى جانب بطريرك القسطنطينية . ورغم أن هذه القطيعة جعلت بطريرك القسطنطينية مستقلا تماما عن الادعاءات البابوية فى الغرب ، وأصبحت سلطته أكثر قوة فى العالم السلافى وفى الكنائس الشرقية ، الا أن هذه القطيعة كانت ذات نتائج خطيرة لأنها قضت على كل احتمالات حدوث أى تفاهم سياسى فى المستقبل بين الدولة البيزنطية والغرب اللاتينى الذى ظل تحت تأثير قوى من البابوية . كما كانت هذه القطيعة الدينية مميتة ومشئومة لأن الدولة البيزنطية كانت فى هذه الفترة فى أشد الحاجة لمساعدة الغرب الأوروبى خاصة فى الوقت الذى اقترب فيه خطر الأتراك السلاجقة من الدولة البيزنطية(١٧).

وفى سنة ١٠٥٦ م عندما ماتت الامبراطورة ثيودورا Theodora

---

(١٦) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 337 - 339;
Vryonis, Byzantium, p. 139;

عبد القادر اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٢٨ — ١٢٩ ؛
عمر كمال توفيق ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٣٠ — ١٣١ ؛
انظر أيضا :

Grumel, V., ' Les préliminaires du Schisme de Michel Cérulaire ou la Question Romaine Avant 1054, **Revue des Etudes Byzantines, Vol. X** (1953), pp. 1 - 23.

(١٧) Vasiliev, Byzantine Empire, I, pp. 338 - 339.

آخت زوى انتهت الأسرة المقدونية وبدأت فترة من الفوضى والاضطراب استمرت لمدة خمس وعشرين ســنة انتهت بتولية الكســيوس كومنين عرش الامبراطورية(١٨) •

وأهم ملامح تلك الفترة من الفوضى والاضطراب التى شاهدتها الدولة البيزنطية فيما بين سنتى ١٠٥٦ و ١٠٨١ م ما حدث من زيادة النزاع بين الفئات العسكرية فى المناطق الثغرية من أرباب الســيوف وأفراد الســلطات البيروقراطية فى العاصمة القسطنطينية من أصحاب الأقلام ، وما حدث من تغييرات اجتماعيــة واقتصــادية هزت المجتمع البيزنطى ، وما تعرضت له بيزنطة من أخطــار خارجيــة من النورمان والباتزيناك Patzinaks (البشناق ، البجناك) والسلاجقة وغيرهم •

أما عن قصــة ذلك النزاع بين أرباب السيوف وأصحاب الأقــلام فى بيزنطة فمن المعروف آن ما قام به الامبراطور دقلديانوس من فصــل بين السلطتين العسكرية والمدنية قصــد به اضعاف الطبقة العسكرية ، ولكن بتطور نظام الثغور Themes بدأت تلك الفئات العسكرية فى المناطق الثغرية تزداد قوة • وأدت انتصــارات الجيوش البيزنطيــة فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين الى غطرســة هذه الطبقة العسكرية وتحمسها فى القضــاء على ســيادة الطبقة البيروقراطية من أصحاب الأقلام فى العاصمة • ورغم أن باسيل الثانى استطاع القضاء على بوادر ذلك النزاع وتلك التطلعات من جانب الفئات العســكرية الا أن خلفــاءه كانوا من الضعف ما جعلهم يعجزون عن كبح جمــاح الطبقة العسكرية التى أدى تنافسها ونزاعها مع الطبقة البيروقراطيــة

---

(١٨) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 351.

الى الكارثة(١٩) ٠

أما عن الطبقة البيروقراطيــة فى القسطنطينيــة فقد تكونت من أساتذة الجامعات والطواشية والعائلات العريقة فى العاصمة والموظفين الاداريين ٠ وتحكمت هذه الطبقة فى دوائر الحكومة المختلفة ، ونجحت فى احبــاط تحمس القـــادة العسكريين ٠ وظهر الاختـــلاف فى طبيعة الطبقتين فى اثارة القادة العسكريين للفتن والثورات وقيـــام الموظفين المدنيين بالاضطهـــادات للرد عليهم ٠ وبدأ التنـــافس بين المدنيـــين والعسكريين حول اختيـــار زوج للامبراطورة زوى Zoe بعد موت أبيهـــا قسطنطين الثامن ولم تكن قد تزوجت بعد ٠ وقدم كل فريـــق مرشحه ، وكان النجـــاح عـــادة فى جانب الطبقـــة المدنيـــة ٠ وحتى سنة ١٠٥٧ م كانت الهزيمـــة فى جانب القـــادة العسكريين دائما رغم قيامهم خلال تلك الثلاثين سنة تقريبا (١٠٢٨ ـــ ١٠٥٧ م) بثورة عارمة كل عام ٠ غير أن أفراد الطبقة البيروقراطيـــة نجحوا فى الحفـــاظ على سيادتهم اعتمادا على وجود أباطرة على قيد الحياة ينتمون الى الأسرة المقدونية ، نظرا لمـــا كان يحمله سكان القسطنطينية من عاطفة قوية تجاه تلك الأسرة الحاكمة التى حققت للدولة أزهى انتصاراتها ٠ ومما يدل على تلك القوة التى منحتهـــا العاصـــمة القسطنطينيـــة للموظفين الاداريين تلك النصيحة التى نصحها القائد العســـكرى كيكاومينوس Cecaumenus لابنـــه عندما نصحه بأن لا يحاول أبدا الثورة ضـــد الامبراطور « لأن الذى يمتلك القسطنطينيـــة ســـــوف يحقق النصر دائما »(٢٠) ٠

---

(١٩) Vryonis, Byzantium, pp. 121 - 22; Vryonis, The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from Eleventh through the Fifteenth century, Berkeley Los Angeles, 1971, pp. 71 - 73.

(٢٠) Vryonis, Byzantium, pp. 122 - 3.

وفى سنة ١٠٥٧ م حدث أول نجاح لطبقة القادة العسكريين عندما أصبح اسحاق كومنين Isaac Comnenus امبراطورا ، وقصة وصوله الى عرش الامبراطورية يوضح مدى حدة النزاع بين أرباب السيوف وأصحاب الأقلام ، ففى سنة ١٠٥٦ م ارغم بعض رجال البلاط الامبراطورة العجوز ثيودورا Theodora أخت زوى على أن تختار ميخائيل السادس خلفا لها ، وماتت ثيودورا بعد أن تم تحقيق رغبة رجال البلاط ، غير أن ميخائيل السادس لم يجلس على عرش بيزنطة سوى عام واحد (١٠٥٦ ــ ١٠٥٧ م) ، فقد واجه مقاومة من الجيش البيزنطى فى آسيا الصغرى ، وأعلن قادة ذلك الجيش اسحاق كومنين امبراطورا ، وكان اسحاق قائدا عسكريا وممثلا للعائلات الشهيرة من كبار أصحاب الأراضى فى آسيا الصغرى ، ومن الجدير بالذكر أن أفراد الطبقة الأرستقراطية فى آسيا الصغرى انضموا الى ثورة القادة بها ، وسرعان ما انضم اليهم قسطنطين دوقاس Constantine Ducas الذى كان رئيس الأرستقراطية المدنية فى القسطنطينية ومن رجال الأعمال والتجارة بها ، فقد عارض قسطنطين دوقاس الوصاية التى مارسها طواشية البلاط والموظفين على الامبراطور ميخائيل السادس ، ونظرا لزواجه من ابنة أخ البطريرك كيرولاريوس Cerularius فقد نجح فى اجتذاب البطريرك الى جانب الثائرين فى آسيا الصغرى ، حتى أن رئيس مجلس السناتو فى القسطنطينية ورئيس المثقفين فى الطبقة البيروقراطية العالم والمفكر بسيللوس Psellus (٢١) ،

---

(٢١) يعتبر ميخائيل بسيللوس Michael Psellus من اشهر رجال الدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر . ولد فى سنة ١٠١٨ م من أسرة تولى بعض افرادها وظائف عالية فى بيزنطة ، ودرس البلاغة والفلسفة التى اعتبرها سيدة المعرفة . وكان مثقفا الى ابعد الحدود ، وكاتبا قديرا ، وخطيبا بليغا ، رعى حركة احياء الآداب التى شاهدها القرن الحادى عشر . وكان بسيللوس فى نفس الوقت سياسيا واثقا بنفسه طموحا فخورا بعصاميته . وشغل منصب الوزارة لمدة عشرين سنة لاربعة من الأباطرة =

الذى كان على اتصـــال وثيق بدوقاس ، عدر بالامبراطور ميخائيـــل السـادس عندما اقتربت جيوش الثائرين من القسطنطينيـــة • وعندما اقترب اسحاق كومنين من القسطنطينية دبر رجال النقابات فـنة نجحت، فى عزل ميخائيل الســادس وتولية القائد اسحاق كومنين عرش الدولة البيزنطية • ويحق لاسحاق الأول أن يتباهى بأنه أخذ الامبراطورية بحد السيف ، وعندما ضرب عملة ذهبية جديدة سك عليها صورته ممسكا بالسيف فى يده(٢٢) •

غير أن انتصار الطبقة العسكرية كان قصير الأجل لأن الامبراطور العجوز اسحاق كومنين لم يحكم سوى عامين من سنة ١٠٥٧ م الى سنة ١٠٥٩ م عندما هجر العرش وسلك طريق الرهبان • ولا تعرف الأسباب الحقيقية التى أدت الى انسحابه وربما يرجـع الى أنه كان ضحية مؤامرة ناجحة قـام بها أولئك الذين لم يقتنعوا بمحاولاتـه لمعالجة الأوضاع الاقتصادية • كما أنه استولى بطرق غير قانونية على أراض امتلكها كبار أصحاب الأراضى من المدنيين ورجال الدين ، وخفض

= ولعب دورا هاما فى الحياة السياسية . وكان مستعدا للقيام بأية مهمة تطلب منه وعلى استعداد أن يبيع قلمه الذى اعتبره ســلاحه . وكتب كتابا فى التاريخ The Chronographia احتوى على أخبار حوادث حوالى قرن من الزمان (٩٧٦ — ١٠٧٧ م) . وأورد أخبـارا مختصرة عن عصـور باسيل الثانى وقسطنطين الثامن ورومانوس الثالث معتمدا على حوادث لم يشاهدها بنفسه رغم أنه سمع عنها من مصـادرها الأصلية . أما عن الحوادث من سنة ١٠٣٤ م حتى نهاية تاريخـه فقد ذكر تفاصيل كثيرة لأنه كان شـاهد عيان ، انظر :

Charles Diehl, Byzantium, pp. 147 - 8; Bury, Roman Emperors, in ‘ **English Historical Review, IV**’ (1889), pp. 42 - 44; Vryonis, Byzant--ium, pp. 114 - 115.

(٢٢) Vryonis, Byzantium, p. 123; Vasiliev, Byz. empire, I, p.352.

روانب كبار الموظفين • ومن المحتمل كذلك أن العالم الشهير ميخائيل بسيللوس اشترك فى المؤامرة التى اطاحت باسحاق كومنين(٢٣) •

وتولى قسطنطين العاشر دوقاس عرش الامبراطورية (١٠٥٩ — ١٠٦٧ م) وأبدى اهتماما كبيرا بشئون الادارة المالية للدولة ، ولم تشغله أمور الجيش والشئون العسكرية الا قليلا • ونظرا لأنه كان اداريا من الطراز الأول ، فلم تغير من طبيعته الادارية التهديدات التى تعرضت لها الامبراطورية من جانب البشناق والغز من الشمال والسلاجقة الأتراك من الشرق • وكانت الدولة البيزنطية فى حاجة الى قائد عسكرى قدير لا الى ادارى خبير لمواجهة الأعداء المحيطين بها فتكونت جبهة معارضة قوية ضده(٢٤) •

والحقيقة أن النزاع الطويل بين القادة العسكريين والموظفين الاداريين فى الدولة البيزنطية قد هز الامبراطورية فى فترة حرجة من تاريخها • فالقادة العسكريون — بعد أن أغضبهم الموظفون الاداريون فى العاصمة — طلبوا المساعدة من الجيوش التى يقودونها ، وجردوا أطراف الامبراطورية من القوات العسكرية لكى يتمكنوا من الاغارة على « أعدائهم » فى العاصمة ذاتها • وللأسف انهم قاموا بذلك فى وقت ازداد فيه خطر السلاجقة والبشناق والنورمان على الدولة • ولم يقلل اشتراك الجيش البيزنطى فى الصراع السياسى من أعداد الجند وقدراتهم العسكرية فقط ، بل أدى أيضا الى تسريح المجندين الوطنيين المنتمين الى الطبقة البيروقراطية • وتبدلت الخدمة العسكرية للمواطنين فى أقاليم الحدود الى مبالغ نقدية يدفعونها • وفى عهد قسطنطين العاشر دوقاس دمرت الطبقة البيروقراطية الجيوش الوطنية عندما أحلت مكانها جندا مرتزقة من النورمان والبشناق والأرمن وغيرهم •

---

(٢٣) Vasiliev, Byz empire, I. p. 352.

(٢٤) Ibid., I, p. 352.

ويلاحظ أن العودة الى نظام الجند المرتزقة أضعف الدولة البيزنطية ضعفا خطيرا ، ولعب دورا هاما فى انهيارها • فمن المعروف أن ولاء الجند المرتزقة لا يتعدى رواتبهم النقدية ، وعندما عجزت الدولة — فى بعض الأوقات العصيبة — عن دفع تلك الرواتب ، نهبت الفرق الأجنبية المرتزقة سكان الأقاليم ، وحاولت أحيانا تجريد مقاطعات كاملة من أصحابها • وهكذا فشلت الطبقة البيروقراطية المدنية فى تحقيق آمالها • وعبر عن ذلك كيكاومينوس Cecaumenus ، وهو قائد عسكرى فذ ، عندما كتب فى لغة دارجة يحذر ابنه قائلا : « لا تحاول أن تكون بيروقراطيا ، لأنه من المستحيل أن تكون قائدا عسكريا وممثلا كوميديا فى آن واحد » • ويلاحظ أن عدم الوفاق بين أرباب السيوف وأصحاب الأقلام كان من أهم الأسباب التى أدت الى انهيار وسقوط الدولة البيزنطية(٢٥) •

أما عن التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التى مرت بالدولة البيزنطية خلال تلك السنوات العصيبة من تاريخها ، فالى جانب ظهور طبقة القادة العسكريين ، فقد وصلت المشكلة الاقطاعية الى ذروتها عند منتصف القرن الحادى عشر الميلادى عندما أصبح القادة العسكريون فى نفس الوقت أصحاب اقطاعيات كبيرة من الأراضى ولهم أتباع مسلحون • وقد شهد القرن العاشر اتساعا متزايدا فى مساحات الأراضى التى يمتلكها كبار الاقطاعيين • ولاشك أن ثقل الضرائب وعدم استقرار الأمن كانا من العوامل التى أدت الى زيادة نفوذ أصحاب الاقطاعات فى ذلك القرن • ذلك أن القسم الأكبر من صغار الملاك والمزارعين الأحرار طلبوا حماية السادة الاقطاعيين مقابل تنازلهم عما يمتلكونه والدخول فى خدمتهم(٢٦) •

---

(٢٥) Vryonis, Byzantium, pp. 124 — 126.

(٢٦) عبد القادر اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٢٧ •

وعلى الرغم من أن اقتصـــاد الدولة البيزنطية كان فى ذلك الوقت قائما على أســـاس النقد السائل ، واثرى الرجال غالبا من بنـــاء السفن والصـــناعة ، الا أن شراء الأراضى أصبح الشـــكل الرئيسى لاستثمار الأموال فى الدولة البيزنطيـــة • وبدأت رغبة قوية عند أفراد الطبقـــة الأرستقراطية لامتلاك الأراضى ، وهددت هـــذه الطبقة طبقة المزارعين الأحرار ، مما أدى الى قيام بعض الأباطرة باصدار سلسلة من القرارات والمراســـيم الرادعـــة للحـــد من نفوذ هـــذه الطبقـــة الاقطاعيـــة الأرستقراطية • فقد أصـــدر الامبراطور رومانوس الأول ليكابينوس Romanus I Lecapenus عدة مراسيم متتالية أكد فيها أن اختفاء طبقـــة المزارعين الأحرار ســـوف يلحق الضرر بكل القواعد والأسس المـــالية والعسكرية والاجتماعية الدولة (٢٧) • ففى سنة ٩٢٢ م أصدر رومانوس الأول مرسوما منع فيه أصحاب الضياع الكبيرة من وضـــع أيديهم على أراضى المزارعين • وأصـــدر مانويل الأول ســـنة ٩٣٤ م مرسوما آخر حتم فيـــه على الاقطاعيين ارجـــاع مـــا استحوزوا عليه من أراضى بطرق غير قانونية • ولم تنجح هـــذه السياسة فقد اضطر الامبراطور نقفور الثانى فوقاس (٩٦٣ — ٩٦٩ م) الى الغاء كافـــة التشريعات الموجهة ضد أرباب الاقطاعات • غير أن زيادة نفوذ هـــذه الطبقة الاقطاعية أصبح يهدد كيان الدولة البيزنطية فى عهد باســـيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥ م) وتمثل سياســـة هـــذا الامبراطور تجـــاه السادة الاقطاعيين آخر محاولة رسمية للحد من اتجاهاتهم اللامركزية ، اذ أصدر باسيل الثانى عدة مراسيم سنة ٩٩٦ م ناشد فيها الاقطاعيين بارجاع الأراضى التى حصـــلوا عليها بعد سنة ٩٣٤ م ، وأن تظل فى أيديهم الأراضى التى آلت اليهم قبل ذلك التاريخ • وأجبر باســـيل

---

(٢٧) Vryonis, Byzantium, pp. 126 - 127.

الاقطاعيين ايضا على دفع الضرائب المفروضة على المزارعين • وحاول هذا الامبراطور التقليل من شان الطبقه الأرستقراطية غير أن هـذه السياسة لم تستمر بعد موته(٢٨) •

فبموت الامبراطور باسـيل الثانى سـنة ١٠٢٥ م اختفت آخر المحاولات لقمع نفوذ وسلطان أصحاب الضـياع الكبيرة من الطبقـة الأرستقراطية Magnates ، وخلال القرن الحادى عشر الميلادى استطاعوا ـ الى حد ما ـ القضاء على طبقة المزارعين الأحرار • وفى منتصف القرن الحـادى عشر بدأ الأباطرة البيزنطيون يمنحون حـق المنفعة لضياع ومقاطعات تابعة للدولة لأولئك الذين يقومون بخدمات هامة لها ، وكانت عادة خدمة حربية • وأصبحت هـذه المنح تسـمى البرونويا Pronoia وصارت قاعدة الخدمة العسكرية فيما بعد زمن الامبراطور الكسيوس كومنين • ويلاحظ أن التطور الذى حدث لنظام البرونويا وجعله نظاما يمكن مقارنته بالاقطاع الأوروبى الغربى ، خلق فى بيزنطة مجتمعا من كبار ملاك الأراضى العسكريين • ولم يختلف هذا المجتمع الاقطاعى عن المجتمع الاقطاعى اللاتينى فى الغرب الا فى خلوه من عامل الولاء وقلة الالتزامات المـالية المفروضة • وقد تحكم الأباطرة البيزنطيون فى نظام البرونويا لوقت طويل ، ولكن حدث أن أصبح هذا النظام لامركزيا • وسـوف نرى ـ فيما بعد ـ أنه عندما غزا اللاتين الدولة البيزنطية سـنة ١٢٠٤ م اعترفت الأرستقراطيـة اليونانيـة (البيزنطية) فى أقاليم كثيرة بالبارونات اللاتين والاقطاعات ذات النمط اللاتينى الغربى كبدائـل للأرخونيـات البيزنطيـة Archonates والبرونويات Pronoiai (٢٩) •

---

(٢٨) انظـر ، عبد القادر اليوسـف ، الامبراطوريـة البيزنطيـة ، ص ١٢٧ •

(٢٩) Vryonis, Byzantium, p. 127.

ومما يوضح لنا كثرة ممتلكات أصحاب الضياع الكبيرة من الطبقة الأرستقراطية البيزنطية تلك الوصية التى نشرها الأستاذ سبيرو فريونيس Speros Vryonis وتوضح مدى ما امتلكه أحد كبار أصحاب الضياع واسمه ايوستاثيوس بويلاس Eustathius Boilas مؤرخة فى سنة ١٠٥٩ م • وتعطى هذه الوصية صورة واضحة عن أفراد هذه الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع البيزنطى • وتحدث بويلاس فى هذه الوثيقة عن سيرة حياته منذ هاجر من اقليم قبادوقيا الى أرض بعيدة على مسافة « أسبوع ونصف » • وتدل المعلومات الواردة فى الوصية أن ممتلكات بويلاس كانت تقع فى شرق آسيا الصغرى • وذكرت الوصية أسماء احدى عشرة قرية وممتلكات أخرى كانت فى حوزته ، وأن بويلاس عندما وصل الى أيبريا وجد أرضا غير معدة للزراعة فبذل جهدا كبيرا ومالا وفيرا لاستصلاحها وزراعتها • وأضاف بويلاس أيضا أنه فقد ابنه الوحيد وكذلك زوجته ، وأنه أرغم على التنازل عن أربع قرى من ممتلكاته لأحد حكام الأقاليم وابنه • وأوصى بويلاس فى وصيته بأن تظل نصف ممتلكاته تقريبا فى أيدى أفراد من أسرته ، كما أوصى لبعض الغرباء عن أسرته بسبع من الاحدى عشرة قرية التى يمتلكها • وحدد فى الوصية الممتلكات التى سوف تؤول الى ابنته ايرين Irene وماريا Maria وزوج كل منهما • وأوضحت الوثيقة الممتلكات التى وهبها — بعد موته — لبعض الكنائس • وورد بها قائمة بعناوين كتب مكتبته الخاصة (حوالى ٩٠ كتابا) وهبها للكنيسة • كما أقر فى الوصية بأن يحرر عبيده بعد موته مع منحهم بعض ممتلكاته •

= لا يزال موضوع (الاقطاع) فى الدولة البيزنطية موضع جدل بين الباحثين ومن الموضوعات المعقدة ، انظر :

Hassanein Rabie, The Financial System ofEgypt, p. 32 note 1 ; Ostrogorsky, Pour l'histoire de la Fêodalité Byzantine, (Bruxelles 1954).

والحقيقة ان وصية بويلاس وثيقـــة نادرة من القرن الحـــادى عشر الميلادى ، لأنها أول وثيقه يعثر عليهـــا الباحثون تحتوى على بيـــان بما امتلكه أحد أفراد الطبقة الارستقراطية من كبار أصحاب الضياع فى اقليم من اقاليم الدولة البيزنطية(٣٠) •

ومن الناحيـــة الاجتماعية جلب التوسع المقدونى أيضـــا جماعات من أجناس كثيرة داخل أطراف الدولة البيزنطية لم تستطع الدولة ادماجهم ثقافيا • فغزو الامبراطور باسيل الثانى لبلغاريا أدى الى حدوث فتن من جانب البلغار خلال القرن الحادى عشر • وفى شرق آسيا الصغرى كانت هناك مشكلات خطيرة لتعدد الأجناس البشرية ، اذ أن أعدادا كبيرة من الأرمن والسوريان أصبحوا من رعايا الدولة البيزنطية ، وكانوا يقطنون فى المدن والأقاليم التى تركها المسلمون للبيزنطيين مثل ملطية وقيليقية • وفى القرن الحادى عشر دفعت اغارات الأتراك بأعداد كبيرة من الأرمن الى الأراضى البيزنطية ، واستقر الكثيرون منهم فى قبادوقيا بجانب اليونانيين • وأحدثت هذه الأجناس الجديدة مشاكل للدولة البيزنطية ، ليس فقط لأن الأرمن احتفظوا بتنظيماتهم السياسية والحربية مكونين دولة داخل دولة ، ولكن أيضا لأن كلا من الأرمن والسوريان كانوا من المونوفيزتيين من ناحية المذهب الدينى • وحاولت الدولة البيزنطية مزج هذه العناصر فى وحدة كنسية ، وهى سياسة قديمة فاشلة اتبعتها بيزنطة فى توحيد العناصر غير اليونانية فى الشرق فى القرنين السادس والسابع ، وفشلت هذه السياسة مرة أخرى فى القرن الحادى عشر الميلادى وأدت الى نتائج رهيبة • وحاول قسطنطين العاشر دوقاس (١٠٥٩ ـ ١٠٦٧ م) ـ دون جدوى ـ تحقيق هذه الوحدة الكنسية مع السريان والأرمن •

---

(٣٠) Speros Vryonis, The will of a provincial Magnate, Eustathius Boilas (1059) , in **Dumbarton Oaks Papers,** No. 11 (1957), pp. 263—277.

وظهرت مرة اخرى المشكلة المونوفيزتية لتى تهدد امن الدولة البيزنطية، كما كان الحال عليه فى القرن السابع الميلادى(٣١) •

وزادت المشكلات الاقتصادية من مشاكل الامبراطورية الى حد كبير • فقد أدت زيادة ممتلكات الأديرة والاقطاعات الخاصة الى نقص الموارد المالية للدولة فى القرن الحادى عشر • وبعد موت باسيل الثانى حدث سوء ادارة لمالية الدولة نتيجة تبذير الأباطرة وزوجاتهم ، وزيادة وحدات الجند المرتزقة وذلك على حساب خزانة الدولة • وحدث أخطر انهيار فى موارد الدولة نتيجة اغارات البشناق والسلاجقة فى الولايات • ولعل أبلغ دليل على ذلك الانهيار الاقتصادى الذى عانت منه الدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر ما حدث بالنسبة لنقاوة العملة الذهبية البيزنطية • فمنذ بدء ضرب العملة الذهبية البيزنطية Solidus زمن الامبراطور قسطنطين الأول حتى القرن الحادى عشر مرت العملات الذهبية البيزنطية بتغيرات طفيفة لا تذكر ، وظلت العملة الذهبية البيزنطية ثابتة من حيث الوزن والنقاوة لمدة سبعة قرون • وفى النصف الأول من القرن الحادى عشر عانت العملة الذهبية البيزنطية من غش مطرد للعملة ، وما ان أتت سنة ١٠٨٠ م حتى احتوت تلك العملة على نسبة بسيطة من الذهب • وفى دولة مركزية تعتمد على العملات النقدية فى تمويل جيوشها ونظمها الادارية ، أدى غش العملة الى انهيار مالى خطير(٣٢) •

وتعرضت الدولة البيزنطية لأخطار خارجية عندما ظهرت شعوب جديدة على أطراف الدولة توغلت فى وقت ضعفت فيه بيزنطة • ففى

(٣١) Vryonis, Byzantium, pp. 127 — 130;
Id. , "Byzantium: The social basis of decline in the eleventh century, in **Greek, Roman and Byzantine Studies**, Vol. 11 (1959), pp. 159 —175.

(٣٢) Vryonis, Byzantium, p. 130; Id. The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor, p. 78.

سنة ١٠٥٩ م اقــام المخاطرون النورمان بقيادة روبرت جويســكارد Robert Guiscard دوله جديدة مستقله فى الممتلكات البيزنطيه فى جنوب ايطاليــا ، وهددوا فى النصف التانى من القرن الحادى عشر الدوله البيزنطية من الداخل والخارج (٣٣) •

ويرجع تاريخ النورمان الى حوالى سنه ١٠١٩ م عندما مر اربعون حاجا نورمانيا بجنوب ايطاليا فى طريق عودتهم من الأراضى المقدســة بفلسطين الى وطنهم فى فرنسا • وشاهد هؤلاء النورمان ما حل بايطاليا فى القرن الحادى عشر من فوضى واضطراب ، مما أغرى كثيرين من النورمان الطموحين على الهجرة من نورمنديا الى جنوب ايطاليا ليعملوا جندا مرتزقة • وكان منهم روبرت جويسكارد الذى لم يلبث أن أصبح زعيما للنورمان فى ايطاليا سنة ١٠٥٧ م ، ووجــه كل جهوده لتقويض نفوذ الدوله البيزنطيه فى جنوب ايطاليا(٣٤) •

وفى شمال الدولة البيزنطية بدأت أخطار الشعوب الأسيوية تهدد ولايات البلقان • ففى سنة ١٠٤٨ م عبرت جموع من الشعوب التركية تسمى الباتزيناك ــ أو البشناق Pechenages كما تسميهم الحوليات الروسية ــ الدانوب وأغاروا على اقاليم بيزنطة حتى أصبح لهم أثر كبير فى مصيرها • وقد عرف البيزنطيون البشناق قبل ذلك ، فقد استقرت جموعهم بعض الوقت فى القرن التاسع الميلادى فى الدانوب الأدنى وفى سهول جنوب روسيا الحالية ، وبالتالى امتدت أراضيهم من الدانوب الأدنى حتى ضفاف نهر الدنيبر Dnieper وأحيانا الى ما وراء ذلك النهر • وكانت حدود بيزنطة قد استقرت من ناحيــة الغرب مع مملكة البلغار ، أما من ناحية الشرق فلم يكن لبيزنطة حدود فاصلة ، اذ أن البشناق كانوا دائما يضطرون الى الاتجاه غربا نتيجة ضغط قبائل رعوية أخرى من الغز Uzes والكومان Cuman • ومن المعروف أن البشناق

(٣٣) Vryonis, Byzantium, p. 131.

(٣٤) ســعيد عاشــور ، أوروبــا العصــور الوســطى ، ج ١ ، ص ٣١٥ ــ ٣١٦ •

والغز والكومان قبائل تركية الأصل ، وبالتالى كانت هناك صلات تربطهم بالقبائل التركية السلجوقية التى بدأت الاغـارة على أقاليم آسـيا الصـغرى فى القرن الحادى عشر • وفى كتاب ادارة الامبراطوريـة On the Administration of the Empire الذى كتبه الامبراطور قسطنطين بورفيرو جنيتوس Constantine Porphyrogentius فى القرن العاشر ، وهو الكتاب الذى كتبه لابنه وولى عهده رومانوس ، نصح قسطنطين ابنه بان يحرص على العلاقـات السلمية والودية مع البشناق ، لأنه طالمـا حافظوا على علاقاتهم الودية مع الامبراطورية ، لم يكن فى مقدور الروس أو المجريين أو البلغار الاغارة على الأقاليم البيزنطية • ويفهم كذلك من كتاب قسطنطين أن البشناق كانوا وسطاء فى العلاقات التجـارية بين الأقاليم البيزنطيـة فى كريما Crimea (ثغر خرسـون Cherson) ومع الروس والخزر وسكان البـلاد المجاورة • ومعنى هذا أن البشناق كان لهم أهمية كبيرة للدولة البيزنطية سياسيا واقتصاديا(٣٥) •

وفى النصف الثانى من القرن العاشر وأوائل القرن الحـادى عشر تغيرت الأحوال ، فقد غزا حنا تزيمسكس وباسيل الثانى البلغار حتى أصبحت المملكة البلغارية تحت سلطان بيزنطة • وكان البلغار قبل ذلك يفصلون بين البشناق والبيزنطيين ، أما بعد خضـوع البلغار لسيادة بيزنطة فقد أصبح البشناق جيرانا لها فى الوقت الذى أصبحت فيه تلك القبائل البربرية أكثر عددا وقوة وعداء للدولة البيزنطيـة • وظهرت خطورة البشناق فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى عندما عبروا نهر الدانوب • ويشبه نتائج ذلك الحادث عبـور القوط الغربيين لنهر الدانوب • وعبر البشناق الى الشاطىء الجنوبى للدانوب وكان عددهم حوالى ٨٠٠ ألف ، وتقدموا حتى وصلوا الى مدينة أدرنه بل وصلت

(٣٥) Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 324 — 325; Vryonis, Byzantium, p. 131.

جماعات منهم الى القسطنطينيــة ذاتهــا • وكان فى استطاعة قــوات قسطنطين مونوماخوس Monomachus مقاومة تقدم هذه الجماعات وتوجيه ضربات متلاحقة لها • ولكن فى نهايــة عصره كان من الصعب الوقوف أمام تقدم البشناق بل واجه جيش هــذا الامبراطور هزيمــة ساحقة أمامهم • واضطر مونوماخوس الى عقد معاهدة ســلام مع البشناق ولكنه دفع الثمن غاليا ، فقد منحهم مونوماخوس أراضى فى البلقان فعاشوا فى أمان فى أقاليم شــمال البلقان ، وحصل أمراؤهم على ألقاب بيزنطية رفيعــة • وفى الســنوات الأخيرة من عصر الأسرة المقدونيــة أصبح البشناق أكثر أعداء الدولة البيزنطيــة خطورة فى الشــمال ، وذلك لأنهم لم يستطيعوا التعود على حيــاة الاستقرار ، ووصلت اليهم دائما من وراء نهر الدانوب قبائل جديدة من البشناق وأقربائهم من الغز بقصــد الاغارة على الأراضى البيزنطية(٣٦) •

وزادت الأخطار ضد الدولة البيزنطية عندما غزا البلقان شــعب تركى آخر هو الغز Uzes • وقد ظهر الغز على ضفاف الدانوب فى زمن الامبراطور قسطنطين العــاشر دوقاس Ducas (١٠٥٩ — ١٠٦٧ م) ، وكانوا جماعــات بلغت عددها حــوالى ٦٠٠ ألف نفس بقطعانهم وحاجيــاتهم • وفشلت الدولة البيزنطيــة فى ايقافهم ، بل وخربت هذه القبائل الرعوية ولايات ســالونيك ومقدونية وتراقيــا وغيرها • ودخلت جماعات من الغز فى خدمة الدولة البيزنطية مثلما حدث مع البشناق • ولعب الغز والبشناق الذين خدموا فى الجيش البيزنطى دورا هاما فى معركة منازكرد (مانزيكرت) كما سوف نرى • وعندما استمع ميخائيل السابع دوقاس (١٠٧١ — ١٠٧٨ م) لنصيحة وزيره بتخفيض المنح النقدية التى ترسل عادة الى مدن الدانوب ، أثارت تلك

---

(٣٦) Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 325 — 326, 358; Vryonis, The Decline of Medieval Hellenism, p. 87.

السياسة ثائرة البشناق والغز وغيرهم من المرابطين عند نهر الدانوب والذين قاموا بمهمة جيوش الحدود ، وكونوا تحالفا مع القبائل الرعوية الرابضة على الجانب الآخر من ذلك النهر • وتحالف الجميع مع أحد القــادة البيزنطيين الذى ثار ضــد الامبراطور ، وتحركوا جنوبا مع القبائل الأخرى — التى ربما كان من بينها الصقالبة — ونهبوا ادرنه وحاصروا القسطنطينية • وفى تلك اللحظــة الحرجــة ، وتحت ضغط هجمات السلاجقــة الأتراك ، والبشــناق وحلفائهم آرســل ميخائيل السابع الى البابا جريجورى السابع طالبا المساعدة والعون • وأخيرا نجحت الدبلوماسية البيزنطية فى اثارة الخــلاف بين القوات المتحالفة المحاصرة للقسطنطينية ، وأنهوا الحصار وعادوا الى ضفاف الدانوب محملين بغنائم كثيرة • ولكن كان على بيزنطة فى السنوات التالية أن تقدر مدى خطورة قبائل البشناق(٣٧) •

واكثر هذه الشعوب الرعوية خطورة وأهمية للدولة البيزنطية فى تلك الفترة التاريخية كان السلاجقة الأتراك الذين أغاروا على آســيا الصغرى فى النصف الأول من القرن الحــادى عشر للسلب والنهب • والسلاجقة مجموعة من قبــائل الأتراك الذين عرفوا باســم الغز • ولا يســتطيع الباحث تحديد الفترة الزمنية التى بدأت فيها قبــائل السلاجقة الاتجاه غربا من أقصى التركستان الى اقليمى ما وراء النهر (أى نهر جيحون Oxus) وخراســان • ومن المحتمــل أن هــذه الهجرات بدأت خلال الفترة الواقعة فيما بين القرنين الثانى والرابع الهجريين تحت وطــأة سوء الأحوال الاقتصادية نتيجة حدوث قحط وغلبة قبائل أكثر قوة ، حتى اضطرت القبائل المغلوبة الى البحث عن مواطن جديدة • وأطلق على هــذه القبــائل من الترك الرحــل اســم السلاجقة نسبة الى زعيم جماعة من الأتراك هو سلجوق بن دقــاق

---

(٣٧) Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 358 — 359.

الذى تولى رئاستها وجمع شملها ونظم صفوفها • واعتنق السلاجقة الاسلام على المذهب السنى لمجاورتهم السامانيين والغزنويين وتعصبوا لهذا المذهب • ومنذ أواخر القرن الرابع الهجرى جنح السلاجقة الى الاستقرار فى بلاد ما وراء النهر خاصة بعد انهيار الدولة السامانية فى الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى/نهاية القرن العاشر الميلادى • وكانت الحياة القبلية راسخة فى أعماقهم مما أثر فى تمسكهم الشديد بالاسلام وتعصبهم للمذهب السنى (٣٨) •

وعبر السلاجقة الى اقليم خراسان سنة ١٠٣٤ م ، وكانت هذه خطوة كبيرة فى تاريخ المشرق الاسلامى • وقرن زعيم السلاجقة طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق القضاء على الدولة الغزنوية فى خراسان وما وراء النهر • واستطاع طغرلبك بمساعدة أخيه جغرى بسط نفوذ السلاجقة على مناطق كثيرة فى خراسان وما وراء النهر • وهزم السلاجقة جيش مسعود الغزنوى فى معركة داندقان Dandanaqan سنة ٤٣١ هـ/١٠٤٠ م • ولهذه السنة التى جرت فيها تلك المعركة أهمية خاصة فى تاريخ الدولة البيزنطية ففيها أصبح السلاجقة أصحاب دولة أقاموها بقوة السلاح • واعترفت الخلافة العباسية بقيام دولة السلاجقة سنة ٤٣٢ هـ/١٠٤٠ م • وواصل طغرلبك بسط نفوذه وسلطانه فاستولى على خوارزم وقزوين وكرمان وبلاد الديلم ، وتوج انتصاراته بالاستيلاء على أذربيجان ودخوله

---

(٣٨) عن ظهور السلاجقة وتأسيس دولتهم ، انظر :
ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٧٣ — ٤٨٤ ، العماد الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٧ ، عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ص ١٧ — ٢٢ ،
Setton: A Hist. of the Crusades, Vol. I, pp. 135 ff.

تبريز سنة ٤٤٦ هـ(٣٩) •

ولم تتعرض الدولة البيزنطية لغارات خطيرة من جانب السلاجقة الا منذ عهد الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٢ — ١٠٥٥ م) • ففي سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م آغار ابراهيم ينال أخو طغرلبك من أمه على أقاليم الدولة البيزنطية وخاصة أيبريا (الأبخاز) وطرابزون وأرزن الروم ، وحقق السلاجقة المسلمون انتصارات باهرة(٤٠) • وفي السنة التالية (٤٤١ هـ/١٠٤٩ م) دارت المفاوضات بين الامبراطور البيزنطي وزعيم السلاجقة طغرلبك الذي أطلق سراح ملك الأبخاز في مقابل تعمير البيزنطيين لجامع في القسطنطينية ، أقيمت فيه الصلاة والخطبة لطغرلبك(٤١) •

وفي سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م أرسل طغرلبك الى الامبراطور قسطنطين التاسع رسولا يستأذنه في السير الى مصر عن طريق بلاد الشام • واعتذر الامبراطور البيزنطي عن الاستجابة لطلب طغرلبك موضحا له مدى المودة التي بينه وبين الخليفة الفاطمي المستنصر بالله : « وانه لا يرخص في أذيته » (٤٢) • والحقيقة أن علاقة الدولة البيزنطية بالخلافة الفاطمية في ذلك الوقت كانت علاقة وثيقة وطيدة • ومن الادلة على ذلك أنه عندما حدثت الشدة المستنصرية بمصر ، أرسل الخليفة الفاطمي المستنصر بالله سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م طالبا من الامبراطور قسطنطين التاسع موناماخوس تزويد مصر بأربعمائة ألف أردب قمح لمواجهة القحط الذي أصاب بلادها • وعزم الامبراطور البيزنطي على

---

(٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٧٣ — ٤٨٤ ، ٥٠٤ — ٥١٠ ، ٥٩٨ — ٥٩٩ ، عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ، ص ٢٤ — ٢٩ ، ٣٣ — ٣٦ ، وعن اهمية معركة داندقان في التاريخ البيزنطي انظر ، Vryonis, The Decline of Medieval Hellenism, p. 83.

(٤٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ٥٤٦ ، العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ٧٣٨ — ٧٣٩ .

(٤١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٥٥٦ — ٥٥٧ .

(٤٢) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢١٤ .

ارسال شحنة القمح الى مصر لولا أنه مات قبل اتمامها . وعندما آل عرش الدولة البيزنطية الى تيودورا آخر أباطرة الأسرة المقدونية سنة ١٠٥٥ م اشترطت على الخليفة المستنصر بالله لمده بالقمح أن يساعدها ويمدها بعساكر مصر اذا ثار عليها أحد . وجرت بينها وبين الخليفة اتصالات يبدو أن الغرض منها عقد معاهدة بينهما يتعهد فيها الخليفة الفاطمى بتقديم العون والمساعدة ضد أى عدوان تتعرض له الدولة البيزنطية . ومن الواضح أن مشروع المعاهدة كان موجها ضد السلاجقة الذين ازداد خطرهم على بيزنطة . ورفض المستنصر بالله التورط فى النزاع البيزنطى — السلجوقى ، وأوقفت الامبراطورة تيودورا بالتالى ارسال شحنة القمح الى مصر ، ونشب الخلاف بين الدولتين . وجهز الخليفة المستنصر بالله حملة أسند قيادتها الى الحسن بن ملهم ، فسار الى الشام واستولى على اللاذقية وحاصر أنطاكية ، غير أنه تعرض للهزيمة أمام حملة بحرية أرسلها البيزنطيون سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م (٤٣)

ويبدو أن أخبار هذه الاتصالات البيزنطية — الفاطمية وصلت الى السلاجقة بدليل أنه فى سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٥ م قاد طغرلبك بنفسه حملة حربية الى الاراضى البيزنطية . ونهبت عساكره الاقاليم الواقعة بين بحيرة وان وأرزن الروم ، وحاصر منازكرد وهى للبيزنطيين « وضيق على أهلها ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها » دون أن يستطيع الاستيلاء عليها لحصانتها (٤٤) .

وكان الخليفة العباسى القائم بأمر الله قد أرسل رسولا من قبله الى طغرلبك يدعوه للحضور اليه فى بغداد . وكانت الخلافة العباسية وقتذاك فى حالة يرثى لها من الضعف والانهيار لتسلط البويهيين الشيعة فى الوقت الذى زادت فيه قوة قائد الجند الاتراك البساسيرى ، واختلت

---

(٤٣) المقريزى اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ ، المقريزى ، المواعظ والاعتبار (الخطط) ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .

(٤٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ص ٥٩٩ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ص ٧٣٩ .

الأمور فى بغداد كما يقول ابن العمرانى « وصار كل جندى فيها رأسا بنفسه ، وانقطعت موارد المال » . ولبى طغرلبك دعوة الخليفة ، وقال لمبعوث الخليفة وهو الوزير رئيس الرؤساء ، أبى القاسم على بن الحسين ، وهو يستعد لدخول بغداد فى ٢٥ رمضان سنة ٤٤٧هـ / ١٨ ديسمبر سنة ١٠٥٥ م « انما قصدت هذا الجانب لثلاثة أمور ، أحدها لأقبل العتبة الشريفة النبوية وانتمى الى خدمتها ، والثانى لأحج الى بيت الله تعالى وأفتح طريق الحج من صوب العراق ، والثالث لأقصد مصر وانتزعها من يد الخارج (الخليفة الفاطمى الشيعى) الذى بها ، وأقيم الدعوة على منابرها لبنى العباس » (٤٥) .

واستقبل طغرلبك فى بغداد استقبالا رائعا ، وأمر الخليفة العباسى القائم بأمر الله باسقاط اسم الملك الرحيم فانتهت دولة بنى بويه ، وهرب البساسيرى وتم احياء الخلافة العباسية ، وقام الخليفة العباسى باطلاق يد طغرلبك « فى الحل والعقد ، والحبس والاطلاق ، وعول عليه وفرض اليه النظر فى العراق » (٤٦) .

وأدركت الدولة البيزنطية قوة وخطر السلاجقة وبخاصة بعد دخولهم بغداد . وفى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م استقبلت الامبراطورة تيودورا مبعوث السلطان السلجوقى طغرلبك . وسمحت باقامة الخطبة للخليفة العباسى والسلطان السلجوقى فى جامع القسطنطينية (٤٧). ولم تستطع الخلافة الفاطمية القيام بأى عمل عسكرى بعد أن ساءت علاقاتها مع الدولة البيزنطية بسبب انشغالها بالزحف السلجوقى على العراق والشام ، وفشل حركة البساسيرى ، فضلا عن ظروفها الاقتصادية القاسية ، وما صاحب ذلك من انحسار نفوذها عن أجزاء كبيرة من بلاد الشام .

---

(٤٥) ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٨ — ١٨٩ .
(٤٦) عماد الدين الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٣
(٤٧) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ، المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٣٥ .

وتوفى طغرلبك سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، وبدأ نزاع قصير المدى بين السلاجقة انتهى بدخول الب ارسلان ابن أخ طغرلبك مدينة الرى سنة ٤٥٦هـ / أواخر سنة ١٠٦٣ م • وبعد آن استتب الأمر للسلاجقة فى الأقاليم الشرقيــة والجنوبية اتجهوا بأبصــارهم الى المغرب الى بلاد الشام حيث النفوذ الفاطمى والى بلاد الدولة البيزنطية • ففى ســنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م قام الب أرســلان بحملة كبيرة فى بلاد القــوقاز (أذربيجان) ووطد عزمه على قتال البيزنطيين وغزوهم • ثم سار الى بلاد الكرج فهاجم عدة حصون بيزنطية ، وتوج انتصاراته بفتح مدينة آنى حاضرة اقليم أرمينية ، وهى مدينة محصنة ذات موقع استراتيجى هام • وباستيلاء السلاجقة على هذه المدينة سيطروا على هضبة أرمينية التى كانت تعتبر بمثابة الدرع الواقى للدولة البيزنطيــة من الشرق لموقعها وصعوبة مسالكها (٤٨) •

وفى سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م سار الب أرسلان قاصدا بلاد الشام وكان وصوله الى بلاد الشام ذا مغزى كبير ، اذ لم يسبق لأية دولة من دول الأتراك التى قامت فى المشرق الاسلامى أو وصل نفوذها الى حدود الشام • وقد عبر عن هذا أصدق تعبير الفقيه أبو جعفر بن محمد البخارى قاضى حلب ، عندما خاطب السلطان الب أرسلان عند عبوره نهر الفرات قاصدا حلب سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م قائلا : « يامولانا ــ احمد الله تعالى على هذه النعمة ، وهى أن هذا النهر لم يقطعه قط تركى الا مملوك ، وأنت قطعته ملكا » • فأعجب السلطان هذا القول (٤٩) •

وخضعت حلب لسلطان الســلاجقة عندما وصلها الب أرســلان سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧١م • وكتب الب أرسلان توقيعا بولاية حلب لحاكمها

---

(٤٨) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ص ٢٦ ــ ٢٨ ، ٣٦ ــ ٤١ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٧٤٠ ــ ٧٤١ ، انظر أيضا :
Vasiliev, Byz. empire, I, p. 355.

(٤٩) ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ج ٢ ، ص ٢٠ ، ولمزيد من التفاصيل عن الغزو السلجوقى لبلاد الشام ، انظر شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ، ص ٣٥٣ ــ ٣٦١ •

محمود بن نصر المرداسى الذى قرر معه السلطان أن يخرج بعسكره الى بلاد دمشق والأعمال المصرية لفتحها (٥٠) • والحقيقة أن الب أرسلان فكر جديا فى فتح مصر والقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية بعد أن طحنتها الشدة المستنصرية ، واشتعلت الفتنة بين الاتراك والسودان • واستعرت الحروب بين القوى المتنافسة من أجل التسلط على الخليفة المستنصر بالله • غير أن تطور مجريات الحوادث بين السلطان الب أرسلان والبيزنطيين عاق تحقيق مشروع فتح مصر ، فعندما أراد الب أرسلان المسير من حلب الى دمشق ليمر منها الى مصر بلغته الأخبار بأن امبراطور الدولة البيزنطية « قد قطع بلاد أرمينية يريد أخذ خراسان ، فشغله ذلك عن الشام ومصر ورجع الى بلاده » (٥١) •

وقد سبقت الاشارة الى أن السلطان طغرلبك والسلطان الب أرسلان أغارا على أرمينية وبلاد الكرج ، وأن السلطان الب أرسلان استولى على مدينة آنى حاضرة أرمينية (٥٢) • وعندما اشتدت غارات السلاجقة على أقاليم الدولة البيزنطية حاول الامبراطور البيزنطى رومانوس الرابع ديوجينس Romanus Diogenes (١٠٦٨–١٠٧١م) وقف الزحف السلجوقى وسد المنافذ أمامه • وكان السلاجقة ينفذون الى داخل الدولة البيزنطية ويخرجون منها من ثلاث مناطق هى : ثغور شمالى بلاد الشام ، وثغور أعالى الجزيرة ، وبلاد أرمينية ، لهذا وضع رومانوس الرابع خطة تستهدف اغلاق هذه المنافذ على ثلاث مراحل • وقام بنفسه بقيادة ثلاث حملات على بلاد الشام وأعالى الجزيرة وحدود أرمينية ، وذلك فى السنوات ٤٦١ – ٤٦٣هـ / ١٠٦٨ – ١٠٧١م • وقام الامبراطور رومانوس الرابع بحملته الاولى سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨م ضد أراضى امارة حلب فى الشام والجزيرة • وانتصر رومانوس فى حملته الاولى على محمود بن نصر المرداسى أمير حلب ومن معه من

---

(٥٠) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٢ — ٢٣ •
(٥١) انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ •
(٥٢) انظر ما سبق ص ١٨٣ ، ١٨٥ •

التركمان والعرب . وبعد أن استولى الامبراطور البيزنطى رومانوس على بعض الحصون ، تراجع عائدا الى بلاده عندما وردت اليه أخبار اغارات أحد قادة التركمان ويدعى افشين الذى أوغل فى عمق الاراضى البيزنطية (٥٣) . وفى العام التالى ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م عاد الامبراطور رومانوس الرابع على رأس حملة ثانية الى بلاد الشام وصل فيها الى بلدة منبج من أعمال حلب ، فأسر كثيرا من أهلها ، ثم ســار الى بلدة اعزاز شمالى حلب . وبعد ان خرب القرى الواقعة بين أراضى بيزنطة ومنبج انسحب لقلة المؤن وانتشار القحط والوباء (٥٤) .

وأماالحملة الثالثة فقدانتهت بهزيمة ساحقة للامبراطور البيزنطى . فأثناء عودة السلطان الب أرسلان من حلب الى خراسان ، وعند اجتيازه نهر الفرات علم بخروج الامبراطور رومانوس فى جموع كثيرة « من الروموالروس والخزرواللان والغزو القفجق والكرجوالفرنج والأرمن» . ووجد السلطان السلجوقى أن المصلحة فى لقائه ومواجهته . وحقق صندق التركى نصرا على مقدمة الجيش البيزنطى عندمدينة خلاط(٥٥) . وارسل الب أرسلان الى رومانوس الرابع ديوجينس يرغبه فى الهدنة واستكبر الامبراطور البيزنطى — كما يذكر ابن العديم — قائلا بأنه سوف يجيب على هذا الرأى بالرى ، أى فى قلب دولة الســلاجقة فى خراسان ، وغضب السلطان المسلم (٥٦) . ولم يعد هناك مفر من القتال فى الوقت الذى صمم فيه الامبراطور البيزنطى على وضع نهاية لمشكلة الاتراك واغاراتهم على أراضى الدولة البيزنطية (٥٧) .

---

(٥٣) انظر سهيل زكار ، مدخل لتاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٣٨

(٥٤) الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٣٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٣ — ١٤ (حوادث سنة ٤٦١ هـ) ، سهيل زكار ، مدخل لتاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٣٨ .

(٥٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ص ٢٣ — ٢٥ ، انظر أيضا الاصفهانى ، تاريخ آل سلجوق ، ص ٤٠

(٥٦) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٥٧) Vryonis, Byzantium, p. 133.

وكان اللقاء الحاسم بين خلاط ومنازكرد أو مانزيكرت (٥٨) فى موضع يعرف بالزهرة شمال بحيرة وان فى آرمينية ، وذلك يوم الجمعة ٧ من ذى القعدة ٤٦٣هـ / ٦ أغسطس ١٠٧١ م • وقبل المعركة استثار السلطان المسلم الب آرسلان حماس جنوده عندما خاطبهم قائلا : « أنا احتسب نفسى عند الله وهى اما السعادة بالشهادة واما النصر (ولينصرن الله من ينصره) (٥٩) » • وتقدم اليه امامه وفقيهه أبوجعفر محمد البخارى قائلا : « انك تقاتل عن دين وعد الله بنصره واظهاره على سائر الاديان ، وارجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فألقهم يوم الجمعة بعد الزوال ، فى الساعة التى يكون الخطباء على المنابر ، فانهم يدعون للمجاهدين بالنصر ، والدعاء مقرون بالاجابة » (٦٠) •

وكانت قوات الب آرسلان من الفرسان الرماة ، والقوات البيزنطية من الفرسان الثقال مع المشاة ، ووصف ابن العديم أن الامبراطور البيزنطى حمل بجيشه ، فاندفع المسلمون بين أيديهم « واستجروا الروم الى أن صار الكمين من ورائهم ، ثم خرج الكمين من خلفهم ، ورد المسلمون فى وجوههم ، فأنزل الله نصره ، وكسرت الروم وأسر الملك ، واستولى المسلمون على عساكرهم وغنموا ما لا يعد كثرة ولا يحصى عددا وعدة » (٦١) •

وهكذا انتصر المسلمون انتصارا رائعا حاسما ، وحل الدمار

(٥٨) منازكرد وتكتب ايضا ملازكرد وملازكرت ومانزيكرت ومنازجرد بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم فى أرمينية شمال بحيرة وان ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٥٩) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ص ٢٥ ، الاصفهانى ، تاريخ آل سلجوق ، ص ٤٠ — ٤١ ، والآية الكريمة (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز) سورة الحج آية ٤٠ .

(٦٠) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٦٥ — ٦٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٧ ، الاصفهانى ، تاريخ آل سلجوق ص ٤٢

(٦١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

بالجيش البيزنطى بقيادة الامبراطور رومانوس الرابع الذى وقع أسيرا فى أيدى السلطان السلجوقى (٦٢) ٠

ولاشك أن الجيش البيزنطى الذى واجه الجيش السلجوقى كان مفتقرا الى التجانس وحسن التنظيم ، فقد كان مؤلفا من جنود مرتزقة من الصقالبة (السلاف) والبلغار والغز والبشناق وغيرهم ٠ وكان يعوزهم التدريب الجيد والتنظيم القوى ، ولم يستطيعوا مقاومة الحركة السريعة للفرسان الاتراك وهجماتهم السريعة المفاجئة ٠ ولما وقعت المعركة استجاب الفرسان من الغز والبشناق لنداء رابطة الدم التى تربطهم بالسلاجقة والولاء القبلى لهم وانضموا اليهم (٦٣) ٠ وخرجت جموع الجند الأرمن من أرض المعركة مدفوعين بدافع الحقد للبيزنطيين نتيجة الخلاف المذهبى ٠ وكان من أهم عوامل الهزيمة هروب القائد اندرونيقوس دوقاس Andronicus Ducas من أرض المعركة ٠ وكان هذا القائد ابن أخ الامبراطور قسطنطين العاشر دوقاس ، وكان رئيسا بارزا بين الطبقة البيروقراطية من أرباب الأقلام ٠ وأراد اندرونيقوس أن يضمن مستقبل اسرته بعد أن أبعد الامبراطور رومانوس الرابع أباه عن وظائفه ، لهذا نشر الاشاعة الكاذبة بأن

---

(٦٢) عن تفاصيل معركة منازكرد ، انظر : ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٣ — ٣٠ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٦٦ — ٦٧ ، العماد الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٤٠ — ٤٤ ، سهيل زكار ، مدخل لتاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٤٦ — ١٤٩ ، اسدرستم ، الروم ، ج ٢ ، ص ١١٠ — ١١١ ، شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ، ص ٣٥٨ — ٣٥٩

Psellus, The Chronographia, in Ashour and Rabie, Fifty documents, pp. 58 — 60; Ostrogorsky, Byz. State, pp 344 - 46 ; Vryonis, The Dec line of Medieval Hellenism in Asia Minor, pp. 96 — 103 ;

وعن اخبار هذه المعركة كما وردت فى المصادر العربية انظر :

C. Cahen, "La Campagne de Mantzikert d'aprés les sources musulmanes" in **Byzantion,** Vol. IX (1934) , pp. 613 —42.

(٦٣) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 356.

الامبراطور قد هزم ، وانسحب من المعركة بقواته وكان قائدا لمؤخرة الجيش ، مما أدى الى حدوث فوضى واضطراب فى الجيش البيزنطى كله (٦٤) • يضاف الى ذلك أيضا بطء حركة الجيش البيزنطى وخفة حركة جيش السلاجقة خاصة ــ كما ذكر ابن العديم ــ ان السلطان الب آرسلان وضع خطة محكمة عندما قسم بعض فرق جيشه الى مجموعات من الكمائن اختفت خلف التلال المحيطة بساحة المعركة ، وانقضت على الجيش البيزنطى فى الوقت المناسب ولعبت دورا هاما فا تمزيقه (٦٥) •

وعقد الامبراطور الاسير رومانوس الرابع ديوجينس معاهدة مع السلطان السلجوقى الب أرسلان تقضى باطلاق سراحه بشرط أن يدفع فدية كبيرة وجزية سنوية ، وأن يعيد انطاكية والرها ومنبج الى المسلمين • وتعهد ايضا بان يطلق سراح أسرى الاتراك ، وأن يقدم مساعدة عسكرية للسلاجقة عند طلبها • وأعطاه السلطان السلجوقى عشرة آلاف دينار ليتجهز بها فى عودته الى بلاده ، وأرسل معه فرقة لحراسته(٦٦) •

وتعتبر هزيمة البيزنطيين على مقربة من منازكرد نقطة تحول خطيرة فى التاريخ الاسلامى والتاريخ البيزنطى • فلأول مرة يقع الامبراطور البيزنطى نفسه أسيرا فى أيدى المسلمين الفاتحين • ولاتقل أهمية هذه المعركة ونتائجها عن معركة اليرموك ، فاذا كانت معركة اليرموك قررت مصير بلاد الشام ، فان معركة منازكرد قررت أيضا مصير آسيا الصغرى • اذ نجح الاتراك السلاجقة فى فتحها والتوغل

---

(٦٤) Vryonis, Byzantium, pp. 133 4.

(٦٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٨ •

(٦٦) انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٩ — ٣٠ ، سهيل زكار ، مدخل لتاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٤٩ — ١٥١

Vasiliev, Byz. empire, I, p. 356.

فيها ، ومن ثم مهدوا لسقوط الدولة البيزنطية • ولم تستطع بيزنطة الوقوف فى وجه توسع السلاجقة فى آسـيا الصغرى ، وكانت هذه الاقاليم الشرقية ـ وبخاصة أرمينية وقبادوقيا ـ على جانب كبير من الاهمية للدولة البيزنطية ، لانها آمدت الامبراطورية دائما بكثير من الاسرات الحاكمة وعدد لا حصر له من أمهر الرجال فى شئون الحرب والسياسة • وكانت خسارة الدولة البيزنطيـة لولايات شرق آسـيا الصغرى وأرمينية وقبادوقيا ، وهى التى استقر فيها الاتراك السلاجقة، دليلا وبرهانا على قرب موت الدولة البيزنطية أو بداية النهاية لحياتها • وكما يقول الاستاذ فريونس Vryonis عندما فقدت الدولة البيزنطية ولاياتها الغنية فى آسيا الصغرى ، أصبحت القسطنطينية رأسا حرم من الجسد الذى يسنده (٦٧) •

وعندما توغل السلاجقة فى آسيا الصغرى بعد منازكرد ، انتقلت هذه البلاد من الحضارة اليونانية والديانة والآداب المسيحية الى العقيدة والحضارة الاسلامية وما تحمله من نظم وآداب • ففى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى كان عامة سكان آسيا الصغرى يدينون بالمسيحية ويتكلمون اليونانية ، ويتصفون بالاسـتقرار • وبعد معركة منازكرد توغلت القبائل السلجوقية فى آسيا الصغرى ، وكان أفراد هذه القبائل يدينون بالاسلام ويتكلمون التركية ويمارسـون حرفة الرعى • وكان لابد من حدوث اندماج بين السـكان الأصليين والمهاجرين • وخلال السنوات العشر التالية لموقعة منازكرد غمرت القبائل السلجوقية معظم آسيا الصغرى ، ولم يجد السلاجقة سوى مقاومة ضعيفة فعاشـوا واندمجوا مع السكان الأصليين • وكان لابد من حدوث تزاوج ، وعلى الأقل كما تقول الاسطورة ان البطل التركى سيدى غازى Seidi Ghazi تزوج أميرة مسيحية يونانية • ولعل منشأ تلك الاسطورة هو اعطاء

---

(٦٧) Vryonis, Byzantium, p. 134.

الصفة الشرعية لما حدث فى آسيا الصغرى • وأشـــار المؤرخ نيقتاس خونيـــاتس Nicetas Choniats الى أن ســـكان آســـيا الصـــغرى المسيحيين آثروا حكم الاتراك السلاجقة على حكم الامبراطور البيزنطى • ويدل هذا على وجود أتباع نحل كثيرة مثل البوليصيين Poulicians وغيرهم تعرضوا لاضطهاد من الدولة البيزنطيـــة ، كما ان اختـــلاف السلالات البشرية والاختلافات اللغوية فى آسيا الصغرى كان لها تأثير فى اضعاف المقاومة أمام الاتراك السلاجقة • وعلى الرغم من أن اللغة اليونانية كانت لغة أغلبية سكان المدن فى بداية فترة انتشار المسيحية ، الا أنها كانت بطيئة الانتشار فى الاقاليم الزراعية حيث تمسك المزارعون — الى حد ما — بلهجاتهم الآسيوية حتى الغزو السلجوقى(٦٨) •

يضاف الى ذلك أن الدولة البيزنطية اتبعت — بعد أربعة قرون من غارات العرب المسلمين عبر جبال طرسوس — استراتيجية قادرة على الدفاع عن حدودها • واستطاعت بيزنطة أن توقف الغارات فى داخل حدودها ، وكانت هذه الغـــارات تأخذ طابعـــا ســـنويا (الصـــوائف والشواتى) فى معظم الأحـــوال • أما الغزو التركى السلجوقى فاتخذ شكلا جديدا ، فالاغارات الاسلامية الأولى كانت تخرج من قواعد متقدمة فى قيليقية وشمال الشام ، قامت بها فرق من الفرسان الخفيفة كانت على استعداد للانســـحاب بعد كل غارة من الغـــارات • أما الاتراك السلاجقة فقد أتوا الى آسيا الصغرى لكى يستقروا ، وأحضروا مع جيوشـــهم كل قبائلهم وأسرهم ومواشـــيهم بحثـــا عن مراع وبيوت جديدة (٦٩) •

---

(٦٨) Brice, W. C. , "The Turkish colonization of Anatolia" **Bulletin of the John Rylands library,** Vol. 38, (1955 — 1956), pp. 18—19

وعن الغزو السلجوقى لآسيا الصغرى فيما بين سنتى ١٠٧١ — ١٠٨١ ، انظر :

Vryonis, The decline of medieval Hellenism in Asia Minor, pp. 103 — 113.

(٦٩) Brice, The Turkish colonization, p. 20.

ويشير الأستاذ كلود كاهن فى دراسة له عن المراحل الهامة للغزو السلجوقى فى آسيا الصغرى ، أن حادث منازكرد كان مرحلة هامة ضمن مراحل طويلة للتوغل التركى فى آسيا الصغرى . فقبل سنة ١٠٧١ كانت القبائل التركية تتحرك من فارس غربا ، وكان الاتراك يستخدمون كجند مرتزقة أحيانا . أما بعد سنة ١٠٧١ وفيما بين سنتى ١٠٧١ و ١٠٨٧ فقد انتهت مقاومة بيزنطة ، وأقيمت دويلات تركمانية مستقلة تحت زعامة زعماء من الاتراك فى جهات كثيرة من آسيا الصغرى والشام . وضعفت هذه الدويلات التركمانية نتيجة ماحدث بينها من نزاع وتنافس وأخيرا تم توحيد الأتراك فى آسيا الصغرى تحت ظل دولة سلجوقية عاصمتها قونية . يضا فالى ذلك أن التوغل التركى لم يأخذ شكلا هجوميا بواسطة جيش قوى قادر ، ولكنه كان توغلا ساكنا بواسطة قبائل فى البداية لحقتها قوة عسكرية ضاربة . ومنذ أوائل القرن الثالث عشر كان الفارق واضحا أمام المؤرخين البيزنطيين بين الاتراك المستقرين والأتراك الرحل الذين أطلقت عليهم حنه كومنين Anna Comnena اسم تركمان Turcomans تمييزا لهم عن الاتراك المستقرين (٧٠) .

أما فى القسطنطينية فعندما وردت الى سكانها أخبار هزيمة منازكرد وأسر الامبراطور رومانوس ديوجينس ، تم تعيين ميخائيل دوقاس ابن الامبراطورة ايدوكيا Eudocia من زوجها الاول قسطنطين دوقاس امبراطورا . وميخائيل السابع دوقاس (١٠٧١ — ١٠٧٨) كان تلميذا لبسيللوس ، وبالتالى كان مغرما بالآداب والجدل العلمى وكتابة النثر دون الاهتمام بالنشاط العسكرى فى وقت كانت الامبراطورية فيه

(٧٠) C. Cahen, "Les grandes lignes de l'histoire de la pénétration turque en Anatolie et en syrie pendant la second moitie du XIe siecle", in **Actes du XXe Congrès International des Orientalistes** (Brussels, 1938), p. 336.

فى أشـــد الحاجـــة الى قـــائد عســـكرى للوقوف فى وجـــه السلاجقة والبشناق(٧١) • ولما عاد رومانوس من الأسر واجـــه فى القسطنطينية مقاومة عنيفة ، وجرى سمل عينيه ، ولم يلبث أن مات متأثرا بجراحـــه سنة ١٠٧٢م •

وكان لدى الامبراطور ميخائيل الســـابع ومستشاريه الأمل فى العودة لقتال الأتراك السلاجقة ولاعادة مكانة بيزنطة فى آسيا الصغرى • غير أن تلك المهمة كانت صعبة ، وكان لديهم ايمان قوى فى امكانية تحقيق ذلك بمساعدة الاوربيين اللاتين فى الغرب • والتفتوا طالبين المساعدة من روبرت جويسكارد Robert Guiscard زعيم النورمان • وفى السنة التى حدثت فيها كارثة منازكرد (١٠٧١) كان روبرت جويسكارد قد انتهى من الاســـتيلاء على الممتلكات البيزنطية فى جنوب ايطـــاليا باستيلائه على مدينة بارى Bari ، وهو العمل الذى جعله سيد جنوب ايطاليا • وكان سقوط بارى دليلا على نهاية السيادة البيزنطية فى جنوب ايطاليا • ومن هذا المركز فى ابوليا Apolia استطاع روبرت جويسكارد تحقيق انتصارات سريعة بغـــزوه مـــا تبقى من أقاليم صـــغيرة للدولة البيزنطية فى داخل ايطـــاليا ، وسهلت انتصـــاراته فى جنوب ايطـــاليا استرداد صقلية من المسلمين • وأصبح جويسكارد دوقا لأبوليـــا ، واعتبر نفسه خليفة شرعيا للأباطرة البيزنطيين ؛ غير انه أبقى التنظيم الادارى البيزنطى فى الاقاليم المفتوحة ، وظلت اللغة اليونانية تستخدم عند أداء الصلوات فى كالبريا ، وكذلك استخدمت هذه اللغة على أنها اللغة الرسمية فى بعض الاقاليم التى خضعت للنورمان • وذهبت آمال روبرت جويسكارد الى أبعد من أراضى جنوب ايطاليا ، فقد انتهز فرصة ضعف الدولة البيزنطية من الداخل ومشاكلها الخطيرة فى الخـــارج ؛ وتطلع روبرت ليحقق حلمه فى الاســـتيلاء على التـــاج الامبراطورى البيزنطى • وهكذا فسقوط بارى سنة ١٠٧١ ومعركة منازكرد ونتائجها الخطيرة التى حدثت فى أغسطس من العام نفسه ، جعل من سنة ١٠٧١

(٧١) Vasiliev, Byz. empire, I, p. 353.

أهم السنوات فى التاريخ البيزنطى كله ، فقد فقدت بيزنطـة فى تلك السنة جنوب ايطاليا فى الغرب ، وفقدت السيادة على آسيا الصغرى فى الشرق ، وانحسرت أراضيها ، وانهارت الامبراطورية • وبدأت محاولات لاجهاض أهداف روبرت جويسكارد بمشاريع الزواج بين البيتين الحاكمين البيزنطى والنورمانى (٧٢) •

وتجـدر الاشارة الى أن محاولة الدولة البيزنطية التقرب الى روبرت جويسكارد بدأت منذ عهد رومانوس ديوجينس • والمصادر المتداولة لا تستطيع أن تحدد التاريخ الذى اقترح فيه رومانوس زواج أحد أبنائه باحدى بنات روبرت جويسكارد • ويبدو أن هذا التقارب حدث فى ضوء الخطر الذى هدد سيادة الدولة البيزنطيـة فى آسـيا الصغرى من جانب الاتراك السلاجقة ، ويدل من ناحية ثانية على أن الدولة البيزنطية كانت على استعداد لتقديم نوعا من الاعتراف بسيادة روبرت جويسكارد فى ايطاليا ، غير أن هذا الاقتراح رفضـه القائد النورمانى • وما أن تولى ميخائيل السابع عرش بيزنطة حتى استأنف سياسة سلفه فى التقرب من روبرت جويسكارد ، فامتنع عن الادعـاء بحق بيزنطة فى ممتلكاتها فى جنوب ايطاليا حرصا منه على كسب صداقة القائد النورمانى ليحقق هدفين ، الأول أن يأمن من أى هجوم من جانب جويسكارد ضد الدولة البيزنطية ، والثـانى أن يحث النورمان على مساعدته فى دفع الأتراك السلاجقة من آسيا الصغرى ، لهذا استأنف ميخائيل السابع مع جويسكارد مشروع الزواج وما يتبعه من تحالف • ورفض جويسكارد هذا الاقتراح مرة ثانية ، غير أن البـلاط البيزنطى حاول مرة أخرى فى سنة ١٠٧٤ احياء هذه الفكرة وأن يتزوج أحد أولاد ميخائيل السابع بابنة جويسكارد • ووافق جويسكارد هذه المرة ، وتم ذلك الزواج والتحالف مع البيزنطيين • وكان غرض الدولة البيزنطية

(٧٢) Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 359 — 361.

وآملها من هذا الزواج هو الحصول على مساعدة النورمان حتى يتمكن البيزنطيون من طرد السلاجقة من آسيا الصغرى • غير أن الدولة البيزنطية لم تجن شيئا من تحالفها مع روبرت جويسكارد (٧٣) •

وحاول الامبراطور ميخائيل السابع دوقاس بعد ذلك الاستنجاد بالبابوية ، فاتصل بالبابا جريجورى السابع ، ووعده فى مقابل مساعدته بالعمل على ازالة القطيعة بين كنيستى روما والقسطنطينية • وأجاب البابا جريجورى السابع اجابة طيبة ، وأرسل عددا من الرسائل الى ملوك وحكام أوروبا يشرح لهم فيها حقيقة موقف المسيحية فى الشرق ، وما تعانيه الدولة البيزنطية نتيجة توسع « الوثنيين » ويقصد الأتراك السلاجقة الذين وصلوا الى أسوار القسطنطينية(٧٤) • ويفهم من الرسائل التى أرسلها البابا جريجورى السابع الى دوق برجنديا وهنرى الرابع امبراطور المانيا وغيرهما ، أن البابا لم يقصد الدعوة الى حملة صليبية للاستيلاء على الاراضى المقدسة فى فلسطين من المسلمين ، بل كانت خطة البابا هى اعداد حملة حربية الى القسطنطينية لانقاذ الدولة البيزنطية ، وهى الدولة التى تقوم بدور المدافع الرئيسى ضد المسلمين فى الشرق • ورأى جريجورى السابع أن تقديم مثل هذه المساعدة سوف يتبعه وحدة الكنائس وعودة الكنيسة الشرقية (الضالة) الى حضن الكنيسة الكاثوليكية(٧٥)• ولم تأت استغاثة البابا جريجورى السابع بنتائج ايجابية ، اذ لم تصل أية مساعدات حربية أو غيرها من الغرب اللاتينى • وسرعان ما انشغلت البابوية بالنزاع بينها وبين الامبراطورية ، أى بين البابا جريجورى السابع والامبراطور هنرى الرابع حول مشكلة التقليد العلمانى ، أى قيام الحكام العلمانيين من

---

(٧٣) Charanis, "Byzantium, the west and the origin of the First Crusade", **Byzantion,** Vol. XIX (1949), pp. 17 — 20.

(٧٤) Ibid., pp. 20 ff; Vasiliev, Byz. empire, I, p. 358.

(٧٥) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 395 — 6.

اباطرة وملوك وأمراء بتقليد رجال الدين مهام مناصبهم الدينية (٧٦) •

وأخيرا لم يجد الامبراطور ميخائيل السابع أمامه سوى عقد اتفاقية مع القائد السلجوقى سليمان بن قطلمش الذى آلت اليه القيادة العسكرية للسلاجقة فى آسيا الصغرى ، وكان والده ابن عم طغرلبك • وأقر الامبراطور البيزنطى فى هذه الاتفاقية بحق السلاجقة فى حكم الاقاليم التى استولوا عليها من بيزنطة فى آسيا الصغرى • واستولى سليمان على الجزء الأوسط من آسيا الصغرى ، وأسس سلطنة الروم ، وأصبحت عاصمتها أغنى وأجمل مدينة بيزنطية فى آسيا الصغرى وهى مدينة Iconium (قونية الحالية) • ومن هذا الموقع المهام فى آسيا الصغرى اتسعت سلطنة سلاجقة الروم أو سلطنة قونية حتى وصلت الى شواطىء البحر الاسود فى الشمال وساحل البحر المتوسط فى الجنوب ، وأصبحت هذه السلطنة منافسة خطيرة للدولة البيزنطية • واستمر السلاجقة فى التحرك والتوسع ناحية الغرب ، ولم يكن فى مقدرة القوات البيزنطية مقاومة التوسع السلجوقى فى آسيا الصغرى(٧٧) •

وهكذا فشل الامبراطور ميخائيل السابع فى حل مشكلات الدولة البيزنطية فى الوقت الذى اندلعت فيه الفتن والثورات الداخلية • وأخيرا عزل ميخائيل السابع سنة ١٠٧٨ وأرغم على دخول الدير ، وتولى عرش الامبراطورية نقفور الثالث بوتانياتس Nicephorus Botaniates قائد أحد ثغور آسيا الصغرى حيث أعلن نفسه امبراطورا هناك ، ودخل العاصمة لينتوجه البطريرك • وحكم نقفور الثالث الامبراطورية ثلاث سنوات من ١٠٧٨ حتى ١٠٨١م • غير أنه نظرا لكبر سنه وضعف بنيته لم يستطع ادارة الدولة أو أن يحل مشكلاتها الداخلية والخارجية •

---

(٧٦) عن التقليد العلمانى والدور الأول من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية ، أنظر : سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٣٣١ — ٣٣٢ ، ٣٤١ — ٣٤٨ •

(٧٧) Vasiliev, Byz, empire I, pp. 357 — 8.

ولم يعترف به كامبراطور على العرش عدد كبير من أصحاب الضياع الكبيرة فى ولايات الامبراطورية • وظهر عدد من المدعين بأحقيتهم فى العرش البيزنطى فى أقاليم مختلفة من الدولة • وأخيرا فى سنة ١٠٨١ نجح واحد منهم هو الكسيوس كومنين فى الفوز بالامبراطورية ، وهو ابن أخ الامبراطور السابق اسحاق كومنين وكان ينتمى بصلة قرابة لأسرة دوقاس الحاكمة • ونظرا لأن الكسيوس كان أكفأ وأقدر القادة العسكريين فكان وصوله للعرش انتصارا آخر للطبقة العسكرية من أصحاب السيوف وكذلك لكبار أصحاب الضياع • وكان على الكسيوس أن يواجه انهيارا داخليا نتيجة كثرة عدد الأباطرة المتعاقبين ومشكلات اقتصادية واجتماعية لا حصر لها • وكذلك كان عليه أن يواجه أعداء للامبراطورية يحيطون بها من كل جانب ، وينتهزون الفرصة للانقضاض والقضاء عليها ، الأتراك السلاجقة فى الشرق والبشناق والغز فى الشمال والنورمان فى الغرب (٧٨) •

حركة احياء الامبراطورية فى عصر الكسيوس كومنين :

انتصرت الارستقراطية العسكرية فى الدولة البيزنطية عندما تولى الكسيوس كومنين ، أقدر القادة العسكريين ، عرش الامبراطورية فى سنة ١٠٨١ م • وكان الكسيوس جنديا خبيرا وسياسيا بارعا ، وجد الدولة البيزنطية عندما تولى العرش قد انكمشت الى أقاليم صغيرة وأصبحت أيامها معدودة • واذا كانت الدولة البيزنطية قد تم انقاذها وطال عمرها لمدة ثلاثة قرون ونصف من الزمان فالفضل يرجع الى هذا الامبراطور الجندى الكسيوس كومنين(٧٩) • وتظهر المشكلات الخطيرة التى واجهت الكسيوس كومنين فى كتاب احتوى على حوادث حكمه وكتبته ابنته الاميرة حنه كومنين وعنوانه The Alexiad ، وتتحدث حنه فى

(٧٨) Vasiliev, Byz. empire, I, pp. 353 — 354; Ostrogorsky, Byz. state, pp. 348 — 50.

(٧٩) Vryonis, Byzantium, p. 134.

الفصل السادس من كتابها على لسان أبيها الكسيوس « لقد وجدت الامبراطورية محاطة بالبرابرة من كل جانب ، وتعـانى تماما من نقص موارد الثروة حتى يمكنها الوقوف فى وجه هؤلاء الأعداء الذين يغيرون عليها بقسوة • وأنتم تعلمون المخـاطر التى اقتحمتها ، وكيف هربت بصعوبة من الذبح بسيف البرابرة • وكان هؤلاء الأعداء الذين هاجمونا من كل جانب فى مرات عديدة أكثر منا عددا • وكلكم تعلمون الكثير عن الحملات العسكرية التى قام بها الفرس (الأتراك السلاجقة) واغارات الباتزيناك (البشـناق) Scythians ، كما أنكم لم تنسـوا الرمـاح الموجهة ضدنا من ايطـاليا (النورمان) ، وكذلك قد اختفت الاموال والأسلحة ••• »(٨٠) •

وللوقوف فى وجه الأخطار التى واجهت بيزنطة من جانب النورمان والبشناق والسلاجقة ، اسـتولى الكسيوس مدفوعا بحاجة ملحة الى المـال على بعض الممتلكات الكنسية التى لم تسـتغل استغلالا طيبـا وأحاطها الاهمـال • وقد أدى ذلك الاجراء الى علاقات متوترة مـع الكنيسة أحيانا ، غير أن الكسيوس سرعان ما غير سـياسته وقام فى بعض الأحيـان بتسليم ممتلكات كنسية الى رجـال علمانيين بقصـد استثمارها (٨١) •

ولم يعد عماد الجيش البيزنطى فى عصر الكسيوس كومنين ذلك الجندى الفلاح ، اذ أصبح المرتزقة فى الجيش سواء من الاجانب أو الوطنين عنصرا له أهميـة كبيرة • وشـاع أيضا نظـام البرونويـا Pronoia • وكانت هذه المنح توهب منذ منتصف القرن الحادى عشر

---

(٨٠) The Alexiad of the princess Anna Comnena, Translated by Elizabeth A. S. Dawes, (London, 1967), pp. 141 — 2; Ashour and Rabie, Fifty documents, p. 75; Hussey, Byzantine World, p. 52; Cam. Med. Hist. , Vol. 4, Part 1 , p. 212.

(٨١) Hussey, Byzantine World, p. 55.

دون أداء الالتزامات الحربيـــة التى يبدو أنها ظهرت لأول مرة فى عهد الكسيوس كومنين فى وقت ما قبل سنة ١١١٩م • وكان صاحب البرونويا يقوم بتحصيل الموارد المالية فى اقليمه بما فى ذلك الضرائب والرسوم من مؤجريه المزارعين • ويخدم فى الجيش مصحوبا بفرقته العسكرية بعد تجهيزها تجهيزا حـــربيا عندما يطـــلب منه ذلك • ويتوقف عدد عساكره كثرة وقلة تبعا لمساحة وقيمة البرونويا ، التى اتصفت بصفة هامة عندما أصبحت تمنح لمدى الحياة ، وغير قابلة للانتقال من شخص لآخر ، كما لم تكن وراثية (٨٢) •

واهتم الكسيوس بالدرجة الاولى بالسياسة الخارجية والدفاع عن الامبراطورية ســـواء عن طريق الدبلوماسية أو الحرب • ففى أبريل سنة ١٠٨١ م بدأ الامبراطور الكسيوس مفاوضاته مع الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى • واعترف الكسيوس بما استولوا عليه فى آســـيا الصغرى ، وكان الامبراطور يأمل فى ايقاف تقدمهم حتى يتفرغ لمنازلة النورمان (٨٣) •

فقد سبقت الاشـــارة(٨٤) الى أن روبرت جويســـكارد تمنى أن يصبح امبراطورا رومانيا • ولم تستفد بيزنطة من مشروعات الزواج بين البيت البيزنطى والبيت النورمانى ، اذ صمم روبرت جويسكارد على غزو القسطنطينية واعطاء بيزنطة ضربة قوية ، ونقل الاغارات الى الساحل الادرياتيكى للبلقان • وترك روبرت جويسكارد حكم ابوليا الى

---

(٨٢) Hussey, Byzantine World, p. 56; Ostrogorsky, G., "Sur la pronoia, A propos de L'article de M. Lascaris", in **Byzantion**, tom XXII (1952), pp. 161 — 163 ;

السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٧٣٢ — ٧٣٣ ، انظر ما سبق ، ص ١٧٣ •

(٨٣) Hussey, Byzantine World, p. 52.

(٨٤) انظر ما سبق ص ١٩٤

ابنه الأصغر روجر Roger مع أخيـه الأكبر بوهمنـد Bohemond وأبحر هو فى اسطول قاصدا الاستيلاء على ميناء ديراخيوم Dyrrachium وهى دورازو الحـاليـة Durazzo فى ايلليريا • وعندما تحقق للامبراطور الكسـيوس كومنين عدم مقدرته على مواجهـة الخطـر النورمانى اتجـه الى الغرب اللاتينى طالبا المسـاعدة وخاصـة من الامبراطور الالمانى هنرى الرابع • غير أن هنرى لم يكن وقتذاك قد انتهى من نزاعه مع البابا جريجورى السـابع وبالتالى لم يقدم أية مساعدة لبيزنطة (٨٥) •

وتجدر الاشارة الى أن ظهور النورمان فى ايطاليا ومحاولة روبرت جويسكارد السيطرة على كلا الجانبين لمدخل البحر الادرياتيكى سبب رعبا لمدينة البندقية التى وجدت أن نموها البحرى والتجارى مهددا بالخطر • لهذا فرح البنادقة ووافقوا على اقتراح الامبراطور الكسيوس كومنين بعقد تحالف ضد النورمان • ونظرا لحاجة الدولة البيزنطيـة الملحـة لمساعدات بحرية نظرا لقصورها البحرى ، وعد الامبراطور الكسيوس البندقية بامتيازات تجارية كبيرة مقابل مساعدة بيزنطة باسـطول • وهـذه الامتيـازات هى التى أدت الى تأسـيس قواعد امبراطورية البندقية التجارية (٨٦) •

وأدرك البنادقة أنه فى حالة تحقيق النورمان لانتصـار عسكرى فسوف يسيطرون على الطرق التجارية الموصلة الى بيزنطة والى الشرق ، ويستولى النورمان أيضا على كل ما يأمل البنادقة فى الاستيلاء عليه فى مستقبل الايام • يضاف الى ذلك أن هناك خطرا آخر كان يهدد البندقية وهو أن استيلاء النورمان على الجزر الأيونية وبخاصة كورفو Corfù

---

(٨٥) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 380; Cam. Med. Hist., Vol. 4, Part I, p. 213.

وانظر ما سبق ص ١٩٦ — ١٩٧

(٨٦) Vryonis, Byzantium, p. 136.

وكيفالونيا Cephalonia والساحل الغربى لشبه جزيرة البلقان سوف يمنع وصول سفن البنادقة التى تبحر فى البحر المتوسط الى البحر الادرياتيكى • وبعد استيلاء روبرت جويسكارد على جزيرة كورفو حاصر ميناء دورازو برا وبحرا واستولى عليه فى بداية سنة ١٠٨٢ بعد أن هزم جيشا بريا بقيادة الكسيوس • وحدثت فتنة فى جنوب ايطاليا أرغمت جويسكارد على العودة الى ايطاليا • ثم قام باعداد حملة أخرى ضد الدولة البيزنطية ، ولم يمنع دون تحقيق مزيد من انتصارات جويسكارد سوى انتشار الوباء بين قوات النورمان ، ووقوع روبرت فريسة هذا الوباء وموته سنة ١٠٨٥ شمال جزيرة كيفالونيا • فأعطى موت روبرت جويسكارد الامبراطور الكسيوس فترة من الراحة كان فى حاجة ماسة اليها (٨٧) •

وتلقى البنادقة فى مقابل المساعدة البحرية التى قدموها للدولة البيزنطية امتيازات تجارية كبيرة مما جعل للبندقية مركزا خاصا فى الدولة البيزنطية • ففى مايو سنة ١٠٨٢ أصدر الامبراطور الكسيوس مرسوما امبراطوريا يسمى Chrysobull (أى براءة موثقة بخاتم الإمبراطور الذهبى) منح بموجبه التجار البنادقة الحق فى البيع والشراء فى جميع أنحاء بيزنطة ، وأعفاهم من كل الضرائب والرسوم الجمركية ورسوم الموانىء والضرائب التجارية الأخرى • وقرر الامبراطور أن موظفى الجمارك البيزنطيين لم يعد من حقهم تفتيش متاجر البنادقة • كما منح الامبراطور للبنادقة أحد أحياء القسطنطينية • واحتوى ذلك الحى الكبير على حوانيت ومخازن وثلاثة مرافىء للسفن، حيث تتمكن سفن البنادقة من تفريغ حمولتها وحمل البضائع منها • ووعد البنادقة من ناحيتهم أن يظلوا الرعايا المخلصين للدولة البيزنطية•

---

(٨٧) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 380 — 381 ; Vryonis, Byzantium, p. 136.

وهكذا عومل التجار البنادقة معاملة أفضل مـن تلك التى كان يتلقـاها التجار البيزنطيون أنفسهم • وهكذا وضع البنـادقة بواسـطة ذلك المرسوم أساسا متينا لقوتهم الاستيطانية فى الشرق ، وحصلوا على امتيازات اقتصادية فى بيزنطة لا تنافس لمدة طويلة من الزمان • غير أن هذه الامتيازات الاقتصادية الاستثنائية التى حصلت عليها البندقية ، أصبحت فى ظل ظروف متغيرة ، مع مضى الزمن ، أحد اسباب النزاع السـياسى بين الدولة البيزنطية وجمهورية البندقية ، وأحد العوامل الاقتصادية التى ساهمت فى تدهور أحوال الدولة البيزنطية (٨٨) •

أما بالنسبة لموقف الامبراطور الكسيوس من السلاجقة والبشناق، فقد أغاروا على حـدود الدولة البيزنطية لدرجة جعـلت حنه كومنين تتحسر على أن حدود بيزنطة أصبحت « البوسفور القريب من الشرق ومدينة ادرنه فى الغرب » ، وأضافت أن أباها الكسيوس أخذ يضرب بيديه البرابرة المحدقين بالامبراطورية من كلا الجانبين (٨٩) •

ولاشك أن حنه كومنين كانت تقصد السلاجقة الأتراك فى الشرق والبشناق فى الشمال • ويذكر المؤرخ المسـلم ابن العديم فى حوادث سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م أن سليمان بن قطلمش انتهز فرصـة ضعف الروم أى البيزنطيين واستولى على أنطاكية ومواضع عدة من ضياعها وأعمالها وصار لسليمان من نيقيه الى طرابلس وملك الثغور الشامية (٩٠)• ولم يكن فى أمكان الكسيوس الوقوف أمام السلاجقة نظرا لشدة غزوات

---

(٨٨) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 381 — 2; Charanis, "Economic Factors in the decline of the Byz. Empire", **Journal of the Economic History**, Vol. 13 (1953), p. 422; Cam Med. Hist. Vol, 4, I, p. 213.
ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية ، ص ٣٧٨ — ٣٧٩ ، عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصـور الوسطى ، ص ٦٥ •

(٨٩) The Alexiad, p. 159.

(٩٠) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ص ٨٦ — ٨٩ •

البشناق من الشمال • ففى نهاية العقد التاسع من القرن الحادى عشر الميلادى لقى الكسيوس هزيمة منكرة من البشـــناق عند دريســـترا Dristra (Silistria) فى الدانوب الادنى ، وكاد أن يقع أسيرا • ولم يستطع البشناق الاستفادة الكاملة من انتصارهم بسبب ما حـــدث من نزاع بينهم وبين الكومان حول تقسيم الغنائم • وتعهدت الدولة البيزنطية بدفع اتاوة للبشناق(٩١) • وفى سنة ١٠٩٠ ــ ١٠٩١ م تحالف البشـــــناق مع الامير التركى حاكم أزمير Smyrna ، وهاجمـــــوا القسطنطينية برا وبحرا ، وكان هـــذا الهجوم على العاصمة البيزنطية حادثا خطيرا • وأخيرا استخدم الكسيوس الدبلوماســية البيزنطيـــة المعتادة بأن آثار طائفة من البرابرة ضد طائفة أخرى • واســـتطاع بمساعدة الكومان والروس الحاق الهزيمة بالبشناق فى هزيمة ساحقة فى ٢٩ أبريل ١٠٩١ م عند جبل ليفونيون Mt. Levounion • وتحدثت حنه كومنين حديثا مطولا عن هذه المعركة لأهميتها • وهكذا اســـتطاع الكسيوس بذلك القضاء على أخطار تلك الجماعات الرعوية (٩٢) • ولعل الامبراطور الكسيوس فكر بعد هذه المعركة فى محاولة استرداد النفوذ البيزنطى فى آسيا الصغرى وذلك بعد أن سمع بالنزاع والشقاق الذى نشب بين سلاجقة الروم بعد موت مؤسس سلطنتهم سليمان بن قطلمش سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م • غير أن خطط الكسيوس انقلبت رأسا على عقب عندما اقتربت الحملة الصليبية الأولى من القسطنطينية • ولعبت بيزنطة دورا هاما فى حـــوادث تلك الفترة الزمنيـــة حتى أن دراســـة تاريخها من الأمور الهامة لفهم جذور وتطـــور الحـــركة الصـــليبية • ويلاحظ أن معظم الذين درســـوا تاريخ الحروب الصليبية درســـوها من وجهة نظر غربية على أســـاس أن جعلوا الدولة البيزنطية المشجب

---

(٩١) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 383 -- 384.

(٩٢) The Alexiad, pp. 202 - 205; Vasiliev Byz. empire, II, pp. 384 - 5 ; Vryonis, Byzantium, pp. 136 -- 8.

الذى علقوا عليـه كل أخطـاء الصليبيين(٩٣) .

وقد رأينا فيما سبق كيف حـاول الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع دوقاس الاستنجاد بالبابا جريجورى السابع بعد هزيمة بيزنطة فى منازكرد وادراك البيزنطيين بعجزهم عن مواجهة الاتراك المسلمين بمفردهم ، وكيف حـاول البابا جريجورى السـابع حث بعض ملوك أوروبا لمساعدة البيزنطيين فى صراعهم ضد السلاجقة المسلمين(٩٤) . ويلاحظ أن الامبراطور الكسيوس كومنين فعل مثلما فعـل ميخائيل السابع عندما طلب ، تحت ضـغط ما حدث فى سـنة ١٠٩١ ، قـوات مساعدة من الغرب الاوروبى . وهناك رسالة Epistula ذكر بعض الباحثين أنها مزيفة قيل أن الامبراطور الكسيوس كومنين أرسلها الى صديقه روبرت الاول ، كونت فلاندرز Robert of Flanders المسـمى بالفريزى Frisian (١٠٧١ — ١٠٩٣) . وفى هذه الرسالة التى وجهها الكسيوس الى روبرت والى جميع الامراء فى أنحاء العالم تحدث الامبراطور البيزنطى عما تتعرض له الدولة البيزنطية من أخطار البشناق والأتراك السلاجقة . وادعى الامبراطور أن الأتراك يقتلون المسيحيين ويرتكبون المحرمات كلها ، وحث صـديقه روبرت على أن يسرع فى تقديم المساعدة لنجدته قبل أن تسقط القسطنطينية فى أيدى الأتراك ، وأن يحاربهم بكل قوته حتى ينال الجزاء الآلهى ، وأنه يفضل أن يأخذ هو القسطنطينية بدلا أن يستولى عليها الوثنيون(الأتراك)(٩٥) . ولاشك أن هـذه الرسالة ــ كما ذهب الأستاذ فازيليف Vasiliev

---

(٩٣) انظر : Vasiliev, Byz. empire, II, p. 390.

(٩٤) انظر ما سبق ص ١٩٦

(٩٥) Joranson (Einar) : "The problem of the Spurious letter of Emperor Alexius to the count of Flanders", in **American Historical Review,** Vol. 55 (1950) , pp. 318 — 815.

وعن هذه الرسالة بالتفصيل انظر أيضا :

Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 386 — 388.

ودهب العالم ريان Riant أن هذهالوثيقة زورتفى الفترةمابين=

تدل علي أن الامبراطور الكسيوس أرسل رسائل الى الغرب طالبا المساعدة والعون ، كما يرى فازيليف أنه من المحتمل جدا آن تكون هذه الرسالة قد أرسلت فى سنة ١٠٩١ م ، وهى السنة الحرجة فى تاريخ الدولة البيزنطية (٩٦) •

غير أن هذه القوات الاوروبية المساعدة التى طلبها الكسيوس أصبحت لاقيمة كبيرة لها فى سنة ١٠٩٢ بعد أن هزم الكسيوس البشناق ، ولكن الدعوة لاعداد حملة حربية الى الشرق كانت قد انتشرت بسرعة بفضل جهود البابا أوربان الثانى Urban II (٩٧) •

وتجدر الاشارة الى أن أوروبا قامت بحملات صليبية ضد المسلمين قبل دعوتها لما يسمى بالحملة الصليبية الاولى ، مثل الحرب ضد المسلمين فى الاندلس وغزوات النورمان ضد المسلمين فى أبوليا وصقلية • وكان أوربان الثانى أحد البابوات الأكفاء على دراية كبيرة بالامور السياسية فى عصره • وكانت لديه القدرة على التوفيق بين الفرق المختلفة المعاصرة • واستطاع هذا البابا أن يشرك البابوية مع البيازنة والنورمان فى حركة توسعية ، واستطاع أيضا أن يربط بين الحرب المقدسة فى الاندلس بتلك الحرب الصليبية فى الشرق مما جعله يضع الحرب ضد المسلمين فى الاندلس فى نفس الدرجة من الاهمية

= ١٠٩٨ — ١٠٩٩ فى مخيم للصليبيين أو فى مكان آخر فى فرنسا لحث الصليبيين على القدوم لنجدة البيزنطيين ضد المسلمين. وذكر Gaston Paris أن الابيستولا قد كتبت سنة ١٠٩٠ لحث الفرسان الفرنسيين على مساعدة الامبراطور البيزنطى ، وذهب Hagenmeyer الى أن الوثيقة أعدت سنة ١٠٨٨ لنفس الغرض ، انظر :

Joranson, Op. Cit. , pp. 819 — 820.

(٩٦) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 387 — 88.

(٩٧) Ibid. , II, pp. 396 — 7.

التى وضع فيها الحرب الصليبية ضد المسلمين فى الشرق(٩٨) • وعلى سبيل المثال فقد أرسل البابا أوربان الثانى فى سنة ١٠٨٩ م خطابا الى الكونتات والاساقفة والنبلاء وغيرهم فى أسبانيا يطلب منهم البقاء هناك فى أراضيهم بدلا من الذهاب الى بيت المقدس ، وأن يبذلوا كل جهودهم لتعمير الكنائس الخربة مما يوضح حقيقة الدافع الصليبى (٩٩) •

وهناك عاملان كان لهما التأثير الكبير على سياسة أوربان الثانى فى الشرق ، العامل الأول هو تحقيق الوحدة مع الكنيسة البيزنطيــة ، والعامل الثانى هو تقديم المساعدة العسكرية للامبراطورية الشرقيــة • وكان لدى البابا الآمل فى أن المساعدات العسكرية قد تؤدى الى نجاحه فى اعادة وحــدة الكنيستين ، كنيستى رومــا والقســطنطينية • وفى السنوات ما بين ١٠٨٩ — ١٠٩١ كانت كلا الكنيستين الشرقية والغربية تفكر فى هذا الامر ، لهذا لم يكن قصد البابا أوربان الثانى هو مجرد الدفاع عن القسطنطينية وانما كان قصده أن الحملات الحربية ســوف تعيد حدود الاسلام الى الشام أو حتى فلسطين ، وأن يتم الاستيلاء على بيت المقدس ، وبالتــالى وضــع أوربان الثــانى كلا الهــدفين القسطنطينية وبيت المقدس فى درجــة واحدة من الأهميــة فى الحملة الصليبية الأولى(١٠٠) •

وفى نوفمبر سنة ١٠٩٥ وفى كليرمونت Clermont فى وسط فرنسا انعقد المجمع الدينى المشهور حيث امتلأت المدينــة بالزوار • وفى نهاية جلسات المجمع ألقى البابا أوربان الثانى خطبة مشهورة ضاع للأسف النص الأصلى لها ، غير أن بعض الحاضرين فى المجمع حاولوا كتابة النص فيما بعد من الذاكرة ، ولذا اختلفت كل رواية عن الأخرى • وحث

(٩٨) Baldwin, "Some reccnt interpretations of Pope Urban II's Eastern Policy" in **Catholic Historical Review**, XXV (1940), pp. 463 — 66.

(٩٩) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 400.

(١٠٠) Baldwin, "Some recent interpretations", pp. 463 — 6.

البابا جموع الحاضرين على حمل السلاح « لتحرير » بيت المقدس ومساعدة المسيحيين الشرقيين ، ووعدهم بالغفران من الخطايا والمسامحة من الديون ، وحماية ممتلكاتهم أثناء مدة غيابهم عن أوطانهم (١٠١) ٠

وتلقف دعوة البابا أوربان لحملة صليبية الى الشرق جموع المسيحيين الأوروبيين ٠ والحقيقة أن الحروب الصليبية هى حركة نبعت من الغرب الأوروبى ، اتخذت من المسيحية ستارا كاذبا لها ، وشنت هجوما استعماريا على ديار الاسلام والمسلمين ، وحملت معها العداء والحقد الدفين ٠ ولسنا هنا فى مجال الحديث عن بواعث وأسباب الحروب الصليبية فهذه الحروب انبعثت نتيجة الأوضاع الدينية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية التى سادت غرب أوروبا أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ٠ يضاف الى ذلك أن الحروب الصليبية بدأت فعلا قبل الحملة التى عرفت فى التاريخ باسم (الحملة الصليبية الاولى) ٠ فمنذ توسع المسلمون فى حوض البحر المتوسط ، لم تنقطع الحروب بين المسلمين وبين المسيحيين الاوروبيين فى آسيا الصغرى وشمال افريقيه وأسبانيا وصقلية وبعض جزر البحر المتوسط(١٠٢) ٠ وأبلغ دليل على ذلك أن المؤرخ ابن الأثير بدأ حديثه عن الحروب الصليبية بالاشارة الى خروج الفرنج الى بلاد الاسلام واستيلائهم على طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م

---

(١٠١) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 402;
وعن مجمع كليرمونت انظر :
Setton, Hist. of the Crusades, I, pp. 236 — 52.
وعن نص خطبة اوربان الثانى انظر :
Ashour and Rabie, Fifty documents, pp. 77 — 79.

(١٠٢) انظر حسنين ربيع ، جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين ، رسالة المسجد ، العدد الرابع (السنة الرابعة) ربيع الاول ١٤٠١ هـ — يناير ١٩٨١ ، ص ١٨٢ — ١٨٣ .

تم استيلائهم على صقلية سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م(١٠٣) .

وتاقت البابوية الى مد نفوذها وسلطانها فى الشرق وتحقيق آملها فى السيادة على العالم المسيحى . وساءت الاحوال الاقتصادية فى غرب أوروبا وبخاصة فى فرنسا مما دفع بجموع الامراء الاقطاعيين والفرسان والمزارعين والأقنان الى الخروج فى الحملة الصليبية الأولى هروبا من أحوال معيشية سيئة ، وأملا فى تأسيس امارات فى الشرق على حساب المسلمين وساهمت المدن التجارية الايطالية فى الحملة الصليبية بغيــة السيطرة على موانىء الشرق الغنيــة وطرق التجــارة العالمية . وقصد النورمان استخدام الحركة الصليبية فى الاستيلاء على أراضى جديدة وتحقيق انتصارات على حساب بيزنطة . وسعت البابوية لتحويل طاقات النورمان الحربية الى ميدان آخر بعيدا عن جنوب ايطاليا(١٠٤) .

ووصلت أخبار الحملة الصليبية الى الامبراطور الكسيوس كومنين غامضة ودون سابق مقدمات ، لأنه لم يكن متوقعاأو راغبا فى مساعدة يقدمها الغرب اللاتينى على شكل حملة صليبية . فعندما طلب الامبراطور الكسيوس مساعدة الغرب الأوروبى ، فقد قصد استخدام هذه المساعدة لحماية القسطنطينية أى الدولة البيزنطيــة من أعدائهــا . أما فكرة الاستيلاء على الأراضى المقدسة فى فلسطين فهى قضــية لم تعد تهم بيزنطة منذ أربعة قرون خلت ، وهى ذات أهمية ثانوية ، فمشكلة الدولة البيزنطية ـــ وقتذاك ـــ كانت انقاذها من أعدائها فى الشرق والشمال ، ولم تسأل وصـــول حملات لكى ترسلها الى الأراضى المقدسة . فالدولة البيزنطية أو الامبراطورية الشرقية قامت بحمــلات صليبية خاصــة بها ، فهناك حملات هرقل التى حققت انتصارات عظيمة ضد الفرس فى

---

(١٠٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(١٠٤) عن بواعث الحركة الصليبية ، انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧ ـــ ٤٣ .

القرن السابع عندما استرد الأراضى المقدسة والصليب المقدس ، وهناك الحملات المنتصرة التى قام بها نقفور فوقاس وحنا تزيمسكس وباسيل الأول فى بلاد الشــام ، كما وضــع بعض الأباطرة البيزنطيين خططا للاستيلاء على بيت المقدس ، غير أن الدولة البيزنطية لم تعد تفكر فى مثل تلك الآمال بعد النجاح الذى حققه الأتراك السلاجقة فى آســيا الصغرى فى القرن الحادى عشر ، ولم تعد بلاد الشام وفلسطين فى ذلك الوقت تتصل بالمصــالح الحيوية للامبراطورية • والحقيقة أن بيزنطة كانت فى سنتى ١٠٩٠ — ١٠٩١ على شفا الانهيار عندما سأل الكسيوس قوات مساعدة من الغرب ، وبالتالى نظر الكسيوس كومنين الى جموع الصليبيين على قدم المســاواة مع البرابرة مثل البشــناق والسلاجقة الذين أغاروا على الدولة البيزنطية ، اذ أن فكرة الحركة الصليبية كانت غريبة بالنسبة لبيزنطة فى أواخر القرن الحادى عشر ، ولم يكن لدى البيزنطيين سوى رغبة وحيدة هى التخلص من الخطر التركى الداهم من الشرق والشمال(١٠٥) •

وانزعج الكسيوس كومنين عندما وصلته أخبار حملة العامة بقيادة بطرس الناسك وما قامت به من النهب والسلب والدمار فى طريقها • كما نهب الصليبيون الجهات المجاورة للقسطنطينية عندما صاروا على مقربة منها • وأسرع الكســيوس بنقل الصليبيين عبر البوسفور الى آسيا الصغرى • وعلى مقربة من مدينة نيقيه قضى الأتراك السلاجقة على هذه القوات الصليبية فى الوقت الذى عاد فيه بطرس الناســك الى القسطنطينية قبل حدوث الكارثة(١٠٦) • وتبع ذلك فى صيف ١٠٩٦ م وصول حملات الأمراء التى اشترك فيها من كبار الصليبيين جود فرى

---

(١٠٥) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 403 — 404.

(١٠٦) Ibid. , II, pp. 404 — 405.

عن حمــلة بطرس الناســك ، انظر حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٥٣ — ٦٤ .

بوايون دوق اللورين الأدنى ، وأخوه بلدوين البولونى الذى سوف يصبح فيما بعد ملكا على بيت المقدس ، فضلا عن عدد آخر من كبار الأمراء منهم بوهيموند النورمانى آخر أبناء روبرت جويسكارد وريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس ، وروبرت أمير نورمنديا ابن وليام الفاتح واخ ملك انجلترا • ووصل الصليبيون الى القسطنطينية برا وبحرا ونهبوا ما حولها مثلما حدث فى حملة العامة • واذا كان بعض الباحثين قد اتهموا الكسيوس والبيزنطيين بعدم الولاء والاخلاص للحركة الصليبية فيمكن تفنيد هذه الآراء فى ضوء النهب والسلب الذى اتبعه الصليبيون على طول الطريق(١٠٧) •

وفى القسطنطينية اجتمع الكسيوس بزعماء الصليبيين (١٠٩٦ — ١٠٩٧ م) الذين حصل منهم على قسم اقطاعى ويمين الولاء له باعتباره سيدا لهم • كما حصل الامبراطور على وعد بان يعيدوا الى الامبراطورية الرومانية (البيزنطية) المدن والقلاع والممتلكات التى كانت تابعة لبيزنطة قبل ذلك • وكان المقصود بذلك أقاليم آسيا الصغرى التى فقدتها الدولة البيزنطية مؤخرا بعد هزيمة منازكرد سنة ١٠٧١ م • وقدم الامبراطور لجموع الصليبيين سفنا وطعاما وأدلاء وقوات أمن • وعبرت القوات الصليبية الى آسيا الصغرى ودخلت شمال الشام بمساعدة الأدلاء البيزنطيين(١٠٨) •

وكان استيلاء الصليبيين على انطاكية سنة ١٠٩٨ م مفترقا للطرق،

---

(١٠٧) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 406;
سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٤٥ — ١٦٠ •

(١٠٨) Hussey, Byz. world, p. 54; La Monte, "To what extent was the Byzantine Empire the suzerain of the latin Crusading states", in **Byzantion**, Vol VII (1932), pp. 253 — 4; Setton : Hist. of the Crusades, Vol. I, p. 286; Vasiliev, Byz. empire, II, p. 408; Vryonis, Byzantium, p. 140.

وأماط اللثام عن النوايا العدوانية والسياسية للصليبيين • وقد سقطت انطاكية بعد أن أرسل صاحبها الأمير ياغى سيان الى حكام دمشق وحمص « والى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجاد والبعث على الخفوف الى الجهاد وقصد تحصين انطاكية »(١٠٩) • وكانت انطاكية الى وقت قريب وقتذاك فى يد البيزنطيين • وتوقع الكسيوس قيام الصليبيين بتسليمها للبيزنطيين ، غير أن ذلك لم يحدث اذ أقام بها بوهيموند Bohemund ، ابن عدو الكسيوس القديم روبرت جويسكارد ، امارة صليبية له • وتبع ذلك نجاح الصليبيين وتأسيسهم لامارة الرها ومملكة بيت المقدس ثم امارة طرابلس بعد ذلك • وأذاع بوهيموند القصة القائلة بأن البيزنطيين قد خانوا الصليبيين حتى أنه اقترح على البابا غزو القسطنطينية ذاتها(١١٠) •

ومن الحقائق المسلم بها أن الانتصارات الكبيرة والمكاسب الضخمة التى حققها الصليبيون فى الشرق غداة وصولهم فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد ، لم ترجع الى قوتهم أو شجاعتهم بقدر ما كان مردها الى ضعف القوى الاسلامية وانغماسها فى خلافات مكنت الصليبيين من النفاذ الى قلب العالم الاسلامى بالشام • يضاف الى ذلك أن الخلافة الفاطمية وقفت موقفا سلبيا من الحملة الصليبية الأولى عند وصولها الى شمال الشام ، ولم يشارك الفاطميون القوى الاسلامية التى نهضت للدفاع عن انطاكية ضد الصليبيين (١١١) •

---

(١٠٩) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ (حوادث سنة ٤٩٠ هـ) وعن الصليبيين فى انطاكية انظر حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، ص ١١٠ — ١٥١ .

(١١٠) Hussey, Byz. World. p. 54; Vryonis, Byzantium, p. 141.

(١١١) انظر سعيد عاشور : شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، فى بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٦٥ — ٢٢٣ .

وتطورت الأمور فى امارة انطاكية ، وصمم بوهيموند على توجيه ضربة قاضية الى الدولة البيزنطية بغزو القسطنطينية نفسها بواسطة قوات يتم حشدها فى أوروبا • وترك بوهيموند ابن أخته تانكرد Tancred فى انطاكية كنائب له ، وعاد هو الى ابوليا بايطاليا لقيادة الحملة التى كان أبوه روبرت جويسكارد قد أعدها سنة ١٠٨١ م للاستيلاء على دورازو وبعد ذلك لتتجه الحملة الى القسطنطينية عن طريق سالونيك • وخابت آمال بوهيموند فقد هزم عند دورازو سنة ١١٠٨ م وأرغم على قبول معاهدة صلح مع الامبراطور الكسيوس كومنين بشروط مهينة منها أنه أرغم على قبول سيادة بيزنطة على أنطاكية ، ووعد بأن يكون تابعا (فصلا) مخلصا للامبراطور البيزنطى وابنه حنا • وتعهد بوهيموند بأن يحمل سلاحه ضد أعداء الامبراطور ، وأن يعيد لألكسيوس الأراضى التى كانت تابعة لبيزنطة ، كما وعد بأن يشن حربا ضد ابن أخته تانكرد اذا رفض الخضوع للامبراطور البيزنطى • وأصبحت معاهدة الصلح هذه أساس الادعاءات البيزنطية على أنطاكية ، وحلت محل يمين الولاء الذى أقسمه بوهيموند فى سنة ١٠٩٧ م(١١٢) •

وقضى بوهيموند الثلاث سنوات الأخيرة من حياته فى أعمال ليست بذات أهمية ، ومات فى أبوليا سنة ١١١١ م • غير أن موته جعل موقف الامبراطور الكسيوس أكثر صعوبة اذ أن تانكرد رفض تنفيذ المعاهدة ، ورفض تسليم انطاكية الى الامبراطور البيزنطى • وفكر الكسيوس فى اعداد حملة ضد انطاكية الا أنه لم يكن فى قدرته القيام بهذه المهمة الصعبة • وحتى عندما مات تانكرد بعد بوهيموند بوقت قصير لم يستطع الكسيوس التقدم نحو انطاكية للاستيلاء عليها ،

---

(١١٢) La Monte, "To what extent was the Byzantine Empire the suzerain of the latin crusading states", p. 254; Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 410 — 411.

اذ انشغل فى السنوات الأخيرة من حياته بحملات سنوية ضـد الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى • غير أن الكسيوس نجح فى الحقيقة فى أن أطال من عمر الامبراطوريـة وأخر انحـلالها وانهيارها ولكن الى حين(١١٣) •

خلفاء الكسيوس كومنين :

مات الكسـيوس كومنين سنة ١١١٨ م وخلفه ابنه حنا الثـانى كومنين John II Comnenus الذى حـكم الدولة البيزنطية حتى سـنة ١١٤٣ م • وورث حنا الثـانى وخليفته ابنـه مانويـل الأول Manuel I Comnenus تركة مثقلة بكثير من المشـكلات • فاذا كان الخوف من خطر النورمان هو الدافع للامبراطور الكسيوس كومنين لأن يمنح امتيازات تجارية كبيرة للبنادقة سنة ١٠٨٢ م ، فقد استفادت البندقية فى غضون القرن الحادى عشر من هذه الامتيازات فائدة كبيرة وبفضلها كونت امبراطوريتها التجارية • وسبق أن ذكرنا أن الامبراطور الكسيوس منح البنادقة حق المتاجرة فى موانىء الدولة البيزنطية دون دفع رسوم ضرائبية ، وأدى هذا الحق الى أن أصبح البنادقة بتوالى السنين بعيدين عن منافسـة التجار البيزنطيين الذين ظلوا يدفعون ضرائب تجارية • وأدى ذلك الى الحـاق الضرر بالتجار البيزنطيين عندما باعوا سلعهم للبنـادقة ، كما أن موردا هاما من موارد الدولة ممثـلا فى الضرائب التجـارية قد فقدته الدولة البيزنطيـة • وكان الامبراطور الكسيوس كومنين قد منح البنادقة أحد أحياء القسطنطينية بالاضافـة الى ثلاثة موانىء بمخـازنها على القرن الذهبى لسفنهم ومتاجرهم • وأدى ذلك الى زيـادة نفوذ وقوة البنادقة فى علاقـاتهم مع البيزنطيين ، ليس فقط عند تعاملهم مع أفراد الطبقة الدنيـا فى المجتمع البيزنطى ، بل ومع كبار الموظفين والنبلاء مما أدى الى سخط فى

---

(١١٣) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 411 — 412.

الدولة • وتوافد على بيزنطة وفود التجار اللاتين الذين بلغ عددهم فى القسطنطينية فى القرن الثـانى عشر عشرات الألوف • وصمم الامبراطور حنا الثانى على الغاء المعاهدة التى عقدها الكسيوس مع البنادقة • غير أن البندقية أرسلت أسطولها للاغارة على الجزر البيزنطية فى البحر الادرياتيكى والبحر الأيجى • وعندما أدرك حنا صعوبة مواجهة قوة البندقية البحرية تفاوض مع البنادقة وقدم لهم التأكيدات على سريان المعاهدة التجارية التى عقدها أبوه الكسيوس معهم سنة ١٠٨٢ م • وعندما خافت الدولة البيزنطية من احتكار البندقية لتجارتها الداخلية ، منحت امتيازات تجارية محدودة لبعض المدن التجارية الايطالية الأخرى مثل بيزا وجنوه فى محاولة منها لضرب كل مدينة ايطالية بأخرى • غير أن هذه الامتيازات التجارية الجديدة لا تقارن بما حصل عليه البنادقة زمن الامبراطور الكسيوس(١١٤) •

وفى البلقان هزم الامبراطور حنا جموع المغيرين من البشناق سنة ١١٢٢ م بعد أن عبروا الدانوب فى محاولة لغزو بيزنطة • وقد ألحقت جيوش الامبراطورية بهذه الجموع هزيمة ساحقة أنهت مشكلة البشناق الى الأبد(١١٥) •

واستمر النورمان يشكلون خطرا قائما ضد بيزنطة نظرا لطموح قادتهم بصقلية الذين تمنوا الاستيلاء على القسطنطينية • وفى سنه ١١٣٠م قام روجر الثانى Roger II بتوحيد صقليه وجنوب ايطاليا وتم تتويجه فى بالرمو Palermo بالتاج الملكى ، وبالتالى أصبح روجر من أقوى حكام أوروبا ، واستعد بدوره لتوجيه ضربة عنيفة ضد

---

(١١٤) Vryonis, Byzantium, pp. 141 — 44; Vasiliev, Byz. empire, II, p. 413.

(١١٥) Hussey, Byz. world, p. 58; Vasiliev, Byz. empire, II, p. 413.

بيزنطة • وقد انزعج من تتويج روجر الثانى كل من امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وامبراطور الدولة البيزنطية ، وأدى ذلك الى تقارب كل منهما للآخر ضد عدوهما المشترك روجر • وعقد الامبراطور حنـا الثانى كومنين اتفاقا مع الامبراطور لوثر الثانى الألمـانى Lother وبعد موته مع الامبراطور كونراد الثالث Conrad III من أباطرة الدولة الرومانيـة المقدسـة • وتطور ذلك الى تحـالف حقيقى بين الامبراطوريتين • وكان الغرض من هـذا الاتفاق ثم التحالف هو القضاء على قوة النورمان فى ايطاليا • ورغم أن الامبراطور حنا فشل فى توجيه ضربة قاضية ضد روجر ، الا أنه نجح على الأقل فى منعه من القيام بغزو بيزنطة • وقد برهن التحالف مع الدولة الرومانيـة المقدسة على أهميته فى عصر خليفته مانويل كومنين(١١٦) •

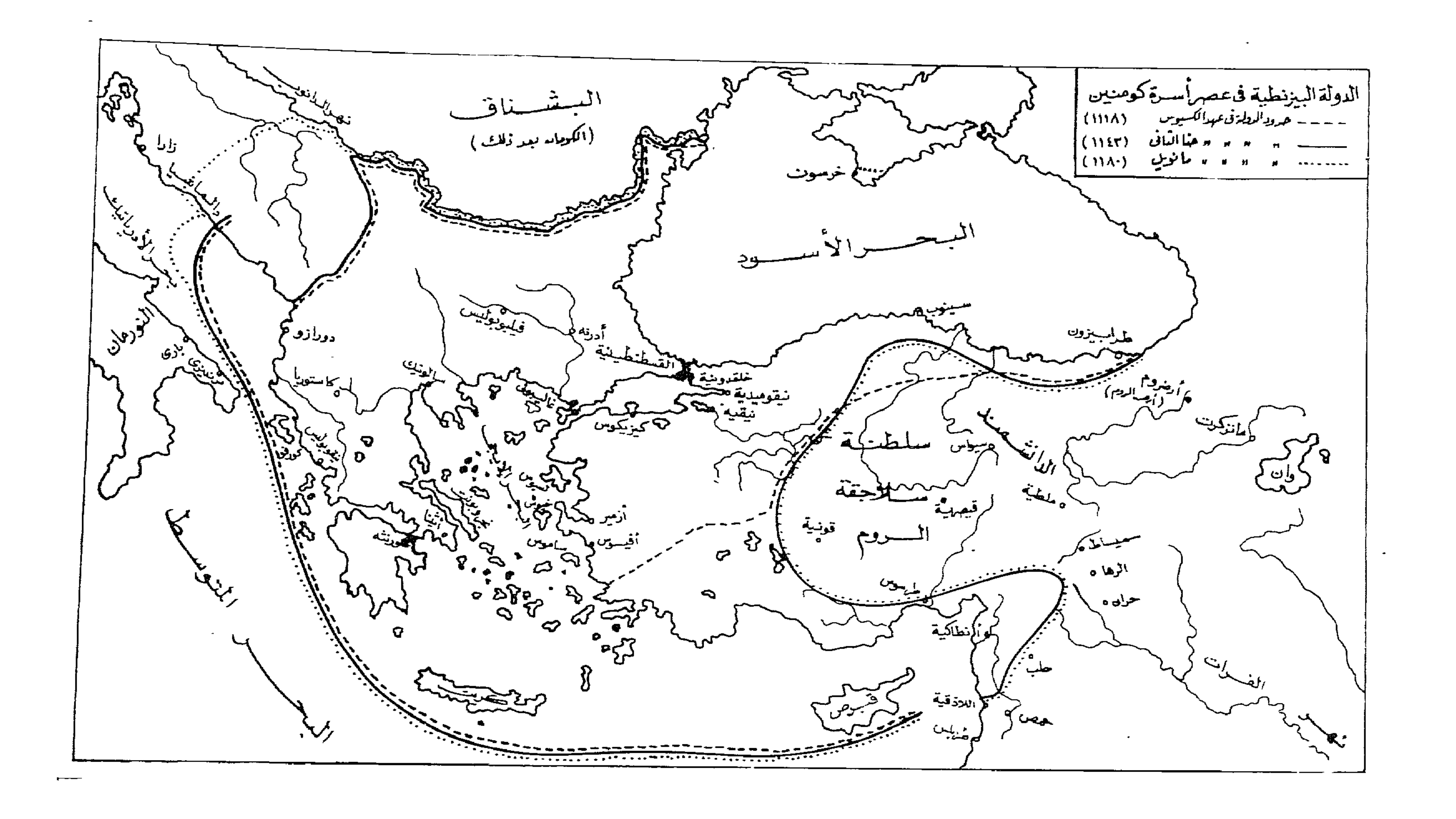
وتركزت الى حد ما مشكلة النورمان لدى الامبراطور حنا فى امارة انطـاكية الصليبية التى انشـأها بوهيموند النورمانى • وفى أغسطس سنة ١١٣٧ م وصل الامبراطور حنا الثـانى كومنين الى انطاكية بعد أن غزا قيليقيه•وحاصر انطاكية، واضطر حاكمها الصليبى زوج الوريثة النورمانية الى طلب السلام الذى منحه حنا له بعد أن أرغمه على العودة الى الولاء والخضوع لبيزنطة طبقا للمعاهدة التى تمت بين الكسيوس وبوهيموند • وأقسم حـاكم المدينة يمين الولاء للامبراطور البيزنطى • ولكى يدل على تثبيت حقوق بيزنطة فى انطاكية رفع حاكمها اللواء الامبراطورى فوق قلعتها(١١٧) •

ولم يفكر الامبراطور البيزنطى حنا كومنين فى مهاجمة المسلمين

---

(١١٦) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 414; Hussey, Byz. World, p. 58.

(١١٧) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 415 — 16; Cam. Med. Hist., Vol. 4, Part 1, p 223; La Monte, "to what extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Latin States", p. 255.



الدولة البيزنطية فى عصر أسرة كومنين
حدود الدولة فى عهد الكسيوس (١١١٨)
« « « « حنا الثانى (١١٤٣)
« « « « مانويل (١١٨٠)
البشناق
(الكومان بعد ذلك)
خرسون
البحر الأسود
سينوب
طرابيزون
أرضروم
مانزكرت
وان
أدرنه
فليبوبوليس
القسطنطينية
خلقدونية
نيقوميدية
نيقيه
كيزيكوس
دورازو
كاستوريا
سالونيك
زارا
النورمان
بارى
أزمير
أفسوس
ساموس
أثينا
كورنثه
سلطنة سلاجقة الروم
الدانشمند
سيواس
قيصرية
ملطية
قونية
سميساط
الرها
حران
أنطاكية
حلب
اللاذقية
حمص
طرابلس
قبرص
كريت
الفرات
البحر المتوسط

فى شمال الشـــام ، ويرجع سبب ذلك بصفة خاصـــة الى عدم تلقيـــه مساعدات حربية من جانب الصليبيين • وقد أكد ذلك المؤرخ المسلم ابن العديم عندما تحدث فى حوادث سنة ٥٣١ هـ/١١٣٧ م عن وصول ملك الروم من القسطنطينية فى جموعه حتى وصل الى انطاكية • وعقب ابن العديم على ذلك بقوله : « فخالفه الفرنج ـــ لطفا من الله تعالى ـــ وأقام الى أن وصلته مراكبه البحرية بالأثقال والميرة والمـــال »(١١٨) • وأثناء عودة الامبراطور البيزنطى من انطاكية فى ٢٢ ذى الحجة ٥٣١ هـ/ أغسطس ١١٣٧ م أرسل رسولا من قبله الى عماد الدين زنكى فرده زنكى « ومعه هـــدية الى ملك الروم فهود وبزاة وصقور »(١١٩) • ومعنى هذا أن حنا الثانى حرص على استمرار الود مع المسلمين فى وقت كان الزنكيون أتابكة الموصل قد تزايدت قوتهم يوما بعد آخر •

وفى ســـنة ١١٤٣ م وبينما كان حنا الثانى فى طريقه لمحاربـــة الأتراك ، وأثناء حفلة صيد على جبال قيليقيه جرح فى ذراعه بســـهم مسموم ومات بعيدا عن عاصمته • وفى وسط تلك الأحداث انتقل التاج البيزنطى الى ابنه الأصغر مانويل كومنين الذى حكم الدولة البيزنطية فيما بين سنتى ١١٤٣ ـــ ١١٨٠ م(١٢٠) •

وكان مانويل كومنين حاكما وجنديا ودبلوماســـيا ناجحا ، كمـــا كان اداريا قديرا اقتنع بشرعية التقليد البيزنطى القديم عن السيادة العالمية وعن التراث الامبراطورى العظيم(١٢١) • واختلف مانويل عن أبيه فى نقطة هامة جعلت عصره يتصف بسمات معينة • فحنا الثانى كومنين حاول أن يجعل هنـــاك توازنا بين مصـــالح الدولة البيزنطية

---

(١١٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ •
(١١٩) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ •
(١٢٠) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 416.
(١٢١) Hussey, Byz. World, p. 58.

فى الشرق ومصالحها فى الغرب • ولم يجمد انتصارات أبيه الكسيوس فى آسيا الصغرى ، وانما حاول مد أطراف الدولة على حساب السلاجقة • أما مانويل فقد كان مغرما بالغرب اللاتينى ، فأمه كانت هنغارية وكانت زوجاته من الغرب فزوجته الأولى بيرثا Bertha أخت زوجة كونراد امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وزوجته الثانية مارى Mary التى تزوجها بعد ذلك من انطاكية • ورغم حرصه على بيزنطة العظيمة الا أنهأحب كثيرا اللاتين ، وأحاط نفسه بهم ، واتبع عاداتهم ، وكثيرا ما تأثر فى حياته اليومية فى قصره بالقسطنطينية بهذه العادات ، وحرص على تكوين صداقات وطيدة مع الصليبيين ، وعلى سبيل المثال مع الملك بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس ومع كونراد الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة(١٢٢) •

وتحالف مانويل مع كونراد الثالث يوضح من البداية ميله الى اللاتين • فقد كانت المفاوضات بين كونراد الثالث وحنا قد انقطعت بموت حنا كومنين ، ولكنها جددت فى أول عهد مانويل • وتزوج مانويل بيرثا أخت زوجة كونراد ، وهو مشروع زواج كان مقترحا منذ عهد والده حنا • وفى خطاب أرسلهكونراد الى مانويل بخصوص هذا الزواج ، كتب كونراد أن هذا الزواج يجب أن يكون دليلا « على تحالف دائم لصداقة راسخة » • وحرص الامبراطور مانويل على أن يكون كونراد « صديقا لأصدقاء الامبراطور ، وعدوا لأعدائه » • وتعهد كونراد أيضا بمساعدة الدولة البيزنطية فى حالة تعرضها لأى خطر ، ليس فقط بارسال قوات عسكرية ، بل بالحضور بنفسه على رأس كل قوات الدولة الألمانية اذا لزم الأمر • وعندما وصلت الأميرة الألمانية بيرثا الى القسطنطينية أطلق عليها اسم ايرين Irene كدليل على التحالف الذى تم بين الامبراطوريتين • وأعطى هذا

---

(١٢٢) Hussey, Byz. World, pp. 58 — 59; Vryonis, Byzantium, p. 144.

التحـالف الأمل لمـانويل كومنين فى التخلص من الخطـر الذى يهدد الدولة البيزنطية من جهة روجر الثانى • والحقيقة أن روجر لم يخاطر بمهاجمة بيزنطة نظرا لتحالفها مع الامبراطورية الألمـانية • غير أن الخطر الذى قضى على آمال مانويل تمثل فى الحملة الصليبية الثانيـة التى حرمت بيزنطة — لفترة من الزمن — من المساعدة الألمـانية ، وكان على الدولة البيزنطية أن تواجه الصليبيين والنورمان(١٢٣) •

أما عن موقف بيزنطة من الحملة الصليبية الثانية ، ففى سـنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م وهى السنة التالية لموت حنا كومنين ، استرد عماد الدين زنكى أتابك الموصـل مدينة الرها بعد أن أحاط بها من جميع الجهات ، وحال بينها وبين ما يصل اليها من الميرة والأقوات ، وأعادها الى حوزة الاسلام والمسلمين • ويعتبر استرداد عماد الدين زنكى الرها نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية ، بوصفها أولى الامارات التى أسسها الصليبيون فى الشرق ، بالاضافة الى موقعها الاستراتيجى الهام فى الطريق الموصـل بين الموصل والشام • وبالتالى فان بقاءها فى أيدى الصليبيين كان من شـأنه أن يحول دون اتحـاد القوى الاسلامية فى أعالى العراق والشام(١٢٤) •

وأحدث سقوط الرها فى أيدى المسلمين هزة كبيرة ويأسا عميقا فى الغرب الأوروبى وفى الحركة الصليبية ، وبخاصـة أنه لم يكن فى قدرة البابا — وقتذاك — يوجين الثالث Eugenius III قيـادة

---

(١٢٣) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 417 — 418.

(١٢٤) عن استرداد الرها أنظر : ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ، ابن الأثير ، حوادث سـنة ٥٣٩ ، سعيد عاشـور ، الحركة الصليبية ج ٢ ، ص ٦٠٣ — ٦٠٨ ، حـامد غنيم أبو سـعيد ، الجبهـة الاسـلامية فى عصر الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٥٩ — ٢٦٥ ، حسنين ربيع ، جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين ، ص ١٨٣ ،
Setton, Hist. of the Crusades, I, pp. 460 — 62.

الدعوة الى حملة صليبية جديدة الى الشرق • وتولى هـذا الأمر الملك لويس السابع ملك فرنسا ، صديق روجر ، وممن قـام بالدعـاية لتلك الحمـلة الصليبية الراهب برنـارد رئيس دير كليرفو Bernard of Clairvaux • وبعد أن نجح برنارد فى دعوته فى فرنسا لحمـلة صليبية ، ذهب الى المـانيا ليحث الامبراطور كونراد الثالث ، الحليف الألمـانى للامبراطور مانويل ، على الاشـتراك فى الحملة الصليبيـة المقترحـة • وسرعان ما كثر عدد المشـتركين فى الحملة الصليبيـة الثانيـة(١٣٥) •

وعندما وصلت القسطنطينية أخبار الاستعدادات لحملة صليبية ، قلق وخـاف الامبراطور مانويل ، لأنه وجد فى هـذه الحمـلة خطرا يهدد دولته ونفوذه على الأمراء الصليبيين فى بلاد الشام ، وخاصـة أمير أنطاكية • كما رأى الامبراطور البيزنطى مانويل أن اشـتراك المـانيا فى هذه الحملة الصليبية سـوف يجرد الدولة البيزنطية من الضمانات والتعهدات التى حصلت عليها من تحالفه مع كونراد الثالث ملك ألمـانيا • وخاف مانويل أنه اذا ترك كونراد بـلاده الى الشرق لمدة طويلة ، فلن يبدى اهتماما بالمصـالح الغربية للدولة البيزنطية ، مما يؤدى الى قيـام روجر بتنفيذ خططـه الطموحـة • وأمر مانويل بترميم أسوار وقلاع القسطنطينية لمـا عرفه عن الأخطار التى تعرضت لها العاصمة أثنـاء الحملة الصليبية الأولى ، دون النظر الى روابط الصـداقة التى تربطه مع كونراد • ومما يدل على مخاوفه أيضـا أنه عندما وصلت القوات الألمانية عند أسوار القسطنطينية ، عمل مانويل على نقلها الى آسيا الصغرى قبل وصـول القوات الفرنسية • ولقى الألمـان هزيمة ساحقة أمام الأتراك السلاجقة(١٣٦) •

---

(١٢٥) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 418 — 19.

(١٢٦) Ibid., II, p. 419.

وزادت هواجس الامبراطور البيزنطى عندما وصلت القوات الفرنسيه بقيادة لويس السابع • فقبل قيام لويس بحملته الصليبية حثه روجر على السفر الى الشرق عن طريق ممتلكاته فى ايطاليا • ورأى مانويل فى الملك الفرنسى حليفا سريا لروجر • وزادت مخاوفه عندما قام روجر فجأة بالاستيلاء على جزيرة كورفو Corfu ، وخرب جزرا بيزنطية أخرى • ووصل النورمان الى اليونان واستولوا على طيبه Thebes وكورنثه Corinth اللتان اشتهرتا فى ذلك الوقت بمصانع الحرير ، كما أغاروا على أثينا • ووصلت أخبار غزوات النورمان الناجحة فى اليونان بينما كان الفرنسيون يقفون تحت أسوار القسطنطينية • وقلق الملك الفرنسى لويس السابع عندما سمع خبر اتفاق مانويل مع السلطان مسعود سلطان سلاجقة الروم حكام قونية ، حتى اقترح بعض قادة الملك لويس الاستيلاء على القسطنطينية• ولمواجهة هذا الخطر المنتظر أسرع مانويل بنقل الفرنسيين الى آسيا الصغرى • وعرف الملك لويس السابع بالكارثة التى حلت بالحملة الألمانية بعد وصوله الى آسيا الصغرى ، وتقابل مع الملك الألمانى كونراد الثالث وسارا سويا • وفشلت القوات الألمانية والفرنسية فى غزو دمشق • وأخيرا غادر كونراد بلاد الشام على سفينة يونانية الى سالونيك ، حيث تقابل هناك مع الامبراطور البيزنطى مانويل الذى كان يقوم باعداد حملة حربية ضد النورمان • وهناك تناقشا واتفقا على تحالف ضد روجر الثانى ، وعاد كونراد الى ألمانيا • أما الملك الفرنسى لويس السابع فقد ظل فى الشرق عدة شهور ، وبعد أن تأكد من عجزه عن القيام بأى عمل ، وأن الحملة الصليبية لن تحقق شيئا ، عاد الى فرنسا عن طريق جنوب ايطاليا حيث التقى بروجر(١٢٧) •

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية ، وفرح الامبراطور البيزنطى

(١٢٧) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 420 — 21.

مانويل بهذا الفشل • وليس من العدل أن يتهم مانويل بأنه السبب فى فشل هـذه الحملة الصليبية ، وانما يرجع فشلها الى أسباب كثيرة منها عدم التنظيم العام بين الصليبيين ، والنزاع المستمر الذى نشب بينهم • وقد اختار رجالها أن يسلكوا الطريق البرى عبر آسيا الصغرى فى طريقهم الى الشام بدلا من الطريق البحرى المباشر ، مما أدى الى وقوع معظم رجال الحملة فريسة سهلة فى أيدى السلاجقة المسلمين • يضاف الى ذلك أن هذه الحملة الصليبية هاجمت مدينة دمشق، تلك المدينة التى كانت تقف ـــ وقتذاك ـــ موقف الصديق من الصليبيين ، بدلا من توجيه الحملة ضد مدينة حلب التى كانت مركزا هاما للجهـــاد الاسلامى ضد الصليبيين زمن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى • وانتهز نور الدين محمود الفرصـــة وتحول من الدفاع الى الهجوم استجابة لطلب معين الدين انر أتابك دمشق • ونهض نور الدين محمود وأخوه سيف الدين لنجدة دمشق ، وجاءت القوات الاسلامية لتقديم المساعدة لعاصمة الشام • وتجدر الاشارة أيضا الى أن هجمات روجر ضـــد جزر البحر الأدرياتيكى وبلاد اليونان كان لها أثرها على مصير هذه الحملة الصليبية التى انتهت بالفشل(١٢٨) •

وعلى حين فشل الصليبيون فى حملتهم الثانية ، استفاد المسلمون فائدة كبيرة • فقد استشرت فكرة الجهاد الاسلامى وتم احياؤها للقضاء على الوجود الصليبى فى بلاد الشام • ورأى نور الدين محمود أن ذلك لن يتم الا بتوحيد الجبهة الاسلامية • وفى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م استولى نور الدين على مدينة دمشق ، وقربت النهاية المحتومة للصليبيين عندما

---

(١٢٨) عن الحملة الصليبية الثانيـــة وفشلها انظر : حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص ٤٩ـــ٦٠ ، سعيد عاشـــور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٢١ ـــ ٦٣٧ ، حامد غنيم أبو سعيد ، الجبهة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٧٠ ـــ ٢٧٦ ،

Setton, Op. Cit., Vol. I, pp. 463 — 512; Hussey, Byz. World, p. 60; Vasiliev, Byz. empire, II, p. 422.

استولى اثنان من قادة نور الدين هما شيركوه وابن اخيه صلاح الدين الايوبى على مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م بعد ثلاث محاولات متتاليه • وتم القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية ، وأصبح صلاح الدين الأيوبى هو المتحكم فى حلقة القوى الاسلامية ، وبخاصه انه عاش فى ذروة عصر الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، وتعلم من نور الدين محمود فضائل كثيرة أهمها الاجتهاد فى أمور الجهاد • وأظهر صلاح الدين كفاية حربية كبيرة وخبرة عسكرية نادرة(١٢٩) •

أما بالنسبة للدولة البيزنطية فقد اتخذ مانويل اجراءات هامة لشن حرب ضد روجر نظرا لحملاته العدائية ضد ممتلكات الدولة البيزنطية فى البحر الأدرياتيكى واليونان ، ولاستيلائه على جزيرة كورفو • وكان من الطبيعى أن تقلق مدينة البندقية لقوة النورمان المتزايدة ، وبالتالى كانت على استعداد لتقديم المساعدات الحربية لبيزنطة مقابل مزيد من الامتيازات التجارية فى مدن الدولة البيزنطية • وبمساعدة الأسطول البندقى استرد الامبراطور مانويل جزيرة كورفو • وتأكد روجر من خطورة التحالف الذى تم بين البيزنطيين والألمان ، فقد وعدت الامبراطورية الألمانية بيزنطة بارسال جيش برى لمساعدتها ، واستعدت البندقية لارسال اسطول أيضا ، لهذا انتهز روجر فرصة غضب وسخط الملك الفرنسى لويس السابع من فشل الحملة الصليبية الثانية وموقف البيزنطيين الذين سببوا هذا الفشل ، وعقد مع الملك الفرنسى اتفاقا وديا ، وأخذا يعدان العدة لحملة صليبية ضد بيزنطة ذاتها(١٣٠) •

وفى الوقت الذى توقع فيه مانويل الحصول على مساعدة الألمان مات كونراد الثالث سنة ١١٥٢م ، ولم يكن خليفته فردريك الأول

---

(١٢٩) انظر حسنين ربيع ، جهاد صلاح الدين الأيوبى ضد الصليبيين، ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(١٣٠) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 422 — 423.

بربروســا Frederick I Barbarossa على اســتعداد لمســايرة الامبراطور البيزنطى لتحقيق اهدافه لأنه كان يؤمن بقوة امبراطوريته ، وهى — فى رأيه — قوة لا حدود لها منحها الله له • وبالتالى لم يقبل بأن يقتسم مع الامبراطورية الشرقية نفوذ الامبراطورية الرومانية المقدسة فى ايطاليا • بل اعتقد فردريك الأول انه يجب عليه أن يحكم ايطاليا كلها بنفسه بما فى ذلك مملكة صقلية فى الجنوب • وفى سنة ١١٥٣ م أخبر فردريك الأول البابا يوجين الثالث بأنه لن يتنازل عن « أية بلاد على هذا الجانب من البحر الى ملك الروم »(١٣١) • وعقد الامبراطور فردريك الأول معاهدة مع البابا ذكر فيها اسم مانويل مسبوقا بلقب rex (ملك) وليس imperator (امبراطور) كما كان يلقبــه ســلفه كونراد(١٣٢) •

وفى سنة ١١٥٤ مات روجر الثانى النورمانى عدو بيزنطة • وأخذ خليفته وليام الأول William I على عاتقه انهاء التحالف الالمانى — البيزنطى ، والتحالف القديم بين البيزنطيين والبنادقة • وخافت البندقية من خطط مانويل التى قصد بها اقامة نفوذ لبيزنطة فى ايطاليا ، واعتبرت البندقية هذا الأمر فى غاية الخطورة مثل استيلاء النورمان على شاطىء البحر الأدرياتيكى المواجه للبندقية • ورأت البندقية أيضا أن تحكم أية قوة من القوى على كلا شاطىء البحر الادرياتيكى سوف يحول دون ابحار سفن البندقية فى هــذا البحر فضــلا عن البحر المتوسط ، ولهذا خرجت البندقية من تحالف مع الدولة البيزنطية وحصلت على امتيازات تجارية فى صقلية ، وعقد تتحالفا مع وليام الأول • وفى ايطاليا الحق وليام هزيمة ساحقة بقــوات مانويل عند برنديزى Brindisi فى سنة ١١٥٦ • وأوضحت حملة مانويل الفاشلة الى ايطاليا لفردريك بربروسا أن الدولة البيزنطية تريد غزو ايطاليا ، فأنهى تحالفه معها ،

---

(١٣١) Hussey, Byz. world, p. 60; Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 423 — 4

(١٣٢) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 424.

وقضى على آمال الامبراطور مانويل فى استرداد ايطاليا واعادة النفوذ البيزنطى اليها(١٣٣) ٠

وفى سنة ١١٥٨ م تم عقد معاهدة سلام لمدة ثلاثين سنة بين الامبراطور البيزنطى مانويل وحاكم صقلية وليام النورمانى ٠ وفى هذه المعاهدة تنازلت الدولة البيزنطية عن آمالها وأحلامها ٠ ولم تدخل الجيوش البيزنطية ايطاليا مرة أخرى أبدا ٠ وعرف مانويل وقتذاك عدوه الحقيقى خلال تلك السنوات الباقية من حكمه ، فقد كان عدوه اللدود هو فردريك بربروسا ٠ يضاف الى ذلك أن النتائج برهنت على فشل مانويل فى سياسته الايطالية ٠ وآثارت سياسته معارضة شديدة ضده ؛ ولم تسمح الموارد المالية للدولة البيزنطية بتحقيق أى احياء للامبراطورية الرومانية ٠ وقاده طموحه الى محاولة تحقيق شيء مثالى ، برهنت الحوادث على استحالة تحقيقه مثل ذلك المشروع الذى أراد الصليبيون تحقيقه فى الشام وفلسطين(١٣٤) ٠

آما فى الشرق ، فقد تأرجحت جهود الامبراطور مانويل كومنين بين النجاح والفشل ٠ وقد ساعده فى الشرق الضعف الذى انتاب الامارات الصليبية ٠ وكما فعل حنا الثانى كومنين من قبل ، حرص مانويل على استمرار سيادته على الأمير الأرمنى فى قيليقية (١١٥٨م)٠ ثم امتدت تلك السيادة الى انطاكية ٠ فقد تأكد زوج أميرة انطاكية وهو الفارس الفرنسى رينودى شاتيون (ريجنالد) Reginald of Chatillon — الذى عرفه العرب باسم أرناط — أنه لن يستطيع مقاومة القوات البيزنطية ، وقرر الاعتراف بسيادة الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين والخضوع لبيزنطة ، والذهاب الى معسكر الامبراطور ٠

---

(١٣٣) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 424 — 425.

(١٣٤) Hussey, Byz. World, p. 60; Vasiliev, Byz. empire, II, p. 425.

وبينما كان الامبراطور مانويل مقيما عند المصيصة Mamistra فى قيليقيه ، وصل رينودى شاتيون الى معسكر مانويل • ويحدثنا المؤرخ المعاصر وليم الصورى William of Tyre (١١٣٠—١١٨٤م) عن ذلك بان زوج أميرة انطاكية دخل الى حضرة مانويل حافى القدمين ، مرتديا الصوف ، وأحاط رقبته بحبل ، وأخرج سيفه من غمده ، وسلم الامبراطور مقبض السيف ممسكا هو بطرفه ، ثم انبطح على الأرض وسأله العفو • وعقب وليم الصورى على ذلك بقوله بان مجد اللاتين (الصليبيون) تحول الى عار(١٣٥) •

وشبه أحد الباحثين ذلك الحـادث بحادث كانوسا المشـهور فقد اعترف صاحب انطاكية بسلطة الدولة البيزنطية العليا على امارة انطاكية الصليبية • ومنـذ ذلك الوقت وحتى موت الامبراطور مانويل كومنين سنة ١١٨٠ م ظلت انطاكية تعترف بالسيادة البيزنطية سواء من الناحية النظرية أو من الناحية العملية(١٣٦) • وفسرت الاستاذة هسى Hussey

---

(١٣٥) عن تفاصيل ذلك الحادث انظر
William of Tyre, History of Deeds, Vol. II, pp. 275 — 277;
وانظر ايضـا :
Vasiliev, Byz. Empire, II, p. 426; Hussey, Byz. World, p. 61

(١٣٦) La Monte, "To what extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the latin Crusading states", pp. 255 256.

وحادث كانوسا هو ان البابا جريجورى السابع اصدر سنة ١٠٧٦ قرار الحرمان ضد الامبراطور الالمانى هنرى الرابع وعزله من منصبه وذلك اثناء النزاع بينهما حول مشكلة التقليد العلمانى . وعقد امراء المـانيا واساقفتها مجمعا فى اكتوبر ١٠٧٦ قرروا فيه الخروج عن طاعة هنرى الرابع حتى يغفر له البابا . واضطر هنرى الرابع الى أن يرحل سرا الى البـابا الذى كان محتميا فى قلعة كانوسا التابعة لأميرة تسكانيا ماتيلدا . ومكث الامبراطور ثلاثة ايام امام ابواب القلعة وسط الجليد فى ينايـر ١٠٧٧ حتى نعطف البابا وسمح له بالمثول بين يديه بشرط التسليم للبابوية بكل ما نطلبه دون قيد . وكان هذا قمة الاذلال للامبراطورية ، انظر سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٣٤٢ — ٣٤٥ .
Tout, The Empire and the Papacy, pp. 130 32.

ذلك بان خضوع انطاكية لبيزنطة كان بمثابة الاذلال الكبير لها لأنها وعدت القسطنطينية ليس فقط بمساعدة حربية ، ولكن بمنحها الحق الثمين الذى دار عليه الجدل طويلا ، وهو حق تعيين بطريرك الكرسى الأسقفى القديم فى أنطاكية(١٣٧) •

وحضر أيضا ملك مملكة بيت المقدس الصليبية بلدوين الثالث Baldwin III الى حضرة الامبراطور فى معسكره فى المصيصة • واستقبله الامبراطور مانويل بحفاوة بالغة ، وأجلسه الى جواره على مقعد منخفض عنه قليلا ، وأرغمه على عقد معاهدة معه تعهد فيها بتقديم مساعدة حربية للامبراطور البيزنطى(١٣٨) •

وفى ابريل سنة ١١٥٩ دخل الامبراطور مانويل كومنين مدينة انطاكية • وكان لهذا الحادث أبلغ الأثر فى نفوس المعاصرين ، وتحدث عنه باسهاب وليم الصورى فى كتابه • فقد دخل مانويل المدينة ممتطيا جواده محاطا بالأمير رينودى شاتيون والأمراء الصليبيين الآخرين ، يسيرون على أرجلهم ولا يحملون سلاحا ، وخلفهم سار ملك بيت المقدس ممتطيا جواده دون أن يحمل سلاحا أيضا • وسار الامبراطور البيزنطى فى شوارع انطاكية المزينة بالسجاجيد والزينات والزهور وسط أصوات الطبول والأبواق والأغانى • ووصل الامبراطور الى كنيسة انطاكية بصحبة البطريرك • واستمرت الأعلام البيزنطية مرتفعة فوق أسوار المدينة لمدة ثمانية أيام(١٣٩) •

---

(١٣٧) Hussey, Byz. World, p. 61.

(١٣٨) William of Tyre, Op. Cit. , Vol. II, pp. 277 — 9; Vasiliev, Byz. empire, II, p. 426.

(١٣٩) عن دخول مانويل أنطاكية أنظر :
William of Tyre, Op. Cit. , II, pp. 279 — 81;
وانظر أيضا :
La Monte, "To what extent was the Byzantine Empire, p. 259; Vasiliev Byz. empire, II, p. 427.

ولا شك أن خضوع رينو دى شاتيون ودخول مانويل مدينة انطاكية سنة ١١٥٩ يدلان على نجاح سياسة بيزنطة تجاه الصليبيين فى عصر مانويل ، وهى السياسة التى حققت أخيرا نجاحا بعد أكثر من ستين سنة من الجهود والنزاع(١٤٠) • ومما يدل على سيادة الدولة البيزنطية على مملكة بيت المقدس الصليبية فى عصر مانويل تلك المعاهدة التى عقدت بين بلدوين الثالث ومانويل سنة ١١٥٩ ، وضمن بها بلدوين مساعدة بيزنطة ضد المسلمين ، وكذلك نقش على لوحة فى كنيسة الميلاد فى بيت لحم يرجع الى سنة ١١٦٩ جاء فيه اسم مانويل قبل اسم عمورى الأول Amaury I ملك بيت المقدس الذى خلف بلدوين الثالث ، وكذلك الاتفاق الذى تم بين الملك الصليبى عمورى الأول والامبراطور مانويل سنة ١١٧١م(١٤١) •

ولقى الامبراطور مانويل نجاحا مماثلا على الحدود الشمالية للدولة البيزنطية فى بلاد البلغار • فقد تدخل هذا الامبراطور — مثل والده حنا من قبل — فى موضوع وراثة عرش بلغاريا • وفكر فى اخضاع بلاد البلغار كلها لسلطانه • واقترح مانويل — قبل أن يرزق ولدا — حلا جديدا لانهاء النزاع بين بلغاريا والقسطنطينية ، وهو أن يتزوج بلا Bela وريث العرش البلغارى من ابنة مانويل ، وأن يخلفه على العرش الامبراطورى • وبالتالى كانت خطة مانويل هى ضم بلغاريا الى الدولة البيزنطية الى حين ولادة ابن ذكر له فيقوم حينئذ بتغيير خطته • وفى بلاد الصرب نجح مانويل أيضا فى استمرار سيادته على ستفن نيمانيا Stephen Nemanya مؤسس أسرة زوبان Zupan الشهيرة • واحتفل مانويل بنفوذه هذا عندما دخل القسطنطينية فى مثل ذلك الموكب والمشهد الذى حدث قبل ذلك عندما دخل مدينة انطاكية سنة ١١٥٩م(١٤٢) •

(١٤٠) Vasiliev, Byz. empire. II, p. 427.
(١٤١) La Monte, "To what extent", p. 258.
(١٤٢) Hussey, Byz. world, pp. 61 62.

وانتقل العداء بين الدولة البيزنطية والغرب اللاتينى الى العلاقات بين اللاتين واليونانيين فى القسطنطينية نفسها • وتزايد الشعور العدائى تجاه اللاتين فى العاصمة وبخاصة أنه كان يوجد فى داخل الدولة البيزنطية عداء مستحكم ضد البنادقة الذين تدفقوا على بيزنطة وحصلوا على امتيازات تجارية كانت عبئا ثقيلا عليها • وتضايقت مدينة البندقية لنفوذ مانويل المتزايد فى البلقان ، ولضمه ساحل دالماشيا • وظهر ذلك الشعور العدائى تجاه البنادقة عندما تحالف مانويل مع بيزة ثم جنوة سنة ١١٦٩ لضرب مصالح البنادقة فى الامبراطورية • وفى ١٢ مارس سنة ١١٧١ تم القبض على جميع البنادقة فى بيزنطة ، وصودرت تجارتهم وسفنهم ، ولم تعد تلك الامتيازات التجارية للبنادقة الا فيما بعد(١٤٣)•

أما فى آسيا الصغرى فقد انقلبت العلاقات الودية التى ربطت بين البيزنطيين وسلاجقة الروم الى عداء مرير جنت منه بيزنطة خسارة فادحة • فقد اتصفت علاقات بيزنطة بالسلطان السلجوقى قلج أرسلان بالود لبضع سنين • وفى سنة ١١٦١ — ١١٦٢ زار السلطان السلجوقى قلج أرسلان مدينة القسطنطينية حيث استقبل استقبالا حافلا • وقضى السلطان ثمانين يوما فى القسطنطينية ، شاهد فيها ثروات وكنوز العاصمة البيزنطية • وشاهد السلطان السلجوقى أيضا اثناء مقامه فى القسطنطينية استعراضات كثيرة أقيمت فى شرف السلطان بعضها استعراضات بحرية ، وشاهد فيها عرضا للنيران الأغريقية • ولم تكن النتائج السياسية لزيارة قلج أرسلان للقسطنطينية ذات أهمية كبيرة ، فقد تم عقد معاهدة صداقة ، ولكنها لم تستمر سوى وقت قصير(١٤٤)•

فقد انتهز قلج أرسلان فرصة انغماس مانويل كومنين فى سياسته الايطالية والألمانية ، واهماله الدفاع عن الاقاليم البيزنطية فى آسيا

---

(١٤٣) Vryonis, Byzantium, p. 145 ; Hussey, Byz. World, p. 62.
(١٤٤) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 427 — 8.

الصغرى ، وقام بمحاولة للقضـــاء على منافســـيه من الدانشمند أمراء قبادوقيا المسلمين ، لكى يجعل قوة السلاجقة مصدر تهديد خطير للدولة البيزنطية مرة أخرى(١٤٥) • ودخل فردريك بربروسا فى مفاوضات مع سلطان قونيه السلجوقى وحرضه ضد الامبراطور مانويل وحثه على غزو الدولةالبيزنطية • وكان غرض فردريك هو تحويل انتباه مانويل كومنين عن التدخل فى شئون أوروبا(١٤٦) •

وفى سنة ١١٧٦ خرج مانويل كومنين على رأس حملة لمهاجمـــة العاصمة السلجوقية قونية Iconium وعندما تحرك البيزنطيون من غرب آسيا الصغرى الى ممرات الجبال التى تؤدى الى السهول ، لقوا خسائر كبيرة من قبائل التركمان العديدة التى كانت تعيش على الحدود الفاصلة بين السلاجقة والبيزنطيين • واثناء مرور الجيش البيزنطى فى أحد ممرات فريجيا ، حاصر السلاجقة الأتراك الجيش البيزنطى ، وعند بلدة مريوكيفالون Myriocephalon جرت معركة هامـــة فى ١٧ سبتمبر ١١٧٦ • وهزم سلاجقة الروم البيزنطيين هزيمة ساحقة ، ونجا الامبراطور البيزنطى بصعوبة • وهذه المعركة الهـــامة سجلهـــا المؤرخ البيزنطى نيقتاس خونياتس Nicetas Choniates وغيره ، ووصفها الأستاذ فريونس Vryonis بأنها كانت منازكرد ثانية العســـكريه البيزنطية ، تلك المعركة التى حدثت قبل ذلك بقرن من الزمـــان • وقال شارل ديل Charles Diehl معقبا على نتائج هذه المعركة بأن بيزنطة فقدت فى يوم واحد (١٧ سبتمبر ١١٧٦) كل المكاسب السابقة التى عمل من أجلها الأباطرة السابقون • ووضعت هـــذه المعـــركة نهايـــة لســـيادة بيزنطة على آسيا الصغرى الى الابد • وقبل مانويل شروط السلطان قلج أرسلان ، وتم تدمير بعض التحصينات البيزنطية فى آسيا الصغرى،

(١٤٥) Vryonis, Byzantium, p. 144.

(١٤٦) Hussey, Byz. World, p. 62; Vasiliev, Byz. empire II, pp. 425 --- 26:

وأقلع البيزنطيون عن تحقيق أى أمل لطرد الأتراك من آسيا الصغرى • وفى خلال السنوات الباقية من القرن الثانى عشر توغلت القبائل التركمانية متتبعين الأنهار من منابعها على الجبال حتى مصباتها فى البحر الايجى(١٤٧) •

وبعد هزيمة مانويل أمام السلاجقة أرسل فردريك بربروسا فى لحظة ابتهاجه خطابا الى الامبراطور البيزنطى مخبرا اياه بأن الأباطرة الألمان الذين تلقوا سلطتهم من الأباطرة الرومان العظام ، يجب عليهم أن يحكموا ليس فقط الامبراطورية الرومانية بل أيضا «المملكة اليونانية» أى الدولة البيزنطية ، وأن على مانويل القيام بالتنازل عن لقب (ملك الروم) الى الامبراطور الرومانى • ولما كان فردريك بربروسا قد أعلن نفسه وريثا لأباطرة الرومان ، لذلك رأى أن يمتد سلطانه على بلاد الروم (الدولة البيزنطية) ذاتها(١٤٨) •

وهكذا أضعفت مشروعات مانويل موارد الدولة المالية ، وبرهنت على استحالة ابقاء سيادته على كل من أوروبا والشرق الأدنى أمام دول غربية لاتينية مسيحية وحلقة قوية من القوى الاسلامية • واذا كان انهيار الدولة البيزنطية قد بدأ بعد موت باسيل الثانى سنة ١٠٢٥ ، أى فى عصر الأسرة المقدونية ، ونجح كل من الكسيوس كومنين وحنا كومنين فى تأخير سرعة هذا الانهيار ، الا أنهما فشلا فى ايقافه • أما السياسة الخاطئة التى اتبعها مانويل كومنين فقد قادت الدولة البيزنطية مرة أخرى الى طريق الانهيا ر، بل الى الانهيار التام(١٤٩) •

---

(١٤٧) Vryonis, The Dec'ine of medieval Hellenism in Asia Minor, pp. 123 — 26; Vryonis, Byzantium, pp. 144 — 5; Charles Diehl, Byzantium, p. 208; Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 428 — 30; Ostrogorsky, Byz. State, pp. 390 — 91.

(١٤٨) Vasiliev, Byz. empire, II. p. 430; Hussey, Byz. Wor'd. p. 62.

(١٤٩) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 432.

وعندما مات مانويل كومنين سنة ١١٨٠ كانت الدولة البيزنطية تعانى من التدهور والضعف والانهيار • فقد ازداد نفوذ عائلات أصحاب الضياع الكبيرة الذين استفادوا من نظام البرونويا Pronoia بما منحهم من حقوق مالية وقضائية • وأضعف ذلك من سلطة الدولة ، كما واكبه سوء الأحوال الاقتصادية ، وكثرة الضرائب ، وما حدث لتجارة بيزنطة التى أصبحت فى أيدى التجار الأجانب اللاتين(١٥٠) •

وتولى عرش الدولة البيزنطية بعد موت مانويل كومنين ابنه القاصر الكسيوس الثانى Alexius II (١١٨٠ — ١١٨٣) ، وأصبحت أمه ماريه Maria — وهى من انطاكية — هى الحاكمة للامبراطورية ، بينما تركت لعشيقها واسمه الكسيوس كومنين ، ابن أخ مانويل ، تدبير كل أمور الدولة(١٥١) •

واضطربت الأمور فى القسطنطينية وثار سكان العاصمة فى ابريل ١١٨٢ م نتيجة اسيطرة اللاتين على أحوال الدولة الاقتصادية ، وساعدوا سنة ١١٨٣ أندرونيقوس الأول Anderonicus I ابن عم مانويل فى انتزاع الحكم من الكسيوس الثانى وأمه اللاتينية • وأدى الشغب الذى جرى فى شوارع العاصمة فى ابريل ١١٨٢ الى هجوم على أرواح وممتلكات اللاتين فى المدينة • واذا يرى البعض أن حوادث سنة ١١٧١ ، عندما تم القبض على جميع البنادقة فى أنحاء الدولة البيزنطية ، وحوادث سنة ١١٨٢ م كانت علامة هامة أدت الى الغزو اللاتينى للقسطنطينية سنة ١٢٠٤ م • فالبنادقة كانوا قدحصلوا على أقصى ما يمكن الحصول عليه من الامتيازات التجارية والتنازلات من الدولة البيزنطية ، وكل الذى بقى لهم كان الغزو العسكرى للقسطنطينية ، وهو الذى تم

---

(١٥٠) Hussey, Byz. world, pp. 62 — 63.
وعن نظام البرونويا انظر ما سبق ، ص ١٧٣ ، ١٩٩ — ٢٠٠ •

(١٥١) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 432 — 433.

سنة ١٢٠٤(١٥٢) •

ومن المعروف أن اندرونيقوس لم يكن على وفاق أبدا مع الامبراطور مانويل كومنين ، وعاش حياة قاسية متجولا فى قصور عدد من الحكام فى الشرق الأدنى•ونظرا لعدم تمسكه بالتقاليد فقد حث تيودورا كومنين أرملة بلدوين الثالث ملك بيت المقدس على الفرار معه • وظهر عدم تمسكه بالتقاليد أيضا أنه برغم كبر سنه ، فقد بلغ ٦٣ أو ٦٥ سـنة من العمر عندما تولى عرش بيزنطة ، الا أنه أراد أن يقوى مركزه فى الحكم فتزوج من أرملة الكسيوس الثانى وهى الأميرة آن الفرنسية ، التى كانت — وقتذاك — فى الثالثة عشرة من عمرها(١٥٣) •

وواجه الامبراطور اندرونيقوس الأول مشكلتين عويصتين فى أحوال بيزنطة الداخلية وهما :

(١) ان يخلص الدولة البيزنطية من الامتيازات التى يتمتع بهـا اللاتين ، ويقوى السلطة المحلية الوطنية •

(٢) أن يضعف الارستقراطية القابضة على الوظائف وكبار أصحاب الضياع الذين سببوا انهيار واختفاء طبقة المزارعين •

وكانت هذه مهمة كبيرة • وأثناء قيامه بمحاولات الاصلاح قام أندرونيقوس بزيادة مرتبات كثير من الموظفين حتى يقلل من انتشار الرشـوة ، وعين جماعة من الأمنـاء الأكفاء كقضاة ، وخفف الأعبـاء الضرائبيـة ، وفرض عقوبات قاسية على جامعى الضرائب الذين عملوا لحسابهم ، واتخذ اجراءات حاسمة ضد أصحاب الضياع الكبيرة وكثير من أفراد الطبقة الارستقراطية • ووجد الامبراطور اندرونيقوس الأول

---

(١٥٢) Vryonis,Byzantium, p. 145.

(١٥٣) Hussey, Byz. world, pp. 63 — 64; Vasiliev, Byz. empire. II, p. 433.

نفسه فى صراع مع الأرستقراطية البيزنطية التى وصل أفرادها الى هذه الطبقة الاجتماعية عن طريق الوراثة أو تراكم الثروة • وبطبيعة الحال فشل الامبراطور فى القيـــام بحركة اصـــلاح جذرية للنظـــام الاجتماعى البيزنطى ، لأنه كان نتيجة تطورات تاريخية متعاقبة • ولم يكن حتى لامبراطور عظيم مثل باسيل الثـــانى أن ينجح فى القضـــاء على المشكلات التى كانت تعانى منها الدولة البيزنطية فى نهاية القرن الثانى عشر • وانتظر أعضاء الطبقة الارستقراطية من كبـــار أصحاب الضياع أول فرصة للتخلص من اندرونيقوس الأول ، ولكى يضعوا على عرش بيزنطـــة امبراطورا يســـير على خطى الأباطرة الثـــلاث الأول من آل كومنين(١٥٤) •

وانتهز النورمان المشكلات الداخلية التى واجهت الدولة البيزنطية وتفاقمت فى عصر أندرونيقوس ، وقام وليام الأول حاكم صقلية بتجهيز حملة حربية ضد بيزنطة • ولم يكن هدف وليام هو الانتقام لكارثة اللاتين التى حلت بهم سنة ١١٨٢ أو تأييد مطالبته بالعرش البيزنطى ، بل كان قصده وهدفه هو الاستيلاء على العرش البيزنطى لنفســـه • وقـــرر أندرونيقوس الدخول فى مفاوضـــات مع القوى اللاتينيـــة فى الغرب والقوى الاسلامية فى الشرق ، فعقد معاهدة مع البندقيـــة قبل بداية سنة ١١٨٥ ، كما أنه تقـــرب الى البـــابا فى روما لكى يضمن تأييـــده ومســـاندته ضـــد النورمـــان ، مقـــابل أن يمنح الامبراطور البيزنطى أندرونيقوس بعض الامتيازات للكنيسة الكاثوليكية(١٥٥) •

واتصل الامبراطور البيزنطى أندرونيقوس الأول بأقوى حاكم مسلم فى الشرق فى عصره وهو صـــلاح الدين الأيوبى الذى نجح فى

---

(١٥٤) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 433 — 5; Hussey, Byz. World, p. 64.

(١٥٥) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 436.

توحيد الجبهة الاسلامية بعد وفاة نور الدين محمود • فقد دخل الناصر صلاح الدين مدينة دمشق وهزم الزنكيين فى موقعة قرون حماه سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٥م ودخل مدينة حلب ، ثم هزم الزنكيين للمرة الثانية فى موقعة تل السلطان على الطريق بين حلب وحماه سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م ومد سلطانه على مدينة الموصل • وأرسل له الخليفة العباسى تقليدا بولاية مصر والشام ، وشرع صلاح الدين فى تصفية الوجود الصليبى من بلاد الشام بعد ان وضع الصليبيين بين شقى الرحى(١٥٦) • وفى يونيه سنة ١١٨٥ — أى قبل وفاة اندرونيقوس الأول بوقت قصير — أرسل الامبراطور البيزنطى سفارة الى صلاح الدين يستعيد بها ماكان بينهما من صداقة • والحقيقة كما أشار الأستاذ اهرنكرويتز Ehrenkreutz أنه فى الربع الاخير من القرن الثانى عشر الميلادى ، تقارب كل من البيزنطيين والأيوبيين لمواجهة عدوهما المشترك • فالنورمان فى صقلية كانوا ذا خطر على مصر كما هو الحال بالنسبة لبيزنطة ، وسلاجقة الروم فى قونيـة استولوا على كثير من الأقاليم البيزنطية فى آسيا الصغرى، وهددوا مصالح صلاح الدين فى شمال الشام ، وجزيرة قبرص التى ثارت ضد القسطنطينية تتطلعت لكى ترث الصليبيين فى المستقبل • يضاف الى ذلك أن الصليبيين وحلفاءهم فى غرب أوروبا كونوا جبهة عدائية ضد البيزنطيين وكذلك ضد الأيوبيين(١٥٧) •

واقترح الامبراطور البيزنطى اندرونيقوس الأول — عن طريق سفارته لصلاح الدين التى وصلت فى صيف سنة ١١٨٥ — قيام تحالف بينهما ، وأن يقوما بفتح فلسطين وأن تقسم بينهما على أن ينال البيزنطيون بيت المقدس والمدن الساحلية ماعدا عسقلان • وأنه اذا تم الاستيلاء على آسيا الصغرى ، فسوف تعود الى الدولة البيزنطية حتى انطاكية وأرمينية • وفى مقابل ذلك وعـد أندرونيقوس صـلاح الدين

---

(١٥٦) حسنين ربيع ، جهاد صلاح الدين الأيوبى ضـد الصليبيين ، ص ١٨٤ •

(١٥٧) Ehrenkreutz, Saladin, pp. 198 — 9.

المساعدة فى صراعه ضد الصليبيين فى الشام • ورد صلاح الدين على هذه السفارة غير معروف ، ومن المحتمل أن شروط هذا التحالف لم يكن مقبولا لدى صلاح الدين • لأن القسطنطينية ادعت دون وجه حق نوعا من السيادة ، وطالبت بتنازلات كثيرة فى فلسطين بما فى ذلك بيت المقدس ومختلف المدن الساحلية • وعرض صلاح الدين شروطه الخاصة للتحالف المقترح ، وعارض ادعاءات بيزنطة فى السيادة ، بل اقترح منح الكنائس اللاتينية فى فلسطين حق اتباع المذهب الذى تدين به القسطنطينية • وكانت هذه حركة ذكية ماهرة من صلاح الدين قصد بها استمالة المسيحيين اليونانيين فى مملكة بيت المقدس الصليبية لجانب الأيوبيين قبيل جهاده لاسترداد بيت المقدس(١٥٨) •

وقبل وصول رد صلاح الدين الى القسطنطينية توالت الكوارث على الدولة البيزنطية • فقد أعلن اسحاق كومنين حاكم قبرص استقلاله عن بيزنطة •ونظرا لعدم وجود أسطول لدى اندرونيقوس فقد عجز عن القضاء على ثورة اسحاق وفقدت بيزنطة قبرص • وكان فقد قبرص ضربة عنيفة للدولة البيزنطية لما لقبرص من أهمية استراتيجية كبيرة وأهمية تجارية ، اذ كانت ترد منها لخزانة الامبراطورية موارد مالية كثيرة من تجارتها النشطة مع الامارات الصليبية • وجاءت الضربة

---

(١٥٨) Brand, "The Byzantines and Saladin", **Speculum Vol.** 37 (1962), pp. 168 – 169; Ehrenkreutz, Saladin, p. 199; Ostrogorsky, Byz. State, p. 399 ;

والمصدر الوحيد عن سفارة اندرونيقوس لصلاح الدين هو :
Franz Dolger, ed. , **Regesten der Kaiserurkunden des Ostromischen Reichs Von 565 — 1453,** Corpus der griechischen Urkunden des Mittelolters und der neueren zeit, Reihe A, Abt. I (Munich and Berlin, 1924 — 1960), No. 1563 .

وهو خطاب مجهول من المحتمل انه يرجع الى شتاء سنة ١١٨٨ م لتفصيل ذلك أنظر :
Brand, "The Byzantines and Saladin", p. 168 note 2 and p. 181.

القاضية لحكم آندرونيقوس من الغرب عندما هاجم النورمان بقيادة وليـام الأول دورازو واستولوا عليهـا ، ثم اتجهوا الى سـالونيك وحاصروها برا وبحرا لمدة عشرة أيام • ويبدو أن البندقية وقفت على الحياد فى هذه المرحلة • وفى أغسطس سنه ١١٨٥ م سقطت سالونيك فى ايدى النورمان وهى المدينـة التالية فى الأهميـه للقسطنطينية • وأحدث النورمان فيها مذبحة انتقاما لمـا حدث فى مذبحة اللاتين فى القسـطنطينية سـنه ١١٨٢ م • وما أن وصلت هـذه الأخبـار الى القسطنطينية حتى ثار سكانها ضد اندرونيقوس واتهموه بعدم قيامه بالاستعدادات اللازمة لمقاومة الأعداء • وعزل اندرونيقوس ومات بعد أن تعرض للتعـذيب وبعـد أن تمت المنـاداة باسـحاق انجيلوس Isaac Angelus امبراطورا(١٥٩) •

وتلقى الامبراطور الجديد اسحاق الثانى انجيلوس اجابة صلاح الدين على سفارة سلفه اندرونيقوس والتى من المحتمل أن تكون قـد احتوت على صيغة معاهدة مقترحة أعدت من جديد ، رفض صـلاح الدين فيها ادعاءات بيزنطـة فى السـيادة • فقد استقبل الامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس رد صلاح الدين بترحاب ، فقد كان فى حاجة الى حليف بعد أن هدد النورمان العاصمة البيزنطية نفسها • وصادق

(١٥٩) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 437 — 8; Vryonis, Byzantium, p. 145.

انتهت اسرة كومنين بثورة سنة ١١٨٥ ، وتولى عرش الدولة البيزنطية فى الفترة من سنة ١١٨٥ الى سنة ١٢٠٤ م أباطرة من بيت انجيلوس • وتنسب هذه الأسرة الى قسطنطين انجيلوس Constantine Angelus الذى كان معاصرا لالكسيوس كومنين ، وتزوج من ابنـة الكسـيوس • وقسطنطين انجيلوس هو جد اسحاق الثانى انجيلوس أول أباطرة هـذه الأسرة التى تنتمى الى أسرة كومنين من ناحية الأم • وأباطرة هذه الأسرة : اسحاق الثانى (١١٨٥ — ١١٩٥ م ثم من ١٢٠٣ — ١٢٠٤ م) ، والكسيوس الثالث (١١٩٥ — ١٢٠٣ م) ، والكسيوس الرابع (١٢٠٣ — ١٢٠٤ م) • انظـر :

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 438.

الامبراطور اسحاق الثانى انجيلوس على المعاهدة مع صلاح الدين ، واستدعى اخاه الكسيوس الذى كان مقيما فى بلاط صلاح الدين(١٦٠).

وتسربت الأشاعات عن التحالف البيزنطى ـ الاسلامى الى الصليبيين ، ولذلك عندما مر الكسيوس انجيلوس Alexius Angelus بعد ذلك فى طريقه الى القسطنطينية قبض عليه كونت طرابلس و... • وعندما علم بهذه الاهانة الامبراطور البيزنطى اسحاق كتب الى حليفه صلاح الدين وحثه على مهاجمة الصليبيين لاطلاق سراح أخيه الكسيوس ، وكان ذلك فى الوقت الذى بلغت فيه علاقة صلاح الدين مع مملكة بيت المقدس الصليبية الى ذروة العداء بعد ان انتهك حاكم حصن الكرك ارناط (رينو دى شاتيون) الهدنة المعقودة بين صلاح الدين والصليبيين • ففى أواخر سنه ٥٨٢هـ / ١١٨٧م انقض أرناط على قافلة المسلمين فى طريقها من القاهرة الى دمشق ، واستولى على ما تحمله من ثروة ومتاع ، وأخذ جماعة من المسلمين أسرى دون مبالاة بالعهود • وعندما ارسل صلاح الدين الى أرناط ينكر هذا العمل ويطلب منه رد ما استولى عليه من المسلمين واطلاق سراح الأسرى ، امتنع • وغضب صلاح الدين ونذر دم أرناط وأعلن الجهاد وجاءته العساكر من كل مكان فى دولته الكبيرة • وفى صباح يوم السبت ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ/ ٤ يوليو ١١٨٧ م التقى صلاح الدين بجيوش الصليبيين عند قرون حطين ، وكانت هزيمة ساحقة للصليبيين • وأسر المسلمون جاى لوزجنان ملك بيت المقدس ، وأرناط صاحب حصن الكرك وغيرهما من أكابر الصليبيين • وأصبح الصليبيون بعد هزيمتهم فى حطين تحت رحمة صلاح الدين الذى أخذ يفتح البلاد والمدن والموانىء الهامة : مثل عكا وحيفا وقيسارية وأرسوف ونابلس وصيدا وغزة وغيرها • وتوج صلاح الدين انتصاراته باسترداد بيت المقدس فى

---

(١٦٠) Brand, "The Byzantines and Saladin", p. 169; Ehrenkreutz, Saladin, p. 199; Ostrogorsky, Byz. State, pp. 406 7.

٢٧ رجب ٥٨٣ هـ/٢ أكتوبر ١١٨٧ م(١٦١) .

أما بالنسبة للدولة البيزنطية فالحقيقة — كما سبق القول — ان التحالف مع صلاح الدين كان ركن الزاوية فى سياسة بيزنطة الخارجيه فيما بين سنتى ١١٨٥ و ١١٩٢ م . فقد اعتمدت الدولة البيزنطية على القوة الاسلامية الكبيرة فى مصر والشام ، اى قوة صلاح الدين للوقوف فى وجه أخطار النورمان والبيازنة والجنوية وامبراطور ألمانيا والبابا(١٦٢) . وقد أورد أبو شامة فى كتاب الروضتين بعض الرسائل الصادرة من صلاح الدين تلقى الأضواء على حقيقة علاقة صلاح الدين بالبيزنطيين ، ومدى حرص الدولة البيزنطية على كسب ود الناصر صلاح الدين . فبعد الانتصارات التى حققها صلاح الدين فى سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ — ١١٨٩ فى بلاد الساحل الشامى كتب القاضى الفاضل رسالة على لسان السلطان صلاح الدين الى أخيه سيف الاسلام باليمن يوضح له فيها أن صاحب القسطنطينية كان ممن كتبوا اليه ينذرونه باستعدادات ملوك وأمراء أوروبا للقيام بالحملة الصليبية (الثالثة) . وورد فى الرسالة « وقد كتب المستخدمون بالاسكندرية وصاحب قسطنطينية والثغور المغربية ينذرون بأن العدو قد جمع أمرا وحاول نكرا ، وغضبوا زادهم الله غضبا ، وأوقدوا نارا للحرب جعلها الله عليهم حطبا ، وسلوا سيوفا للبغى ، لا يبعد أن يكونوا أغمادها ، وتواعدت جموع ضلالتهم أخلف الله ميعادها ... »(١٦٣) .

وذكر القاضى بهاء الدين بن شداد أيضا فى السيرة الصلاحية أنه كان بين صلاح الدين وملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وأن رسولا من قبل الامبراطور البيزنطى وصل الى حضرة السلطان صلاح الدين

---

(١٦١) حسنين ربيع ، جهاد صلاح الدين الايوبى ضد الصليبيين ، ص ١٨٧ — ١٨٨ .

(١٦٢) Brand, "The Byzantines and Saladin", pp. 178 — 9.

(١٦٣) ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

بمرج عيون فى رجب سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م وذلك«جواب رسول كان أنفذه السلطان — رحمه الله عليه — اليه بعد تقرير القواعد واقامة قانون الخطبة فى جامع قسطنطينية » • وأضاف ابن شداد أن الخطبة الاسلامية والدعوة الاسلامية العباسية أقيمتا فى القسطنطينية ، وأن رسول صلاح الدين استقبل باحترام عظيم واكرام زائد • وذكر أيضا أن كتاب الامبراطور البيزنطى يحتوى على المحبة والمودة ويخبر صلاح الدين فيه بمسير الألمان (فردريك بربروسا) فى بلاده وما عانوه من تعب ومشقة ، وأن الامبراطور أضاف فى خطابه قوله : « ما ربح ملكى من محبتك الا عداوة الفرنج وجنسهم »(١٦٤) • وهذا يدل على أن بيزنطة لم تستفد من صداقتها لصلاح الدين كما سيشار اليه فيما بعد •

ونقل أبو شامة عن العماد الأصفهانى فى حوادث سنة ٥٨٦ هـ/ ١١٩٠ — ١١٩١ م أثناء الحملة الصليبية الثالثة وصول كتاب من ملك قسطنطينية « يتضمن استعطافا واستسعافا ، ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة فى جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة فيه ، وأنه مستمر على المودة راغب فى المحبة ، ويعتذر عن عبور الملك الألمانى (فردريك بربروسا)، وأنه قد فجع فى طريقه بالأمانى ، ونال من الشدة ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه ، وأنه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه ، أو ينفع ويكون مصرعه هناك ولا يرجع »(١٦٥) •

ولاشك أن الامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس اعتقد بأن تحالفه مع صلاح الدين سوف يقضى على ما واجهه من مشكلات • وكانت لديه آمال كبيرة ووعود باسترداد قبرص والاستيلاء على

---

(١٦٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ١٣٢ — ١٣٣ ، انظر ايضا ابو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٩ — ١٦٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب ، ج ٢ ، ص ٣٢٨— ٣٢٩ .

(١٦٥) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

الأراضى المقدسة فى فلسطين ، والعودة بالدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى الى حدود القرن العاشر . والحقيقة أن البيزنطيين لم يستفيدوا — بعكس ما توقعوه — غير فائدة بسيطة من تحالفهم مع السلطان صلاح الدين ، وهى ان بعض الكنائس اللاتينية فى بلاد الشام عادت الى ممارسة طقوس الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية . أما قبرص فقد استولى عليها اللاتين وأصبح حاكمها حليفا لصلاح الدين ، وظلت قونية فى أيدى السلاجقة المسلمين . يضاف الى ذلك أن تحالف البيزنطيين مع السلطان المسلم صلاح الدين أساء الى سمعة الدولة البيزنطية . فقد انزعج الصليبيون فى الشام من هذا التحالف وأشاعوه فى أوروبا ، وأثاروا الشعور العدائى ضد بيزنطة والبيزنطيين . فقد أرسل الامبراطور الألمانى فردريك بربروسا ، وهو فى تراقيا ، تعليماته الى ابنه طالبا منه حث البابا للدعوة لحملة صليبية ضد البيزنطيين . ولاشك أن تفضيل ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد وملك فرنسا فيليب أوغسطس والحملات الصليبية التالية لاتخاذ طريق البحر الى الشرق ، كان سببه تحالف الامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس بالمسلمين(١٦٦) .

وكيفما كان الأمر ، فقد فشل التحالف بين بيزنطة وصلاح الدين ؛ فالسلطان المجاهد صلاح الدين كان لا يمكنه تقديم أية مساعدات يحمى بها اسحاق انجيلوس من أعدائه لبعد المسافة وطبيعة العصر ، ولم يكن فى قدرة بيزنطة مقاومة الصليبيين . وأما تقدير المسلمين لقيمة هذا التحالف مع البيزنطيين فقد سجله القاضى الفاضل بقلمه فى رسالتين أرسلهما صلاح الدين الى الخليفة العباسى فى بغداد ينهى اليه فى الرسالة الأولى « وصول رسول ملك الروم بما فى صحبته من هدية ، وبما على لسانه من رسالة ، وبما على يده من كتاب » ويذكر صلاح الدين للخليفة أن الامبراطور البيزنطى خائف من الصليبيين ، فاذا نجح

(١٦٦) Brand, "The Byzantines and Saladin", p. 179.

فى دفعهم ادعى أنه فعل ذلك من أجل صـــلاح الدين ، واذا فشل كما حدث عند عبور حملة فردريك بربروسا ، ادعى ان ذلك حدث دون رغبته « وهذا ملك الروم خائف من الفرنج على بلده ، مدافع عن نفسه ، ان تم له الدفع ادعى انه بسببنا ، وان لم يتم ادعى أنه غائب عن مقصـــده ومقصـــدنا »(١٦٧) • وفى الرســالة الثانية ــ بقلم القاضى الفاضـــل أيضا ــ أشار فيها صلاح الدين الى وصول رســل حاكم قبرص الذى أصبح على علاقة طيبة به ، وورد فى الرسالة : « ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية فى انا ننجده على قبرص ، فانا انما وعدناه بالنجدة عليها لمـــا كانت بيد عدونا ، ووالله ما أفلح ملك الروم قط ، ولا نفع أن يكون صـــديقا ، ولا ضر أن يكون عدوا ••• »(١٦٨) • وهـــذا يفسر حقيقة التحـــالف بين بيزنطة وصـــلاح الدين فى عهـــدى الامبراطور اندرونيقوس الأول والامبراطور اسحاق الثانى انجيلوس •

وتجدر الاشارة الى أنه قبل وصول الصليبيين الى الشرق فى الحملة الصليبية الثالثة ، كان على الامبراطور اسحاق انجيلوس مواجهة التهديد اللاتينى الممثل فى النورمان وكذلك خطر البلغار فى الشمال • فبعد أن استولى النورمان على سالونيك ســـنة ١١٨٥ م تقـــدم جيش وأسطول النورمان نحو القسطنطينية • وفرح النورمان بما حققوه من انتصارات ، فنهبوا الأقاليم المجاورة للعاصمة البيزنطية دون أن يعملوا حسابا للجيش البيزنطى • وانتهز البيزنطيون الفرصة وهزموا النورمان ، وأرغموهم على اخلاء سالونيك ودورازو • وانسحب الأسطول النورمانى من أمام القسطنطينية ، وتم عقد معاهدة صلح بين اسحاق انجيلوس ووليام الثانى وضعت نهاية للحرب ضد النورمان(١٦٩) •

---

(١٦٧) ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧٨ •
(١٦٨) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .
(١٦٩) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 440.

وفى الشمال فشلت الدولة البيزنطية فى قمع الشعور القومى الانفصالى المتزايد فى بلغاريا للقضاء على تسلط البيزنطيين ، والرغبة فى الانفصال بعد اندماج بلغاريا فى الامبراطورية منذ سنة ١٠١٨ م . ونجح البلغار فى سنة ١١٨٦ فى تأسيس المملكة البلغارية الثانية وتخلصوا من نير البيزنطيين . وفشل الامبراطور البيزنطى اسحاق الثانى انجيلوس فى اخماد الفتنة فى بلغاريا بل على العكس نشأت قوة منافسة لبيزنطة فى البلقان فى شخص الملك البلغارى . ومع نهاية حكم أسرة أنجيلوس زادت قوة المملكة البلغارية الثانية حتى أصبحت تشكل التهديد الحقيقى للامبراطورية اللاتينية التى قامت فى القسطنطينية فيما بعد فى سنة ١٢٠٤(١٧٠) .

وفى سنة ١١٨٩ واجهت الدولة البيزنطية حملة صليبية ثالثة قادمة من الغرب الأوروبى ، فمنذ فشل الحملة الصليبية الثانية فى سنة ١١٤٧ أخذت أحوال الصليبيين فى الشرق تنهار تدريجيا ، فقد فشلت مملكة بيت المقدس الصليبية فى تأسيس أسرة مستقرة ، ونشب النزاع الداخلى بين أمراء الصليبيين ، ودب النزاع بين مختلف فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام بحثا عن المصالح الخاصة(١٧١) . وألحق صلاح الدين

(١٧٠) Hussey, Byz. World, p. 65; Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 441 — 4;

(١٧١) ظهرت فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى فى بلاد الشام فرق الرهبان الفرسان ، وكان أشهر تلك الفرق الاسبتارية والداوية والتيتون . وكان ظهور هذهالفرق نتيجة لاستقرار الصليبيين فى الشام ورغبتهم فى تثبيت اقدامهم فى الأراضى الاسلامية . ورغم أن اهداف فرق الرهبان الفرسان كانت فى بداية الأمر أهدافا خيرية وانسانية تتمثل فى ايواء فقراء الحجاج المسيحيين وعلاج مرضاهم ، وحراستهم على الطرق المؤدية الى الأماكن المقدسة بفلسطين ، الا أن هذه الأهداف تلاشت بالتدريج وتطورت عندما قويت هذه الفرق وزاد ثراؤها واستقلالها ، وأصبحت كل منها تمثل دولة داخل الكيان الصليبى بالشام ، وتوحدت اهدافها مع اهداف الصليبيين ضد الاسلام والمسلمين ، أنظر نبيلة مقامى ، فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، رسالة ماجستير لم تنشر ، بكلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ .

بالصليبيين هزيمة فاصلة عند حطين سنة١١٨٧م واسترد بيت المقدس فى نفس العام • وعندما أدركت أوروبا خطورة انتصارات صلاح الدين فرضت ضريبة للاستعانة بها فى سد نفقات الحرب ضد المسلمين عرفت باسم (عشور صلاح الدين) للاعداد لحملة صليبية ثالثة • وقاد هذه الحملة الصليبية ثلاثة من أقدر ملوك أوروبا وقتـذاك ، وهم : فردريك بربروسا امبرطور المانيا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا(١٧٢) •

أما بالنسبة لموقف الدولة البيزنطية من الحملة الصليبية الثالثة ، فالحقيقة أن شعور الشك والريبة كان سائدا بين البيزنطيين والصليبيين• ومنذ مذبحة اللاتين فى القسطنطينية سنة ١١٨٢ م واتصالات بيزنطـة بصلاح الدين منذ سنة ١١٨٥ توترت العـلاقات بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى • ونظر الامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس فى ريبة كبيرة الى علاقات الود التى ربطت بين الامبراطور الألمـانى فردريك بربروسا عدو بيزنطة الحقود والنورمان ، وتوجت تلك العلاقات بزواج هنرى وريث فردريك بوريثة مملكة صقلية • ويلاحظ أنه رغم المعاهدة التى عقدها البيزنطيون مـع فردريك بربروسـا فى نورنبرج بألمانيـا Nurnberg قبل خروج فردريك فى حملته الصليبية ، الا أن اسحاق كان يخشى غدر فردريك ولا يثق فيه • والدليل على ذلك أنه حتى بعدعقد هذه المعاهدة مع فردريك استأنف اسحاق انجيلوس مفاوضاته مع صلاح الدين وعقد معه تحالفا ضد سلطان قونية السلجوقى على أساس أن يقوم اسحاق ــ على قدر طاقته ــ باعاقة تقدم الامبراطور فردريك بربروسا فى آسيا الصغرى • ووعد صلاح الدين الامبراطور البيزنطى باعـادة الأراضى المقدسـة الى البيزنطيين • وزاد شـك اسحاق فى فردريك

---

(١٧٢) انظر حسنين ربيع ، جهاد صلاح الدين الأيوبى ضد الصليبين ص ١٨٩ .

بربروسا عندما قام الامبراطور الالمانى بمفاوضة الصرب والبلغار •
وساءت العلاقات بينهما الى درجة أن فردريك صمم على غزو القسطنطينية
وكتب — كما سبق ذكره — الى ابنه هنرى يطلب منه جمع الأسطول فى
ايطاليا ، وحث البابا على الدعوة لحملة صليبية ضد البيزنطيين(١٧٣) •

وأخيرا اتفق فردريك بربروسا واسحاق عند ادرنه على أن يقدم اسحاق السفن لنقل قوات فردريك عبر البوسفور الى آسيا الصغرى ، وأن يمدهم بالمؤن والطعام • وفى ربيع سنة ١١٩٠ عبر الالمان البوسفور ، وفى ١٠ يونيو ١١٩٠ غرق فردريك بربروسا فى أحد أنهار قيليقيه بآسيا الصغرى وفشلت الحملة الالمانية • وقضى موت الامبراطور على روحها ووحدتها كما أعطى موته المفاجىء راحة مؤقتة للدولة البيزنطية(١٧٤) •

أما حملتا فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد فقد ابحرتا الى فلسطين بحرا من صقلية حيث أمضيا فصل الشتاء (١١٩٠ — ١١٩١م)• وفى ١٢ ربيع الأول ٥٨٧م / ٢٠ ابريل ١١٩١ م وصل الملك الفرنسى الى عكا بينما انصرف ريتشارد أثناء ابحاره الى الشرق للاستيلاء على جزيرة قبرص لاتخاذها قاعدة للامدادات والعمليات التى تقوم بها الجيوش ضد صلاح الدين • وارتحل ريتشارد من قبرص الى عكا فوصلها فى ٨ يونيو • وازداد هجوم الصليبيين على عكا حتى سقطت فى أيديهم يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة٥٨٧ هـ/ ١٢ يوليو ١١٩١م • وأنهى الصليبيون بذلك الحصار الذى استمر مضروبا على عكا لمدة سنتين • وغدر ريتشارد بأسرى المسلمين فى عكا وساقهم الى جنوب تل العياضية وأمر بذبحهم جميعا ، فاستشهدوا فى سبيل الله ونالوا الجنة التى وعدها الله تعالى

(١٧٣) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 446 — 447.

(١٧٤) Ibid, II, p. 447 ; Setton, Hist. of the Crusades, II, pp. 114 — 115.

الصديقين والشهداء • وعاد فيليب أوغسطس الى فرنسا متعللا بسوء صحته تاركا ريتشارد ومن معه من الصليبيين يواجهون القوات الاسلامية بقيادة صلاح الدين • ولم يستطع ريتشارد أن يحرز سوى انتصار جزئي محلي في أرسوف ، وجدد استحكامات يافا • وتدهورت صحة ريتشارد وتحت تاثير الرغبة الملحة في العودة الى بلاده بعد أن علم بثورة أخيه جنا ضده • أرسل الى صلاح الدين في طلب الصلح • وبدأت المفاوضات بين صلاح الدين وريتشارد بواسطة رجالهما • وكان صلاح الدين ، الذي لم يلتق بريتشارد أبدا ، يفاوض من مركز القوة نظرا للامدادات العسكرية الكبيرة التي وصلته في تلك الفترة من أنحاء دولته الكبيرة • واضطر ريتشارد قلب الاسد أمام صلابة صلاح الدين الى قبول الصلح وتنازل عن بعض شروطه فتم عقد صلح الرملة في ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ / ٢ سبتمبر ١١٩٢ م • ونص الصلح على أن تكون مدته ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، وأن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور الى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف • أما الأماكن المقدسة في فلسطين فقد نصت الاتفاقية على أن يكون للمسيحيين فقط حرية الحج الى بيت المقدس دون مطالبتهم بأية ضريبة • وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثالثة في تحقيق الهدف الذي قامت من أجله وهو استردادبيت المقدس من المسلمين(١٧٥)•

وارتد فشل الحملة الصليبية الثالثة الى بيزنطة • فقد أبحر ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا بنتائج جالبة النوائب للقسطنطينية • فقد استولى ريتشارد على قبرص وانتزعها من اسحاق كومنين ، وبالتالي انتقلت الجزيرة — التي فقدتها بيزنطة — من أيدي البيزنطيين الى اللاتين • وأدى فشل الحملة الصليبية الثالثة أيضا الى ظهور مشكلات الوراثة خاصة بالاحتفاظ بما بقي من امارات صليبية في الشام وفلسطين• وفكر اللاتين في اعداد حملة صليبية جديدة•وكانت هناك آراء كثيرة تؤيد

---

(١٧٥) حسنين ربيع ، جهاد صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين ، ص ١٨٩ — ١٩٠

فكرة مهاجمة بيزنطة كمرحلة أولى لسياسة هجومية حقيقية ضد القوى الاسلامية • ولفترات تاريخية طويلة كان الغرب اللاتينى يعزى فشل الصليبيين الى البيزنطيين الغادرين(١٧٦) •

وأتت المبادرة ضد بيزنطة من حاكم الامبراطورية الرومانية المقدسة هنرى السادس بن فردريك بربروسا Henry VI • وورث هنرى السادس كل الحقد الذى يكنه النورمان لبيزنطة وبخاصة لزواجه من ابنة وليام النورمانى • ومال هنرى نحو السياسة الشرقية للنورمان التى اتخذت اتجاها توسعيا طموحا لا يقل عن السيطرة على العالم المسيحى كله فى الشرق • وفكر هنرى السادس فى اعداد حملة صليبية للاستيلاء على الشرق المسيحى كله بما فى ذلك الدولة البيزنطية على اعتبار أن القسطنطينية مثلها مثل فلسطين • وكانت الخطوة الأولى لتحقيق تلك السيطرة هى قهر البيزنطيين • ووجد هنرى فرصة للتدخل فى شئون الدولة البيزنطية ، عندما تم عزل اسحاق الثانى سنة ١١٩٥ م وسملت عيناه بواسطة أخيه الامبراطور الكسيوس الثالث • وزاد تهديد هنرى عندما رتب زواج أخيه فيليب السوابى Philip of Swabia من ايرين Irene ابنة الامبراطور المعزول اسحاق ، وذلك لكى يجعل لأخيه بعض الحقوق فى بيزنطة • وأرسل هنرى السادس رسالة تهديد الى الامبراطور الكسيوس الثالث طالب منه فيها أن يشترى السلام مقابل أن يدفع الى هنرى اتاوة كبيرة من المال • ولهذا استحدث الكسيوس ضريبة خاصة سميت باسم الضريبة الألمانية Alamanian وتم انتزاع ذخائر ذات قيمة ثمينة من المقابر الامبراطورية لدفع تلك الاتاوة • وبهذا الشكل المهين اشترى الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث السلام من هنرى السادس • وفى نهاية صيف سنة ١١٩٧ م أخذ هنرى يعد العدة للخروج فى حملة صليبية جديدة بعد أن حصل على

---

(١٧٦) Hussey, Byz. World, p. 66.

اعتراف بالسيادة من قبرص ومن أرمينية الصغرى • وتجمع أسطول كبير عند مسينا Messina بايطاليا وكان هدفه — فيما يبدو — مهاجمة القسطنطينية لا بلاد الشـــام • وفى ذلك الوقت مرض هنرى السادس بالحمى ومات فى خريف نفس العام ١١٩٧ م • وانتهت بموته خططه الطموحة • وفرح البيزنطيون لموته وتخلصهم من الضريبة الألمـــانية ، كما ارتاح البابا • وفقدت الحركة الصليبية قائدا كان على ما يبدو قادرا على اعطاء تلك الحركة نوعا من الوحدة والاتجـــاه الصحيح • غير أن ذلك لم ينقذ القسطنطينية ، فبعد سنوات قلائل أى فى سنة ١٢٠٤ م سقطت القسطنطينية فى أيدى اللاتين(١٧٧) •

---

(١٧٧) Vasiliev, Byz empire, II, pp. 448 9 ; Hussey, Byz. World, p. 66 ; Vryonis, Byzantium. p. 150.

الفصل الخامس

اضمحلال الدولة البيزنطية

(١٢٠٤ ـ ١٣٥٤ م)

تعتبر السنوات من ١٢٠٤ الى ١٣٥٤ م من أحلك سنوات التاريخ البيزنطى • وتبـدأ هـذه الفترة باسـتيلاء الصـليبيين اللاتين على القسطنطينية الذى يعد ضربة قاصمة أدت الى هزة عنيفة فى المجتمـع اليونانى البيزنطى بعد أن غـدت القسطنطينية يحكمها امبراطور غربى لاتينى • ولم تستطع بيزنطة النهوض من كبوتها بعد كارثة سنة ١٢٠٤، اذ انغمست فى حلقات متتابعة من الانهيار والتدهور والنزاع • وسقوط القسطنطينية فى أيدى اللاتين سنة ١٢٠٤ م هى قصـة الحملة الصليبية الرابعـة التى دعـا اليهـا البـابا انوسنت الثالث Innocent III الذى تولى كرسى البابوية فى روما فى فبراير سنة ١١٩٨ م • وأراد هذا البابا اعـادة سيادة البابوية كاملة ، وأن تكون البابوية على رأس الحركة الصليبية ضد الاسلام والمسلمين • وكان البابا انوسنت الثالث نشطا للغاية الدعوة الى حملة صليبية عامة يشترك فيها المسيحيون فى الشرق والغرب للوصـول الى هدف واحد هو الاسـتيلاء على بيت المقدس • وراسل البابا الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث لتحقيق وحدة الكنيستين أى كنيستى روما والقسطنطينية • وبعث رسـائل وأرسل رسلا الى ملوك أوروبا وقادتها بخصـوص الحملة الصليبية المقترحة ضد مصر • وفى احدى رسائله وصف البابا انوسنت الثالث سوء أحوال الصليبيين فى الشرق ، وعبر عن غضبه من حكام وأمراء عصره الذين يقضـون أوقاتهم فى اللهو والمتعة والمنازعات المحليـة ، فى حين يستهزئ المسلمون بهم • ولم يستجب لدعوة البابا أحد من

ملوك أوروبا • وبالتالى لم تكن الحملة الصليبية الرابعـــة حملة ملوك وأباطرة • فملك فرنسا فيليب الثانى أوغسطس كان قد صـــدر ضده قرار الحرمان لقيامه بطلاق زوجته ، وملك انجلترا حنا كان قد تولى العرش مؤخرا وكان عليه تدعيم حكمه ، كمـــا أن النزاع فى المـــانيا نشب بين أوتو وفيليب السوابى ولم يكن فى استطاعة أحدهما مغادرة بلاده من اجل حمـــلة صليبية • ولم يستجب لدعـــوة البابا انوسنت الثالث سوى تيبوات كونت شمبانيا Count Thibault of Champagne وبلدوين دى فلاندرز واويس بلوا وغيرهم من أمراء أوروبا(١) •

غير أن الشخصـــية الأساســـية التى لعبت دورا هاما فى هـــذه الحملة الصليبية كانت شخصـــية الدوج هنرى داندولو Dandolo دوج البندقية • ورغم انه كان قد بلغ وقتذاك الثمانين من عمره الا انه كان سياسيا بارعا • جمع بين النشاط والحزم والشجاعة التى كانت تصل به الى مرتبة البطولة • وكان داندواو بندقيا فى عقليته وصفاته وبخاصـــة فى النواحى الاقتصـــادية ، وكان يضع مصالح البندقيـــة الاقتصادية ورفاهيتها فوق كل اعتبار ومهما تكن الظروف • يضـــاف الى ذلك أنه كان على مقدرة كبيرة فى التعامل مع الرجال ، ورجل دولة من الطراز الأول ، ودبلوماسيا ذكيا ، وخبيرا اقتصاديا(٢) •

وأثناء الاستعداد لهذه الحملة الصليبية مات ثيبولت سنة ١٢٠١ م وانتقلت قيادة الحملة الى بونيفاس مونتفرات Boniface of Montferrat واتصف بونيفاس باهتمامه الشخصى فى الأراضى المقدســة وفى الدولة البيزنطية • واستطاع بما تمتع به من شخصية قوية أن يضـــع حدا

(١) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 450 2 ; Nicol "The Fourth Crusade and the Greek and latin Empires 1204 1261", in **Cam. Med. Hist.**, Vol. 4, Part 1, p. 276.

(٢) عن شخصـــية داندواو انظر ، شارل ديل ، البندقية جمهوريـــة ارستقراطية ، ص ٤١ ؛

Vasiliev, Byz. empire, II, p. 452.

لأى تحكم من جانب البابوية على الحملة الصليبية • وقــام بونيفاس بزيارة صديقه امبراطور المــانيا فيليب السوابى فى بلاطه حيث ناقشه الأمر وتم تدبير أمر الحمــلة الصليبية • وســبق أن ذكرنا أن فيليب السوابى شقيق هنرى السادس كان متزوجا من ايرين Irene ابنــة الامبراطور البيزنطى المخلوع اسحاق الثانى انجيلوس • وكان فى ضيافة فيليب السوابى شقيق زوجته وهو الابن الصغير لاسحاق الثانى واسمه الكسيوس(٣) •

ووصل الصليبيون الى مدينة البندقية التى كانت مكان تجمــع رجال الحملة الصليبية • وعجز الصليبيون عن جمع مبلغ قدره ٨٥ ألف مارك من الفضــة ، وهو المبــلغ الذى طالبت به البندقيــة نظير نقل الصليبيين الى المكان الذى يقصدونه • وهنا اقترح الدوق داندولو ، الذى عرف بدهائه ، تأجيل دفع هذا المبلغ المتفق عليه مقابل أن يساعد الصليبيون البنادقة فى استرداد مدينــة زارا Zara على ســاحل دالمــاشيا ، وهى المدينة التى ادعت البندقية بأحقية السيادة عليها من الهنغاريين • وحث داندولو الصليبيين على مساعدة البندقية لاسترداد زارا مقابل أن تقــوم البندقيــة على نقــل الصليبيين على سفنها الى مصر • وهكذا استخدم البنادقة الصليبيين لتحقيق مصالحهم الشخصية من البدايــة • وكان الهجوم على مدينة زارا المسيحية ضربة عنيفــة للصليبيين وللحركة الصليبية وانتصارا لداندولو • ولمــا كان البنــادقة قبل ذلك بوقت قصير قد دخلوا فى مفاوضات مع السلطان العادل الأيوبى فى مصر ، فلاشك أنهم قصــدوا ــ بطريقة أو أخرى ــ حماية مصر من أى هجوم من جانب الصليبيين(٤) •

---

(٣) Vryonis, Byzantium, pp. 150 1.

(٤) Ibid., p. 151 ; Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 453 - 4 ; Nicol, 'The Fourth Crusade' in **Cam. Med. Hist.** Vol. 4. i, pp. 278--9.

روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية (الترجمة العربية) ص ٤٠ ــ ٤٩ ، شارل ديل ، البندقيــة جمهورية ارستقراطية ، ص ٤٢ ، اسمت غنيم =

فقد فكر الصليبيون أولا فى الهجوم على مصر ، اعتقادا منهم بأنهم اذا تم لهم فتح مصر أصبح استرجاع فلسطين أمرا مقضيا، لأن مصر كانت مركز المقاومة ضد الصليبيين بالشام ، وهى التى أمدت حركة الجهاد الاسلامى بالقوى البشرية والمادية لمحاربة الصليبيين •

أما من ناحية البنادقة فقد رأوا عكس ذلك ، ولم يرغبوا فى الاشتراك فى حرب ضد مصر • فقد كانت لهم جالية كبيرة فى الاسكندرية ، وكان الحى البندقى بها يحتوى على فندقين وحمام ومخبز وكنيسة • ومنح السلطان الأيوبى العادل البنادقة امتيازات تجارية سخية ، وأعفاهم من عدة ضرائب • وحمل البنادقة الى مصر الأسلحة والحديد والأخشاب والمماليك رغم تحريم البابوية بيع ذلك للمسلمين • ومما يدل على حسن العلاقات الطيبة بين مصر والبندقية ما حدث سنة ١٢٠٨ م عندما عقد السلطان العادل معاهدة تجارية مع البندقية ، منح البنادقة بمقتضاها مزيدا من الامتيازات والتسهيلات فى الموانىء المصرية • وتعهد السلطان بحماية البنادقة ومعاملتهم كأبناء أمة صديقة ، وتعهد البنادقة بألا يقدموا أية مساعدة لأى مشروع صليبى ضد مصر(٥) •

لهذا بذل البنادقة كل جهد بعد الاستيلاء على زارا لتحويل الصليبيين عن هدفهم ، ورأوا أن غزو القسطنطينية سوف يحقق أكبر

= الحملة الصليبية الرابعة،ص٦٢ـ٦٥ . وهناك ترجمة انجليزية للنصوص المستقاة من المصادر الأصلية بشأن الحملة الصليبية الرابعة وتحولها الى زارا ثم القسطنطينية ، انظر :

Translations and Reprints from original Sources of European History, Vol. III (Philadelphia, 1907) p. 1 — 20.

(٥) عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب ، ص ١٩١ ــ ١٩٢ ، شارل ديل ، البندقية جمهورية ارستقراطية ، ص ٥٩ ، فشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣ ، انظر ايضا :

Hassanein Rabie, The Financial system of Egypt. p. 9.

فائدة لهم بعد أن ضيق الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث انجيلوس على البنادقة وجاليتهم التجارية فى القسطنطينية ، وأغدق الامتيازات على منافسيهم من البيازنة(٦) • كما أرادت البندقيـة تأمين تجارتهـا الخاصة فى الدولة البيزنطيـة مدفوعة بعامل الغيرة من نشـاط المدن الايطالية المنافسـة لها فى الشرق • واستنكرت البندقية المحـاولات البيزنطيـة الجديدة لتحديد امتيازاتها العديدة(٧) • وبعد اسـتيلاء الصليبيين على زارا بدأ الكسـيوس بن اسـحاق الثانى فى مسـاومة الصليبيين • فتعهد الكسيوس بأن يدفع للصليبيين المبلغ الذى هو دين للبنادقة فى ذمـة الصليبيين فى مقابل مساعدته لاسترداد عرش أبيه اسحـاق فى القسطنطينية(٨) • وتحمس الصليبيـون وصـمموا على الاشتراك فى الحملة ضـد القسطنطينية • ولم يكن الاسـتيلاء على القسطنطينية فكرة جديدة طارئة ، غير أنها ظهرت فى ذلك الحين فى وقتها المناسب • يضاف الى ذلك أن الأسطورة القائلة بأن البيزنطيين كانوا مسئولين دائمـا عن سوء حظ الحركة الصليبية أخذت تزداد عمقـا • واشترط الصليبيون فقط أنه بعد أن يستولوا على القسطنطينية ويقيمون فيها اقامة قصيرة عليهم أن يتوجهوا الى مصر كما كان مقررا(٩) • ومعنى هـذا ــ كما ذهب هنرى جريجوار Henri Grégoire ــ أن تحويل الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها كان مقصودا من البداية ، أو بمعنى أدق منذ اللحظـة التى انتخب فيها بونيفاس مونتفرات ليخلف كونت شيبولت(١٠)•

وهكذا استغل داندولو بمهارة فائقة تحمس الصليبيين ، وسياسة

---

(٦) فشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٤٣ •

(٧) Hussey, Byzantine World, p. 67.

(٨) Vryonis, Byzantium, p. 15.

(٩) Vasiliev, Byz. empire, p. 455 ; Hussey, Byz Wor'd, p. 67.

(١٠) Grégoire, H., 'The Question of the diversion of the Fourth Crusade', **Byzantion**, Vol. XV (1940 — 41), pp. 158 — 166.

افراد الاسرة الحاكمة البيزنطية ، واشتراك الألمـان فى الحملة ، استغل هذا كله الى ابعد مدى لتحقيق مصالح البندقية فى بيزنطة • ودخـل الصليبيون والبنادقة القسطنطينية فى صيف سنة ١٢٠٣ م ، واسترد اسحاق الثانى انجيلوس العرش (١٢٠٣ — ١٢٠٤ م) وتوج ابنــه الكسيوس كمساعــد للامبراطور باســم الكسيوس الرابــع • غير ان الكسيوس الرابع عجز عن تحقيق ما وعد به الصليبيين من دفع المبلغ الكبير لحاجته الى المـال ، كما عجز عن تحقيق وعده بالمسير معهم فى الحملة الصليبية الى مصر ، كما قاوم سكان العاصـمة البيزنطية أى اتحاد كنسى مع اللاتين • وزاد من توتر العلاقات بين اللاتين واليونانيين ما قام به اللاتين من سلب ونهب للقرى اليونانية المجاورة للقسطنطينية، كما أنهم احرقوا جانبا من العاصمة نفسها(١١) •

وعندما تفاقم الأمر حث الكسيوس الرابع الصليبيين بأن لا يقيموا فى القسطنطينية بل عليهم ان يعسكروا فى ضواحيها ، وان يمنحوه فسحة من الوقت لعدم قدرته على دفع جميع المـال الذى تعهـد به • وثار سـكان العاصمة البيزنطية ، وتضايقوا من سياسة الامبراطور اسحاق وابنه واتهموهما بخيانة الامبراطورية لمصلحة الصليبيين • وتم عزل كل من اسحاق الثانى وابنه الكسيوس الرابع وقتلا ، وتولى عرش الدولة البيزنطية فى بداية سنة ١٢٠٤ م امبراطور جديد اسمه الكســيوس الخامس دوكــاس Alexius V Ducas، انتمى الى أسرة انجيلوس عن طريق زواجه بابنة الكسيوس الثالث • وفقد الصليبيون مؤيدهم الأساسى فى العاصمة البيزنطية بقتل اسحاق وابنه ، اذ انضم الكسيوس دوكـاس الى الحزب المعـادى للصليبيين ، ورفع راية المقاومة ضـد اللاتين • ولم يكن للصليبيين أية علاقــة تربطهم به وشـــعروا بأنهم

---

(١١) Vryonis, Byzantium, p. 151.

اصبحوا احرارا تجـاه اية التزامات لبيزنطة • وصمم الصليبيون على الاستيلاء على القسطنطينيه لحسابهم(١٢) •

وفى مارس سنه ١٢٠٤ م عقد الصليبيون والبنادقة اجتماعا خارج اسوار القسطنطينية قرروا فيه ايقاف النزاع ضد المسلمين ، وعقدوا معاهدة فيما بينهم بخصـوص تقسيم الدوله البيزنطيـة بعد غزوها والاستيلاء عليها ، وهى المعاهدة التى حددت مستقبل الامبراطوريـة اللاتينيه فى القسطنطينية • واجمعوا على انه اذا وقع الاختيار على أحد من الفرنسيين ليكون امبراطورا ، كان البطريرك من البنادقـة ، كما اتفقوا على أن يؤول ربع المدينة لمن يصبح امبراطورا ملكا خالصـا له لا يشاركه فيه أحد ، أما الثلاثة الأربـاع الباقية فتقسم نصفين : أحدهما للبنادقـة وثانيهما للصليبيين ، وأن يعتبر كل شىء اقطاعا من الامبراطور • واستقدموا جميع رجال الجيش الصليبى ليقسموا قسما يجابون بمقتضـاه الى المعسكر كل ما يقع فى أيديهم من الأسـلاب والغنائم ، ولا يتعرضـوا للنساء أو الرهبـان وألا يقتحموا كنيسـة أو ديرا(١٣) •

وفى أبريل سـنة ١٢٠٤ م هجـم اللاتين على القسـطنطينية • وهـرب الامبراطـور البيزنطى والبطـريرك وتيـودور لاسـكاريس Theodore Lascaris مع غيرهم من اليونانيين الى آسيا الصغرى والبلقان لكى يكونوا مقاومة هنـاك • ونهب وسلب الصليبيون أعظم مدينة فى أوروبا • وقـام الجند اللاتين لمدة ثلاثة أيام بقتل وانتهـاك

---

(١٢) Vasiliev, Byz, empire, II pp. 440, 460.

(١٣) عن اتفاقية البنادقة والصليبيين فى مارس ١٢٠٤ م ، انظر روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ، ص ١٠٩ — ١١٠ ،
Setton, Op. Cit., II, pp. 183 — 5 ; Vryonis, Byzantium, p. 151 ; Vasiliev, Byz. empire, II. p. 460.

أعراض سكان العاصمة البيزنطية ، وسلبوا وغنموا كل ما وجدوه من ذخائر وتحف وكنوز ، ودمروا وأتلفوا منشآت القسطنطينية وملاعبها وميادينها وأسواقها • فالقسطنطينية كانت متحفا للفن القديم والفن البيزنطى ومدينة غنية رائعة ، دمرها الصليبيون الذين شربوا الخمور حتى الثمالة فى شوارعها ، وانتهكوا أعراض الراهبات ، وقتلوا رجال الدين الأرثوذكس • وعبر الصليبيون عن كرههم لليونانيين البيزنطيين بتدنيس أعظم كنائس المسيحية كنيسة القديسة صوفيه • فقد أتلفوا الأيقونات الفضـــية والأيقونات الأخرى والكتب المقدســـة المحفوظة فى هذه الكنيســـة • وجلس الصليبيون على كرسى البطريـــرك يغنون ويشربون النبيذ من الاوانى المقدسة للكنيسة • وانعكس التباعد الذى كان سائدا بين الشرق والغرب وزاد خــلال القرون المــاضية فى تلك المذبحة البشعة التى صاحبت غزو الصليبيين للقسطنطينيـــة • وتأكد البيزنطيون المعاصرون بأن القسطنطينية لو كانت قد وقعت تحت أيدى الأتراك المسلمين ما فعلوا بها مثلما فعل الصليبيون اللاتين(١٤) •

ورسم نيقتاس خونياتس Nicetas Choniates — الذى كان شاهد عيان لاستيلاء الصليبيين على القسطنطينية — صـــورة واضحة عن نهب المدينة وما حدث بها من تخريب لدرجة القول بأن المسلمين عند استردادهم لبيت المقدس سنة ١١٨٧ م كانوا أكثر رحمة بالمسيحيين ، من أولئك الذين تسموا بجنود المسيح أى الصليبيين • وهنـــاك شاهد عيـــان آخر لحـــوادث غزو القسطنطينيـــة وهو نيقولا ميســـاريتس Nicholas Mesarites وهو من سكان مدينة افيسوس أعطى وصفا محزنا لـــا حدث فى القسطنطينية وذلك فى خطبـــة العزاء التى ألقاها بمناســـبة وفـــاة ابنه الأكبر وتحـــدث فيهـــا عن تخريب الصليبيين للقسطنطينية • وامتلأت مدن غرب أوروبا بالكنوز والذخائر التى خرجت

---

(١٤) Vryonis, Byzantium, p. 152.

من القسطنطينية ، حتى الجياد البرونزية الأربعة التى كانت تزين ميدان السباق فى القسطنطينيه ، حملها داندولو الى البندقية ، ولا تزال هذه الجياد تزين واجهة كاتدرائية القديس مارك St. Mark فى فينيسيا الحالية (البندقية)(١٥) .

أما عن الادارة اللاتينية فى القسطنطينية فقد خاف داندولو من حماسة قائد الحملة الصليبية بونيفاس ، فقد وجد فيه قائدا قويا ، وبخاصة أن ممتلكاته كانت على مقربة من البندقية ، لهذا رأى داندولو أن يتم انتخاب رجل أقل قوة وحماسة من بونيفاس ، وهو بلدوين كونت فلاندرز Baldwin of Flanders امبراطورا ، وأن يتم اختيار شخص من البنادقة ، وهو توماس موروسينى Thomas Morosini بطريركا . وفى ٢٦ مايو ١٢٠٤ م توج بلدوين كونت فلاندرز امبراطورا فى كنيسة القديسة صوفيه . وتم تقسيم الدولة البيزنطية كما كان متفقا عليه من قبل . فقد أخذ بلدوين جنوب تراقيا و ⅝ القسطنطينية وجزءا صغيرا شمال غرب آسيا الصغرى مجاورا للبوسفور وبحر مرمرة وبعض جزر بحر ايجه مثل لسبوس وخيوس وساموس . أما منافسه قائد الحملة بونيفاس فقد أخذ مدينة سالونيك وبعض الأقاليم المجاورة فى مقدونيه وشمال تساليا مكونا مملكة سالونيك التى حكمها كفصل تابع الملك بلدوين . وأخذ أوتو Otto de la Roche أتيكا Attica . أما البنادقة فقد ادعوا ملكية المناطق التى تحقق الأمن لصالحهم التجارية ، وأهمها ⅜ القسطنطينية وكنيسة القديسة صوفيه ، وأخذوا دورازو Dyrrachium وجزر البحر الأيونى والعدد الكبير من جزر البحر الأيجى جنوب البيلوبونيز بالاضافة الى بعض موانىء

---

(١٥) Vasiliev, Byz, empire, II. pp. 461 — 2 ; Ashour and Rabie, Fifty Documents, pp. 96 — 99 ;

روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية ، ص ١٢٢ — ١٢٣ ، اسمت غنيم ، الحملة الصليبية الرابعة ، ص ٨٧ — ٨٩ .

الدردنيل وبحر مرمرة ومدينة ادرنه•كما كونت الجزر الأيونية وكريت وجزر بحرايجة بقية ممتلكاتهم•وتم تسليم البيلوبونيزاو المورة Morea كما كانت تسمى الى وليم شامبليت William of Champlitte وجفرى فيلهاردوين Geoffrey of Villhardouin • وتجدر الاشارة الى ان الصليبيين مارسوا نظاما اقطاعيا غربيا فى الممتلكات الجديدة ، أدى الى لامركزية خطيرة • فقد قسم الامبراطور اللاتينى البلاد المفتوحة الى عدد كبير من الاقطاعات الصغيرة والكبيرة منحها للأمراء والفرسان طبقا لنظام الاقطاع السائد فى غرب أوروبا • وكان لابد للفرسان الأوروبيين اللاتين ان يقسموا يمين الولاء للامبراطور اللاتينى فى القسطنطينية غير ان البنادقة رأوا أن ذلك ليس شرطا واجبا • ولاشك أن هذا كان من عوامل ضعف المملكة اللاتينية(١٦) •

ودخل الصليبيون اللاتين بعد قضائهم على الدولة البيزنطية فى نزاع مع البلغار حول السيطرة على البلقان • ومنذ سنة ١١٩٦ م جلس على عرش البلغار الملك كالوجان Kalojan الذى عرف بعدائه الشديد لبيزنطة فى عصر أسرة انجيلوس • وتوترت العلاقات بين اللاتين والبلغار عندما طلب اللاتين من البلغار الاعتراف بسيادتهم ، وهددوا الملك البلغارى بغزو بلغاريا • وفى نفس الوقت أغضب الصليبيون اليونانيين فى تراقيا ومقدونية لامتهانهم العقائد الدينية اليونانية • وبدأت الاتصالات السرية بين اليونانيين والبلغار • ولعب بطريرك القسطنطينية السابق حنا كوماتروس John Comaterus دورا هاما فى تكوين التحالف البيزنطى ـ البلغارى سنة ١٢٠٤ ـ ١٢٠٥ م نظرا لأنه كان قد عاش فى بلغاريا قبل توليه الكرسى البطريركى • وتمنى ملك البلغار الحصول على تاج الامبراطور البيزنطى • واصطدم الصليبيون

---

(١٦) Vryonis, Byzantium, pp. 159 - 60 ; Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 462 — 4.

اللاتين بالبلغار • وفى معركة أدرنه التى وقعت فى ١٥ أبريل سنة ١٢٠٥م استطاع ملك البلغار كالوجان بمساعدة الفرسان الكومان الحاق هزيمة ساحقة بالصليبيين • وسقط فى هذه المعركة زهرة الفرسان الغربيين • وأسر البلغار الامبراطور اللاتينى بلدوين • ولم يعرف مصير الامبراطور، ويبدو أن ملك البلغار قد أمر بقتله بطريقة أو أخرى فى ظروف غامضة(١٧) •

ونظرا لعدم حصول الصليبيين على أخبار عن مصير بلدوين ، فقد تم انتخاب أخوه هنرى Henry ليحكم المملكة اللاتينية خلال فترة غيابه • وكان الدوق داندولو من المشتركين فى هذه المعركة غير أنه انسحب مع المنهزمين ، ومات بعد ذلك بقليل فى القسطنطينية ودفن فى كنيسة القديسة صوفية • والحقيقة أن وقعة أدرنة سنة ١٢٠٥ م وضعت الصليبيين فى موقف يائس ، وكانت ضربة عنيفة للمملكة اللاتينية وبداية النهاية لها(١٨) •

ومن الجدير بالذكر أن الضعف الرئيسى للدول اللاتينية التى انقسمت اليها الدولة البيزنطية كان يكمن فى حقيقة هامة ، هى أن السكان الخاضعين لحكم اللاتين كانوا عامة من اليونانيين،وبالتالى انعدم ولاؤهم للطبقة الحاكمة • يضاف الى ذلك كما يشير الأستاذ فريونس Vryonis أن الخلافات الدينية المذهبية زادت من كره اليونانيين لسادتهم الجدد لأن أحد جوانب السياسة التى اتبعها اللاتين هو تحقيق

---

(١٧) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 509 — 510.

عن الأساطير والروايات المختلفة المتعلقة بموت بلدوين ، أول امبراطور للمملكة اللاتينية فى القسطنطينية أنظر :

Wolff, R.L. : Baldwin of Flanders and Hainaut, First Latin Emperor of Constantinople his life, death and resurrection, in **Speculum,** Vol. XXVII (1952), pp. 281 — 322.

(١٨) Vasiliev. Byz. empire, II, p. 510 ;

روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية ، ص ١٥١ — ١٥٢ .

سمو الكنيسة الكاثوليكية • فالبابا انوسنت الثالث ، الذى كان يريد جذب الكنيسة اليونانية الى العالم الكاثوليكى ، اســتاء من المذبحة وانتهاك الأعراض الذى صاحب دخول اللاتين الى القسطنطينية • وحث رجال الدين اللاتين وأمــراء الصليبيين أكثر من مرة أن يعاملوا المسيحيين معاملة طيبــة ، ولكن دون جدوى ، فقد اســتاء من تصرفات اللاتين المشــينة(١٩) •

ومما يوضح ذلك ، ماكتبه البــابا انوسنت الثــالث الى القاصــد الرســـولى الكاردينـــال بطرس كابوانو Cardinal Peter Capuano اذ يقول متعجبا : « كيف يمكن أن نتوقع عودة كنيســة اليونانيين الى الولاء للبابوية الرسولية ، بينما ضرب اللاتين مثالا للشر وقاموا بأعمال الشيطان ، ونتيجة لذلك ولأسباب واضحة كرههم اليونانيون أكثر من كرههم للكلاب » • وأرسل البابا أيضا الى بونيفاس مونتفرات خطابا يحتوى على نفس المعنى ويؤكد ما أحدثــه سلب اللاتين للكنـــائس وما أتلفوه من أيقونـــات وصـــلبان وذخـــائر من أثــر سىء فى نفوس اليونانيين • وامتدت هذه الروح لفهم أوضـــاع اليونانيين تحت حكم اللاتين ، الى ادارة الكنيسة اللاتينية فى القسطنطينية(٢٠) •

ففى سنة ١٢٠٦ م كتب توماس موروسينى Thomas Morosini أول بطريرك لاتينى فى القسطنطينية ، الى البابا خطابا مطولا يخبره فيه بالأحوال فى المملكة اللاتينية ويسأله عن أية تعليمات فى نواحى اداريــة معينة • ورغم أن خطاب البطريرك الى البابا مفقود ، الا أن ما أثاره فى خطابه يظهر فى رد البابا على هــذه الرسالة ، وهــذا الرد مؤرخ فى ٢ أغسطس ١٢٠٦ م • ويفهم من رد البابا أن البطريرك اشتكى اليه أن

(١٩) Vryonis, Byzantium, p. 160.

(٢٠) Wolff, R.L., 'The Organisation of the Latin Patriarchate of Constantinople, 1204 -- 1261', **Traditio,** Vol. VI (1948), pp. 33--34.

بعض الأساقفة اليونانيين رفضــوا الخضوع لطاعته رغم التحذيرات التى وجهت اليهم • فقــد استمر كثير من الأساقفة اليونانيين يجمعون الأموال من أتباعهم فى اسقفياتهم ، وهرب بعضهم ولا يمكن الوصــول اليهم • وأصبحت كثير من الأبروشيات شاغرة لمدة ستة شهور وأكثر • وسأل البطريرك موروسينى البابا عما يفعله فى هــذه الحالات • وأجابه البابا انوسنت الثالث أنه يجب عليه مباشرة مهــام وظيفته بكل حزم وحصافة • ونظرا لمــا حدث فى بيزنطة وفى ضوء عدم الاستقرار كان على البطريرك موروسينى أن يرشح أساقفه جددا مرة ومرتين وثلاث مرات • واذا صمم رجــال الدين اليونانيون على مواقفهم فيجب على البطريرك اللاتينى أن يعزلهم عن وظائفهم ، ويصـــدر ضدهم قرارات الحرمان ، ويعين مكانهم رجال دين وموظفين لاتين • غير أن البابا حذر البطريرك أن لا يستخدم القسوة الا بعد أن يستنفد كل الطرق واللوسائل معهم(٢١) •

وسأل البطريرك موروسينى البابا انوسنت الثالث أيضا فى رسالته (١٢٠٦ م) عن أية تعليمات بخصــوص الأقاليم التى يسكنها كلهــا اليونانيون،وكذلك تلكالتى يسكنها خليط من اليونانيين واللاتين•وأجاب البابا انوسنت بأن الأقــاليم التى يســكنها اليونانيون فقط ، فيستطيع البطريرك تعيين أساقفة يونانيين مخلصين للبابا وللبطريرك ، على أن يقبــل الأســقف المرشــح رســامته (تكريســه) بيــدى البطريرك موروســينى • أما فى الأقــاليم التى يســكنها يونانيون ولاتين فعلى البطريرك أن يعين رجال دين لاتين • وتجدر الاشارة الى أنه كان من الصعوبة بمــكان أن يقبل رجــال الدين اليونانيون ســيادة اللاتين ، والاعتراف بسمو كنيسة روما • وفى مارس سنة ١٢٠٨ م طلب البابا من

---

(٢١) Wolff, 'The organisation of the Latin Patriarchate', pp. 34 — 35.

الامبراطور اللاتينى هنرى والبارونات والبنادقة وسكان القسطنطينية أن يساعدوا البطريرك ويناصحوه فى محاولاتـه لجلب اليونانيين الى حظيرة الكنيسة اللاتينية ، وأن يتابعوا توقيع عقوبة الحرمان ضد أولئك اليونانيين الذين رفضوا القيام بمتطلبـات الطاعة لروما وللبطريرك اللاتينى • واستمر رجال الدين اليونانيون فى عنادهم وموقفهم المتعنت تجاه الكنيسة اللاتينية(٢٢) •

فالحقيقة أنه بعـد الغزو اللاتينى للقسطنطينية فر من الأقاليم التى امتلكهـا اللاتين عدد من الأساقفة اليونانيين بما فيهم بطريـرك القسطنطينيـة ورئيس أساقفـة أثينـا ميخائيـل أكوميـناتوس Michael Acominatus فروا الى ابيروس ونيقية وطرابيزون وبلغاريا • وعاش بعض رجال الدين من اليونانيين فى أماكنهم الجديدة •وتجاهلوا أحيانا طلبات رجال الدين اللاتين ، وحرصـوا غالبا على الاتصـال برجال الدين المقيمين فى الأقاليم التى لم تخضع لحكم اللاتين•وانتقلت الوظائف الكنسية الكبرى فى الأقاليم المفتوحة الى أيدى الكاثوليك بينما ظل صغار رجال الدين فى القرى من اليونانيين • يضـاف الى ذلك أن رجال الدين اليونانيين واللاتين اشتركوا فى مجادلات دينية ومذهبيـة كان أهمها تلك التى جرت فى مدينة القسطنطينية فى السنوات ١٢٠٦ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ • وامتـد الخـلاف والنزاع بين الكاثـوليك اللاتـين والأرثوذكس اليونانيين حتى فى تفاصيل المصطلحات الدينية واجراءات الطقوس وما الى ذلك(٢٣) •

وهناك معلومات كثيرة فى المصادر التاريخية وغيرها عن طائفـة الفرانسيسكان ودورهم فى تاريخ المملكة اللاتينية فى القسطنطينية • فقد أصبح للرهبان الفرانسيسكان مركز هام فى القسطنطينية ، ولعبوا

---

(٢٢) Wolff, Loc. Cit.

(٢٣) Vryonis, Byzantium, pp. 160 — 161.

دورا هاما فى التاريخ الدينى والاجتماعى للمملكة اللاتينية • وبدأ نفوذ طائفة الفرانسيسكان فى البلاط الامبراطورى فى القسطنطينية فى عهد حنا دى بريين (١٢٢٩ — ١٢٣٧ م) • وكان حنا دى بريين ملكا على بيت المقدس وامبراطورا للقسطنطينية • وازداد نفوذ ونشاط الرهبان الفرانسيسكان لدرجة أن قاموا بدور هام فى الحياة السياسية والكنسية، وكذلك فى النشاط الثقافى فى المملكة اللاتينية فى القسطنطينية(٢٤) •

وتجدر الاشارة الى أنه قد حدث تداخل بين الثقافتين اليونانية واللاتينية • فقد حدث تزاوج بين اليونانيين واللاتين فى مجالات كثيرة غير الدين • وانعكس مزج وتداخل العناصر البيزنطية اليونانية والفرنجية اللاتينية فيما يسمى باسم تاريخ المورة Chronicle of Morea وأصل هذا التاريخ يجده الباحث فى اليونانية والفرنسية والايطالية والأرجونية ، ويحكى كيف اتصل الحكام اليونانيون فى المورة (البيلوبونيز) بالفرسان اللاتين ، وكونوا مجتمعا اقطاعيا واحدا • فنظام البرونويا البيزنطى قد واكب الاقطاع الفرنجى ، وبالتالى ورد فى تاريخ المورة كثير من المصطلحات الخاصة بكل من نظام البرونويا البيزنطى ونظام الاقطاع الأوروبى الغربى ، وانتقلت كثير من المصطلحات اللاتينية الخاصة بنظام حيازة الأراضى الى اللغة اليونانية• وانتقل هذا النوع من التعايش الى مجال الأدب ، وعلى سبيل المثال حدث تأثير مباشر للروايات الفرنسية على الروايات البيزنطية وتطور ذلك التأثير فى القرن الثالث عشر والقرون التالية • أما بالنسبة للحياة الاقتصادية فلاشك أن نفوذ التجار الايطاليين أصبح كبيرا جدا لدرجة أن المصطلحات البحرية والتجارية فى اللغة اليونانية أصبحت باللغة

(٢٤) انظر
Wolff, R.L., "The Latin Empire of Constantinople and the Franciscans, in **Traditio,** Vol. II (1944), pp. 213 — 237.

الايطالية • وظهر هــذا التأثير اللاتينى القوى فى ممتلكات البندقيــة التى ظلت تحت حكم الغرب الأوروبى حتى نهاية القرن الثامن عشر(٢٥) •

أما بالنسبة للدولة البيزنطية بعد كارثة ســنة ١٢٠٤ م فقد أدى سقوط مدينة القسطنطينية فى أيدى الصليبيين — كما سبق القول — الى انشقاق المجتمع اليونانى البيزنطى • ولم يستطع اليونانيون أن ينظروا الى القسطنطينية كنقطة تجمع لولائهم بعد أن أصبحت حياتها السياسية والدينية يرأسها امبراطور غربى لاتينى وبطريرك كاثوليكى • ولم يمنع هــذا الشعور من رغبــة وايمان فى قلوبهم فى اســترداد القسطنطينية ، وأصبح ذلك دافعا قويا فى العالم الأرثوذكسى • فقد ضاعت القسطنطينية ولكن الامبراطورية ظلت حية قائمة ، فبينما احتل اللاتين أم المدن (القسطنطينية) ، وكثيرا من الولايات ، الا أن النبلاء اليونانيين ورجال الدين والجند هربوا فى أعداد كبيرة الى تلك الأقاليم التى ظلوا فيها بعيدين عن سيطرة وسلطان اللاتين الغربيين • وفى هذه الأقاليم التى هاجر اليها اليونانيون حالت الجبال أو مياه البحر دون دخول اللاتين اليها مباشرة • وتركز الوجود اليونانى حول مدن نيقيه وطرابيزون وأرطــا Arta فى ابيروس • وتنــافست المـــالك اليونانية التى قامت بعد سنة ١٢٠٤ فيما بينهــا من أجل كسب ولاء اليونانيين ، كما تنافست لاسترداد القسطنطينية من قبضــة اللاتين • وانتسب مؤسسو الأسرات اليونانيــة التى قامت فى ابيروس وبيثينيا Bithynia وغيرهما الى أسرات امبراطورية بيزنطية • والحقيقة التى يجب ابرازها هى أن ما حدث من انقسام سياسى للعالم البيزنطى نتيجة الغزو اللاتينى سنة١٢٠٤م ، لم يؤخر فقط استرداد القسطنطينية حتى سنة ١٢٦١ م ، بل أدى هذا الانقسام الى الموت النهــائى للدولة البيزنطيــة(٢٦) • يضــاف الى ذلك أن الدولة البيزنطيــة لم تستطع

---

(٢٥) Vryonis, Byzantium, p. 162.

(٢٦) Ibid., p. 153.

النهوض من كبوتها فى سنة ١٢٠٤ م ، فقد فقدت الى الأبد معنى ومغزى دورها كقوة سياسية عالمية ، ولم تستطع استرداد ما كان لها من ازدهار سابق ونفوذ كبير(٢٧) .

فبعد سنة ١٢٠٤ م قامت ثلاث دول يونانية مستقلة على بقايا الدولة البيزنطية وهى : امبراطورية نيقية تحت حكم أسرة لاسكاريس Lascaris فى الجزء الغربى من آسيا الصغرى . وتقع هذه الدولة بين الممتلكات اللاتينية فى آسيا الصغرى وأراضى سلطنة سلاجقة الروم . وامتلكت هذه الدولة جزءا من الشاطىء الساحلى لبحر ايجة وكانت أكبر الدول اليونانية المستقلة وأخطر منافس للمملكة اللاتينية فى القسطنطينية . وفى الجزء الغربى من البلقان قامت دوقية Despotat فى ابيروس Epirus تحت حكم أسرة تنتمى الى أسرة انجيلوس ولها صلات بأسرة كومنين وأسرة دوقاس . أما الدولة اليونانية الثالثة فهى امبراطورية طرابيزون التى أقامها على الساحل الجنوبى الشرقى للبحر الأسود أفراد من أسرة كومنين(٢٨) .

ودوقية ابيروس أسسها ميخائيل الأول انجيلوس Michael I Angelus وهو — كما سبق ذكره — من أسرة انجيلوس التى كان لها صلات بعائلتى كومنين ودوقاس ، ولهذا كانت أسماء حكام ابيروس تذيل أحيانا باسم عائلى طويل Angelus Comnenus Ducas . وامتدت هذه الدوقية فى الأصل من دورازو فى الشمال ، الى خليج كورنثه فى الجنوب . وأصبحت مدينة أرطا عاصمة الدولة الجديدة . ويشير الأستاذ فازيليف الى أن تاريخ هذه الدوقية فى القرن الثالث عشر لم يدرس دراسة وافية وبخاصة أن المصادر التاريخية عن هذه الفترة من تاريخها ناقصة(٢٩) .

---

(٢٧) Vasiliev, Byzantine Empire, II, p. 469.

(٢٨) Ibid., II, p. 468.

(٢٩) Ibid., II, pp. 518 — 519.

وكان ميخائيـل الأول انجيلوس قد فكر فى أن يجعـل مستقبله السياسى متصلا بالغزاة اللاتين فى اليونان ويقيم علاقات معهم • غير أنه عدل عن هـذا التفكير ونجح ـ اعتمادا على صـلات عائليـة فى وسط وغرب اليونان ـ فى الاستيلاء على أرطـا حيث أرغم الامبراطور البيزنطى المطـرود المتجـول الكسـيوس الثـالث انجيلوس على أن يتوجه حاكما ، وذلك لكى يضفى على نفسه الصفة الشرعيـة • ونظرا لـما اتصف به ميخائيل من دهاء وشجاعة فقد نجح فى معالجة أموره مع اللاتين والبلغـار ، وامتدت حدود دوقيتـه الى دورازو غربا وتساليا Thessaly شرقا(٣٠) •

أما عن الادارة الداخلية لدوقية ابيروس فلم تختلف عن النظـام الذى كان سائدا قبل سـنة ١٢٠٤ م عندما كانت اقليمـا تابعا للدولة البيزنطية ، وعاش السكان تبعا لنظـام الادارة البيزنطيـة السابقة • واعتبر ميخائيل انجيلوس نفسه حاكما مستقلا استقلالا كاملا ، ولم يعترف بسـيادة تيودور لاسكاريس حاكم نيقيـة • وكانت كنيسـة ابيروس مستقلة أيضـا عن غيرها من الكنـائس ، وأصبحت المهمـة الأساسية لدوقية ابيروس هى الحفاظ على الهللينية فى الأقاليم الغربية من اليونان خوفـا من أن تتلاشى بواسـطة الفرنجـة المجـاورين والبلغـار(٣١) •

أما طرابيزون ، فقد كانت تقع على بعد مئات الأميال من مواقـع اللاتين ، وبالتالى كانت بعيدة عن التوسـع اللاتينى بعكس دوقيـة ابيروس • يضاف الى ذلك أنها امتازت بمزايا كثيرة . فموقعها الاستراتيجى والجغرافى جعلها واحدة من أعظم المراكز التجارية فى الشرق ، حيث كانت تلتقى هنـاك سـفن اللاتين واليونانيين بقوافل المسلمين الجالبة

(٣٠) Vryonis, Byzantium, p. 154.
(٣١) Vasiliev, By. empire, II, p. 519.

للمتاجر والربح الوفير لسكان طرابيزون • ورغم أن مساحة المدينة لم يكن متسعا ، نظرا لأن الأتراك كانوا يحكمون السهل الواقع جنوب الجبال ، الا انها كانت كثيرة المياه والخصب • وفى نهاية القرن الحادى عشر غزا الأتراك السلاجقة الساحل الجنوبى للبحر الأسود وعزلوا طرابيزون ، وأدى هذا الى ازدياد روح العزلة بين كثير من سكانها • وكانت أقوى الأسرات التى لعبت دورا هاما فى تاريخ هذه المنطقة هى أسرة جابراس Gabras ، وهى أسرة أرستقراطية قامت بدور عظيم فى تاريخ طرابيزون فى القرن الثانى عشر وبخاصة فى دفاعها ضد هجمات الأتراك السلاجقة(٣٢) •

وكانت هناك صلات قديمة بين أسرة جابراس حكام جورجيا Georgia (أيبريا) وأسرة كومنين • ففى زمن الامبراطور البيزنطى الكسيوس الأول كومنين (١٠٨١ — ١١١٨ م) ، أرسل داود الثانى ملك جورجيا (١٠٨١ — ١١١٨ م) واحدة من بناته اسمها كاتا Kata الى القسطنطينية لتتزوج حفيد الامبراطور البيزنطى واسمه الكسيوس ابن مؤلفة الالكسياد حنه كومنين Anna Comnenus من زوجها نقفور برينيوس Nicephorus Bryennius • وخلال القرن الثانى عشر تمت زيجات أخرى بين البيزنطيين والبيت الحاكم فى جورجيا(٣٣) •

ومؤسسا امبراطورية طرابيزون اليونانية هما الكسيوس وداود ابنا الامبراطور مانويل كومنين ، وهما بالتالى ينتميان الى امبراطور بيزنطى سابق بالإضافة الى أن اسرة كومنين كانت لها اتصالات قوية محلية ، فجدهما اندرونيقوس الأول Andronicus I, كان حاكما لميناء

(٣٢) Vryonis, Byzantium, pp. 154 — 155.
(٣٣) Vasiliev, 'The Foundation of the Empire of Trebizond (1204 — 1222)', **Speculum,** Vol. XI (1936), pp. 3 — 4.

سينوب Sinope ، كما كانت عمتهما هى الملكة تامار Thamar ملكة جورجيا(٣٤) •

وكان الكسيوس وداود طفلين صغيرين عندما مات والدهما مانويل كومنين سنة ١١٨٠ م • وبعد عزل أندرونيقوس وموته سنة ١١٨٥ م ، أصبح الكسيوس وداود الوريثين لعرش بيزنطة ومنافسين خطيرين للامبراطور اسحاق انجيلوس •وكان من المستحيل على الأميرين الصغيرين البقاء فى القسطنطينية بعد محاولة اسحاق انجيلوس القضاء على أفراد أسرة كومنين قضاء تاما • ولا تذكر المصادر التاريخية شيئا عن تاريخ الأخوين الكسيوس وداود خلال الفترة من سنة ١١٨٥ م الى سنة ١٢٠٤ م ، ولكن هناك معلومات تؤكد اقامتهما فى تفليس Tiflis. عاصمة جورجيا فى بلاط عمتهما الملكة تامار (١١٨٤ — ١٢١٢ م) ابنة أندرونيقوس ؛ أعظم شخصية فى تاريخ وأساطير جورجيا(٣٥) •

وارتفع شأن الكسيوس وداود فى بلاط الملكة تامار التى انتهزت فرصة الغزو اللاتينى للقسطنطينية فى سنة ١٢٠٤ م لكى تعد جيشا من قوات جورجيا لاحتلال مدينة طرابيزون ولكى تضع ولدى أخيها حكاما لها • واعتمادا على مؤرخ طرابيزون اليونانى ميخائيل باناريتوس 'Michael Panaretos ، سار الكسيوس كومنين بتأييد من عمته الملكة تامار ونجح فى الاستيلاء على طرابيزون • وتذكر معظم المصادر اليونانية الأخرى أن الأخوين الكسيوس وداود هما مؤسسى امبراطورية طرابيزون وتسميهما هذه المصادر أحفاد أندرونيقوس وأولاد مانويل • وقد استولى الكسيوس على طرابيزون فى أبريل سنة ١٢٠٤ م مما يدل على أن ذلك قد تم بعد الاستيلاء الأول للصليبيين

---

(٣٤) Vryonis, Byzantium, p. 156.

(٣٥) Vasiliev, 'The foundation of the Empire of Trabizond', p. 9.

على القسطنطينية فى ١٨ يوليو ١٢٠٣ م وليس بعد الاستيلاء الثانى فى ١٣ ابريل ١٢٠٤ م ٠و نجحت حملة الملكة تامار بقيـادة الكسيوس الى طرابيزون اذ أخذت الطريق البرى اليها من تفليس عن طريق لازيكا Lazica فى بلاد القوقاز . وقـام داود أخو الكسيوس بفتوحات واسعة غربا على طول السـاحل بعد أن استخدم جندا مرتزقـة من جورجيا ، فدخل بونطس Pontus ، واسـتولى على مدن وموانىء عديدة منها بافلاجونيا Paphlagonia وسينوب Sinope . وامتدت دولتاهما من طرابيزون الى هرقلة Heracleia فى الغرب(٣٦) .

وكيفما كان الأمر فالحقيقة أن امبراطورية طرابيزون كانت بعيدة عن القسطنطينية ، وحـال هـذا دون تحقيق الأمـل فى اسـترداد القسطنطينية من أيدى اللاتين . حقيقة أن حكام طرابيزون كانوا ينتمون الى أسرة كومنين الأكثر شهرة بين اليونانيين عن أسرة لاسكاريس فى نيقية ، كما كانت طرابيزون أكثر أهمية — من الناحية الاقتصادية — من امبراطورية نيقية ، الا أنه على الرغم من ذلك فقد فشلت طرابيزون فى تأسيس دولة قوية فى آسيا الصغرى وفى استرداد القسطنطينية(٣٧) .

وكانت الثالثة بين هذه الدول اليونانيـة التى قامت على أنقاض الدولة البيزنطية هى امبراطورية نيقية التى كان من نصيبها المحافظة على الشرف البيزنطى واسـترداد القسطنطينية . ولم تكن امبراطورية نيقية بعيدة جدا من الناحية الجغرافية عن القسطنطينية كما هو الحال بالنسبة لطرابيزون ، كما لم تكن فقيرة من الناحية الاقتصادية كما كانت دوقية ابيروس ، فقد تمتعت نيقية بموقـع جغرافى ممتـاز ، وامتلكت أراضى كثيرة خصبة حيث وديان غرب آسيا الصغرى التى كانت تأتيها

(٣٦) Ibid., pp. 15 — 22.

(٣٧) عن امبراطورية طرابيزون فى كتب التاريخ والأدب انظر الدراسة القيمة التى قام بها الأستاذ فازيليف :

Vasiliev, A.A. "The Empire of Trebizond in History and Literature, **Byzantion**, Vol. XV (1940 — 41), pp. 316 — 326.

المياه من الأنهار التى تنبع من الجبال وتمدها بحياة زراعيـــة مزدهرة ، وامتازت أيضا بكثرة عدد السكان • يضاف الى ذلك ان المدن الهامة مثل أزمير Smyrna وافسوس Ephesus ومغنيسيا Magnesia وبرجاموم Pergamum وبروسه Prusa ونيقوميديا Nicomedia ونيقية Nicaea ، أعطت لهذه المنطقة أهمية اقتصادية كبيرة وطابعا مدنيا مميزا • وكانت مدينة نيقية قريبة من القسطنطينية عن طرابيزون ، كما كانت مدينـــة حصينة لا تقهر تقـــع على شواطىء بحيرة اســـكانيا Ascania ومحاطة بأسوار قوية • يضاف الى ذلك أن مدينة نيقية تمتعت بشرف كبير اذ أنها كانت مكان أول وآخر مجمع دينى مســـكونى اعترفت به الكنيسة اليونانية(٣٨) •

وثيودور لاسكاريس Theodore Lascaris (١٢٠٤ــ١٢٢٢م) مؤسس امبراطورية نيقية كان رجلا يبلغ الثلاثين من عمره ، ينتمى الى أسرة أنجيلوس بزواجه من حنه Anna ابنـــة الامبراطور البيزنطى السابق الكسيوس الثالث ، كما ينتمى بنسبه الى أسرة كومنين أيضا • ورغم أن المصادر لا تذكر أصل لاسكاريس أو اسم المدينة التى أتى منها ، الا أنه تولى زمن الامبراطور الكسيوس الثالث قيادة عسكرية وحارب بشـــجاعة ضـــد الصليبيين(٣٩) • وترك ثيودور القسطنطينية كغيره من الموظفين البيزنطيين الذين فضلوا القتـــال فى غرب آسيا الصغرى • فقد كانت الأحوال مضطربة فى تلك المناطق حيث بدأ بعض اليونانيين فى تأسيس دويلات منافسة ، وبدأ اللاتين والسلاجقة وحكام طرابيزون فى الهجوم من كل جانب(٤٠) •

---

(٣٨) Vryonis, Byzantium, pp. 156 — 8.

(٣٩) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 508 ;
أسد رستم ، الروم ، ج ٢ ، ص ١٨٣ •

(٤٠) Vryonis, Byzantium, p. 158.

ومن الثابت أن الفرسان اللاتين بعد أن استولوا على القسطنطينية سنه ١٢٠٤ خططوا فى السنة نفسها لغزو آسيا الصغرى ، وحققوا نجاحاً فى عملياتهم الحربية هناك ، وظن اليونانيون فى آسيا الصغرى أنهم فقدوا كل شيء • وفى تلك اللحظة الحرجة اضطر اللاتين لدعوة فرسانهم الى أوروبا لمواجهة خطر البلغار • وانهزم الصليبيون أمام البلغار فى موقعة أدرنة فى ١٥ ابريل ١٢٠٥ وقتل الامبراطور بلدوين•ونتيجة لهذه المعركة وهزيمة اللاتين ، حصل تيودور لاسكاريس على مهلة من الوقت لكى ينظم قواته ويؤسس دولته ، ولذلك حكم حوالى أربع سنوات بدون لقب امبراطور متخذا لقب despot (حاكم مستبد)(٤١) •

ولما رفض بطريرك القسطنطينية السابق حنا كوماتروس John Comaterus — الذى هرب بعد الغزو اللاتينى الى بلغاريا — القدوم الى نيقية ، تم فى سـنة ١٢٠٨ انتخاب بطريرك جديد اسمه ميخائيل أوتوريـانوس Michael Autoreanus ، وأصـبح مقـر الكرسى البطريركى فى نيقية • وفى نفس العام قام البطريرك الجـديد بتتويج تيودور لاسكاريس امبراطورا • وتعتبر سنة ١٢٠٨م ذات أهمية كبيرة فقد أصبحت نيقية مقرا للامبراطورية والكنيسة معا(٤٢) •

وفى القسطنطينية بدأ هنرى حاكم المملكة اللاتينية يواجه نتـائج موقعة أدرنة التى فقد فيها أخاه الامبراطور بلدوين • وأعلن هنرى العداء ضد تيودور لاسكاريس وكان لديه الأمل فى أن يلحق ممتلكات نيقية الى المملكة اللاتينية • غير أن خوف هنرى من خطر البلغار وخوف تيودور من خطر السلاجقة أرغم كلاهما على أن يتفقا ويعقدا هدنة بينهما • وهدد سلاجقة الروم فى قونية امبراطورية نيقية اليونانية ، فقد كان قيام دولة

---

(٤١) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 508 — 9.
وانظر ما سبق ، ص ٢٥٩ •

(٤٢) Vasiliev, Op. Cit., II, pp. 511 — 12 ; Vasiliev, 'The Foundation of the Empire of Trebizond', p. 3.

يونانية جديدة فى آسيا الصغرى أمرا مرفوضا من جانب سلاجقة الروم، لأن قيام مثل هذه الدولة يحول دون تقدم الاتراك السلاجقة غربا ناحية ساحل البحر الأيجى • وتوترت العلاقات بين سلاجقة الروم فى قونية وامبراطورية نيقية خصوصا بعد أن التجأ الكسيوس الثالث انجيلوس والد زوجة تيودور لاسكاريس الى بلاط سلطان قونية طالبا منه المساعدة لاسترداد عرشه • وأرسل السلطان السلجوقى غياث الدين كيخسرو الأول تهديدا الى تيودور بأن يسلم العرش الى الكسيوس انجيلوس ، وأخفى فى تهديده حقيقة هدفه فى الاستيلاء على آسيا الصغرى كلها • وغزا السلطان السلجوقى فى سنة ١٢١١ م بعض الأقاليم التابعه لامبراطورية نيقية بحجة تأمين سلامة الكسيوس الثالث وفى الحقيقة لتوسيع السلطنة السلجوقية • وفى معركة جرت بالقرب من نهر مايندر Maender River بين السلطان السلجوقى غياث الدين والامبراطور تيودور لاسكاريس ، حاقت الهزيمة بالسلاجقة وقتل السلطان السلجوقى، وتم القبض على الكسيوس الثالث الذى قضى بقية حياته فى أحد أديرة نيقية • وأدى انتصار البيزنطيين فى هذه المعركة الى تأمين الحدود الشرقية لامبراطورية نيقية والى آثار نفسية عميقة فى نفس تيودور لاسكاريس ، كما كان لهذا النصر أثر كبير فى نفوس اليونانيين فى كل مكان ، وأعطاهم الأمل فى استرداد عرش القسطنطينية من اللاتين(٤٣) •

أما بالنسبة للمملكة اللاتينية فى القسطنطينية فبرغم أن هنرى عبر عن سروره لهزيمة الأتراك السلاجقة المسلمين ، الا أنه رأى — خطأ — أن انتصار اليونانيين سوف يؤدى الى اضعاف امبراطورية نيقية •وحدث عكس ما توقعه هنرى،فبعد قضاء تيودورلاسكاريس على مشكلة السلاجقة التفت الى هدفه الأساسى وهو الهجوم على

(٤٣) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 514 — 515 ; Vryonis, Byzantium, p. 159.

القسطنطينية بمساعدة أسطوله ، مما أدى الى التجاء هنرى الى اللاتين طالبا مساعدتهم . غير أن مشروع تيودور لاسكاريس لاسترداد القسطنطينية قد تم اجهاضه ، اذ لم يكن لامبراطورية نيقية الوليدة من القوة والاستعداد ما يساعدها على تحقيق هذا الهدف . ونجح هنرى فى اختراق آسيا الصغرى فى ١٢١٢ — ١٢١٣ م وانتهى النزاع بين المملكة اللاتينية وامبراطورية نيقية اليونانية بعقد سلام بين الجانبين ، تم فيها تحديد حدود الدولتين فى آسيا الصغرى ، وان يظل الجزء الشمالى من آسيا الصغرى تابعا للمملكة اللاتينية فى القسطنطينية . وفى سنة ١٢١٦ م مات هنرى الذى عرف بنشاطه وذكائه ، وبموته تخلصت امبراطورية نيقية من أخطر أعدائها ، اذ لم يكن خلفاؤه فى حكم القسطنطينية مثله ذكاء ونشاطا وهمة ، وبدأت الأنظار تتجه الى امبراطورية نيقية(٤٤) .

ومما يدل على ذلك أن بابوات روما خابت آمالهم بعد أن توقعوا أن استيلاء الصليبيين على القسطنطينية سوف يؤدى الى وحدة دائمة بين الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية . وما أن جاءت سنة ١٢١٦ م حتى أصبحوا لا ينظرون الى المملكة اللاتينية والبطريركية اللاتينية فى القسطنطينية كقوة مؤثرة لتحقيق هذه الوحدة الكنسية . والغريب أن البابوات بدأوا يفضلون اجراء المفاوضات لتحقيق هذا الهدف مع المنافس الخطير للمملكة اللاتينية ، أى مع امبراطورية تيودور لاسكاريس فى نيقية ، ولديهم الأمل فى تحقيق الوحدة الكنسية التى طال الأمد لتحقيقها منذ قطيعة سنة ١٠٥٤ م(٤٥) .

وأخيرا فى سنة ١٢٢٢ م مات تيودور الأول لاسكاريس مؤسس

---

(٤٤) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 515 — 516.

(٤٥) Wolff, R.L., 'The Latin Empire of Constantinople and the Franciscans', p. 224 and note 43.

امبراطورية نيقية بعد أن شيد مركزا هيللينيا فى آسيا الصغرى ، وجذب انتبـــاه اليونانيين الأوروبيين الى دولته ، وأسس قاعدة قـــوية مكنت لخلفائه من بعده أن يبنوا فوقها صرحا شامخا لاسترداد القسطنطينية .

وتـــولى عـــرش نيقيـــة حنـــا الثـــالث دوقـــاس فاتاتـــزيس John III Ducas Vatatzes بعد موت تيودور لاســـكاريس ، وهو زوج ابنته ايرين Irene ، وحـــكم الامبراطورية من ســـنة ١٢٢٢ م الى سنة ١٢٥٤ م . ورغم أن سلفه تيودور لاسكاريس وضع أســـاس تقدم امبراطورية نيقية الا أن مركزها الدولى كان فى حاجة الى رجل نشط شجاع . وظهرت هذه الصفات فى شخصية حنا فاتاتزيس الذى ظهرت امبراطورية نيقية فى عهده كأقوى الدول اليونانية ، ولعبت دورا هاما فى عالم العصـــور الوسطى . فقد عقد فاتاتزيس تحالفا زواجيـــا مع الامبراطور فردريك الثانى ، واتصل بالبابا بشأن الوحدة بين الكنائس، وعقد اتفاقا مع السلاجقة فى وجه الغزو المغولى . وفى الداخل نجح هذا الامبراطور فى تحقيق رخـــاء كبير فى آســـيا الصغرى ، واتخذ سياسة معينة لحماية الصـــناعات المحلية من تنافس المدن التجـــارية الايطالية ، مما أدى الى احياء صـــناعة النسيج البيزنطى ، وامتلأت مخـــازن الموانىء بالمتاجر الواردة من جميـــع أنحاء العـــالم المعروف وقتذاك . يضاف الى ذلك أن فاتاتزيس بذل اهتماما كبيرا بأحوال مدن دولته ، وملأها بالمنتجات الزراعية ، ودرب حرفيين متخصصين فى صناعة الأسلحة على حساب الدولة ، واهتم بالتعليم فجلب مجموعات من الكتب من المدن المختلفة . وشاهد عصره توسع سلطان امبراطورية نيقية فى البلقان ، وتوج هـــذا التوســـع باستيلائه على ســـالونيك سنة١٢٤٦، فنجح فى عزل اللاتين فى القسطنطينية ، وجعل استردادها قريبا(٤٦) .

---

(٤٦) Vryonis, Byzantium, p. 165.

وشاهد عصرفاتانزيس تنافسا جرىبين اليونانيين فىالبلقانوآسيا الصغرى ــ أى بين دوقية ابيروس وامبراطورية نيقية ــ لتحقيق هدف مشترك وهو استرداد القسطنطينية • وأثناء عهد تيودور لاسكاريس لم تكن هنــاك أية صــلات بين امبراطورية نيقيــة ودوقيه ابيروس • ولكن عندما تولى حنا فاتاتزيس عرش نيقية تغيرت الأمور • ففى ذلك الوقت كان يجلس على عرش دوقية أبيروس تيودور انجيلوس الذى وصل الى هــذا المنصب بعد مقتل أخيه ميخائيل الأول أنجيلوس مؤسس الدوقية(٤٧) • وعاش تيودور أنجيلوس فى بلاط امبراطور نيقيه فى عهد أخيه ميخائيل ، ولم يطلق امبراطور نيقية سراحه للذهاب لمساعدة أخيه ميخائيل فى الحكم الا بعد أن أقسم له يمين الولاء • وما أن تولى تيــودور انجيلوس عرش ابيروس حتى حنث بالقسم وشرع فى اتخاذ اجراءات عدائية ضد امبراطورية نيقية(٤٨) •

وسلك تيودور انجيلوس سلوكا عدائيا ضد المملكة اللاتينيــة فى القسطنطينية وخاصــة عندما ظهرت مشكلة مملكة ســالونيك • ففى سنة ١٢٠٧ م قتل حاكم سالونيك بونيفاس دى مونتفرات أثناء حربه ضد البلغار • وعندما كان الامبراطور اللاتينى هنرى على قيد الحياة كان فى استطاعته الدفــاع عن سالونيك من خطر البلغــار ودوقيــة ابيروس • ولكن موت هنرى ســنة ١٢١٦ م وضعف خليفتــه بطرس دى كورتناى Peter de Courtenay أديا الى عدم استطاعة سالونيك مقاومة السياسة العدائيــة التى شــنها تيودور حاكم ابيروس • وفى سنة ١٢٢٢ م استولى تيودور انجيلوس على سالونيك دون مقاومة كبيرة ، وامتدت دولته من الأدرياتيك الى البحر الأيجى ، ووجد نفسه جديرا بأن يدعى أحقيته فى التاج الامبراطورى ، وأن يصبح امبراطورا

---

(٤٧) عن تأسيس دوقية ابيروس انظر ما سبق ص ٢٦٥ •

(٤٨) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 519.

على الرومان • ورفض تيودور الاعتراف بلقب حنا فاتاتزيس الذى تولى عرش امبراطورية نيقية فى نفس السنة ١٢٢٢ م • ورأى تيودور أنجيلوس أنه يمثل العائلات البيزنطية المجيدة انجيلوس وكومنين ودوقاس وبالتالى له الدرجة العليا على حنا فاتاتزيس الذى لا ينتمى الى أصل نبيل ، وتولى العرش لمجرد أنه زوج ابنة تيودور لاسكاريس • واتخذ تيودور انجيلوس لقب الامبراطور البيزنطى واعتبر نفسه امبراطورا على الرومان ، وأصبحت القسطنطينية تمثل هدفه المنتظر لطموحاته • وكان كل أمله أن يدخل كنيسة القديسة صوفيه ، وأن يأخذ عرش الأباطرة الرومان الأرثوذكس • وعندما تم اعلان قيام امبراطورية سالونيك سنة ١٢٢٢ م رفض تيودور انجيلوس الاعتراف بامبراطورية نيقية وأصبح فى الشرق المسيحى ثلاث ممالك : امبراطوريتين يونانيتين فى سالونيك ونيقية والمملكة اللاتينية فى القسطنطينية التى أخذت تضعف سنة بعد أخرى • وأصبحت مملكة البلغار عاملا مصيريا فى العلاقات التى ربطت هذه الامبراطوريات الثلاث(٤٩) •

ولاشك أن هدف كل من الامبراطورين اليونانيين حنا فاتاتزيس وتيودور انجيلوس هو الوصول الى منصب امبراطور القسطنطينية • وبالتالى كان على كل واحد منهما أن يحارب منفردا ضد المملكة اللاتينية فى القسطنطينية الى أن يحدث الاصطدام بينهما أخيرا • فعندما تولى حنا فاتاتزيس عرش امبراطورية نيقية قام بهجوم ناجح ضد اللاتين فى آسيا الصغرى ، واستطاع بأسطوله الاستيلاء على بعض جزر الأرخبيل ومنها خيوس ولسبوس وساموس • ثم عبر الى أوروبا وأرسل جيشا استولى على أدرنه دون قتال • وكان لدى فاتاتزيس الأمل فى أن تفتح له تلك المدينة الهامة (أدرنة) أبواب القسطنطينية • ولكن فى نفس الوقت خرج تيودور انجيلوس من سالونيك غازيا معظم تراقيا •

(٤٩) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 520 — 522.

وفى سنة ١٢٢٥ م وصـل قرب آدرنـة وأرغم جيش منافسه حنـا فاتاتزيس على الانسحاب ، وكانت ضربة عنيفـة لحنا وبخاصـة أن تيودور انجيلوس تقدم حتى وصل الى أسوار القسطنطينية • غير أنه فى الوقت الذى قربت فيه لحظة استرداد تيودور انجيلوس للقسطنطينية واحيائه للدولة البيزنطية ، واجه خطرا كبيرا قادما من الشـمال متمثلا فى حنا آسن الثانى Tsar John Asen II خان البلغار الذى أراد أيضا الاستيلاء على القسطنطينية(٥٠) •

وحنا أسن الثانى (١٢١٨ — ١٢٤١ م) كان أعظم ملوك البلغار ، استطاع أن يمد حدود مملكة البلغار الى درجة لم تصـل اليهـا قبـله أو بعده • وكان هـذا الملك البلغارى متسامحا من الناحيـة الدينية ، ومتعلما ورحيما • واشتهر بتلك الصفات بين البلغار واليونانيين على حد سواء فأحبوه • وكانت لديه خطـة لتوحيد العالم الأرثوذكسى فى البلقان فى دولة واحدة عاصمتها القسطنطينية ، وبالتالى وقفت الامبراطوريتان اليونانيتان فى سالونيك ونيقية فى وجه تحقيق تلك الخطة • ومما يدل على ذلك أنه بعد استيلاء تيودور انجيلوس على سالونيك عقد تحالفا مع حنـا آسن ملك البلغـار • غير أن صداقتها لم تستمر طويلا نظـرا لرغبة آسن فى الاسـتيلاء على القسطنطينية ، وبالتـالى بدأ النزاع بينهما • وفى سنة ١٢٣٠ جرت معركة حاسـمة بين تيودور انجيلوس وحنا الثـانى آسن فى مكان يسـمى كلوكوتينتزا Clocotinitza وهو مكان يقع بين أدرنـة وفيلبوبولس • وانتهت المعركة بانتصـار حنـا آسن الذى ساعده الفرسـان الكومان • وأسر تيودور انجيلوس وسملت عيناه بعد أن اشترك فى مؤامرة ضد حياة خان البلغار • وتعتبر معركة كلوكوتينتزا نقطة تحول هامـة فى تاريخ المسيحية فى الشرق فى القرن الثالث عشر ، فقد قضت هذه المعركة على امبراطورية سالونيك

---

(٥٠) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 522 — 523.

تلك الامبراطورية اليونانيـــة التى كادت أن تســـترد القسطنطينية من اللاتين • فامبراطورية سالونيك كانت قصيرة العمر لم تعش ســوى ثمان ســنوات (١٢٢٢ــ ١٢٣٠ م) فقد خلف مانويل أخـاه تيودور انجيلوس فى حكم سالونيك غير أن سالونيك وابيروس لم يلعبا ــ بعد ذلك ــ دورا هاما ، وبالتالى انتقل التنافس على استرداد القسطنطينية بين حنا فاتاتزيس والخان حنا آسن(٥١) •

أما عن الخان حنا آسن فقد استولى على أدرنة بدون مقاومـة بعد هزيمته لتيودور انجيلوس وسقطت فى يده معظم مقدونيـة والبانيا حتى دورازو ، بينمـا ظلت ســالونيك وتساليـا وابيروس فى أيدى اليونانيين • وعندما فشل حنا آسن فى الاستيلاء على القسطنطينيـة بمفرده تحالف مع حنا فاتاتزيس حاكم نيقية ومانويل حاكم سالونيك ، وكان هـذا التحالف موجهـا ضد اللاتين فى القسطنطينية • وهكذا أصبحت عاصمة المملكة اللاتينية محاطة بالأعداء من جميع الجهـات وفى موقف خطر للغاية • وفى سنة ١٢٣٥ م حاصرت قوات حنا آسن وفاتاتزيس القسطنطينية برا وبحرا ، غير أنها أرغمت على الانسحاب دون أن تصل الى نتائج حاسمة • وغادر بلدوين الثانى Baldwin II آخر الأباطرة اللاتين العاصمة القسطنطينية يائسا ، وانتقل فى انحـاء أوروبا يسأل حكامها تقديم المساعدة والعون بالمـال والرجال للمملكة اللاتينية • ولم ينقـذ القسطنطينية فى تلك المرحلة سوى انهيار التحالف اليونانى ــ البلغارى ، فقد تحقق حنا آسن أن امبراطورية نيقية هى العدو الخطير لمملكة البلغار ، وأكثر خطرا عليهـا من المملكة اللاتينيـة الضعيفة التى تموت موتا بطيئا ، وغير حنا آسن موقفه وأصبح مدافعا عن المملكة اللاتينية ، وأعلن ايمانه بالكنيسة البابوية الكاثوليكية ، وأرسل

(٥١) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 523 — 525.

الى البابا يطالب وفــدا للتفاوض قاضــيا على التحــالف اليونانى — البلغــارى(٥٢) •

وبدأ تحالف جديد بين حنا فاتاتزيس والامبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، وكان نتيجــة هــذا التحالف الجديد هو عــداء كل من فردريك الثانى وحنا فاتاتزيس للبابوية • ففردريك الثانى كان قد قام بتوحيد ألمــانيا ومملكة صقلية تحت سلطانه ، فقد ولد من أب ألمــانى هو هنرى السادس وأم ايطالية هى الأميرة كونستانس وريثة صقلية • ونشأ فردريك وتربى وتعلم فى بالرمو بجزيرة صقلية ، وهى الجزيرة التى كانت ملتقى للحضارات الاسلامية واليونانية واللاتينية ، فنشــأ فردريك الثانى محبا للجدل يجيد عدة لغات منها العربية واليونانية ، ومعجبا بحضــارة المسلمين وعلومهم • وكان فردريك عدوا للبابوية بسبب نظرية السمو البابوى والسيادة العليــا التى ادعتهــا البابوية ، واعتقاد فردريك بأنه خليفة قيصر وأوغسطس وشارلمــان ، وأنه يمثل السلطة الامبراطورية العليا ، وأن رجال الكنيسة وعلى رأســهم البابا يجب أن يعترفوا له بالسمو والزعامة • وبلغ العداء مداه عندما قامت البابوية باصدار قرارات الحرمان ضد فردريك ثلاث مرات(٥٣) •

---

(٥٢) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 525 — 526.

(٥٣) Kantorowicz, Frederick the Second 1194 — 1250, London, 1931, pp. 25 — 30 ;

سعيد عاشور ، الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١١٢ — ١١٣ ، وانظر ما ذكره المؤرخ جمال الدين بن واصل (مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب ، ج ٤ تحقيق حسنين ربيع ، ص ٢٤٩ — ٢٥١) عن عــداء فردريك الثــانى للبابوية وتهكمه على البابا وصــدور قــرار الحرمان ضــده ، وقاد فردريك الثانى الحملة الصليبية السادسة سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م وهو مطرود من رحمة الكنيســة ، منبوذ من المجتمع المسيحى ، واستغل علاقته الطيبــة بالسلطان الأيوبى الكامل واستخدم كل الوســائل الدبلوماسية حتى تنــازل له السلطان الكامل عن بيت المقــدس ، وقوبل هــذا بالسخط الشــديد من المسلمين ، لتفاصيل ذلك انظر ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ ، ٢٣٣ — ٢٣٤ ، ٢٤١ — ٢٥١ ، ســعيد عاشــور ، الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى ، ص ١١٦ — ١٢٩ •

وهكذا اشترك فردريك الثانى وحنا فاتاتزيس فى العداء للبابوية. وكانت البابوية ترى فى المملكة اللاتينية فى القسطنطينية وسيلة لتوحيد الكنائس الشرقية والغربية ، بينما ناصب فردريك هذه المملكة العداء لأنه رأى فيها عاملا من عوامل قوة البابوية ونفوذها . ومن ناحية أخرى نظر حنا فاتاتزيس الى البابا نظرة عدائية لأنه رفض الاعتراف بالبطريرك الأرثوذكسى فى القسطنطينية الذى تم رسامته فى نيقية ، مما حال دون استيلاء فاتاتزيس على القسطنطينية(٥٤) . وبالتالى أدى العداء للبابوية وللمملكة اللاتينية الى عقد تحالف بين فردريك الثانى وحنا فاتاتزيس فى العقد الرابع من القرن الثالث عشر . وأرسل فاتاتزيس سفارة الى فردريك أتبعها بهدايا ثمينة ومبلغ من المال(٥٥) . وبناء على هذا التحالف وعد الامبراطور فردريك الثانى حنا فاتاتزيس بالعمل على تحرير القسطنطينية من اللاتين واعادتها الى امبراطورها الشرعى . ومن ناحية أخرى تعهد امبراطور نيقية بأن يصبح تابعا وفصلا Vassal للامبراطور فردريك الثانى ، وأن يعيد وحدة الكنيستين كنيستى روما والقسطنطينية . وتوثقت الصلات بين الحاكمين بصلة المصاهرة . فبعد وفاة الزوجة الأولى لحنا فاتاتزيس ، تزوج ابنة فردريك الثانى وكان اسمها قنسطانس Constance ثم اتخذت اسما يونانيا Anna حنه(٥٦) . واستمرت الصداقة بين فردريك الثانى وحنا فاتاتزيس حتى موت فردريك رغم أن الامبراطور الألمانى انزعج فى آخر عهده بالمفاوضات التى دارت بين نيقية وروما وتبادل السفراء بينهما . وهناك مراسلات بين فردريك الثانى وحنا فاتاتزيس ، حذر فيها فردريك صهره حنا من خطورة التقارب مع البابوية ، قائلا له أن الأساقفة الرومان « لبسوا قمامصة للمسيح

---

(٥٤) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 527 28.

(٥٥) Kantorwicz, Op. Cit. p. 207.

(٥٦) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 528 ;

وانظر ايضا عن علاقة فردريك الثانى بحنا فاتاتزيس :

Kantorwicz, Op. Cit., pp. 207, 598, 660.

ولكنهم ذئاب ضارية ، وحيوانات متوحشة تلتهم شعب المسيح » • وقد تغيرت هذه العلاقات وبخاصة بعد موت فردريك الثانى فى سنة ١٢٥٠ م ، وتولى ابنه مانفرد Manfred عرش مملكة صقلية ، اذ انقلب مانفرد الى عدو لدود لامبراطورية نيقية • وبعد موت حنا فاتاتزيس سنة ١٢٥٤ م أصبح التحالف الألمانى — اليونانى الذى كان يحلم به فردريك الثانى مجرد ذكرى • ولم يؤد هذا التحالف الى نتائج هامة ، ولكنه يدل على أن حنا فاتاتزيس كان لديه الأمل فى الوصول الى هدفه وهو الاستيلاء على القسطنطينية ، اعتمادا على مساعدة الصديق فردريك الثانى(٥٧) •

وشاهد عصر حنا فاتاتزيس خطرا مدمرا وفد من الشرق كاد يودى بآمال امبراطورية نيقية فى استرداد القسطنطينية • وتمثل هذا الخطر فى الغزو المغولى التترى • وأطلقت المصادر البيزنطية على المغول أو التتار أسماء Tahars, Tatars, Atars (٥٨) • ومن المعروف أن المغول الأصليين نشأوا فى الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبى ، وهى تمتد فى أواسط آسيا جنوبى سيبيريا وشمال التبت وغربى منشوريا وشرقى التركستان بين جبال التاى غربا وجبال خنجان شرقا(٥٩) • وأرسل أوكتاى خان المغول خليفة جنكيز خان جيشا كبيرا بقيادة باطو بن جوجى ، وكلفه بفتح بلاد الروس والجركس والبلغار وأقاليم أوروبا الشرقية • وتمكن هذا الجيش المغولى من الاستيلاء على كل المنطقة الواقعة بين جبال الأورال وشبه جزيرة القرم(٦٠) • واندفع المغول نحو أوروبا الروسية واستولوا على مدينة

---

(٥٧) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 530 :
وعن المراسلات المكتوبة باللغة اليونانية من فردريك الثانى الى زوج ابنته حنا فاتاتزيس ، انظر : Kantorowicz, Op. Cit., pp. 306, 627.

(٥٨) انظر : Vasiliev, Op. Cit., II, p. 530.

(٥٩) فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص ٣٠ — ٣١ •

(٦٠) المرجع السابق ، ص ١٨٦ — ١٨٧ •

كييف سنة ٦٣٨ هـ/١٢٤٠ م ، وعبروا جبال الكربات ووصلوا الى بوهيميا قبل ارغامهم على الانسحاب الى سهول روسيا • وفى نفس الوقت تقدمت جموع مغولية أخرى جنوبا وغزوا أرمينية بما فى ذلك أرضروم (أرض الروم) Erzerum وغزوا آسيا الصغرى ، وهاجموا سلطنة سلاجقة الروم فى قونية وامبراطورية طرابيزون(٦١) •

وعلى الرغم من أن دولة السلاجقة بآسيا الصغرى قد بلغت ذروة سلطانها فى عهد السلطان كيقباذ الأول ، الا أنه بعد موت هذا السلطان سنة ١٢٣٧ م تعرضت دولة سلاجقة الروم لتهديد المغول منذ بداية عهد كيخسرو الثانى (١٢٣٧ — ١٢٤٥ م) • وتوغل المغول فى أراضى سلطنة سلاجقة الروم ، وحققوا انتصارات متعاقبة حتى هزموا السلطان السلجوقى فى ٢٦ يونيه ١٢٤٣ م عند كوزاداخ Kosadagh بالقرب من أرزنجان • وترتب على انتصارات المغول استيلاؤهم على سيواس واكتفوا بنهبها ، وخربوا توقات وقيصرية • واضطر سلاجقة الروم الى عقد معاهدة مع الأمير المغولى باطوخان تعهد السلاجقة فيها بأداء اتاوة وامدادات للمغول ، وكانت صدمة عنيفة مهدت لنهاية دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى(٦٢) •

وتحت ضغط الخطر المشترك العام من المغول تم التحالف بين دول آسيا الصغرى الثلاث : سلطنة قونية وامبراطورية نيقية وامبراطورية طرابيزون • وهزم المغول القوات العسكرية السلجوقية وقوات طرابيزون ، واضطر امبراطور طرابيزون الى عقد معاهدة سلام مع المغول ، وتعهد بدفع اتاوة سنوية ليصبح تابعا وفصلا لهم(٦٣) •

وكان من حسن حظ السلاجقة وكذلك حظ فاتاتزيس أن انشغل

---

(٦١) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 530.
(٦٢) السيد الباز العرينى ، المغول ، ص ١٧٨ — ١٧٩ •
(٦٣) Vasiljev, Byz. empire, II, p. 531.

المغول بعمليات حربية أخرى ، وركزوا هجومهم ناحية الغرب فى أوروبا مما ساعد امبراطور نيقية فى القيام باجراءات حاسمة فى البلقان مهدت لتحقيق الأمل الكبير وهو استرداد القسطنطينية(٦٤) .

ففى البلقان انتهز حنا فاتاتزيس انهيار المملكة البلغارية الثانية عندما مات حنا آسن الثانى سنة ١٢٤١ م . ولم يستطع خلفاء حنا آسن المحافظة على فتوحاته نتيجة ضعفهم وقلة خبرتهم . وعبر حنا فاتاتزيس بجيوشه الى الساحل الأوروبى ، وفى خلال شهور قلائل استولى على كل أقاليم مقدونية وتراقيا التى كان قد غزاها آسن . ثم تقدم حنا فاتاتزيس نحو سالونيك حيث انتشر فيها الاضطراب والفوضى واستطاع الاستيلاء عليها بدون صعوبة فى سنة ١٢٤٦ م ، وبالتالى قضى على دولة سالونيك . وفى السنة التالية ١٢٤٧ م استولى فاتاتزيس على بعض مدن تراقيا التى كانت لاتزال فى قبضة اللاتين وأصبح بذلك على مقربة من القسطنطينية . وخضعت دوقية ابيروس لسيادة حنا فاتاتزيس وبالتالى امتدت دولته من البحر الأسود الى بحر الادرياتيك(٦٥) .

وفى سنة ١٢٥٤ م مات الامبراطور حنا فاتاتزيس بعد أن بلغ من العمر اثنين وستين سنة وحكم ثلاثين عاما . وقد مدحه وبجله كل المؤرخين البيزنطيين مثل نقفور جريجوراس Nicephorus Gregoras وجورج اكروبوليتا George Acropolita . وأصبح فاتاتزيس قديسا فى التراث الشعبى اليونانى ، ونشأت أساطير وروايات حول شخصيته باعتباره أول من فكر فى احياء الدولة البيزنطية . والحقيقة أن الامبراطور حنا فاتاتزيس قضى بالتدريج على أولئك الذين ادعوا العمل لاحياء الدولة البيزنطية وبخاصة حكام سالونيك وابيروس وبلغاريا .

---

(٦٤) عن المغول فى أوروبا ووصولهم الى قلب أوروبا وسواحل بحر الادرياتيك ، انظر السيد الباز العرينى ، المغول ، ص ١٨٠ — ١٨٨ ، فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ ، ص ١٨٦ — ١٨٨ .

(٦٥) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 532 ;

وعن الاستيلاء على سالونيك ، انظر : Vryonis, Byzantium, p. 165

ويرجع اليه الدور الرئيسى لحركة استرداد القسطنطينية • وبالتـالى يمكن القول بأن ميخائيـل باليولوغس Michael Palaeologus استفاد من جهود ونشاط وانجازات أقدر حكام نيقية أى حنا فاتاتزيس الذى نظرت اليه الأجيال التالية على أنه « أب اليونانيين »(٦٦) •

وبعد حنا فاتاتزيس حكم نيقية ابنـه تيودور الثـانى لاسكاريس Theodore II Lascaris (١٢٥٤ ــ ١٢٥٨ م) ثم حفيده حنا الرابع لاسكاريس John IV Lascaris (١٢٥٨ ــ ١٢٥٩ م) • أما عن تيودور لاسكاريس ، فرغم ضعف صحته الا أنه قضى كل أوقاته فى دراسـة الأدب فقد كان تلميذ أعظم علماء العصر وعلى رأسهم نقفور بلميديس Nicephorus Blemmydes وجورج اكروبوليتا George Acropolita . ورغم اهتمام تيودور الثانى بالعلوم والآداب الا أنه اهتم فى بدايـة عهده بتكوين جيش يونانى قوى دون الاعتماد ــ الى حد كبير ــ على الجند المرتزقة • كما قـام هذا الامبراطور بحملتين ناجحتين ضـد البلغار عندما انتهز الخان البلغارى ميخائيل آسن فرصة موت فاتاتزيس، وحاول استرداد الأقاليم التى استـولى عليها من المملكة البلغارية • وتوسط بينهما الأمير الروسى روستسلاف Rostislav صهر ميخائيل آسن ، وتم عقد معاهدة بين تيودور لاسكاريس وميخائيل آسن عادا بعدها الى حدودهما الأولى • أما علاقـة تيودور بدوقيـة ابيروس ، فبمقتضى مشروع الزواج المقترح بين ابن دوق ابيروس وابنة تيودور تسلم تيودور الميناء السـاحلى دورازو على الأدرياتيك وحصن صربيـا Serbia على حدود ابيروس ــ بلغاريا • ولم يحدث صـدام بين حكام نيقية والمغول بل أرسل المغول سفارة الى نيقية استقبلت استقبالا رائعـا(٦٧) •

---

(٦٦) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 533 -- 534.
(٦٧) Ibid., II, pp. 534 — 535.

وفى سنة ١٢٥٨ م مات تيودور الثانى لاسكاريس وخلفه ابنــه القاصر حنا الرابع الذى لم يبلغ من العمر ـــ وقتذاك ـــ ثمان سنوات • ولم يستطع الامبراطور الصغير التحكم فى شئون الامبراطورية حتى بمساعدة وصيه جورج موزالون George Muzalon • وفى ذلك الوقت نجح شخص طموح اسمه ميخائيل باليولوغس فى الاستيلاء على عرش نيقيــة • وينتمى ميخائيل باليولوغس الى أسرة ارستقراطية عريقة فى المجتمع البيزنطى ، لعبت دورا هاما فى تاريخ الدولة البيزنطيــة منذ منتصف القرن الحادى عشر • فجده الأكبر هو جورج باليولوغس الذى ساعد آل كومنين فى الوصــول الى العرش فى أواخــر القرن الحــادى عشر • وتحدث ميخائيــل عن نفســه وذكر أنه ينتسب الى الأسرات البيزنطية الحاكمة : دوقاس وكومنين وانجيلوس • وشغل بعض أفراد أسرة باليولوغس مناصــب كبــيرة فى قيــادات الجيش وفى ادارة الامبراطورية ، كما ارتبطت أسرته بصلات المصــاهرة بأسرة تيودور الأول لاسكاريس امبراطور نيقية • وتولى ميخائيل باليولوغس وظائف فى امبراطورية نيقية ، فقد كان قائدا عسكريا لفرقــة الفرنجة المرتزقة ، وعرف بشجاعته وذكائه ، كما كان حاكما لمدينــة نيقية فى عهد تيودور الثانى لاسكاريس(٦٨) • وحامت حول ميخائيــل باليولوغس اتهامات بتدبير مؤامرات ضد حنا فاتاتزيس الذى ينتمى اليه بصلة قرابة ، وضد تيودور الثــانى • وعندما انكشف أمره هرب الى بلاط سلطان قونيــة السلجوقى • واستفاد ميخائيــل باليولوغس من الظروف التى أحاطت بدولة نيقية فى عهد الامبراطور الطفل حنا الرابع لاسكاريس حتى تم تتويجه امبراطورا فى سنة ١٢٥٩ م (٦٩) •

وكان على الامبراطور ميخائيل باليولوغس مواجهة خطر خارجى

---

(٦٨) انظــر اسحق عبيــد ، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس ص ٣٥ ـــ ٣٧ •

(٦٩) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 536 ; Hussey, Byz. World, p. 71.

هذه ممتلكات نيقية فى البلقان . فقد نجح دوق أبيروس فى تكوين تحالف ضد امبراطورية نيقية منه ومن قريبه مانفرد بن فردريك الثانى ملك صقلية ومن أمير امارة آخايا Achaia فى بلاد اليونان وهو وليام دى فيلهاردوين William de Villehardouin . والتقى ميخائيل باليولوغس مع القوات المتحالفة فى معركة فاصلة سنة ١٢٥٩ م فى سهل بيلاجونيا Pelagonia غربى مقدونية بالقرب من مدينة كاستوريا Castoria . وحارب فى جيش ميخائيل فى هذه المعركة جنود مرتزقة من الأتراك والكومان والصقالبة واليونانيين . وكان انتصار الامبراطور ميخائيل باليولوغس انتصارا حاسما ، وسجل هو ذلك بالتفصيل فى السيرة الذاتية التى كتبها ولاتزال محفوظة لم تندثر ، سجل فيها ميخائيل كيف سحق دوق ابيروس وامير آخايا والألمان وأهل صقلية والايطاليين القادمين من أبوليا وغيرهم . وتعتبر معركة كاستوريا من المعارك الحاسمة التى مهدت لاسترداد مدينة القسطنطينية ، فقد انحسر دور دوقية ابيروس فى أراضيها ، ولم تعد الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية تستطيع الاعتماد على امارة آخايا . وساعدت هذه المعركة ميخائيل باليولوغوس على أن يركز جهوده لاسترداد القسطنطينية ، وأن يحرز انتصارات فى المورة ، وأن يجعل الأسطول البندقى يقف على الحياد ، وهو القوة الوحيدة — وقتذاك — التى كانت قادرة على مقاومة خططه(٧٠) .

ولكى يتأكد ميخائيل باليولوغوس من تحقيق نصر مؤكد على الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية عقد معاهدة مع الجنوية منتهزا فرصة التنافس والنزاع بين البندقية وجنوة حول مصالحهما التجارية . فمن المعروف أنه بعد الحملة الصليبية الرابعة استفادت البندقية فائدة كبيرة

(٧٠) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 536 — 7 ; Vryonis, Byzantium, pp. 165 — 6.

وأصبحت ذات قوة تجارية لايستهان بها . ورغم أن الجنوية كانوا على دراية بأن أى اتفــاق سوف يعقدونه مع اليونانيين المنشقين عن طــاعة كنيسة روما ، أى مع اليونانيين فى نيقية ، ســوف يثير البابا والغرب عموما ضدهم ، الا انهم أرادوا ابعاد منافسيهم البنادقة من الشرق وعقدوا معاهــدة مع ميخائيل . وفى ١٣ مارس ١٢٦١ م وفى مدينــة نيمفايوم Nymphaeum (قرب مدينــة أزمير) تم توقيع معاهدة فى غاية الأهمية بين الجنوية وميخائيل باليولوغس . وأعطت هذه المعاهدة للجنوية السيادة التجارية فى الشرق ، وهى السيادة التى كانت لمدة طويلة من الزمن فى أيدى البنادقة . ومنح الجنوية امتيــازات تجارية فى جميع أنحاء دولة ميخائيل باليولوغس . وحصــل الجنوية على منح هامة فى القسطنطينية وفى جزيرتى كريت وايوبيا Euboea (نجروبونت) اذا نجح ميخائيل باليولوغس فى استردادهم . كما حصلوا أيضا على مدينة أزمير Smyrna ذات الأهمية التجارية الكبيرة وخاصة بمينائها الهام . كما حصل الجنوية على مراكز تجارية فى جزيرتى خيوس ولسبوس وفى أماكن أخرى بما فى ذلك الحق فى انشاء الكنائس والقنصليات . وبمقتضى هذه المعــاهدة الهامة أصبح البحر الأســود مغلقا فى وجه كل التجــار الأجانب ما عدا الجنوية والبيازنه المخلصين لميخائيل . وفى مقابل كل هذا تعهد الجنويــة بأن يمنحوا تجــارة حرة لرعايا الامبراطور ، وأن يساعدوه بأسطولهم بشرط أن لا تستخدم السفن ضــد البابا أو أصدقاء جنوة . وكان الأســطول الجنوى فى غاية الأهميــة بالنســبة لمشروع ميخائيل باليولوغس لغزو القسطنطينية . وهذه المعاهدة تم المصــادقة عليها فى جنوة قبل استيلاء قوات ميخائيل على القسطنطينية ببضــعة أيام . وكان هــذا انتصارا كبيرا لجنوة التى قاست خسائر كثيرة بعد انتصارات صلاح الدين الأيوبى فى بلاد الشام ، وبدأت صفحة جديدة فى

التاريخ الاقتصـــادى للعصور الوسطى(٧١) • وحصلت جنوة على مزيد من الامتيازات التجارية ، وعلى سبيل المثال منح الجنوية فى سنة١٢٧٥م حق استغلال مناجم حجر الشب الغنية فى فوكيا Phocaea عند مدخــل خليج أزمير • وحصــل الجنوية على ثروات ضخمة من هــذه المناجم لشدة حاجة أوروبا وقتذاك لحجر الشب فى الصباغة وصناعة المنسوجات ودبغ الجلود وما الى ذلك(٧٢) •

أما عن أحوال الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية فى السنوات الأخيرة من عمرها فكانت فى غاية السوء • ولعل أبلغ دليل على ما تردت فيه امبراطوريـــة اللاتين من انهيـــار وضعف وفقر ، هو قيـــام آخر امبراطور لاتينى فى القسطنطينية بلدوين الثانى (١٢٣٧ — ١٢٦١ م) برهن ابنه وولى عهده فيليب كورتناى Philip de Courtenay لجماعـــة من التجار البنادقة كضمان لدين استدانه • وقد شرح وولف Wolff هذا الموضوع شرحا وافيا وخلاصته أن الامبراطور اللاتينى استدان مبلغا كقرض حوالى سنة ١٢٤٨ م ، وأنه رهن ابنه وولى عهده فيليب الى اخوان فيرو Ferro وهم تجار بنادقة فى القسطنطينية • وفى ٨ يناير ١٢٥٨ م أرسل ملك فرنسا القديس لويس التاســـع هبه مالية كبيرة لكى يقضى بها الأمير فيليب نفقاته الخاصـــة ، ولم يقصد الملك

---

(٧١) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 537 — 8 ; Charanis, 'Economic Factors in the decline of the Byz. Empire', p. 422 ; Cam. Med. Hist., Vol. 4, Part 1, p. 326 ;
عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصـــور الوســـطى ، ص ٨٧ — ٨٨ ، اسحق عبيد ، الدولة البيزنطيـــة فى عصر باليولوغوس ، ص ٧٧ •

(٧٢) Hussey, Byz. World, pp. 69 — 70 ;
وعن اهمية الشب واستخراجه وتجارته انظر :
Rabie, The Financial system of Egypt, pp. 82 — 5 ; Cahen, 'l'Alun avant phocée,' pp. 433 — 47 :
انظر ما سبق ، ص ١٦٠ •

الفرنسى أداء دين امبراطور القسطنطينية بلدوين الثانى • ولم تصل الهبه الى فيليب الا فى يونيــة سنة ١٢٥٩ م • وخـلال الفترة من يونية ١٢٥٨ الى أول مايو ١٢٦١ م قامت الامبراطورة مارية دى بريين Marie de Brienne — وهى أم فيليب وزوجة بلدوين الثانى — بزيارة قشتالة Castile ، وحصلت من ابن عمها الفونس العاشر Alfonso X على المـال اللازم لاطلاق سراح أبنها فيليب ، ونجحت فى اطـلاق سراحه فى أول مايو ١٢٦١ م • واتفقت الامبراطورة ماريه والفونس على أن يتزوج ابنها فيليب كورتناى بابنة الفونس ، غير أن مشروع الزواج تعثر وقتذاك ، فقد عارضت البابوية مشروع الزواج على أساس أن ابنة الفونس لا تحل لفيليب لصلة القرابة الوثيقة بينهما، كما وجد مشروع الزواج معارضة فى قشتالة ذاتها • والحقيقة أن هذه المعارضة من جانب البابوية ومن أهل قشتالة كان سببها الصـداقة التى تربط امبراطور القسطنطينية بلدوين الثانى بمانفرد ملك صقلية • ويهمنا هنا القول أن قصــة هذا الرهن يوضح مدى ما تردت فيه الامبراطورية اللاتينيــة من انهيار وضعف عشــية دخـول ميخائيـل باليولوغس القسطنطينية(٧٣) •

ففى يوم ٢٥ يوليو ١٢٦١ م استولت قوات ميخائيل باليولوغس على مدينة القسطنطينية بسهولة • وكان ميخائيل فى ذلك الحين فى آسيا الصغرى عندما وصلته أنباء الاستيلاء على القسطنطينية ، فسار بسرعة اليها • وفى أول أغسطس دخل ميخائيل باليولوغس مدينة قسطنطين فى موكب عظيم ، وحيـاه الناس • وتبع ذلك بوقت قصير تتويجه للمرة الثانية فى كنيسة القديسة صوفيه بواسطة البطريرك • وبهذه الاجراءات

---

(٧٣) Robert Wolff, 'Mortgage and redemption of an Emperor's son : Castile and the Latin Empire of Constantinople, in **Speculum**, Vol. XXIX (1954), pp. 45 — 84.

تم احيــاء التقاليد البيزنطيــة القديمــة بأن القسطنطينية هى رأس امبراطورية اليونانيين وكنيستهم • وهرب بلدوين الثــانى الى جزيرة ايوبيا (نجروبونت) باليونان ومنها الى طيبه تم الى أثينا ومنها الى بعض مدن أوروبا باحثا عن مســاعدة لاسترداد ملكه المفقود • وغادر البطريرك اللاتينى ورؤساء رجال الدين الكاثوليك العاصمة البيزنطية • وأمر ميخائيل بسمل عينى حنا الرابع لاسكاريس ، واسترد ميخائيــل الثامن باليولوغس الدولة البيزنطية وأعادها الى أهلها البيزنطيين • وتم نقل العاصمة من نيقية الى القسطنطينية(٧٤) •

ورغم أن طرد اللاتين من القسطنطينية كان نصرا عظيما لبيزنطة ، الا أنه من ناحية أخرى كان فألا سيئا لمصير الدولة البيزنطية • فالدولة البيزنطية لم تعد تشمل سوى شمال غرب آسيا الصغرى والقسطنطينية وتراقيا ، وجزء من مقدونية بما فى ذلك سالونيك وبعض الجزر الواقعة شــمال الأرخبيل وجزء من أراضى بلاد اليونان الأصلية • ولم يكن فى استطاعة ميخائيل باليولوغس أن يوحد بين الممالك اليونانية التى انسلخت عقب حوادث ســنة ١٢٠٤ م • فقــد أصبحت الدولة البيزنطية متاخمة لامبراطورية طرابيزون التى احتلت كل ساحل البحر الأسود من هرقلة الى القوقاز ، ومتاخمة لدوقية ابيروس• واحتفظ البنادقة بممتلكاتهم فى البيلوبونيز وفى جزر كورفو وكرجو وكريت ، كما ظل البارونات البنادقة فى مواقعهم فى جميع جزر الأرخبيل • وسيطرت مدينة جنوة على تجارة الدولة البيزنطية كلها ، واعتمدت بيزنطة عليها ماليا واقتصاديا • واحتفظ الجنوية بممتلكاتهم على ساحل آسيا الصغرى والجزر الكبرى المجاورة مثل خيوس ولسبوس ، هــذا فضلا عن وجود دوقيــة أثينا فى وســط اليونان وامارة آخايا فى البنلوبونيز • وهكذا انبثقت قوى كثيرة جديدة

---

(٧٤) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 538 ; Vryonis, Byzantium, p. 166 ; Cam. Med. Hist., Vol. 4, i, pp. 327 -- 8.

نافس الامبراطورية باليولوغس فى القسطنطينية التى أصبحت أضعف من ، وقت مضى(٧٥) .

ووجد ميخائيل باليولوغس نفسه منغمسا فى نزاع مع دول بلقانية متعددة بدات شعوبها تقوى ويكثر عددها وبخاصة الصربيون والبلغار . يضـــاف الى ذلك أنه بنقل عاصمة الدولة البيزنطيـــة الى أوروبا أدار الامبراطور ميخائيل ظهره لغرب آسيا الصغرى ، وبالتالى أهمل شئون الولايات التى جعلت استرداد الدولة البيزنطيـــة أمرا ممكنا . وأهملت ولايات آسيا الصغرى فى الوقت الذى زاد فيه خطر الأتراك مرة أخرى. وصار هذا الخطر جسيما فى السنوات التالية حتى تم القضاء على الدولة البيزنطية فى النهاية على أيدى الأتراك العثمانيين(٧٦) .

وواجه ميخائيل باليولوغس خطرا آخر وفد من الغرب ممثـــلا فى تهديدات الصليبيين اللاتين الذين كان لديهم الأمل فى اعادة الامبراطوريه اللاتينية فى القسطنطينية . فقد نجح شارل الأنجوى Charles of Anjou أخو الملك الفرنسى لويس التاسع فى الاســـتيلاء على مملكة صقلية من مانفرد . وبمقتضى معاهدة فيتربو Viterbo التى عقدها شارل الأنجوى فى ســـنة ١٢٦٧ م مع الامبراطور اللاتينى المعزول من القسطنطينيـــة بلدوين الثـــانى ، بدأ شارل يكون حلفا ضـــد القسطنطينية . ونجحت دبلوماسية شارل الأنجوى مع اللاتين فى المورة ومع حكام ابيروس ومع البلغـــار والصربيين فى تكوين حلف ضد الدولة البيزنطيـــة . وعـــاش الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوغس مدة خمس عشرة سنة تحت تهديد حملة صليبية قادمة من الغرب لاسترداد القسطنطينية . ولم يمنع تحقيق هـــذا الأمل الصليبى اللاتينى ســـوى الدبلوماســـية

---

(٧٥) Charles Diehl, Byzantium, p. 209 ; Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 580 — 81.

(٧٦) Vryonis, Byzantium, p. 166.

البيزنطية ، فقد أرسل الامبراطور البيزنطي ميخائيل الى البابا جريجورى العاشر طالبا منه استخدام نفوذه لمنع شارل الآنجوى من تحقيق مشروعاته ضد بيزنطه . واشترط البابا مقابل ذلك ان يوافق الامبراطور البيزنطى على اعادة جميع الامتيازات التى كانت للبابوية قبل حدوث القطيعة بين روما وبيزنطة سنة ١٠٥٤ م . وكان على الامبراطور البيزنطى ميخائيل أن يؤكد صدق النية والرغبة فى وحدة الكنيستين والاعتراف بسيادة البابا أمام مندوبى البابا الذين أوفدوا الى القسطنطينية . وفى سنه ١٢٧٤ م انعقد مجمع ليون الثانى فى مدينة ليون Lyons ، وارسل ميخائيل وفدا رسميا للمشاركة فى أعمال المجمع مؤلفا من السكرتير الامبراطورى جورج اكروبوليتا والبطريرك جرمانوس الثالث وثيوفانيس ومطران نيقية . وقدم الوفد البيزنطي الى المؤتمر الرسائل الامبراطورية التى احتوت على الاعتراف بقداسة البابا على سائر الكنائس ، وتفويضه الفصل فى أمور الكنيستين (كنيسة بيزنطة والكنيسة الرومانية) وفقا لقوانين الكنيسة الرومانية . ورغم أن ميخائيل الثامن ظل مخلصا طيلة حياته لقراراتمجمع ليون الثانى ، فقد غضب البيزنطيون ورجال الدين اليونانيون على مجمع ليون وقراراته . وعقد رجال الدين البيزنطيون مجلسا فى حماية حكام ابيروس أصدروا فيه قرار الحرمان ضد كل من الامبراطور ميخائيل الثامن والبطريرك جرمانوس الثالث ، ولم يعترفوا بقرارات مجمع ليون الثانى ورأوا فيه صورة جديدة لمجمع اللصوص فى القرن الخامس . وفى سنة ١٢٨١ م تولى كرسى البابوية مارتن الرابع Martin IV الذى انضم الى شارل الأنجوى ضد ميخائيل الثامن باليولوغس ، مما أعطى لشارل فرصة لتحقيق هدفه . وعندما تأهب شارل الأنجوى للقيام بحملته شبت ثورة مريعة فى صقلية عرفت باسم الصلوات الصقلية Sicilian Vespers فى ٣٠ مارس سنة ١٢٨٢ م ، وبدأت بحادث قتل جرى فى كاتدرائية الروح القدس فى بالرمو . وانتقمت تلك الثورة من جند شارل الأنجوى

وحاشيته وموظفيه وسائر الفرنسيين بأنحاء الجزيرة • وأدت هذه الثورة الى انفصال جزيرة صقلية عن مملكة نابلى الفرنسية ، وقضت على مشروعات شارل ضد الدولة البيزنطية ، ووصلت الى صقلية قوات بطرس الثالث ملك أرغونه Peter III of Aragon (٧٧) •

وحاول الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوغس أن يأمن جانب أقوى الدول الاسلامية وقتذاك وهى سلطنة المماليك حتى يستطيع التفرغ لمواجهة المشكلات السياسية التى واجهته ، ويضمن حليفا يقف الى جانبه فى حالة هجوم صليبى لاتينى ، لذلك تقرب الى سلاطين المماليك ، فأرسل الى السلطان الظاهر بيبرس طالبا منه ايفاد شخص لرعاية شئون الطائفة الملكانية فى القسطنطينية • وأرسل السلطان بيبرس سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢م الرشيد الكحال ومعه بعض الأساقفة صحبة الأمير فارس الدين أقوش المسعودى • واستقبلت السفارة المملوكية استقبالا حسنا ، وزار الأمير أقوش المسجد الذى جدد الامبراطور بناءه • وارسل السلطان بيبرس الى جامع القسطنطينية « الحصر العبدانى ، والقناديل المذهبة ، والستور المرقومة ، والمباخر والسجادات والعود والعنبر والمسك وماء الورد » • ثم توترت العلاقات بين السلطنة المملوكية والدولة البيزنطية عندما عاق الامبراطور ميخائيل رسل السلطان بيبرس عند عبورهم بلاد الدولة البيزنطية الى بلاط بركة خان ، خان مغول القفجاق سنة ٦٦٢ هـ/١٢٦٤م• غير أن الامبراطور البيزنطى أطلق سراح رسل بيبرس وسمح لهم بمتابعة سفرهم ، وأرسل الهدايا الى السلطان بيبرس ليسترضيه (٧٨) •

---

(٧٧) اسحق عبيد ، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس ص ١١٣ — ١١٦ ،
Vryonis, Byzantium, pp. 166 — 7 ;
وعن ثورة الصلوات الصقلية :
انظر اسحق عبيد ، نفس المرجع ، ص ١٠٥ — ١٠٦ ، فشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ٢٦٠ ، ٢٣٨ •
(٧٨) المقريزى ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٤٧١ — ٤٧٢ ، ٥١٤ ، ٥٣٧ ، محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر =

وعقد الامبراطور ميخائيل باليولوغس معاهدة مع السلطان المملوكى المنصور قلاون(٧٩) • وأورد القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الانشا(٨٠) ترجمة عربية لنص الهدنة التى وردت من الامبراطور البيزنطى ميخائيـــل الثـــامن باليولوغس (الأشـــكرى)(٨١) صاحب القسطنطينيـــة فى رمضـــان ســـنة ٦٨٠ هـ/ديسمبر ١٢٨١ م • وعبر الامبراطور البيزنطى عن رغبته فى اقامة علاقات ود وصداقة واتفاق وأن يكون بينهما « محبة مستقيمة ، وصداقة كاملة نقية ، ولا يحرك ملكى أبدا على عز سلطانه حربا ولا على بلاده ، ولا على قلاعهـــا ، ولا على عساكره ، ولا يتحرك ملكى أبدا على حربه » •

وورد فى نص الهدنة أيضا أن يتبادلا الرسل ، وأن لا يلحق بأحـــد من تجـــار الطرفين ضرر أوجور أو ظلم ، وأن يتم تسهيل مرور أهـــل ســـوداق(٨٢) بما بصحبتهم من مماليك وتجـــار الى بـــلاد الســـلطنة

= بيبرس ، ص ١١٠ ــ ١١١ ، عبد العزيز الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس ، ص ١٣١ ــ ١٣٤ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٢٦٢ .

(٧٩) عن هذه المعاهدة انظر :
Canard, M., 'le traité de 1281 entre Michel Paléologue et le Sultan Qulâ'un' Byzantion, X (1935), pp. 669 — 680.

وعن معاهدة أخرى عقدها السلطان قلاوون مع جنوة ســـنة ١٢٩٠ انظـــر :
Holt, Qalawun's Treaty with Genoa in 1290, in **Der Islam**, Band 57, Heft 1 (1980), pp. 101 — 108.

(٨٠) القلقشـــندى ، صبح الاعشى فى صـــناعة الانشـــا ، ج ١٤ ، ص ٧٢ ــ ٧٥ .

(٨١) اطلق المؤرخون المسلمون منذ اوائل القرن السابع الهجرى اسم الاشكرى على اباطرة الدولة البيزنطية ، واطلق الاسم اول الأمر على تيودور لاسكاريس الأول امبراطور نيقية بعد استيلاء اللاتين على القسطنطينية ، ثم غلب اسم الاشكرى بعد ذلك على كل اباطرة بيزنطة ، لتفصيل ذلك انظر حاشية الدكتور محمد مصطفى زيـــادة فى تعليقاته على كتـــاب المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٧٩ حاشية ٢ .

(٨٢) أى مغول القفجاق الذين عرفوا بمغول القبيلة الذهبية فى جورجيا (الكرج) وحوض نهر الفولجا .

المملوكية . وعرض ميخائيل على السلطان قلاون نجدة فى البحر « لمضرة العدو المشترك » .

وأورد القلقشندى(٨٣) أيضـا نسخة اتفـاق كتبت من الأبواب السلطانية عن السلطان قلاون نظير الهدنة السابقة وفيها أقسم السلطان قلاون على « استمرار الصداقة ، واستقرار المودة النقية » للامبراطور ولولده ولوارثى مملكته وتعهد السلطان بعدم محاربة مملكة الامبراطور أو بلاده أو قلاعه أو عساكره ، وأن يكون الوضع بالمثـل . وطلب السلطان قلاون أن يتعهد الامبراطور البيزنطى بأن لا يحرك أحدا آخر على حرب مملكة السلطان فى البر ولا فى البحر ، ولا يساعد أحـدا من أعداء السلطان من سائر الأديان والأجناس ، وأن لا يسمح لهم بالعبور الى سلطنة دولة المماليك . وأكد السلطان فى هـذا الاتفاق على ضرورة تحقيق الأمان للرسـل المسيرين الى بلاد سـوادق سواء كان ذلك برا أو بحرا ، وما يحضرونه معهم من مماليك وجـوار وغير ذلك والمعاملة بالمثل للتجار البيزنطيين(٨٤) .

وتجدر الاشـارة الى أنه رغم أن ميخائيـل باليولوغس نجح فى استرداد القسطنطينية ، ورفع بيزنطة مرة أخرى الى درجة عالية بفضل انتصاراته على اللاتين ، الا أن انجـازه كان سريع الزوال ، فاسترداد القسطنطينية برهن على أنه عبء ثقيل على كاهل الدولة البيزنطية ، حتى العاصمة القسطنطينيـة ــ كما يذكر فازيليف ــ لم تسترد قوتهـا بعد ما حدث من نهبها سنة ١٢٠٤ م . والحقيقة أن القسطنطينية انتقلت الى

---

(٨٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٧٥ ــ ٧٨ .

(٨٤) عن الأهمية السياسية لهذه المعاهدة انظر ايضا :

Canard, M., 'Un traité entre Byzance et l'Egypte au XIIIe siècle et les relations diplomatiques de Michel VIII paléologue avec les sultans Mamluks Baibars et Qalâ'un', in **Mélanges Gaudefroy-Demombynes**, (1935— 45), pp. 209 — 223.

أيدى ميخائيل الثامن ولكنها كانت فى حــالة من الانهيــار والاضمحلال والدمار • وبدت الأبنية الفخمة وكأنها قد نهبت حديثا ، وفقدت الكنائس ذخائرها وكنوزها(٨٥) • وأهم من هذا كله ــ كما سبقت الاشارة اليه ــ أن الدولة البيزنطية بعد أن تم احياؤها فى القسطنطينية بعدت عن قاعدة قوتها الأساسية فى آســيا الصغرى ، لكى تعيش فى ظل مجد زائل فى البلقان • ومنذ سنة ١٢٦١ م اتبع ميخائيل الثامن باليولوغس سياســة حربية واقتصادية قللت من أهمية أقاليم آسيا الصغرى التى كثرت فيها الفتن والثورات ، وتم تسريح جنود آســيا الصــغرى من الوطنيين ، وتعطلت الحياة الزراعية ، وتولى الغرباء الوظائف الكنسية(٨٦) •

وجنى الامبراطــــور اندرونيقوس الثـــانى Andronicus II (١٢٨٢ ــ ١٣٢٨ م) الثمار المرة لأعمال ميخائيل الثامن باليولوغس • ووجد اندرونيقوس الثانى أن الدولة البيزنطية قد انهكتها سياسة سلفه ميخائيل • ويمكن القول أن قصــة الدولة البيزنطية بعد وفاة ميخائيل باليولوغس أصبحت قصــة كوارث حربيــة واقتصــادية وسياســية • فميخائيل قد أنهك الامبراطورية بتطلعــات ومطالب متزايدة فى وقت انكمشت فيه موارد الدولة • وحاول ميخائيل باليولوغس ارضــاء مؤيديه من العسكريين ومن أصحاب الضياع الكبيرة من الطبقة النبيلة البيزنطية، فبعد أن كانت الاقطاعــات الزراعيــة الكبيرة التى تســمى برونويــا Pronoia تمنح لفترة محدودة وتكون فى الغالب مدى الحيــاة أى لا يجوز توريثها ، أصبحت هــذه الاقطاعات وراثيــة • وغدا من حق أصحاب البرونويات توريثها الى أولادهم فتدهورت هــذه الاقطاعات • وخلال القرنين التاليين حدث ازدياد مستمر فى اعداد البرونويات نتيجة هــذا التوريث • وصــاحب ازدياد هــذه الاقطاعات الوراثيــة اعفاء من الخدمة العســكرية ، فاضطرت الدولة البيزنطية الى الاعتماد على

(٨٥) Vasiliev, Byz. empire, II, p. 581.
(٨٦) Vryonis, Byzantium, p. 167.

استخدام الجند المرتزقة فى الجيش ، مما أدى بدوره الى انعدام الولاء من الجند لها ، فضلا عن ارهاقها بمبالغ طائلة من الأموال • وفى نفس الوقت منح أباطرة أسرة باليولوغس اعفاءات ضرائبية كثيرة لأصحاب الضياع الكبيرة من المدنيين ، وأدى هـذا الى نقص الموارد الضرائبية للدولة فضــلا عن نقص الخدمات العسكرية(٨٧) •

واضــطر اندرونيقوس الثانى فى سنة ١٣٠٣ لكى يقف فى وجـه السلاجقة والأتراك العثمانيين الى الاستعانة بفرقة من الجند المرتزقة من القطلان الأسبان (نسبة الى قطالونيا) وعلى رأســها قائد مغامر اسمه روجر دى فلور Roger de Flor • وتكونت هـذه الفرقــة القطالونية من عناصر مختلفة وفدت من أماكن متعددة لتحارب لمن يدفع لها الثمن ، وبلغ عددها حوالى عشرة آلاف شخص بما فى ذلك زوجاتهم وأولادهم • وحققت هذه العصبة القطالونية بعض الانتصارات البسيطة فى آسيا الصغرى ضد الأتراك بمساعدة بعض فرق الجيش البيزنطى • وركن رجال الفرقة القطالونية الى الخمول والدعة ، واشتبكوا مع الجنوية فى القسطنطينية فى نزاع عنيف ، وزاد نفوذهم وقوتهم الى درجة أن حمل روجر القطلانى لقب (قيصر) وهو اللقب التالى للقب الامبراطور رغم أنه كان أجنبيــا • وعندما تأخرت على القطلان رواتبهم ، تمردوا على الامبراطور اندرونيقوس الثانى • ودبر الامبراطور مؤامرة اغتيل فيها روجر القطلانى ، فثار جنوده وألحقوا الهزيمــة بالجيش البيزنطى ، وأغاروا على القرى والمدن والأديرة البيزنطية للسلب والنهب فى تراقيا ومقدونية وغاليبولى وغيرهــا ، مما سبب للدولة البيزنطيــة الكثير من

---

(٨٧) Vryonis, Byzantium, pp. 168 — 9 ;

وعن توريث منح البرونويــا فى عصر ميخائيل باليولوغس ونتائجــه ، انظــر :

Charanis, 'On the social structure and economic organization of the [illegible] Empire in the Thirteenth Century and later', **Byzantionslavica**, Vol. 12 (1951), pp. 105 — 6.

المتاعب والعناء حتى سنة ١٣١٠ م عندما التحقت الفرقة القطالونية خدمة دوق أثينا الفرنجى(٨٨) .

ومما حدث فى القرن الرابع عشر من تنافس بين أفراد الأسرة البيزنطية الحاكمة ، ونزاع بين الطبقات الاجتماعية ، وفتن دينية قضى على القوة القليلة الباقية للدولة البيزنطية حتى أصبحت لعبة فى أيدى الصربيين والأتراك العثمانيين . وفى سنة ١٣٢١ سار اندرونيقوس الثالث أو الأصغر ، حفيد الامبراطور اندرونيقوس الثانى الى العاصمة القسطنطينية طامعا فى حكم الامبراطورية بعد وفاة والده . وأرغم الحفيد اندرونيقوس جده على منحه جزءا من مقدونية وتراقيا . وعندما تجدد النزاع الأسرى لجأ كل منهما الى طلب المساعدة من الصربيين والبلغار ، وانتهى هذا النزاع فى سنة ١٣٢٨ م بانتصار الحفيد على الجد ، وتولى اندرونيقوس الثالث عرش الدولة البيزنطية (١٣٢٨ — ١٣٤١ م) وأرغم جده اندرونيقوس الثانى على ارتداء ملابس الرهبان والاقامة فى الدير(٨٩) .

وانتهز الأتراك العثمانيون فرصة نشوب النزاع الأسرى فى الدولة البيزنطية ، وما واكبه من حروب أهلية وحققوا — فى السنوات الأخيرة من عهد اندرونيقوس الثانى وفى عهد حفيده اندرونيقوس الثالث — انتصارات هامة فى آسيا الصغرى . فقد غزا السلطان عثمان وبعده ابنه أورخان المدن البيزنطية الهامة بروسه Brusa ونيقية ونيقوميدية ، ووصل العثمانيون الى شواطىء بحر مرمرة . وبدأت مدن عديدة على الساحل الغربى لآسيا الصغرى تدفع اتاوة للأتراك المسلمين الفاتحين . وفى سنة ١٣٤١ م عندما مات اندرونيقوس الثالث كان الأتراك العثمانيون

---

(٨٨) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 604 — 7 :
اسحق عبيد ، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس ، ١١٧ — ١١٨ .

(٨٩) Vryonis, Byzantium, pp. 169 — 70.

قد أصبحوا سادة آسيا الصغرى وبدأوا يفكرون فى نقل فتوحاتهم الى ممتلكات بيزنطة فى أوروبا بل وهددوا القسطنطينية ذاتها(٩٠) •

وحقق العثمانيون هـذه الانتصارات فى الوقت الذى انغمس فيه البيزنطيون فى الفتن والحروب الأهلية • ولما مات اندرونيقوس الثالث سنة ١٣٤١ م وخلفه فى الحكم ابنه حنا الخامس John V تحت وصاية أمه آن من سافوى Anne of Savoy اندلعت مرة أخـرى الحروب الأهلية وكانت أهمها تلك التى اندلعت فى مدينـة أدرنه فى ٢٧ اكتوبر سنة ١٣٤١ م وانتشرت فى كل مدينة من مدن الدولة البيزنطية وخاصـة فى سالونيك • وتراكمت أسباب الفتن والحروب الداخلية ، فبالاضافـة الى التنافس على العرش البيزنطى ، شب النزاع بين العامة والنبلاء ، وازدادت الأحوال الاقتصادية سوءا مع قسوة جامعى الضرائب فضـلا عن الفقر والبؤس الذى عانى منهما البيزنطيون كثيرا(٩١) •

وكان حنا الخامس بالبولوغس فى الحـادية عشرة من عمره عندما ورث عرش أبيه سنة ١٣٤١ م • ونشبت حرب أهلية للفوز بعرش الدولة البيزنطية لعب فيها حنا كنتاكيوزين John Cantacuzene دورا هاما • ووقف فى وجـه حنا كنتاكيوزين حزب قوى من آن من سافوى أرملة الامبراطور اندرونيقوس الثالث والوصـية على العرش ، والبطريرك الكسيوس ابوكاوكوس Alexius Apocaucus • ومما زاد من خطورة هذه الحرب الأهلية تدخل قوى أجنبية لتحقيق أهداف سياسـية مثل الصربيين والبلغار والأتراك السلاجقـة والأتراك العثمـانيين • وبعد تتويج حنا الخامس بالبولوغس ببضعة شهور أعلن حنا كنتاكيوزين نفسه

---

(٩٠) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 608 — 9.

(٩١) لتفصيل ذلك انظر :
Charanis, 'Internal strife in Byzantium during the Fourteenth Century, **Byzantion**, Vol. XV (1940 — 41), pp. 208 — 30.

امبراطورا فى احدى مدن تراقيا ، وأصبح هنـــاك امبراطوران فى الدولة البيزنطية • ووجد كنتاكيوزين العون والمساعدة من الأتراك العثمانيين حتى أنه زوج ابنته من السلطان العثمانى أورخـــان • وقـــام بطريرك بيت المقدس بتتويج كنتاكيوزين فى أدرنه ، وفتحت القسطنطينية أبوابها لحنا كنتاكيوزين الذى تم الاعتراف به امبراطورا باسم حنا السادس ، وأصبح مماثلا للامبراطور حنا الخامس باليولوغس • وفى سنة ١٣٤٧ م تم تتويج كنتاكيوزين مرة أخرى وتزوج الامبراطور الشـــاب حنـــا الخامس باليولوغس بابنته وحقق كنتاكيوزين آماله • وحاول كنتاكيوزين ابعاد حنا الخامس باليولوغس بشتى الطرق ، فمنع ذكر اسمه فى الكنائس وفى الاحتفالات العامة ، وأعلن ابنه مساعدا له فى حكم الدولة البيزنطية ووريثـــا للعرش • غـــير أن البيزنطيين لم يطمئنوا للامبراطور حنـــا كنتاكيوزين وسياسته بعد أن أرهقت الحروب الأهلية الدولة • وجاءت الضربة القاضية لعهد كنتاكيوزين من جانب العثمانيين الذين استولوا فى سنة ١٣٥٤ م على غاليبولى Gallipoli برضى وعلم الامبراطور البيزنطى • وكانت غاليبولى أول مدينـــة أوروبيـــة استولى عليهـــا العثمانيون • واستعان حنا باليولوغس بالجنوية ، واستطاع بمساعدتهم دخول القسطنطينية فى نهاية سنة ١٣٥٤ ، وأجبر حنا كنتاكيوزين على التخلى عن العرش ودخول أحد الأديرة حيث قضى بقية حيـــاته لكتابة مذكراته(٩٢) •

وانتهز الصربيون ــ كما فعل العثمانيون ــ فرصة تردى الدولة البيزنطية فى فتن وحروب داخلية ، فقام ملك الصرب ستيفن دوشـــان Stephan Dušan (١٣٣١ ــ ١٣٥٥ م) بالانقضاض على بيزنطـــة والاســـتيلاء على أراضيها فى البلقان • وكان دوشان قد عقد أولا اتفاقا مع حنا كنتاكيوزين فى سنة ١٣٤٢ ــ ١٣٤٣ م غير أنه ترك جانبه وانضم الى حنا الخامس باليولوغس لكى يحقق مزيدا من المكاسب والمصـــالح

(٩٢) Vasiliev, Byz. empire, II, pp. 584 — 5, 622 — 3.

الخاصة . وعندما ترك كنتاكيوزين مقدونية متجها الى القسطنطينية انتهز دوشان الفرصـــة واحتل معظم البانيا ووسط وشمال اليونان . وحاول ملك الصرب دوشان تأسيس امبراطورية على النمط البيزنطى كما فعل سيمون خان البلغار فى القرن العاشر . غير أن محـــاولة دوشان كانت قصيرة العمر اذ مات فجأة فى سنة ١٣٥٥ م وبموته انهارت مملكة الصرب وحل محلها عدد من الدويلات الصغيرة(٩٣) .

وهكذا ترك حنا كنتاكيوزين الدولة البيزنطية سنة ١٣٥٤ م فى حالة سيئة من التدهور والانهيار فقد اتسعت الهوة والفوارق بين الأغنياء والفقراء بسبب الحروب الأهلية والانهيار السياسى والاقتصـــادى . وجلبت تلك السنوات من الفتن والحروب الأهليـــة الكوارث والأضرار بالدولة والمجتمع البيزنطى ، وألحقت بالزراعة أضرارا بالغة ، ودمرت وسائل الانتـــاج فى الأقاليم التى كانت تمد الدولة البيزنطيـــة بالموارد المـــالية وغيرها(٩٤) . ونتيجة لسيطرة الجنوية والبنادقة على الحيـــاة الاقتصـــادية فى الدولة البيزنطيـــة انخفضت متحصـــلات الضرائب الجمركية . ففى القرن الرابع عشر الميلادى وصلت الضرائب الجمركية التى جمعهـــا الجنويـــة فى مستوطنتهم جالاطا Galata (ضاحيـــة بالقسطنطينيـــة)(٩٥) الى مبـــلغ مقداره ٢٠٠ ألف عمـــلة ذهبيـــة Hyperpera فى حين كانت حصيلة الضرائب الجمركية التى جمعها

---

(٩٣) Vryonis, Byzantium, p. 171.

(٩٤) Ibid., p. 171.

(٩٥) فى ســـنة ١٢٦٧ وافـــق الامبراطور البيزنطى ميخائيـــل الثامن باليولوغس على أن يؤسس الجنوية مستوطنة جديدة على الجانب الآخر من القرن الذهبى فى مواجهـــة القسطنطينية عرفت باسم مستوطنة جالاطا . وتمتعت هـــذه المستوطنة الجنوية بمركز اقتصـــادى متين نتيجة تفوق جنوة وسيادتها التجارية فى الدولة البيزنطية بعد عام ١٢٦١ . واستمرت مستوطنة جالاطا فى ايدى الجنويـــة حتى اســـتيلاء العثمـــانيين على القسطنطينيـــة سنة ١٤٥٣ م ، انظر عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ص ١٢٢ — ١٢٥ .

البيزنطيون فى ميناء القسطنطينية مبلغ ٣٠ ألف Hyperpera فقط • وأصبحت المتحصلات المالية للدولة البيزنطية فى نهاية القرن الثالث عشر لا تتجاوز ١/٨ ايرادات الدولة فى عصر الأسرة الأيسورية فى القرن الثامن • وكان لهذا أثره حتى فى نفقات احتفالات البلاط البيزنطى، ففى حفل تتويج حنا السادس كنتاكيوزين سنة ١٣٤٧ م — على سبيل المثال — استبدلت بالأطباق الذهبية والفضية أطباق من الرصاص والفخار(٩٦) •

وكيفما كان الأمر ، فقد دخلت الدولة البيزنطية بعد سنة ١٣٥٤ م مرحلة الاحتضار والموت بعد مرحلة الانهيار والتدهور ، ففى الوقت الذى انهارت فيه الدولة البيزنطية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، كان عليها أن تتوقع خطر الأتراك العثمانيين الذين ورثوا عقيدة الجهاد من العرب الفاتحين ، وحملوا راية الجهاد الاسلامى ضد بيزنطة ليحققوا حلم المسلمين القديم منذ عصر صدر الاسلام الا وهو الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية •

(٩٦) Vryonis, Byzantium, p. 169.

المصـــادر والمراجـــع(١)

أولا ــ المصادر والمراجع الأوروبية :

Alföldi, A. :

'On the Foundation of Constantinople : A Few Notes', **The Journal of Roman Studies,** Vol. 37 (1947), pp. 10 — 16.

Anna Comnena :

The Alexiad of the Princess Anna Comnena, translated by Elizabeth A.S. Dawes, London, 1967.

Ashour S. and Rabie, H. :

Fifty Documents in Medieval History, Cairo 1971.

Baldwin, M.W. :

'Some Recent Interpretations of Pope Urban II's Eastern Policy', **Catholic Historical Review,** Vol. XXV (1940), pp. 459 — 66.

Baynes, N. :

Byzantine Studies and Other Essays, London, 1955.

Baynes, N., and Moss, L.B. :

Byzantium, London, 1969.

Brand, C.M. :

The Byzantines and Saladin, 1185 — 1192 . Opponents of the Third Crusade, **Speculum,** Vol. 37 (1962), pp. 167 — 181.

Bréhier, L. :

(i) 'Constantin et la Fondation de Constantinople', **Revue Historique,** Vol. CXIX (1915).

(ii) 'La Marine de Byzance du VIIIe au XIe Siècle', **Byzantion,** Vol. XIX (1949), pp. 1 — 16.

Brice, W.C. :

'The Turkish Colonization of Anatolia' **Bulletin of the John Rylands Library,** Vol. 38 (1955 — 56), pp. 18 — 44.

---

(١) التى ورد ذكرها فى حواشى الكتاب .

Brooks, E.:

'Arabic lists of the Byzantine Themes' **Journal of Hellenic Studies,** Vol. XXI (1901), pp. 67 — 77.

Bury, J.B. :

'Roman Emperors from Basil II to Isaac Komnênos', **English Historical Review,** Vol. IV (1889), pp. 41 — 64, 251 — 85.

Cahen, C. :

(i) 'La Campagne de Mantzikert d'après les Sources Musulmanes', **Byzantion,** Vol. IX (1934), pp. 613 — 42.

(ii) 'Les Grandes Lignes de l'Histoire de la pénétration Turque en Anatolie et en Syrie Pendant la Seconde Moitié du XIe siècle', **Actes du XXe Congrès International des Orientalistes,** Brussels, 1938.

(iii) 'L'alun avant Phocée', **Revue d'Histoire Economique et Sociale,** Vol. XII (1963), pp. 433 — 47.

(iv) Pre-Ottoman Turkey, English translation, London, 1968.

Cambridge Medieval History : See Hussey.

Canard, M. :

(i) Les Expéditions des Arabes Contre Constantinople dans l'Histoire et dans la légende', **Journal Asiatique,** Vol. 208 (1926), pp. 61 — 121.

(ii) 'Le Traité de 1218 entre Michel Paléologue et le Sultan Qalâ' un' **Byzantion,** Vol. X (1935), pp. 669 — 680.

(iii) 'Un Traité entre Byzance et l'Egypte au XIIIe siècle et les Relations Diplomatiques de Michel VIII Paléologue avec les sultans Mamlûks Baibars et Qalâ' un,**Mélanges Gaudefroy-Demombynes,** 1935 — 45). pp. 197 — 224.

(iv) 'Les Sources Arabes de l'Histoire Byzantine aux Confins des Xe et XIe Siècles', **Revue des Etudes Byzantines,** Vol. 19 (1961), pp. 284 — 313.

Charanis, p. :

(i) 'Internal Strife in Byzantium during the Fourteenth Century', **Byzantion,** Vol. XV (1940 — 41), pp. 208 — 30.

(ii) 'The Slavic Element in Byzantine Asia Minor in the Thirteenth Century', **Byzantion,** XVIII (1948), pp. 69 — 83.

(iii) 'Byzantium, the West and the Origin of the First Crusade', **Byzantion,** XIX (1949), pp. 17 — 36.

(iv) 'On the Social Structure and Economic Organization of the Byzantine Empire in the Thirteenth Century and Later', **Byzantinoslavica,** Vol. 12 (1951), pp. 94 — 153.

(v) 'Economic Factors in the decline of the Byzantine Empire', **Journal of Economic History,** Vol. 13 (1953), pp. 412 - 24.

Creswell, K.A.C. :
'The lawfulness of Painting in Early Islam', **Ars Islamica,** Vol. XI-XII 1946), pp. 159 — 166.

Daoud, D.A. ;
'Alexandria and the Early Church Councils', **Cahiers d'Alexandrie,** Série II (1964), pp. 51 — 65.

Diehl, Ch. :
Byzantium, Greatness and Decline, New Brunswick, New Jersey, 1957.

Ehrenkreutz, A. :
Saladin, State Univ. of New York Press, 1972.

El-Hajji, Abdurrahman Ali :
Andalusian Diplomatic Relations with western Europe During the Umayyad Period, (A.H. 138 — 366 / A.D. 755 — 976) Beriut, 1970.

Eusebius,
The Ecclesiastical History, London, 1926.

Fahmy, Aly Mohamed :
Muslim Sea — Power in the Eastern Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century A.D., Cairo, 1966.

Frye, R. :
'Remarks on Some New Islamic Sources of the Rus', **Byzantion,** XVIII (1948), pp. 119 — 125.

Gaudefroy — Demombynes :
Le Monde Musulman et Byzantin jusqu'aux Croisades, Paris, 1931.

Gibb, Hamilton A. :
'Arab — Byzantine Relations under the Umayyad Caliphate'. **Dumbarton Oaks Papers,** No. 12, Cambridge, Massachusetts, 1958, pp. 220 — 33.

Grégoire, H. :

'The Question of the Diversion of the Fourth Crusade',**Byzantion,** XV (1940 –41), pp. 158—66.

Grierson, p. :

'The Monetary Reforms of 'Abd al-Malik', **Journal of the Economic and Social History of the Orient,** Vol. 3 (1960), pp. 241 – 64.

Grumel, V. :

'Les Préliminaires du schisme de Michel Cérulaire ou la Question Romaine Avant 1054', **Revue des Etudes Byzantines,** Vol. X (1953), pp. 1 — 23.

Holt, P. :

'Qalawun's Treaty with Genoa in 1290', **Der Islam,** Band 57 Heft 1 (1980), pp. 101 – 108.

Hussey, Joan M. :

(i) The Byzantine World, 3rd edition, London, 1967.

(ii) The Cambridge Medieval History, Vol. IV, 2 parts, The Byzantine Empire, ed. by J.M. Hussey, Camb. Univ. Press 1966.

Jones, A.H.M. :

'Thoughts on the decline of the Roman Empire', **Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo Univ.,** Vol. XXIII, Part I (1961), pp. 9-18.

Joranson, Einar :

'The Problem of the Spurious letter of Emperor Alexius to the Count of Flanders', **American Historical Review,** Vol. 55 (1950), pp. 811 – 832.

Kantorowicz, E. :

Frederick the Second 1194 1250, London, 1931.

La Monte, J.L.

'To what extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Latin Crusading States', **Byzantion,** VII (1932), pp. 253 – 64.

Nichols, R.H. :

The Growth of the Christian Church, Philadelphia, 1941.

Ostrogorsky, G. :

(i) 'Sur la Pronoîa, A Propos de l'Article de M. Lascaris', **Byzantion**, XXII (1952), pp. 161 — 63.

(ii) Pour l'Histoire de la Féodalité Byzantine, Bruxelles, 1954.

(iii) History of the Byzantine State, tr. by Joan Hussey, Oxford, 1968.

Rabie, Hassanein:

The Financial System of Egypt A.H. 564 — 741 / A.D. 1169-1341, London, 1972.

Runciman, S. :

Byzantine Civilization, London, reprinted 1966.

Setton, K.M. (Editor) :

A History of the Crusades, 2 Vols., Univ. of Pennsylvania Press, 1958 — 62.

Stanley, A.P. :

Lectures on the History of the Eastern Church, London, 1908.

Stern, S.M. :

'An Embassy of the Byzantine Emperor to the Fatimid Caliph al-Mu'izz', **Byzantion,** XX (1950), pp. 239 — 58.

Thompson, J.W. and Johnson, E.N. :

An Introduction to Medieval Europe, New York, 1937.

Tout, T.F. :

The Empire and the Papacy, 918 — 1273, London, 1914.

Vasiliev, A.A. :

(i) 'The Foundation of the Empire of Trebizond (1204—1222), **Speculum,** Vol. XI (1936), pp. 3 — 37.

(ii) 'The Empire of Trebizond in History and Literature', **Byzantion,** XV (1940 — 41), pp. 316 — 26.

(iii) 'Notes on Some Episodes Concerning the Relations between the Arabs and the Byzantine Empire from the Fourth to the Sixth Century', **Dumbarton Oaks Papers,** nos. 9—10, (Cambridge, Mass., 1956), pp. 306 — 16.

(iv) 'The Iconoclastic Edict of the Caliph Yazid II, A.D. 721, **Dumbarton Oaks Papers**, nos. 9 — 10. (Cambridge-Mass 1956), pp. 24 — 47.

(v) History of the Byzantine Empire 324 — 1453, 2 vols, 3rd. edition Madison, 1961.

Vryonis, Speros, Jr. :

(i) 'The will of a Provincial Magnate, Eustathius Boilas (1059)', **Dumbarton Oaks Papers**, No. 11 (1957), pp. 263 — 77.

(ii) 'Byzantium : The social Basis of Decline in the Eleventh Century', **Greek, Roman and Byzantine Studies**, Vol. II (1959), pp. 159 — 175.

(iii) Byzantium and Europe, London, 1967.

(iv) The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from Eleventh through the Fifteenth Century, Berkeley Los Angeles, 1971.

Walker, P. :

'The Crusade of John Tzimisces in the light of New Arabic Evidence', **Byzantion**, XLVII (1977), pp. 301 — 27.

William of Tyre :

A History of Deeds Done Beyond the Sea, trans. and Annot. by Emily Babcock and A.C. Krey, 2 Vols., New York, 1943.

Wolff, Robert Lee :

(i) 'The Latin Empire of Constantinople and the Franciscans', **Traditio**, II (1944), pp. 213 — 37.

(ii) 'The Organization of the Latin Patriarchate of Constantinople, 1204 - 1261, **Traditio**, VI (1948), pp. 33 — 60.

(iii) 'Baldwin of Flanders and Hainaut, First Latin Emperor of Constantinople : His Life, Death, and Resurrection, 1172-1225, **Speculum**, XXVII (1952), pp. 281 — 322.

(iv) 'Mortgage and Redemption of an Emperor's Son : Castile and the Latin Empire of Constantinople', **Speculum'**, XXIX (1954),pp . 45 84.

ثانيا ـ المصادر العربية :

ابن الأثير (على بن محمد) :

الكامل فى التاريخ ، أجزاء ٦ ـ ١٠ ، ليدن ١٨٥١ ـ ١٨٧٦ م ٠

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله) :

رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، ١٩٦٤م ٠

ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ، القاهرة ١٩٢٩ م ٠

ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله) :

المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩ م ٠

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :

المقدمة ، الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، القاهرة ١٩٣٠ ٠

ابن رسته (أحمد بن عمر) :

الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١ ــ ١٨٩٢ م ٠

ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) :

فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ١٩٢٠ م ٠

ابن العديم (عمر بن أحمد) :

زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان ، جزءان ، دمشق ١٩٥١ ، ١٩٥٤ م ٠

ابن عذارى المراكشي :

كتاب البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة كولان وليفى بروفنسال ، الجزء الأول ، بيروت ١٩٤٨ ٠

ابن العمراني (محمد بن علي) :

الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائى ، ليدن ١٩٧٣ م ٠

ابن الفراء (الحسين بن محمد) :

كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٢ ٠

ابن الفقيه الهمدانى :
بغداد مدينة السلام ، مقدمة صالح أحمد العلى ، باريس ١٩٧٧ م ٠
ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة) :
ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق آمدروز ، بيروت ـ ليدن ١٩٠٨ م ٠
ابن هشـــام :
السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، الجزء الرابع . ط ٠ القــاهرة د٠ ت ٠
ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ٢ تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ ، ج ٤ تحقيق حسنين ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ ٠
أبو تمام الطائى :
ديوان الشاعر أبى تمام ، بيروت ١٨٨٩ م ٠
أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل) :
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ٢ ، القاهرة ١٢٨٨ هـ .
أبو العتاهيه (اسماعيل بن القاسم) :
ديوان أبى العتاهيه ، بيروت ١٩٦٤ م ٠
البـلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) :
كتاب فتوح البلدان ، نشـره صـلاح الدين المنجـد ، القـاهرة ١٩٥٦ م ٠
الجواليقى (موهوب بن أحمد) :
المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم ، تحقيق أحمـد محمد شـاكر ، القاهرة ١٩٦٩ م ٠
الدباغ (عبد الرحمن بن محمد الأنصارى) :
معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ومحمد ماضور ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٧٢ .
السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) :
حسـن المحاضرة فى تاريخ مصر والقـاهرة ، تحقيق محمـد أبو الفضل ابراهيم ، ج١ ، القاهرة ١٩٦٧ ٠

الطبرى (محمد بن جرير) :
تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى) ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم أجزاء ٣ ـ ١٠ ، القاهرة ١٩٦٩ ـ ١٩٧٦ ٠

عماد الدين الأصفهانى (محمد بن محمد) :
تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الفتح بن على البندارى ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٨ م ٠

قدامه بن جعفر :
نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ليدن ١٨٨٩ ٠

القلقشندى (أحمد بن على) :
صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، أجزاء ٦ ، ٧ ، ١٤ ، القاهرة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ٠

الكلاعى (سليمان بن موسى) :
الاكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفا ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ج٢ ، القاهرة ١٩٧٠ م ٠

المسعودى (على بن الحسين) :
التنبيه والاشراف ، القاهرة ، ١٩٣٨ م ٠

مسلم (الامام أبو الحسن مسلم النيسابورى) :
صحيح مسلم ، ج ٨ ، القاهرة ١٣٣٤ هـ ٠

المقرى (أحمد بن محمد التلمسانى) :
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس ، المجلد الأول ، بيروت ١٩٦٨ ٠

المقريزى (أحمد بن على) :
(أ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط) ، ج ١ ، القاهرة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٢ م ٠

(ب) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ ٠

(جـ) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ج ٢ ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٧١ ٠

الواقدى (محمد بن عمر) :

(أ) كتاب المغازى ، تحقيق مارسدن جونس ، ج٢ ، ج٣ ، القاهرة ــ لندن ١٩٦٦ م ٠

(ب) فتوح الشام ، جزءان ، القاهرة ١٣٥٢ هـ ٠

ثالثا ــ المراجع العربية والمترجمة :

ابراهيم أحمد العدوى :

(أ) الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، القاهرة ١٩٥١ م ٠

(ب) اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع الميلادى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الثانى (أكتوبر ١٩٥٠) ، ص ٥٣ ــ ٦٨ ٠

ابراهيم على طرخان :

(أ) الحركة اللايقونية فى الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٥٦ ،

(ب) تاكيتوس والشعوب الجرمانية ، القاهرة ١٩٥٩ ٠

(جـ) المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ ٠

أثناسيوس الرسولى :

رسائل أثناسيوس الرسولى عن الروح القدس ، تعريب القس مرقس داود ، القاهرة د٠ ت ٠

احسان عباس :

العرب فى صقلية ، القاهرة ١٩٥٩ ٠

أحمد توفيق المدنى :

المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، الجزائر ١٣٦٥ هـ ٠

أحمد تيمور :

التصوير عند العرب ، القاهرة ١٩٤٢ ٠

أحمد دراج :

عبد الرحمن الغافقى ، بطل بلاط الشهداء ، رسالة المسجد ، العدد الرابع (١٤٠١ هـ / ١٩٨١) ، ص ٨٠ ــ ٨٥ ٠

أحمد مختار العبادى :

فى تاريخ المغرب والأندلس ، الأسكندرية د٠ ت ٠

أرنولد (توماس) :
الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٠ ·

اسحق عبيد :
(أ) قصة عثور القديسة هيلانة على خشبة الصليب ، أسطورة أم واقع ؟ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٧ (١٩٧٠)، ص ٥ ـ ٢١ ·

(ب) الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة فى « مدينة الله » ، القاهرة ١٩٧٢ ·

(جـ) من آلارك الى جستنيان دراسة فى حوليات العصور المظلمة، القاهرة ١٩٧٧ م ·

(د) الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس ، بيروت د· ت ·

أسد رستم :
الروم ، جزءان ، بيروت ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ م ·

اسمت غنيم :
(أ) العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية وجزيرة كريت الاسلامية (٨٢٧ ـ ٩٦١ م / ٢١٢ ـ ٣٥٠ هـ) ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ١٩٧٣ ·

(ب) الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية ، القاهرة ١٩٧٨ ·

آماري (ميخائيل) :
المكتبة العربية الصقلية ، ليبسك ١٨٥٧ م ·

أنور عبد العليم :
الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، الكويت ١٩٧٩ م ·

أومان :
الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة مصطفى طه بدر ، القاهرة ١٩٥٣ م ·

الباز العريني (السيد) :
(أ) أجناد الروم ، القاهرة ١٩٥٦ ·
(ب) كتاب عن الحسبة فى بيزنطة أو كتاب والى المدينة ، مجلة

كلية الأداب بجامعة القاهرة ، المجلد ١٩ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٧ ، ص ١٣٥ ـ ١٨٧ ٠

(جـ) الدولة البيزنطية ٣٢٣ ـ ١٠٨١ م ، القاهرة ١٩٦٠ ٠

(د) المغــول ، بيروت ١٩٦٧ ٠

بتلــــر (الفـــرد) :

فتح العرب لمصـــر ، ترجمة محمد فريد ابو حديد ، القــاهرة ١٩٤٦ ٠

بروفنســـال (ليفى) :

الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز ســالم ومحمد صلاح الدين حلمى ، القاهرة ١٩٥٦ ٠

بـل (هـ ٠ آيــدرس) :

مصــر من الاســـكندر الأكبــر حتى الفتــح العربى ، ترجمـــة عبد اللطيف أحمد على ومحمد عواد حسين ، القاهرة ١٩٥٤ ٠

بيــنز (نورمــــان) :

الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوســف زايــد ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٧ ٠

جوزيف نســيم يوسف :

مجتمع الاسكندرية فى العصر المسيحى (حوالى ٤٨ ـ ٦٤٢) ، فى كتاب مجتمع الاسكندرية عبر العصور ، الاسكندرية ١٩٧٥ ٠

جيبـــون (ادوارد) :

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ٣ أجزاء ، ترجمة محمد على أبو دره ولويس اسكندر ومحمد سليم سالم ، القاهرة ١٩٦٩ ٠

حامد غنيم أبو سـعيد :

الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، ج ١ ، القاهرة ١٩٧١ ٠

حســـن حبشــى :

(أ) نور الدين والصليبيون ، القاهرة ١٩٤٨ ٠

(ب) الحرب الصليبية الأولى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ ٠

حسنين محمد ربيع :
جهاد صلاح الدين الأيوبى ضد الصليبيين ، رسالة المسجد ، العدد الرابع (١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م) ، ص ١٨٢ ـ ١٩٠ .

حسين مؤنس :
(أ) المسلمون فى حوض البحر الأبيض الى الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو ١٩٥١ ، ص ٤٥ ـ ١٧٤ .
(ب) معالم تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ١٩٨٠ .

ديفز (كارلس) :
شارلمان ، ترجمة السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٥٩ .

ديل (شارل) :
البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٧ .

رستوفتزف م . :
تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ، ج ١ (المتن) ترجمة زكى على ومحمد سليم سالم ، القاهرة ١٩٥٧ .

رنسيمان (ستيفن) :
الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦١ .

سعاد ماهر :
البحرية فى مصر الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٧ .

سعيد عاشور :
(أ) الحركة الصليبية ، جزءان ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦٣ .

(ب) المدنية الاسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية ، القاهرة ١٩٦٣ .

(جـ) العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦٥ .

(د) أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، الطبعة السادسة القاهرة ١٩٧٥ .

(هـ) بحوث ودراسات فى تـاريخ العصور الوسـطى ، بيروت ١٩٧٧ .

سـهيل زكار :

مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، الطبعة الثانية ، بيـروت ١٩٧٣ .

سيد أحمد الناصـرى :

(أ) تـاريخ الامبراطورية الرومانية السـياسى والحضـارى ، القاهرة ١٩٧٥ .

(ب) الاغريق ، تاريخهم وحضارتهم ، الطبعة الثانية ، القـاهرة ١٩٧٧ .

السيد عبد العزيز سالم :

المغرب الكبير (العصر الاسلامى) ، الاسكندرية ١٩٦٦ .

شـاكر مصطفى :

« دخول الترك الغز الى الشام » ، فى كتاب تاريخ بلاد الشام من القرن السادس الى القرن السابع عشـر (المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام) ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٣٠٣ ــ ٣٩٨ .

شـكرى فيصـل :

حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول ، بيروت ١٩٧٤ .

شنيدر (الفونس ماريا) :

قبور الصحابة فى القسطنطينية ، فى كتاب المنتقى من دراسـات المستشرقين لصلاح الدين المنجد ، ج ١ (القاهرة ١٩٥٥) ، ص ١٥٣ ــ ١٥٩ .

صـابر ديـاب :

سياسة الدولة الاسـلامية فى حوض البحر المتوسط من أوائـل القرن الثـانى الهجرى حتى نهاية العصر الفاطمى ، القـاهرة ١٩٧٣ .

عـادل زيتـون :

العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى . (بحث فى النشاط التجارى للجمهوريات الايطاليـة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ق ١٣ ــ ١٤ م) ، دمشق ١٩٨٠

عبد الجبار محمود السامرائى :
الرسائل التى بعث بهـا النبى صلى الله عليه وسـلم الى ملوك الدول المجاورة ، مجلة الفيصل ، العدد ٥٥ محرم ١٤٠٢ هـ / نوفمبر ١٩٨١ ، ص ٧١ ـ ٨١ ٠

عبد الرحمن فهمى :
(أ) النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٦٤ ٠
(ب) موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، ج ١ فجر السكة العربية ، القاهرة ١٩٦٥ ٠

عبد العزيز الخويطر :
الملك الظاهر بيبرس ، الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م ٠

عبد القادر أحمد اليوسف :
الامبراطورية البيزنطية ، بيروت ١٩٦٦ ٠

عبد المنعم مـاجد :
العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، بيـروت ١٩٦٦ ٠

عبد النعيم حسـنين :
دولة السلاجقة ، القاهرة ١٩٧٥ ٠

على الغمـراوى :
مدخل الى دراسة التاريخ الأوروبى الوسيط ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ ٠

عليـه الجنـزورى :
(أ) الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٩ ٠
(ب) الامبراطورة ايرين ، القاهرة ١٩٨١ ٠

عمر كمال توفيق :
(أ) مقدمات العدوان الصليبى ، الامبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية ، الاسكندرية ١٩٦٦ ٠
(ب) تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، الاسكندرية ١٩٦٧ ٠

عواد مجيد الأعظمى :
الأمير مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، بغداد ١٩٨٠ ٠

فازيليف :

العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيره ، القاهرة د.ت.

فتحى عثمان :

الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٦٦ .

فشر (هـ. ا. ل.) :

تاريخ اوروبا العصور الوسطى ، قسمان ، ترجمة محمد مصطفى زياده وآخرون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ .

فؤاد عبد المعطى الصياد :

المغول فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٠ .

كريستنسن (آرثر) :

ايران فى عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٧ .

كلارى (روبرت) :

فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٤ .

لويس (أرشيبالد) :

القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ .

محمد جمال الدين سرور :

(أ) دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، القاهرة ١٩٦٠ .

(ب) دراسات فى العلاقات السياسية بين دول الشرق الاسلامى والدولة البيزنطية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠ .

محمد حميد الله :

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩ .

محمد عبد الله عنان :

دولة الاسلام فى الاندلس ، العصر الأول ــ القسم الأول ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٦٩ .

محمد على الصابونى :

روائع البيان ، تفسير آيـات الأحكام من القرآن ، جزءان ، الطبعة الثالثة ، دمشق ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م

محمد ياسين الحموى :

تاريخ الاسطول العربى ، دمشق ١٩٤٥ ٠

محمود اسماعيل عبد الرازق :

الأغالبة (١٨٤ ـــ ٢٩٦ هـ) ، سياستهم الخارجيــة ، القاهرة ١٩٧٢ ٠

محمود شيت خطاب :

عقبة بن نافع الفهرى ، بيروت ١٩٧٢ ٠

موســى (ســانت) :

ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥ ـ ٨١٤ ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦٧ ٠

ميخائيــل عــواد :

المآصر فى بلاد الروم والاسلام ، بغداد ١٩٤٨ ٠

ميشــيل جرجس :

الكنيســة المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ ٠

نبيـلة مقـامى :

فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشــر والثالث عشر ، رســالة ماجســتير لم تنشر ، كليــة الآداب بجامعة القاهرة ١٩٧٥ ٠

نبيــه عاقــل :

الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ١٩٦٩ ٠

هارتمان (ل ٠ م) وباراكلاف (ج) :

الدولة والامبراطوريــة فى العصور الوسطى ، ترجمــة جوزيف نسيم يوسف ، الطبعة الثانية ، الاسكندرية ١٩٧٠ ٠

هســى (ج ٠ م ٠) :

العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، القاهرة ١٩٧٧ ٠

وسام عبد العزيز فرج :

العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى ، الاسكندرية ١٩٨١ ٠

وهيب عطا الله جرجس :

تعليم كنيسة الاسكندرية فيما يختص بطبيعة السيد المسـيح . القاهرة ١٩٦١ ٠

● ● ●

كشـــــاف

أولا ــ كشاف الأعلام والأمم والشعوب والقبائل .

ثانيا ــ كشاف البلدان والمدن والأماكن والبقاع .

ثالثا ــ كشاف المصطلحات .

أولا ـ كشاف الاعلام والامم والشعوب والقبائل

(ب)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(غ)

(ف)

(ن)

ثانيا – كشاف البلدان والمدن والأماكن والبقاع

(ب)

(ت)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

ثالثا – كشاف المصطلحات

(ن)

(هـ)

(و)

تصــويبات الأخطــاء المطبعيــة

افلتت اثنــاء مراجعــة تجــارب الكتــاب بعض الأخطــاء المطبعية التى لا تخفى على قارىء التاريخ :

الصفحة	السطر	الصيغة المراد اثباتها
٧١	٥	٦٣٦ م
١٣٥	١١	الأرمنى
١٤٠	١١	مد الخليفــة
١٧٢	١٣	وأصدر رومانوس الأول
١٨١	٢	الغزنويين
٢٢٤	١٧	للبندقيــة
٢٣٠	٢١	الأباطــرة
٢٣٥	١٦	تطلعت

رقم الايداع : ١٦٦٥/ ٨٤
الترقيم الدولى : ٧ — ٠٠٩٤ — ٠٤ — ٩٧٧

STUDIES

IN

THE HISTORY

OF

THE BYZANTINE STATE

BY

DR. HASSANEIN M. RABIE

Professor of Medieval History

Faculty of Arts, Univ. of Cairo

1983

Dar Al - Nahda Al - Arabiyya

32, Abd El Khaliq Tharwat st. , Cairo